

سلطنة عُمان
وزارة التراث القومي والثقافة

الخليج
بلدانه وقبائله

تأليف
س . ب . مايلز

ترجمة
محمد أمين عبدالله

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

المعلومات والآراء الواردة بهذا الكتاب على مسئولية المؤلف

ولا تتحمـــــل حكومة سلطنة عمان ازاءها اية مســـــئولية

مقدمـــــة

بقلم ج . ب . كيلى

تعتبر عمان كاليمن من تلك الأجزاء المجهولة من شبه جزيرة العرب ، والمؤلفات التى صدرت عنها قليلة تعد على أصابع اليد . ويتناول هـذا الكتاب الذى ألفه الكولونيل مايلز تحت عنوان « الخليج بلدانه وقبائله » تاريخ وجغرافية واثنوغرافية عمان . فقد عرف مايلز هـذه البلاد أكثر من أى أوربى آخر ، أو حتى الفترة الأخيرة كان مايلز أكثرهم معرفة بها . وعند صـدور هذا الكتاب فى سنة ١٩١٩ لم يعتبر حدثا ذا أهمية ومـع ذلك فلم يسبق أن ظهـر كتاب بنفس المستوى والأهمية عن عمان ، أو بالقياس إليه ، عن الخليج بوجـه عـام ، منـذ صـدور كتاب بادجر « سلاطين عمان وأئمتها » الذى صـدر عن دار هاكليوت سوسايتى (Hakluyt Society) فى سـنة ١٨٧١ . وكتاب بادجـر ترجمـة لكتاب آخر لا يرقى إلى مسـتوى كتاب مايلز . غير أنه على أية حـال هنـاك كتاب « دليل الخليج ــ عمان ووسط شبه الجزيرة العربية » وهو كتاب هام قام باعداده جى جى لوريمر وأصدرته حكومة الهند فى مجلدين احدهما تاريخى والآخر جغرافى وذلك فى عام ١٩٠٨ ، ثم أعيد طبعه عام ١٩١٥ . غير أن تداول هذا الكتاب الذى يعد أوسع نطاقا من كتاب مايلز ظل مقصورا على الرسميين البريطانيين لعدة أعوام ، ولم يتح للجمهور إلا فى الخمسينات من هذا القرن . وخلال هذه الفترة الفاصلة لم يظهر غير كتاب واحـد يمكن مقارنته بأهميـة ومستوى كتاب مايلز ، ونعنى به كتاب « تاريخ الخليج » تأليف أرنولد ويلسون وصـدر عام ١٩٢٨ ثم أعيد طبعـه عـام ١٩٥٤ ، وحتى يومنا هـذا فقد كان هذا الكتاب أحد أربعة كتب كانت متوفرة خارج نطاق المكتبات القليلة الكبرى أو بالنسبة للباحث السعيد الحظ فى بعض المكتبات الشرقية القليلة . وعلى أية حـال تبقى مؤلفات مايلز وبادجر ولوريمر وويلسـون المؤلفات الوحيدة التى تناولت

التاريخ الحديث للخليج ، كما أن أصحاب هذه الكتب هم المرجع الأوربى الوحيد فى هـذا المضمار ، وكان كل هؤلاء يخدمون فى سلك العمل السياسى والعسـكرى لحكومة الهند البريطانية ، وجميعهم تقلد مناصب من وقت لآخر فى الخليج ، كما أنهم جميعا قد قضوا نحبهم • ونحن لا نأمل أطلاقا أن يظهر جيل جديد من هذا النوع من الرجال •

ولد سمويل باريت مايلز مؤلف هذا الكتاب فى شـهر أكتوبر من عام ١٨٣٨ ، وهـو نجل الميجور جنرال ويليم مايلز الـذى عمل فى الفرقة المشـاة التاسعة فى بومباى وتلقى تعليمه فى جامعة هارو ، وفى عام ١٨٥٧ وهو عام الثورة التى اندلعت فى الهند التحق بالخدمة العسكرية التابعة لشركة الهند الشرقية برتبة ملازم فى البحريـة التابعة لفرقـة بومباى السابعة • وخلال السنوات التسع من عمله فى هذه الفرقة خدم مايلز فى مناطق عديدة فى الهند ــ أحمد أباد ، وبومباى ، وكولاجى ، ودو ــ وار ويونا ، ثم رقى إلى رتبة ملازم أول فى سبتمبر ١٨٦٤ ، وفى شهر نوفمبر ١٨٦٦ رأى مايلز لأول مرة شبه الجزيرة العربية عندما نقلت فرقته إلى عدن ثم بعد ذلك باثنى عشر شهرا ذاق لأول مرة طعم العمل السياسى عندما تم تعيينه نائبا للمقيم فى عدن وبقى فى هذا المنصب حتى شهر مارس ١٨٦٩ عندما استدعيت الفرقة السابعة إلى بومباى ، وبعد وقت قصير طلب مايلز نقله إلى السلك السياسى ، وفى عام ١٨٧١ عين مايلز قنصلا مساعدا فى مكران ، ثم بعد عام من ذلك فى شهر أكتوبر ١٨٧٢ نقل إلى مسقط ليتقلد منصب المعتمد السياسى والقنصل البريطانى فى عمان كما أنعم عليه برتبة رائد فى شهر مايو ١٨٧٣ •

قضى مايلز الشطر الأكبر من عمله السياسى فى مسـقط (عاصمة عمـان) وقـد مـد اقامته فيها من سنة ١٨٧٢ حتى سنة ١٨٨٠ أكثر من أى معتمد سياسى قبله بل وحتى بعده ، رغم أنه رشح أكثر من مرة للعمل فى مناطق أخرى ، وهكذا فابتداء من عام ١٨٧٩ حتى عام ١٨٨٠ ظل مايلز يشغل منصب المعتمد السياسى بالنيابة فى المناطق العربية الخاضعة

للاتراك ثم قنصـــلا عاما فى بغداد من سنة ١٨٨١ حتى سنة ١٨٨٢ ومعتمدا سياسيا وقنصلا فى زنجبار ، ثم معتمدا سياسيا فى منطقة الحـــدود الشمالية الغربية فى ســـنة ١٨٨٥ وأخـــيرا مقيما سياسيا بالنيابة فى الخليج فى سنة ١٨٨٦ • وبعد أن أنهى مايلز جولته فى عمان والخليج عاد إلى الهند حيث رقى إلى رتبة زعيم فى سنة ١٨٨٧ وعين مقيما سياسيا فى ميوار وبقى فى هذا المنصب حتى أواخر عام ١٨٩٣ ثم عاد إلى الادارة العســـكرية وغادرها إلى انجلترا فى أجازة احيل بعدها على التقاعد •

واذا كان تقيمنا لمـــايلز يتم على أساس هـــذا العمل الذى أبدعـــه بالرغم من الظروف القاسية التى واجهها أو من خلالها فإن هذا الكتاب « الخليج ــ بلدانه وقبائله » يقف شاهدا على ثبات مايلز وعلى نشاطه وسعة أفقه • فقد كانت أغلبية البريطانيين العاملين فى سلك الخدمة السياسية فى الهند ترفض العمل فى مسقط • فهى فى الصيف تعتبر من أحر المناطق ، كمـــا أنها مشهورة وحتى زمن قريب على الأقل برداءة المناخ وقد افتتحت أول ممثلية بريطانية فى عمان سنة ١٨٠٠ ابان الحرب ضد الثورة الفرنسية ثم أغلقت فى سنة ١٨٠٩ بعد أن أودى مناخها بحياة أربعة ممثلين بريطانيين على التوالى • وبعد ثلاثين سنة أعيد فتح الممثلية كوكالة سياسية فى أعقاب توغل القوات المصرية فى منطقة الساحل الشمالى للخليج كنتيجة لاستيلاء محمد على باشا على وسط وشرقى شبه الجزيرة • وأخذ يهدد الوجـــود البريطانى فى الخليج • غير أن المعتمد السياسى الذى تم تعيينه هناك سرعان ما نقل إلى زنجبار حيث كان سلطان عمان السيد سعيد بن سلطان يدير شئون السلطنة من هناك ، وظلت مسقط بلا وكالة سياسية فترة اثنتى عشرة سنة أخرى وعند انفصال زنجبار عن مسقط فى عام ١٨٦١ أعيد فتح الوكالة وزود المعتمد بصلاحيات قنصلية أيضـــا •

عند وصـــول مايلز إلى مسقط كانت عوامل تمزق السلطنة لاتزال تلوح فى الأفق فقد اغتيل سلطانها وخلفه نجله فى سنة ١٨٦٦ ثم خلع هذا

السلطان بعد عامين من الحكم من جانب أحد أعضاء الفرع الثانوى من أسرة البوسعيد .

وقد زاد الطين بلة تخلخل ميزان القوى فى الخليج كنتيجة للتوسع التركى فى المناطق الشرقية من شبه الجزيرة — من الكويت حتى قطر فى سنة ١٨٧١ .

كانت هذه هى طبيعة الظروف التى واجهت مايلز فى عام ١٨٧٢ وترتب عليه أن يتعامل معها طوال الأعوام التى أعقبت وصوله . وعلى أية حال فقد مارس مايلز مهمته بذكاء ونجاح ليس فى تمكين حكومة الهند البريطانية من التغلب على تلك المرحلة الصعبة فى علاقاتها مع السلطنة وبدون مشقة فحسب ، بل وفى الاسهام فى تحقيق الاستقرار للأحوال المضطربة فى عمان .

غير أن فضوله الفطرى قد دفعه إلى التعرف على أحوال المنطقة الداخلية من عمان والحرص على جمع معلومات دقيقة عن تلك المنطقة وعن أهلها ، وذلك لكى يتيح لحكومة الهند أن تتعامل بكياسة مع الأحداث السياسية فى البلاد . كما قام مايلز برحلات استكشافية عديدة إلى داخلية عمان :

« عمان بلد صحراوى ولكنه جميل أيضا ، رغم أن جماله هذا يكتسى طابعا حادا قد لايظهر بسهولة . وتشق عمان سلاسل جبلية عظيمة تسمى الحجر تبدأ من روس الجبال عند مدخل الخليج فى الشمال حتى أقصى الحدود الشرقية من عمان أى رأس الحد الواقع على البحر العربى وتتوسط السلسلة هذه مجموعة من القمم يبلغ ارتفاعها ١٢٫٠٠٠ قدم تسمى بالجبل الأخضر ولعلها اكتسبت تلك التسمية من الوديان الخصبة التى تجرى فوق قممها القاحلة » .

ان أول أوربيين يتوغلان داخل عمان ويضعان قدميهما على الجبل

الأخضر هما الفتنانت جى • آر • ويلستد (J. R. Wellsted) وللفتنات هوايتلوك (F. Whitelock) من الأسطول الهندى وقد قاما برحلة خطيرة عبر عمـــان كلها بدآها من جنوبها الشرقى حتى شمالها الغربى وذلك فى سنة ١٨٣٥ / ١٨٣٦ [١] • ثم بعد عامين من تلك الرحلة جاء دور عالم النبـــــات الفـــرنسى بيـــير مارتـــن أو شرالوى (Pierre Martin) فقد وصل هذا الفرنسى إلى وادى سمايل وهو الممـــر الذى يشطر جبال الحجر شـــطرين ، ومنها واصل رحلته إلى نزوى العاصمة القديمة لعمان على الجانب الداخلى من سلسلة الجبال ومنها صعد إلى الجبل الأخضر •

أمـــا الكابتن اتكنس همرتون (Capt. Atkins Hamerton) مـــن الجيش الهندى فهـــو أول أوربى يدخل المنطقة الشمالية من عمان وذلك فى شهر فبراير سنة ١٨٤٠ [٢] • وقد بدأ همرتون رحلته من الشارقة ومنها توجه إلى واحة البريمى التى تبعد مائة ميل أو أكثر إلى الداخـــل ، وتعد هذه الواحـــة المدخل الاستراتيجى إلى عمان وتسيطر على مداخل البلاد من وســـط شبه الجزيرة وشرقها عبر منطقة مـــن الرمال والمنحدرات • وكان الدافع وراء رحلة همرتون ماتوارد من أنباء عن احتمال تحـــرك القوات المصرية المرابطة فى شرقى شبه الجزيرة إلى البريمى تمهيدا لشن هجوم منها على عمان ، كمـــا كان هذا التخـــوف وراء قرار الحكومـــة البريطانية باعادة فتح الوكالة السياسية فى مسقط وتعيين همرتون معتمداً سياسيا فى أواخر سنة ١٨٤٠ • دخل همرتون إلى البريمى من الشـــارقة وبعد أن قام بفحص دفاعاتها اتجه شرقا عبر وادى الجزى •

وفى نهاية عام ١٨٤٥ توجه اللفتنانت سى • إس دى كول من الأسطول

---

(١) رحـــلات فى شبه الجزيرة العربية (مجلدان) طبعة لنـــدن ١٨٣٨ وملاحظات عن رحلة الى عمان عبر الساحل الشرقى لشبه الجزيرة (مـــن منشورات جمعية بومباى الجغرافية) .

(٢) انطباعات رحلات فى أقطار المشرق عام ١٨٣٨ (مجلدان) طبعة باريس ١٨٤٣ .

الهنـدى وقائد سفينة المسـح بالينيروس (Palinurus) المكلفة بمسـح السـاحل الجنوبى لشبه الجزيرة إلى وسط عمان الداخلية مرورا بالأشخرة على ساحل جعلان ، وسلك نفس الطريق الذى سلكه ويلستد عبر وادى البطحـا إلى البدية ومنهـا الى نزوى ، ومن نزوى قام بزيارة قصيرة للجبل الأخضر ثم عاد إلى مسقط عبر وادى سمايل[١] .

وعلى امتداد عشرة أعوام من ١٨٣٢ إلى ١٨٤٥ قـام خمسة مـن الأوربيين باكتشـاف المناطق الداخلية من عمان ثم انقضت ثلاثون عاما قبل أن يقوم أوربى آخر هـو مايلز (مؤلف الكتاب) بوضع قدميه فى المنطقة الداخلية من عمان (٣) وباستثناء رحلات مايلز إلى قلهات علـى الساحل الشرقى لعمان فى سنة ١٨٧٤ ثم رحلته إلى الأشخرة على الساحل الجنوبى حيث قاتلت فرقته العسكرية فى ١٨٢٠ / ١٨٢١ ، تعتبر رحلته إلى واحة البريمى فى سنة ١٨٧٥ أول رحلة له الى هذه المنطقة . وفى هذه الرحلة سلك مايلز نفس الطريق التى سلكها همرتون فى عام ١٨٤٠ ونعنى بها طريق صحار ومنها إلى الظاهرة عن طريق وادى الجزى . والظاهرة هى المنطقة الواقعة فى الجزء الداخلى من سلسلة جبال الحجر . وقبل ستة أعوام تقريبا من زيارة مايلز للحامية فى البريمى كان الوهابيون قد انسحبوا منها للمرة الخامسة خلال خمسين عاما .

وعند وصول مايلز إلى البريمى وجدها هادئة نسبيا بالرغم من أن أهميتها الجغرافية والاستراتيجية كانت توحى بأنها قد تكون ميدانا للصراع من وقت إلى آخر .

وابتداء من سنة ١٨٧٥ قطع مايلز مئات الأميال متنقلا فى أرجاء عمان من ساحل الباطنة حتى الجبل الأخضر حتى ظفار فى أقصى الأقاليم العمانية . ولمـا كانت تنقلات مايلز فى هذه المنطقة لاتصل إلى مستوى وجرأة رحلات

---

(١) للاطلاع على تقرير همرتون راجع مقتطفات من سجلات حكومـة بومباى .

ويلستد وهواتيلوك قبل أربعين سنة ، إلا أن المعلومات التى خرج بها مايلز كانت تفوق فى قيمتها رحلات هواتيلوك وويلستد • فلقد كان مايلز دقيق الملاحظة واستاذا كلاسيكيا بارعا ومستشرقا ودارسا متحمسا للتاريخ القديم ، وقد تجلت مواهبه هذه وبصورة ايجابية فى المعلومات التى جمعها من الوثائق التى قدمها إلى الجمعيات العلمية أثناء حياته[١] ، وكان مايلز يركز اهتمامه على التنقيب فى تاريخ عمان الوسيط ومطلع العصر الحديث فقام بأعمال بحث واسعة سواء أثناء عمله كمعتمد سياسى فى مسقط أو بنوع أخص بعد احالته إلى التقاعد فى مؤلفات الكتاب الأوربيين والشرقيين عن هذه البلاد •

ولعل الذى حفز مايلز إلى تأليف كتابه هو عدم اقتناعه بكتاب جى • بى • بادجر • وكان بادجر قد ترجم كتابا تاريخيا ألفه أحد العمانيين ويدعى حمد بن محمد بن رزيق الملقب بابن رزيق وكتب له مقدمة • ويحكى هذا الكتاب تاريخ عمان منذ نشوء المستوطنات الأولى حتى وفاة السيد سعيد الكبير فى سنة ١٨٥٦ ، وقد حصل بادجر على مخطوطة الكتاب فى سنة ١٨٦٠ كهدية من السيد ثوينى نجل وخليفة السيد سعيد أثناء وجود بادجر فى السلطنة كعضو فى لجنة تقصى الحقائق التى شكلها اللورد كاننج نائب الملك فى الهند لتسوية الخلاف الذى نشأ بين نجلى السيد سعيد حول خلافة الحكم بعد وفاته • وكان مايلز قد اطلع على مخطوطة تاريخية أخرى بعنوان « كشف الغمة » ألفها الشيخ سرحان بن سعيد من سكان ازكى فى عمان فى حوالى سنة ١٧٢٨ • وقد لاحظ التشابه الغريب بين المخطوطين الكولونيل أى • سى • روس (السير ادوارد روسى فيما بعد) والذى

---

(١) ملخص لأربع كتب عربية تتناول تاريخ وجغرافية شبه الجزيرة (مجلة الجمعية الآسيوية الملكية مجلد ٦ سنة ١٨٧٣) فى الطريق بين صحار والبريمى فى عمان » (مجلة جمعية البنغال الآسيوية) (١٨٧٧) ملاحظات بلينى عن الساحل الشرقى لشبه الجزيرة (١٨٧٨) مذكرات رحلة فى عمان المجلة الجغرافية مجلد ٧ (١٨٧٨) الجبل الأخضر فى عمان المجلة الجغرافية المجلد ١٨ (١٩٠١) •

شغل منصب المعتمد السياسى فى مسقط فى بداية السبعينات من القرن التاسع عشر ثم عين مقيما سياسيا لبريطانيا فى الخليج (كرئيس لمايلز) وفى سنة ١٨٧٠ نشر روس ترجمة لكتاب « كشف الغمة » فى مجلة الجمعية الآسيوية لاقليم البنغال (مجلد ١٤) ذيلها بهذا التعليق : « لقد توصلت إلى نتيجة هامة وهى أن ابن رزيق قد نقل نقلا حرفيا مادة الأجزاء الأولى من كتابه من كتاب « كشف الغمة » وعلى أية حال وكما يحدث أحيانا كان المؤلف يخرج عن النص ، كما أن مسار الأحداث فى كتاب ابن رزيق يطغى عليه الارتباك ، وان كثيرا من الملاحظات التى لم ترد فى النص الأول أوردها هو » .

وقد جاء مايلز فأيد رأى روس . وعندما تطرق مايلز إلى تاريخ عمان حتى القرن الثامن عشر (وهذا يشكل الجزء الأكبر من كتابه) أدرج فيه كثيرا من المعلومات الواردة فى « كشف الغمة » . وعلى أية حال فلا يصح أن نستنتج من ذلك أن مايلز أو روس كانا أكثر تضلعا بالتاريخ العربى من بادجر أو أن بادجر لم يحالفه الصواب لاعتماده اعتمادا كليا على مخطوطة ابن رزيق ، وانما على العكس من ذلك تعد ترجمة بادجر للكتاب ذات أهمية كبيرة لا تقل عن تعليقاته وتذييلاته على الترجمة . وقد استعان مايلز بكل هذه المعلومات فى تناوله لتاريخ أسرة البوسعيد فى الفصل الخامس من الكتاب .

بقية الفصول تناولت وصف التركيبات القبلية والجغرافية لعمان وبدرجة أقل تفاصيل رحلات مايلز نفسه . وعلى الرغم من أن المعلومات التى يضمها الكتاب على جانب كبير من الأهمية بالنسبة إلى مضمون الكتاب ومستواه ، إلا أنها لاتسجل لمايلز نجاحا كاملا فى هذا الميدان . فمعظم معلومات الكتاب ، وبالأخص فيما يتعلق بأسرة البوسعيد ، سبق لمايلز أن

قدمها فى صـــورة تقارير دوريه إلى حكومة الهند ، وهى التقارير [١] التى كانت كل من الوكالة البريطانية فى مسقط والممثلية البريطانية فى الخليج تزود بها حكومـــة الهند ، وهى تضم معلومات أكثر تفصيلا مما جـــاء فى الكتاب • كما أن تقارير مايلز التى كان يبعث بها من مسقط فى السبعينات من القرن التاسع عشر تضم جانبا كبيرا من المعلومات الدقيقة مما كان حريا بمايلز أن يدرجها فى هـــذه الدراســـة • ولكن القـــول بهـــذا هو من قبيل طلب الكمال • والكتب التى عن عمـــان أو الخليج قليلة جـــدا ، ولكن هـــذا الكتاب من أحسنها •

بيد أن لكل عمل عيوبه ، فإن كلا من عنوان الكتاب وبعض عناوين الفصـــول تكاد تشى بذلك الثوب الفضفاض الذى أسدله المؤلف على كتابه وتجاوز به المضمـــون الفعلى للكتاب ، غـــير أن التلاعب بالمعلومات كان سيؤدى بالمؤلف إلى تحويل الكتاب عن الهدف المنشـــود •

•

أما مايلز فقد كان يفضـــل طبعا لو خرج كتابه فى صـــورة أفضل مما هى عليه ، غير أنه فى السنوات الأخيرة من حياته استحال عليه العمل بعد أن تدهورت صحته وأصيب بالعمى وتوفى فى ٢٨ أغسطس ١٩١٤ ، ثم بعد ثلاث سنوات من وفاته أى فى ١٩ يوليو ١٩١٧ لقى ابنه الماجور مايلز مصرعه وهو على متن الطراد فانجارد (Vangnard) وقد طبـــع هـــذا الكتاب بعد الحرب العالمية بطلب من أرملته التى حرصت على أن يكون هناك انجازا تذكاريا لزوجها الراحل ، وانه لجميل أن تكون أرملته قـــد فعلت ذلك وان كتابه قد ظهر إلى حيز الوجود •

---

(١) « راجع تقرير عن موارد وتجارة عمان » (التقرير الادارى ١٨٦٧ — ١٨٧٧) . « ملاحظات عن قبائل عمـــان » القرير الادارى ١٨٨٠ — ١٨٨١ « نبذة عن حياة السيد سعيد بن سلطان » — التقرير الادارى ١٨٨٣ — ١٨٨٤ « البرتغاليون فى شبه الجزيرة » التقرير الادارى ١٨٨٤ — ١٨٨٥ « ملاحظات عن رحلة عبر عمان والظاهرة التقرير الادارى ١٨٨٥ — ١٨٨٦ « نبذة عن حياة السيد سلطان بن الامام أحمد » التقرير الادارى ١٨٨٧ — ١٨٨٨ .

الفصل الأول

الاستيطان فى شبه الجزيرة العربية

من الطبيعى أن يقترن تاريخ السكان الأوائل الذين استوطنوا عمان اقترانا وثيقا بتاريخ بقية سكان شبه الجزيرة العربية ، غير أن معلوماتنا عن هذا الموضوع يكتنفها كثير من الغموض نظرا لقلة المعلومات التاريخية عنه • والمعلومة الوحيدة التى يعتد بها عن أولئك السكان • إذا استثنينا « سفر التكوين » ، هى مجموعة الوثائق والآثار المصرية والعراقية ، التى تلقى بعض الضوء على هذا التاريخ ، وعلى أى حال فإن موضوع أصل أولئك السكان الأوائل ليست فى حد ذاتها مثيرة للاهتمام بقدر ما يثيره دورهم فى مجال تطوير الحضارة وإثرائها ، من خلال ربط الشرق والغرب بعلاقات تجارية ، وهو الدور الذى ساهم فيه العمانيون بالقسط الوافر •

ومن الواضح أن أول الشعوب التى انتشرت واستقرت فى أرض شبه الجزيرة العربية ، هم الكوشيون ، الذين ذكرهم الانجيل ، ولكن المعلومات عن أصل هذا الشعب تفتقر إلى التأكيد ، وان كان من المعتقد أنهم مصريون • ونتيجة لذلك فإنه لابد من الاعتماد على التكهن والتخمين فى تحديد الحقبة أو الفترة التاريخية التى عاش فيها هؤلاء القوم ، ورغم ذلك فإننا لا نستطيع أن نقلل من النتائج الهامة التى تمخضت عن استيطانهم فى المنطقة ، وبالتالى فإن الفضل فى تلك المغامرات الشجاعة التى قام بها أولئك الأقوام لا فى مجال إدخال تجارة القوافل وحسب ، بل وفى المحاولات الأولية للملاحة والتجارة البحرية فى البحر العربى انما يعود اليهم ، وسوف نعود فى الفصول القادمة من الكتاب إلى مناقشة تلك الآراء التى تؤيد الرأى القائل بأن الفضل فى المحاولات الملاحية يعود إلى الكوشيين •

وعلى الرغم من أن الأجناس الحامية التى انتشرت فى الانحاء الشرقية والجنوبية من شبه الجزيرة العربية وأقامت أكثرية المستوطنات على امتداد سواحلها ليست هى الجنس الوحيد الذى استوطن ذلك الجـزء من العالم فى تلك الحقبة المبكرة من التاريخ ، وإنما كان هناك الفينيقيون ، وقد جاءوا كما يقـول هيرودتس إلى فلسطين من الخليج ، وانهم على مايبدو قـد عاشوا فترة من الزمن فى عمان خلال هجراتهم الأولى إلى المنطقة .

وعلى سبيل المثال يوجد على ساحل البحر الأبيض المتوسط ميناء يسمى صـور ، على اسم ميناء صـور الساحلى ، الذى يقع على الساحل العمانى قريبـا من رأس الحـد . وأمـا بلدة صـور نفسها ، والتى يسمى أحد أجزائها بالعويجة ، فإنها تقع على بروز صخرى أمام مدخل لخليج متعرج ، وتعتبر أصلح المرافىء وأكثرها أمانا واستيعابا للمراكب المحليـة .

وعلى الرغم مما حققه سكان عمان من الأحباش من مشروعات تجارية ، إلا أنهم أخذوا يضمحلون تدريجيا عبر العصـور ، ثم أنهم فى النهاية استهدفوا لغزو عارم من الساميين الذين وفدوا من شبه الجزيرة ، وتمكنوا من طرد الأحباش وامتصاص بعضهم ، وهذه الموجـة المبكرة من القبائل السامية كمـا يقول المؤرخـون العرب نقـلا عن كتاب « كوسيين دى برسيغال » يعرفون بالعرب البائدة أو العاربة غير أنهم انقرضوا فيما بعد .

وهـذه القبائل التى تبعثرت ، ثم استوطنت شبه الجزيرة العربية تنحدر من سلالتين ، وقد تفرعت من الجيلين الرابع والخامس من جدهم سـام ، فكان أحـد الفرعين فرع قحطان بن عـابر الـذى استوطن اليمن ، أو النصف الجنوبى من شبه جزيرة العرب ، والثانى هو عدنان الـذى ينحـدر من اسماعيل ، واستوطن النصف الشمـالى من شـبه الجزيرة ، وقد بقيت ذرية الأخـير حتى يومنا هـذا . ومن هذين الفرعين للجـدين قحطان وعدنان ينتمى الجنس الـذى يستوطن أرض شـبه الجزيرة العربيـة .

وفى الفصل العاشر من « سفر التكوين » نقرأ أن قحطان قد ترك ثلاثة عشر ولدا ، استوطنوا سلسلة الجبال الواقعة فى الشرق • ولعل الصلة بين لفظتى جوكتان وقحطان ، التى هى عربية الأصل تقطع جميع الأدلة بصحتها ، وبالتالى فإن السلالة من ثلاثة عشر فرعا أو قبيلة هى التى استمرت فى استيطان النصف الجنوبى من شبه الجزيرة العربية بصفة مستمرة •

ولقد حفلت الكتب التاريخية بمعلومات وفيرة عن توزيع تلك القبائل غير أن النذر اليسير من تلك المعلومات هو الذى أمكن تتبعه بشكل أكيد ، وهناك شبه تأكيد عن ثلاثة من تلك الفروع القبلية ونعنى بها الحضارمة ، وجذام وشيبان ، أما مرة وحضارم فربما تعنى يعرب وجرهم ، أما فرع همدان فقد تكون الخولان وهى التى تقطن منطقة معروفة جدا فى اليمن •

أما اسم عوبال أو وبال الذى يرمز إلى احدى القبائل القديمة فلا يزال على ما يبدو قائما فى عمان ، بينما توجد أيضا قرية بهذا الاسم فى وادى بنى رواحه بعمان ، وقد أطلق علماء السلالات العرب أسماء مختلفة على أبناء قحطان ، كما أنهم يختلفون عن بعضهم البعض فى تحديد تلك الأسماء ، وقد نكتفى بسرد بعضها ، وفقا لرأى المؤلف كريمر ، وعددها ستة عشر اسما هى يعرب ، وقحطان ، أنمار ، معد ، لؤى ، ومينا وجرهم وسلمة وغوث ، وظافر • غير أنه لابد لنا من العودة إلى المؤرخين العرب للتأكد من الآراء الأصح فى هذا الشأن ، ففيما يختص بالانسان والسلالات فلقد بذل المؤرخون العرب جهودا مضنية للوصول إلى معلومات دقيقة عن تلك الأنساب والسلالات منذ أقدم عصورها ، ومن ثم فليس من المستغرب أن يكون المؤرخون العرب قد تفوقوا على غيرهم من المؤرخين فى هذا المضمار ، كما أننا إذا وضعنا فى

الاعتبار ما يمكن أن يكتنف هذا العمل من صعوبات ، فإننا لا نستغرب أن تتضمن تلك المعلومات الكثير من الأخطاء والتناقضات ، غير أنها بوجه عام تعد عملا موثوقا به ومقبولا عند الناس ، على الرغم من أن تاريخ تلك الفترة لم يدون أو يوثق من جانب المؤرخين العـرب إلا بعد وفاة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم •

ان أقـدم الجماعات التى استوطنت شبه الجزيرة العربيـة ، كمـا يقول علماء السلالات ، هم الذين يسمـون بالعاربة أو القبائل المنقرضة وقـد سرد المؤرخـون عددا كبيرا من هذه القبائل وأفاضـوا فى التحدث عن مغامراتهم وهجراتهم وأسباب انقراضهم ، ولعل أعظم تلك القبائل شهرة همـا قبيلتا عاد وثمود ، التى تقـول عنهما الروايات أنهم قـوم ضخام الأجسـام ، ثم طسم وجديس شقيقتا ثمود وعاد ، بالإضافة إلى قبائل أخرى تنسل منها قبائل متولدة ولها وجـود فى عمان •

أمـا القبائل التى انحدرت من طسم وجديس اللذين نزحا إلى عمان واستوطنا على مايبدو منطقة الجـو وتوام ، ثـم أطلقـوا على هاتين المنطقتين أسمـاء المناطق التى نزحوا منها فى موطنهم الأصلى ــ اليمامة • ويذكر وستنفيلد (Westenfield) أن صحـار هو اسم أحـد أبنـاء نوح عليه السـلام ، وقد احتلت قبيلة صحـار منطقة الباطنة فى عمـان وأطلقت هـذا الاسم على نفسها كمـا أن قبيلة جشم هى من سـلالة اللمكات ويقال بأنها استوطنت عمـان أيضـا ، حيث لايزال أحفـاد هذه القبيلة يعيشون فى عمـان حتى اليوم ولكن بأسمـاء أخرى ، أما ثمود فقد كانوا آخر العنقود من قبائل العاربة إذ أنهم عاشـوا حتى عهـد السـيد المسيح ، على حـد رأى كل من سترابو وديود وريس وغيرهم من المؤرخين القدماء •

ومن بين القبائل التى استوطنت عمـان قديمـا ثم انقرضت بعض القبائل الهامة التى ساهمت فى عمليات الاستيطان والتى تفرع أحفادها

الذين ينتمون إلى أصـــول مشتركة وإلى تقسيمات قبلية أخرى بأسماء جديدة • وقد يكون من المناسب أن نشـــير إلى بعض تلك القبائل التى ذاع صيتها فى وقت من الأوقات ولكن تاريخها ظل يكتنفه الغموض •

ان الأزد الذين يشكلون جانبا كبيرا من ســـكان عمان المعاصرين أصلهم مجهول ، فالبعض يرجعه إلى الجـــد قحطان ، والبعض يرجعـــه إلى الغـــوث بن نبت بن مالك ، وقـــد انقسمت هذه القبائل إلى ثلاثـــة فروع : (١)أزد شـــنؤة ، (٢) أزد السراة ، (٣) وأزد عمـــان ، ثم تفرعوا فيما بعـــد إلى تسعة فروع أخـــرى هى غســـان ، الأوس والخزرج ، وابن حضرم ، وبريك ، ودوس ، وعتيق ، ويافع ، وبنى الجلندى ، ثم من هؤلاء أيضـــا تفرع أيضـــا عدد من القبائل اتخذت لنفسها ألقابا أخرى كمـــا أن قبيلة مازن ، والتى استمدت منها شبه الجزيرة العربيـــة اسم مزون لبضعـــة قرون ، كانت من القبائل المشهـــورة فى مزاولة الملاحـــة وارتياد البحار وهى تنحـــدر من مازن بن أزد ، ويرى سبونجر أن الملاح العربى الـــذى اكتشف رأس مسندم أثنـــاء الرحلـــة ينتمى إلى تلك القبيلة ، وفى القاموس ، أن قبيلة مـــازن هى من جنوب الجزيرة العربية ، وأن أفرادها من الأزد ، ثم انضموا بعـــد ذلك بزمن طويل إلى الغساسنة ، وكان المازنيون يؤلفون أربعـــة تقسيمات قبلية ويبدو أنهم استقروا فى الشمـــال أو رأس مسندم ، ثم حـــل محلهم هناك فيما بعد الشحوح وهى احـــدى القبائل الصغيرة •

وتعتبر قبيلة القمر احـــدى القبائل الهامـــة التى استوطنت جنوب شبه الجزيرة منذ عهـــود بعيدة ، وأنها أطلقت اسمها هذا على خـــور القمر ، وبنوريام سكان الجبل الأخضر فى عمـــان ، وكذلك قبيلة بنى حديد ، وغيرها من القبائل تنتمى إلى قبيلة القمـــر ، أما بنى قدعة فقد كانت من القبائل الهامـــة وتمتد مواطنها على طول الســـاحل الجنوبى من شـــبه الجزيرة العربيـــة من اليمن حتى الخليج وقد أفرزت هذه القبيلة عددا من الفروع ، ويعتقد بعض علماء السلالات أن هـــذه القبيلة تعـــود فى

أصلها إلى مالك بن حمزة ، غير أنه من الجائز أن تكـون هذه القبيلة من القبائل القديمة جـدا ، وأنه من المحتمل أن تكـون هناك مدافن لهـذه القبيلة فى منطقة الشحر . وقد سمى البطالسة هذه القبيلة (باسم القصابين) ولا تزال توجـد فروع لهـذه القبيلة فى عمان إلى اليـوم .

وهناك أسمـاء كثيرة أخرى لقبائل هامة ذات حول وطول ، تحدثنا عنها الروايات . وأن بعضها قد ترك بصماته فى المناطق التى أقاموا فيها كأسمـاء الأودية والمـدن والقرى ، وكان من عادة العمانيين أن يطلقوا أسماءهم وألقابهم على المدن والمناطق والقرى التى يستوطنونها .

ومن بين تلك القبائل أيضـا قبيلة العق ، وكانت قبيلة مشهورة ، وإن كان أصلها مجهولا ، وقد استوطن أفرادها اليمن وشاركهم الأزد فى ذلك بعد انهيار سـد مأرب ، ويوجد فى عمان وادى باسم هذه القبيلة يقع على بعد نحو خمسين ميلا فقط عن العاصمـة ، مسقط .

وقبيلة البهلانى وهى قبيلة قديمـة مجهولة الأصل وهذه القبيلة هى التى أسست البلدة التى تعرف باسمها وتقع فى قلب عمـان .

وقبيلـة دبا ، وهى قبيلـة من نجـد ، ولعلها نفس القبيلة التى أنشـأت البلدة التى تسمى باسمها ، وتقع فى منطقـة رأس مسندم ، وهى المنطقة التى نشبت فيها إحـدى المعارك الفاصلة فى العام الحـادى عشر بعد الهجرة (٦٣٢ م) .

وقبيلة جعـلان ، وهى قبيـلة تنحـدر من عبد قيس ، الذى كان من علمـاء اللاهوت القدماء فى البلاد العربيـة ، وقـد استوطنت قبيلـة جعلان المنطقة المعروفة الآن باسمها ، والواقعة فى الشرقية .

ويحدثنا « كوسين دى بيرسيفال » فى بحث لـه ، بأن يعرب الـذى ينتسب إلى قحطان قد استطاع أن يفرض سلطانه المطلق على قبيلته فى

كافة جنوب شبه الجزيرة . وبعد انهيار حكم الأزد ، واستطاع أن يركز نفوذه عن طريق تعيين سبئيه جرعم حاكما على الحجاز وشقيقيه الآخرين على المناطق التى تسمى باسميهما . ويقرر هذا المؤرخ بأن هذه الواقعة التى تمت فى عام ٧٥٤ قبل الميلاد ذات دلالة خاصة • إذ أنها توافق قيام وتأسيس مملكة روما ، وإذا سلمنا بهذا الرأى فإن ذلك يعنى أن قبيلة عمان قد نزحت إلى شرقى شبه الجزيرة فى نفس ذلك العام ، وعلى كل فإن تحديد عام ٧٩٤ كتاريخ لميلاد يعرب من قبل المؤلف ، والذى يعتبره المؤلف شقيقا لحضرموت لابن الثالث لقحطان ، أو أنه فى الفترة الواقعة قبل الميلاد بألفى عام • ومن ناحية أخرى فلو سلمنا بأن عمان هو شقيق حضرموت فإن عدم ورود اسمه بين أسماء أبناء قحطان فى الفصل العاشر من « سفر التكوين » يعتبر أمرا غريبا • وعلى أية حال فأيا كانت الفترة التى عاش فيها يعرب فمن المحتمل اذن أن تكون هجرة العمانيين قد تمت على نطاق واسع بحيث أنهم عند وصولهم إلى تلك البلاد استطاعوا فرض سيطرتهم على المناطق الرئيسية ، بل والمناطق الانتاجية ، والتى تعرف حتى الآن بعمان الأم ومع مرور الزمن اتسع هذا الاسم حتى أصبح يطلق على الأراضى العمانية كلها ، وذلك على غرار ما حدث بالنسبة لإقليم فارس الذى أصبح اسمه يطلق على المملكة الفارسية كلها •

كان خليفة يعرب فى اليمن هو يشجب ، وكان أميرا ضعيفا ، مما مكن معظم الأقاليم من أن تستقل بنفسها فى عهده . وبعد وفاته انتقل الحكم إلى نجله عبد شمس ، الذى اقترن عهده بكثير من الانجازات الهامة ، فقد قام هذا الحاكم بغزو مصر وأتم بناء سد مأرب المشهور ، ونجح فى إخضاع كافة المناطق التى تمردت على أبيه • وهذه الحقيقة تقودنا إلى الاعتقاد بأن تكون المناطق الشرقية من شبه الجزيرة ، شأنها شأن غيرها من المناطق ، قد عادت لتخضع لسلطانه ، غير أنه لا توجد أدلة تقطع بهذا الاعتقاد •

وقـد ترك عبد شمس عددا كبيرا من الأبناء ، برز منهم اثنان ، هما كهلان ، وحمير ، وفى رأى البعض أن كهلان هو الذى خلف أبـاه على الحكم ، ثم تلاه شقيقه حمير ، الذى أطلق عليه اسم حمير بسبب أنه كان يرتدى دائمـا ثوبا أحمـر اللون • وقد دانت لهـذا الحاكم منطقة جنوب الجزيرة بأسرها من اليمن حتى عمـان ، وأسس أسرتين حاكمتين من الحميريين تمكنتا من فرض سيطرة شاملة على اليمن ، حتى ظهور سيدنا محمد صلى الله عليـه وسـلم •

ويبدو لنا أن حمير قد نصب ابنه مالكا حاكما على عمان وذلك أثناء حياته ، غير أن حكمه تداعى بعد وفاة حمير ، مما سمح لمـالك أن يستقل بحكم عمـان على غرار مافعل غيره من حكام الأقاليم ، غير أن اثنين من أشقائه أحدهما وائل حاولا اغتصـاب الحـكم منه ، ولكن التوفيق لم يحالفهما ، واستطاع مالك الاحتفاظ بالحكم وتوريثه لابنه الـذى لم يعرف اسمه • ويبدو أن نجل مالك استهدف لهجـوم ناجح من جانب نجل وائل ، وتم لـه الحكم فى عمان ، وخلال حكم حفيد وائل نشبت ثـورة ضـده واستمرت الحرب بينه وبين أنجال مالك زمنا طويلا • وخلال فترة نورمان نجل ياسر حفيد وائل الذى ولد بعـد وفاة أبيه تقلد وصـاية الحكم ذو الريش • غير أن هـذا الرأى لا يتفق مع رأى بقية المؤرخين ، الذين يذكرون ، ان وائلا هو الذى ظل يحكم عمان سنوات طويلة •

وعلى أية حال فإن حكم أسرة حمير الأولى لعمان لا يمكن أن تكون قد استمرت طويلا ، نظرا لأنها مثل بقية بلاد اليمن الأخرى وربما خضعت خلال نصف القرن السادس قبل الميلاد لجحافل سيروس ملك الفرس الذى كان فى تلك الفترة يسعى إلى توسيع رقعة الامبراطورية الفارسية •

أمـا إلى أى مـدى وإلى أية حدود امتد حكم الفرس لعمان ، فإن هـذا الأمـر لم يتأكد ، نظرا لأن تاريخ عمـان القديم فى تلك الفترة

يشوبه الغموض ، ولكنه من المحتمل أن سيطرة ذلك الملك على عمان كانت اسمية ، واقتصرت على استيفاء الزكاة . بينما احتفظ حكامها العرب من الوجهة الواقعية بالحكم .

وفى مؤلف اسيدور ورد اسم ملك يدعى ذو الجوشن ، وكان يعيش فى الشحر ، ويحكم منها عمان ، أما المؤرخ بلوه فيقول ، إن ذلك الملك هو ذو الجوشن بن اكران بن على بن مالك الذى أشار اليه حمزة الأصفهانى ، ويضيف بلوه ، أن ذا الجوشن كان يحكم عمان فى عهد الملك دارا بن دارا بن بهمان ، وقد دام حكمه سبعين عاما ، وأنه خاض حروبا ضد طسم وجديس ، وأن خليفته عاش حتى عهد حضر بن كنانه . وكان ذو الجوشن ينتسب إلى عائلة ملكية من حمير ، ويعود سبب وجوده فى عمان إلى أحد أسلافه وهو كهلان بن يعرب بن زهير بن عجم وكان أول من أخضع عمان ، وقد تربع كهلان على عرش عمان ، وكان مستشاره مازن بن ازد ، الذى كان سيد عمان ، وكان بيان العرش كما يلى :

« هذا بيان من مالك إلى جميع الذين يستوطنون بلاد العجم والعرب والشحر .... » .

وهذا المقطع من البيان يعتبر هاما ، ويؤكد بالضرورة الحاجة إلى الكشف عن أسرار التاريخ العمانى ، وربما تكمن فى هذه العبارة تلك الأسطورة التى أماط عنها اللثام المؤرخون الفرس ، والتى تذكر بأن كاى قادوش ملك الفرس بعد أن تم له إخضاع عمان لسلطانه قام بعقد معاهدة سلام مع الحاكم العربى ، اشترط فيها بأن يوافق الأخير على تزويجه من كريمته ، التى كانت تمتاز بجمال لا نظير له ، وقصة هذا الحاكم ، والذى يكنى بذى الصارى وبذى الزند ، قد أشار اليها المؤرخ فرخوند فى كتابه « روضة الصفا » كذلك فإن ما قام به الزوجان سبريا والأمير سياواش نجل الملك كاى قادوش من مغامرات قد تحدث عنها الفردوسى فى الشاهنامة فى عبارات رومانتيكية .

وكانت المرة الأولى التى يشـــاهد فيها الأوربيون بلاد عمـــان هى فى عهد الاسكندر الأكبر ، فقد اكتشف نيارکوس قائد أسطول الاسكندر رأس مسندم ، عندما كان يعبر الخليج ، وعرف أشياء كثيرة عن الأســـواق العمانيـــة الهامـــة ، وكان ميناء صحار هو مركز تلك الأســـواق ، وقـــد احتفظ بأهميته التجارية منذ عهد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، وبناء على تلك المعلومات قبل الاسكندر إيفاد بعثة لتطوف بســـواحل شبه الجزيرة وبحارها ، غير أن وفاة الاسكندر المبكرة فى بابل وضعت نهاية لتلك الأحلام ، ولم تسلط أية أضـــواء على المنطقة قبل انقضـــاء قرن مـــن الزمان تقريبا •

كان الحارث أول ملك فى الأسرة الحميرية الثانية ، وهو ينحـــدر من أسرة حمير من خـــلال وائل بن غوث ، وكان من الفاتحين المشهورين ، ويقال أنه غزا الهند ، وخضعت له كل الأقاليم الجنوبية من شبه الجزيرة العربية ، وكان يلقب (بالتبع) ، وقد انتقل الملك بعد ذلك إلى خلفائه من بعده وان كان قد انحصر بنوع أخص فى أولئك الحكام الذين خضعت لهم حضرموت والشحر وعمان بالإضافـــة إلى اليمن ، وقد لقب بالريس بسبب الغنائم التى عاد بها من الأقطار الخارجية ، وقد ذكر ذلك دى برسبال فى كتابه الذى سبق الاشـــارة اليـــه وهو يتفق مع رأى الثعالبى ، فى أن الحارث عاش قبل ٧٠٠ عام قبل المسيح و ١٠٠ عام قبل ظهور الرسول ، ومن المحتمل أن تكون قد خضعت له عمان بعض الوقت ، الا أنها وقعت بعد ذلك تحت سيطرة البارسيين (أى الفرس) ، ومن الجائز أن يكـــون الجـــزء الشرقى من شبه الجزيرة الذى وقع تحت سيطرة البارسيين قد تم فى عهد مليكهم ميثر ادبتيس ، وهو الذى أسس تلك الامبراطورية ، وحكم منذ عام ١٧٤ قبل الميلاد إلى ١٣٦ قبل الميلاد ، وبسط سيطرته على منطقـــة واسعة ، شملت فارس وبابل وسوزيانا •

ولمـــا كانت عمان فى ذلك الوقت تعد من ضمن المناطق التابعة لفارس

فقد أصبح مصيرها بالضرورة كمصير تلك البـــلاد ، واستمر هـــذا الوضع فى عمان تحت حكم الأزد •

والآن نصـــل إلى مرحلة من هـــذا التاريخ تشتمل على فيض مـــن المعلومات عن الأوضاع العامة فى شبه الجزيرة العربيـــة ، وذلك من واقع النشـــاطات الفكرية والتجارية للإغريق الذين بعـــد أن استولوا على الاسكندرية ، وفرضـــوا سيطرتهم على مصر ، وشرعوا فورا فى عمليات تجارية فى المشرق ، ومن ســـوء الحظ ، أنه على الرغم من توافر مراجـــع قيمة حـــول هذا الموضـــوع ككتاب « بريبلس » و « جغرافية البطليموس » فإن الجانب الأهم من مؤلفات الأغريقيين عن شبه الجزيرة العربيـــة قد ضـــاع واندثر • وربما كان أول مؤلف إغريقى يتطرق إلى تاريخ العرب هو اسشيلوس ، إلا أن أول إغريقى قـــام بوضـــع وصف لشبه الجزيرة العربية هو العالم الفلكى اراتوتبتنس ، الـــذى وضع مؤلفا جغرافيا عندما كان يشغل وظيفة أمين مكتبة الاسكندرية والذى توفى فيها عام ١٩٦ قبل الميلاد • وبما أن هـــذا العالم قد توفرت له مصـــادر واسعة من المعلومات فإن كتابه لابد وأن يضيف كثيرا من المعلومات عن تاريخ اليمن ، وأن كان من المرجح أن الكتاب لم يتضمن شـــيئا عن المنطقة الشرقية مـــن شبه الجزيرة ، إذ أنه من بين القبائل الأربع الكبرى التى ذكرها فى كتابه لم يمتد ســـوى نفـــوذ قبيـــلة واحدة إلى عمان ، وهى قبيلة قديمة •

وقـــد نعثر على معلومات أوفى وأدق عن بلاد العرب وتاريخهم فى مؤلف آجارتا سيدس الـــذى عاش فى مصر ، وأخرج فى عام ١٢٠ قبـــل الميلاد كتابا من خمس مجلدات ، تحـــدث فيه عن البحر الأحمر والمنطقة الشرقية من شبه الجزيرة العربيـــة • وإذا استثنينا بضـــع شذرات مما كتبه عن العرب فإن معظمه قد ضاع ، شأنه شأن أعمال ايراتوسيثينيس ، وعلى أية حال فقـــد عرفنا من كتابات الأول أن العرب قـــد وصلوا إلى شواطىء الهند •

ولقد صاحب التوسع فى نشاط مصر التجارى توفر المزيد من المعلومات والحقائق عن جزيرة العرب ، بما يسمح لنا أن نقطع بصحة البحوث التى كتبها بيلينى عن عمان ، وإن كان بحثه لم يتضمن الا القليل من المعلومات عن الأجزاء الداخلية من عمان ، كما أن بيلينى لم يتعرض إلى تاريخ هذه البلاد إطلاقا • ويمكننا أن نعتبر كتاب برى بيلس عن البحر الأرثوى والذى ألفه عام ٨٠ بعد الميلاد من المراجع الدقيقة عن تلك المنطقة التى تمتد حتى رأس فرتك ، إلا أن المؤلف على مايبدو لم يذكر شيئا عن عمان ، ولم يذكر أى ميناء بين مسقط والخليج ، كما أن افكاره عن عمان غائمة ومضطربة ، والشىء الوحيد الذى يمكننا استخلاصه من كتاب المؤلف ، هو أن عمان كانت فى تلك الفترة يحكمها البارثيون [1] •

ورغم أهمية مؤلف البطليموس وضخامته فإنه لا يعطينا معلومات وافية تقودنا الى التوصل الى تاريخ عمان القديم ، وعلى الرغم من أنه ذكر أسماء قرى ومناطق وقبائل عديدة فى شرقى شبه الجزيرة العربية الا أن تلك المناطق والقبائل ، حتى لو سلمنا بوجودها فى وقت من الأوقات ، قد اختفت من الوجود • وقد سمى هذا المؤلف رأس مسندم (اسابون بورمتوريم) ويبدو أن هذه التسمية صحيحة اذ لا يزال هناك قرية بهذا الاسم فى خصب ، وتقع بين أحد الأودية الصغيرة ، ولعل الاسم قد اشتق من قبيلة كانت قد استوطنت المكان فى الأزمنة القديمة ، وفى الأسماء التى ذكرها فى سياق حديثه عن المدن والقرى اسما لمدينة عمانية تدعى رابينا راجيا ، وهذه بلاشك موطن قبيلة ربان بن حلوان بن عمران ، وهى فرع من قبيلة قديمة استوطنت منطقة فى عمان قريبة من موطن الأزد ، وذلك بعد نزوحها من اليمن ، وطوافها فى اليمامة ،

---

(١) جماعة كانت تقطن المنطقة الغربية من آسيا جنوب شرق بحر قزوين وقد احتلها الفرس عام ٢٢٦ بعد الميلاد ، وهى الآن جزء من الشمال الشرقى لايران .

حيث تركت بعض أفرادها هناك ، هـذا على الرغم من أن الموقع الأصلى للقبيلة غير معروف ، نظرا لأن اسم ربان قد انمحى من الذاكرة •

أمـا فيما يتصل بالتاريخ القديم للمنطقة الشرقية من شبه الجزيرة العربية ، فقـد جـاء كتاب البطليموس مخيبا للآمال بشـكل واضح ، إذ أنه لا يقـدم لنا أية معلومات تسـاعدنا على تكـوين فكرة عن الأوضاع السياسية فى تلك الحقبة ، كمـا أننا لا نعرف مـن كتابه الا القليل عن الطريقة التى تجمع فيها العمانيون ، واستطونوا عمـان ، ولا عن هجرات القبائل وصراعاتها وغزواتها ، والأسر التى تعاقبت على الحكم بحيث تمدنا بمعلومات وافية عن تاريخ عمـان ، وتؤكد لنا أن مجد عمان وشهرتها التى كانت مصـدر فخر لها إنمـا جاءت عن طريق ماكانت تقـوم به من نشاط بحرى وملاحى ، وليس عن طريق النشاط البرى ، وان الكوشيين فى عمان ، رغم فقر البلاد وجفافها ، كانوا يعتمدون الى حـد كبير على النشـاط الخارجى ، وأنهم بحكم كونهم روادا للملاحـة فى المحيط الهندى فإنهم قد استطاعوا أن ينقلوا مختلف أدوات ومنتجات الشرق الهـامة إلى العالم الغربى عبر الخليج ، وبذلك النشاط ساهمـوا فى تطوير الحضارة وتنميتها فى منطقة آسيا الغربية •

وأنه ليجـدر بنا بهذه المناسبة أن نقـدم ملخصـا عن التجـارة البحرية التى كان العمانيون من روادها ، وبحكم موقع عمان الجغرافى فيما بين العراق من جهة والهند الغربيـة من جهة أخـرى فإنها قد احتلت مركزا تجاريا فريدا ومتحكما ، أتاح لها تدعيم التجارة البحرية مع تلك الأقطار ، ولعله من المنطقى أن نتصـور أن الكوشيين بمـا كانوا يتميزون به من روح المغامرة والشجاعة قد استفادوا من الفرص التى تهيأت لهم بحيث أصبحوا من الشعوب الرائدة العظيمة فى البحـار ، وأنهم بعد وصولهم الى سـواحل الهند أصبحوا سادة التجارة الشرقية على الاطلاق ، وعلى أسـاس تحكمهم فى هذه التجارة بشكل قاطع ، لم يبق لهم من منافس سوى

سكان الهند الغربيـــة ، ولكن انعدام الأدلة القاطعة على وجـــود منافسة ما فإنى لا أتصـــور أن هذا الأمـــر يستحق البحث أو النقاش • وعلى أية حال فإنه على الرغم من أن الفضـــل يعـــود إلى العمانيين الأوائل فى نقـــل منتجات البلاد الشرقية على أساطيلهم التجارية الى بلاد ما بين النهرين ، الا أن هؤلاء العمانيين لم يتمكنوا من الوصول الى الأســـواق المصرية والى منطقة البحـــر الأبيض المتوســـط الهامـــة •

ولعله لو قدر لعمان ان تحتل مركزا متميزا فى ميدان التجارة على البر ، كمـــا كانت فى البحر ، أو لو أنها تمكنت من اجتذاب رجـــال الأعمـــال والتجـــار الأجانب الى موانيها وتسيير القوافل مباشرة عبر شبه الجزيرة فلربمـــا تمكنت من احتكار التجارة فى تلك المناطق كلها ، ولأصبحت أقوى وأغنى دولة فى العالم ، غير أن الصحارى الشاسعة التى تحيط بها من الغرب وعزلتها عن بقية شبه الجزيرة العربية كانت حاجزا منيعا أمـــام القوافـــل التجارية ، ولهـــذا كانت تضطرها إلى تفريغ شحناتها التجارية فى منطقة (تمره) حيث كان يتسلمها التجار الأجانب ليقوموا بنقلها الى وجهتها •

من هذا يتضح لنا أن سكان عمان وقد عرفوا كيف يستغلون موقع بلادهم الجغرافى كانوا من أهم الوسطاء وتجار النقل للسلع الهندية الى الغرب ، وأنهم نجحوا فى احتكار تلك الصنعة واستبعاد غيرهم من حـــيز المحيط الهندى ، حيث كانت سفنهم تتنقل بين الهنـــد والعراق ، ولهذا فقد كانوا يمارســـون أربح تجارة فى ذلك الوقت ، خصوصـــا وان هذه التجارة لم تكن معروفة من قبل أن تظهر حضـــارة بابل ومصر ، ثم أن الســـلع التى كانت تصـــدر الى هاتين المملكتين كانت كلها تقريبـــا سلعا كماليـــة وترفية لا يقبل عليها الا المتحضرون •

ومع التقـــدم الحضـــارى التى كانت تحققه دولـــة بابل على الفرات ، والتى أخذت تبدى مزيدا من الاهتمام فى تذوق المنتجات الأفريقية والهندية

فإنها قـد أصبحت المركز التجارى الأول فيما بين الشرق والغرب ، كمـا كانت أكبر مستهلك للكماليات ، ومن ناحية أخرى كانت تجارة النقل العمانية تتطور باطراد من حيث الكمية وكانت تتيح لها الفرصـة فى تفريغ السلع فى موانىء أريدو والمغير ، وغيرها من المناطق ، أمـا ميناء غره الذى يحتمل أن يكـون هـو ميناء ديدان ، الذى جـاء ذكره فى سفر التكوين ، فربمـا يقـع فى نفس المنطقة التى تحتلهما مدينة الإحساء حاليا والمجـاورة للبحرين ، ولعله من المحتمل أن تكون هـذه التسمية قد اطلقت على تلك المنطقـة بعد وصـول قبيلة غرة واستقرارها فيها ، ولعلها هى التى اطلقت عليها تلك التسمية • ومن المؤكد على مايبدو أن اختيار تلك المنطقة قد تم نظرا إلى صلاحيتها كمرفأ وكمستودع للسلع والبضائع شمال عمان ، حيث كانت تفرغ فيـه السلع التى ترد من الشرق ، ويعاد تصديرهـا من ذلك الميـناء الى فلسطين ومصر • ولهذه الاعتبارات كان التجـار الفينيقيون وغير الفينيقيين يرتادون هـذا الميناء كثيرا لنقل البضائع التى كانت تجىء بها السفن العمانية الى ذلك المكان • وبفضل هذه العمليات أخـذ النشـاط التجارى يصب الثروة والرخـاء الى العواصم الكبرى فى العراق ، وسـوريا ، وتدمر التى أنشأها الملك سليمان ، والى بعلبك ودمشـق ونينوى ، وكثير غيرهـا من المـدن والعواصم ، التى يعـود الفضـل فى ازدهارها وعلو مركزها الى تجارة الشرق •

وخلال العصور الذهبيـة لهذا النشـاط التجارى أقيمت شبكة واسعة من الطرق فى سـوريا ، وأقيمت عليها مراكز ومحطات لتستخدمها القوافل فى التموين ، وأخـذ قسـط من الراحـة • أما مصر فقد كانت فى تلك الفترة تركز نشاطها على الزراعـة ، فلم تكن تولى التجـارة أى اهتمام ، كما كان المصريون يخافون ويتشككون فى رجال البحر الأجانب ولهذا كان الطلب على المنتجات الشرقية فى مصر ضئيلا جـدا •

ويتحدث حزقيـل المتوفى سـنة ٥٧٠ قبل الميلاد بإعجاب كبير عن

النشاط التجارى الذى كان يشهده ميناء طيرة فى سوريا ، الا أن معلومات هذا المؤرخ عن شبه الجزيرة العربية يجانبها الصواب ، نظرا لأن معرفته بأوضاع تلك المنطقة كانت واهية ، ولم يشر إلى وجود منطقة تقع بين ريدان وكين فيما عدا رعامة التى ظل موقعها من الخريطة مجهولا حتى الآن •

كما أشار هذا المؤرخ الى وجود معدن الذهب كأحد السلع التجارية المتداولة فى تلك الفترة ، الا أن الذهب الذى أشار اليه حزقيل ، ربما كان مصدره إفريقية أو الهند ، إذ لم تتأكد أية معلومات عن وجود مناجم للذهب فى شبه الجزيرة العربية ، على الرغم من أن ابن حوقل المؤرخ قد ذكر نحو ستين منجما ، منها عشرة للذهب ، وأحد عشر للفضة •

وكان الأسطول العمانى فى البحر الأبيض المتوسط يجىء فى المرتبة الثانية بعد أسطولى قرطبة وطيرة ، فقد كان العمانيون فى ذلك العهد يملكون أقوى أسطول فى العالم وأكثره عددا ، وكان يقوم بنشاط تجارى واسع فيما بين الهند ومنطقة الخليج ، كما يمكننا القول بأن النشاط التجارى العربى فى نفس الفترة أو ربما قبلها كان بلا ريب الوسيلة الوحيدة لنقل حضارة مينا ، وبابل ، وسوسه ، الى الهند ، فعن تلك الحضارات أخذ الهنود علوم الفلك والفلسفة والتنجيم والرياضيات ، وكل معالم الحضارة والتقدم الفكرى ، وأنه لمن المؤكد أن الحضارة الهندية لم تكن من صنع يدها ، وأن الهنود لم يبتكروا أو يسهموا بأية ابتكارات ، وإنما استطاعوا أن ينقلوا كل شىء عن حضارتى فارس والعراق ، ولعل أحد مخلفات الحضارة التجارية التى أسلفنا الحديث عنها هى لفظة مان أو ، من ، أى ، (موند) التى هى من أصل أكادى أو بابلى ، وقام العرب بإدخالها واستعمالها فى فارس وشبه الجزيرة والهند ، وهذه اللفظة لا زالت شائعة حتى اليوم ، وتشكل وحدة وزنية وقياسية مر على استعمالها مالا يقل عن ٥٠٠٠ عام •

وفى خلال تلك الحقبة التى امتدت نحـــو سبعة قرون قبل عصرنا حاول عرب عمـــان تجربة قوتهم البحرية ، كمـــا يقول البروفسور ديلاكوبيرى بالإبحار إلى منطقـــة أكثر بعدا ، وهى الصين ، مستفيدين فى ذلك مما تكون لهم من خبرة فى مجال الملاحـــة البحرية ، وبهـــذه الخطـــوة التى تنطوى على توسيع النشـــاط التجارى ساهم العمانيون فى تطور الصلات التجارية ، ونشر أكبر قســـط من خبرتهم ومعرفتهم بين أقطار العالم متخذين مـــن التجارة وسيلة أساسية لتطوير مجتمعهم وإثرائه • غير أن هذه المعلومات عن التبادل التجارى للعمانيين مع الصين لا يمكن قبولها على علاتها دون الحصـــول على أدلة مؤكدة •

وفى عهـــد الملك بختنصر بدأت تجـــارة الخليج فى التدهـــور بعـــد أن ظهر بسرعة منافس خطير لها فى البحر الأحمـــر • وعلى أية حال فقـــد بذل ذلك العاهل العظيم أقصى ما فى وسعه لإحياء الخـــط التجارى القديم وتطويره ، فقـــد أقام السدود على نهر الفرات ، وشـــق قناتين بالقرب من مدينة بابل ، وأنشأ مدينة تريدون (والتى سميت فيما بعد بالأبلة) واتخذ منها مدينة حرة وخطا دفاعيا ضـــد العدو ، وبعد أن فرغ هـــــذا الملك من هذه الانجازات اتجه بقواته نحـــو صحراء ســـوريا ، وشـــن هجوما على مدينة طيرة ، التى كان سكانها قد ركزوا اهتمامهم فى ذلك الوقت نحـــو طريق البحر الأحمـــر ، الا أن محاولاته لوقف تدهور الازدهار التجارى فى العراق لم يكتب لها النجاح ، وبعد وفاته مباشرة فى عام ٥٦١ قبل الميلاد تعرضت نينوى وبابل لغزو عسكرى من جانب الفرس والميـــد فاحتلوها وقاموا بتدميرها ، وهكذا اختفت من الوجـــود والى الأبد أكبر سوقين عالميتين للسلع الهندية ، وبالتالى لم يســـترد طريق الخليج التجارى منذ ذلك الوقت أهميته التجارية والملاحية ، وإن كان النشـــاط فيـــه لم يتوقف كلية ، بل استمر فى مد وجزر عدة قرون ، شأنه فى ذلك شأن طريق عدن للقوافل الذى يمتد على طول الساحل العربى حتى مصر •

ولنلتفت الآن الى أنواع السلع والمنتجات التى كان العمانيون يتعاملون فيها باعتبارهم من كبار تجار النقل والوسطاء التجاريين فى تلك الفترة من الهند الى الأرخبيل الشرقى ، ومن أفريقية الى شبه الجزيرة العربية • وقد أشار إليهم الانجيل ، كما ورد ذكرهم فى مؤلفات الإغريق ، أمثال هيرودتس وغيره من المؤرخين ، ولعل هذا يضفى أهمية أكبر على دور العمانيين فى تلك المجالات • وكان اللبان أهم السلع والمحاصيل التى كان العمانيون يزاولون تجارتها ، بل أن سبرنجر « يعتقد بأن اللبان كان أساس النشاط التجارى ، وكان يستورد بشكل رئيسى من رأس غضروفى ، كما كان يستورد من ظفار ، وبالاضافة الى اللبان كانت هناك تجارة الرقيق ، والعاج ، والتوابل ، والذهب ، والأحجار الكريمة ، والحرير ، والمطرزات ، بالاضافة الى الأبنوس والصندل والأخشاب والصبار ، والمعادن والمنسوجات القطنية على اختلاف أنواعها • والى جانب السلع التى كانت تستورد من الهند وافريقية كانت هناك مواد وسلع أخرى تأتى من الموانى العربية نفسها ، كالصمغ والبلسم (المجذاعة) • أما فيما يختص بتجارة الرقيق الأفريقية فقد كان عرب مسقط فى مقدمة الذين يزاولون تلك التجارة ، وربما من أقدم العصور ، فكانوا يجلبون الرقيق بأعداد كبيرة الى أسواق العراق ، وكان العمانيون يستفيدون فى عمليات نقل العبيد من افريقية من خبرتهم بالملاحة والرياح الموسمية ، وكانت هذه الخبرة تمكنهم من قطع المسافة التى تربو على ٢٠٠٠ ميل فى أيام معدودة • والواقع أن أولئك العرب كانوا يلمون إلماما دقيقا بطبيعة الرياح الموسمية الجنوبية والشمالية منذ آلاف السنين ، وذلك قبل أن يعزو الملاح الإغريقى المتواضع الشأن هيبالوس الفضل إلى شخصه فى اكتشاف تلك العوامل الجوية •

ولعل المنطقة الحرة (التى ذكرها القائد الاغريقى نيارشوس) فى تقريره عن رحلته الى الشرق هى ميناء صور • وقد أيد هذا الرأى هيرين ، وبالتالى فإن وجود منطقة حرة عند مدخل الخليج يؤكد وجود

علاقات تجارية بين الهند وبين ساحل عمان • ثم يتنقل القائد الى ذكر النقطة الهامة فى هذا التقرير ، وهى ما إذا كان العرب هم وحدهم أصحاب تلك التجارة فى منطقة الخليج أم أنهم الهنود الذين كانوا يعملون لحساب العرب ؟ ثم يضيف المؤلف ، إن ذلك النشاط التجارى كان نشاطا واسعا ، وأنه كان موجودا قبل قيام الامبراطورية الفارسية ، وبأن العرب باعتبارهم من أوائل رواد الملاحة التجارية كانوا يقومون بنقل البضائع والمنتجات الهندية الى بابل ••

إن الفوضى التى سادت فى كل من فارس والعراق بعد موقعة أربيلا ، أو على وجه التأكيد فى أعقاب وفاة الاسكندر فى عام ٣٢٣ قبل الميلاد لابد وأن تكون قد ساهمت فى الكساد التجارى الذى أصاب تلك المناطق وتدنى الطلب على الكماليات والبضائع الأجنبية الا أنها من ناحية أخرى أدت الى المزيد من الازدهار فى التجارة التى تمر عن طريق عدن ، وبالأخص على أثر التدهور الذى حدث فى مصر بعد وقوعها فى قبضة حكم أجنبى ، كان أكثر نشاطا وبراعة من الحكم السابق المنهار • ومن هنا فان الثراء والأبهة اللذين تمخضا عن ذلك النشاط الملاحى لمأرب ولغيرها من المدن اليمنية التى تأثرت بالفن الاغريقى قد تحدث عنه بإسهاب وحماس المؤلف الاغريقى اجارثيسيدس وغيره من كتاب تلك الفترة •

أما عمان فعلى الرغم مما حققته من ازدهار بفضل احتكارها الملاحة التجارية خلال الفترة الذهبية لبابل ، الا أنه لا يبدو أنها قد تأثرت بشكل أو بآخر بأى من الفن الفارسى أو الاغريقى ، ولهذه الأسباب لم يتم العثور على أية آثار أو مخلفات لفنون معمارية هامة فى البلاد • ومنذ عهد المسيح حتى ظهور الاسلام ظل التاريخ الأسطورى لعمان بمثابة شذرات هنا وهناك ، وباستثناء بعض الأحداث الهامة لم يبق شىء من تاريخ عمان ، لأن أسماء معظم حكامها وملوكها قد ضاعت ولم يعثر عليها ، وأننا لو نقبنا فى كتب التاريخ العربى عن أية معلومات عن تلك المرحلة

من تاريخ الجزء الشرقى من شبه الجزيرة لما عثرنا على شىء ، والمؤلف التاريخى الوحيد الذى قد يعول عليه فى هذا الصدد لا يسعفنا بالكثير من المعلومات .

وهذا المؤلف يحمل عنوان « كشف الغمة » وكان مؤلفه قد كتبه فى مدينة أزكى العمانية عام ٧٢٨ بعد الميلاد ، وقد عثر عليه الكولونيل السيراى . سى . روسى ، وظهرت ترجمته الانجليزية فى مجلة جمعية البنغال الآسيوية التى كانت تصدر فى كلكتا ، وذلك فى عام ١٨٧٤ ، وصدرت الترجمة له تحت عنوان « تاريخ عمان » . ويبدو لنا أن الكتاب الذى أصدرته جمعية هاكلتون بعنوان « سلاطين عمان وأئمتها » ليس إلا نسخة طبق الأصل من كتاب « كشف الغمة » والغريب فى الأمر أن مؤلف « كشف الغمة » قد حذف الفصل الأول من الكتاب ، وهو الفصل الذى يتناول هجرة الأزد الى عمان فى القرن الثانى عشر بعد الميلاد ، وفى هذا الفصل يستشهد المؤلف بالكلبى عالم السلالات المشهور ، الذى ذكر أن أول رجل من الأزد نزح الى عمان هو مالك بن فهم بن غانم ابن دوس بن عدنان بن عبد الله الأزدى ، وبأن سبب خروجه هو أن أبناء أخيه عمرو بن فهم قد اعتادوا عند أخذ ابلهم للرعى أن يمروا على منزل أحد الجيران ، وكان لهذا الجار كلب ينبح الإبل عند مرورها ، فتفر وتتفرق ، فبادر أحدهم فطعن الكلب برمح أودى بحياته ، وعندما اشتكى صاحب الكلب الى مالك ، الذى كان يمنحه حمايته غضب مالك ، واقسم بأنه لن يبقى فى بلد يعامل فيه أحد أتباعه بتلك المعاملة . وهناك رواية أخرى حول سبب الهجرة ، وهو أن كلب أحد عبيد دوس هاجم أحد الرعاة مما دفع العبد إلى قتله ، ورد صاحب الكلب على ذلك بأن قتل الراعى .

صحيح أن كثيرا من الصراعات القبلية قد نشبت بسبب أمور تافهة ، وأما بالنسبة لهذه القضية فمن المحتمل أن تكون قصة الكلب

قـد اختلطت على الرواة ، وان الأمر كانت حربا بين بنى كلب بن وبرة وبين فرع من قبيلة قدعة ، وازد سرات ، وبالتالى فقد ارتبط ذلك الخلاف بموضوع هجرة الأزد الى عمـان •

ولعل أغرب شىء فى كتاب « سرحان » هـو اغفاله الكلى لأى اشارة الى انهيار سـد مأرب الذى اجمع كل المؤرخين على أنه كان السبب الأساسى لتفرق القبائل ونزوحها . ويتحدث كتاب « كشف الغمة » بتفصيل عن تلك القبائل التى رافقت مالك بن فهم فى رحلته عبر حضرموت وعن نجاحه فى طرد البارثيين أى الفرس • وهذه النقطة لها دلالتها وأهميتها ، نظرا لأنه لم يشر اليها أى من المؤرخين •

وقبل أن نشرع فى سرد قصـة هجرة الأزد الى عمـان نرى مـن المناسب أن نشير الى ذلك الحادث الفاجع والذى يعتبر فى نظر المؤرخين السبب الحقيقى لثورة الأزد وانقسامها ، ثم نزوحها من موطنها الأصلى ، ونعنى به انهيار سـد مأرب ، وهو الحـدث الذى تناوله كثير من المؤرخين العرب ، الذين يعتقدون بأن الذى بنى ذلك السـد هو لقمـان الذى عاش فى فترة ١٧٠٠ قبل الميلاد ، كمـا يقال بأن عبد شمس بن سبأ قـام باعادة بنـاء السـد وترميمه بعد مرور أحـد عشر قرنا على بنائه • أمـا مدنيـة مأرب فقد كانت تقع شمال شرقى صنعاء فـوق أحـد المرتفعات القريبة من أحـد الوديان الصغيرة الـذى يقع بين سلسلتين من الجبال ، يسمى أحدهما الأبلق ، ويسمى الثانى مأرب • ففى الطرف الأسفل فى هـذا الوادى بنى حائط بطول ألف قـدم وارتفاع عشرين ومائة قـدم لحصر مياه الأودية الصغيرة الستة التى كانت تتجمع وتصب فى الوادى ، وقد بنى الحائط من الصخر الصلب ، وقد تم وصل وضغط الكتل الحجرية المربعة للحائط بملازم معدنية ، وكان الحائط واسعا بحيث أمكن بناء بيوت فوقه ، ونتيجة لهذا المشروع تكونت بحيرة كبيرة من المـاء ، سعتهـا ميـلان •

وقد زود السد بفتحات تصريفية عديدة لتقوم بدفع المياه ، إذا تطلب الأمر ، الى الحوض الكبير الذى أنشىء تحت السد ، وذلك لتوزيع المياه الى المزارع والحقول • ولا يزال جزء من هذا السد قائما حتى الآن ، كما لاتزال بعض فتحاته فى حالة جيدة ، كما ذكر ارنولد أحد الرحالة الفرنسيين ، وقد أسهب فى وصف السد والضفاف التى تحيط به على الجانبين •

ويسمى استرابو ، وارتوثينيس ، وارثميدوريس ، وبيلينى ، مدينة مأرب بما ريا ، وكانت مدينة مستديرة الشكل ، قطرها نحو أربعة أميال ، وأن بقايا تلك المدينة وأنقاضها المعمارية تغطى المنطقة التى أقيمت عليها ، وهى شاهد على الأبهة والفخامة لتلك المدينة العظيمة فى عصور رخائها وازدهارها ، يوم كان يقيم فيها طبقة من أثرياء التجار ، يزاولون أعمالا تجارية مربحة بين الهند ومصر ، وهكذا تدرجت مدينة مأرب فى التطور والرقى حتى أصبحت أضخم وأجمل وأغنى مدينة فى شبه الجزيرة العربية •

وقبل انهيار السد كانت مظاهر الخطر الذى يتهدده بادية للعيان ، ولعل ذلك بسبب الاهمال فى اصلاحه وترميمه ، ويقال بأن السيدة طريفة زوجة عمر قد تنبأت بانهيار السد وعزت احتمال انهياره الى وجود فيران فيه ، غير أن أحدا لم يهتم بذلك التحذير ولم يتخذ الترتيبات اللازمة لإصلاح السد وترميمه ، فقد تولى الحكم ابن الملك وهو صغير جدا ، إلا أن شخصين آخرين من الأزد ، وهما عمر وعمران ، وكانا يقيمان فى مأرب فى ذلك الوقت قد أطاحا بأكران الملك ، وأسفر الحادث عن وقوع اضطرابات وخلافات سياسية خطيرة •

وبينما كانت اليمن فى ذلك الوضع المؤلم من الصراعات والحروب القبلية إذا بها تفاجأ بذلك الحادث الذى أدى الى انهيار السد وذوبانه

تحت تيار المياه المندفع فى البحيرة ، ومنها الى المزارع والقرى والمدن الآهلة بالسكان ، ودمرها بطوفانه مسببا الموت للكثير من المواطنين ، وجرف ممتلكاتهم ومساكنهم • ومن السهل أن نتصور الدمار الذى حاق بالمدينة من جراء تلك الكارثة ، ولكن بما أن المؤرخين الإغريق والعرب الذين عاصروا تلك الفترة لم يتناولوا تلك الكارثة القومية فإننا لا نملك غير الاعتماد على روايات المؤرخين الذين ظهروا فيما بعد •

لقد كان الملك الذى يحكم البلاد فى ذلك الوقت هو أكران وكان اسمه الأصلى زيد ، وقد حكم من عام ١٢٠ الى ١٤٠ بعد الميلاد ، وبالتالى يمكن اعتبار عام ١٣٠ بعد الميلاد هو انهيار السد ، ومن ثم فلا وجه للغرابة أن يحدث ذلك التبعثر فى القبائل العربية كنتيجة للخلافات التى نشأت بينها من جهة وانهيار السد من جهة أخرى ، غير أن آراء المؤرخين لتلك الفترة كانت معلوماتهم متناقضة وقليلة •

وبعد انهيار سد مأرب لم يقم أحد باعادة بنائه ، ولهذا دب الكساد والتدهور فى مأرب وفى حياتها الاقتصادية ، وهجر أسواقها التجار الاغريق وغيرهم من الأجانب كما أخذ عدد السكان يتناقص ، وبعد قرن من الزمان قام الساسانيون حكام فارس بإحياء طريق الخليج ونقل تجارة الهند من مصر الى ريزفون ، وهكذا انحدرت مأرب الى مجرد قرية عربية صغيرة • أما عن أخبار القبائل التى كانت تستوطن ضفاف الوديان والسهول الخصبة القريبة من مأرب فكل مانعرفه عنها أن الفرع العدنانى من تلك القبائل اتجه شمالا نحو نجد والحجاز ، بينما اتجه الى الحجاز بعض الأزد وأتباعهم الذين كانوا يمثلون أهم مجموعة من سكان مأرب وتوجه البعض الآخر منهم الى الشرق •

وقد اتجه عمر بن عامر فى البداية هو وأتباعه الى منطقة العق ، واحتفت بهم القبائل ، وبعد وفاة عمر تولى نجله طالب قيادة الجماعة

الى مكة ، ومنها الى البحرين . وعلى كل فإن القسم الأكبر من الأزد من مقاطعتى السراة وعمان فى اليمن اتجهوا الى عمان ولكنهم نزحوا الى تلك المناطق على مراحل وعلى مـدى سنوات .

ويذهب بعض المؤرخين الى القول بأن قيادة المجموعة الأولى من هـؤلاء المهاجرين كانت بيد نصر بن الأزد ، الا أن غالبية الثقاة وفيهم العرب قد أجمعوا ، على أن مالك بن فهم هو الـذى قاد الأزد فى رحلتهم المضنية الى موطن المستقبل .

وبعد خروج الأزد من مدينـة مأرب شقوا طريقهم عبر حضرموت ومنها فى اتجاه الساحل الشرقى مباشرة الى أن وصلوا ريسوت على بعد خمسمائة ميل من مأرب ، وكانت ريسوت فى ذلك الوقت بلدة مزدهـرة وميناء يعج بالحركة التجارية ، وقد توقفوا هناك للراحة حيث انضمت اليهم مجموعات من قبائل المهرة وغيرهم من القبائل الذين قرروا أن ينفصلـوا عن جماعتهم والاستقرار فى عمـان .

وعند وصـول هذه القوافل البشرية الى ريسوت كان الارهاق والتعب والجـوع قد هدهم بعد تلك المسيرة التى امتدت شهورا طويلة عبر مناطق مقفرة قليلة السكان ، وهم يصحبون أسرهم وماشيتهم وأمتعتهم ، ولمـا كانت بقية الطريق الى عمان تمر فى أراضى صحراوية مقفرة ، اضطر مالك ابن فهم الى أن يقـوم بارسـال النسـاء والأطفال والشيوخ عن طريق البحر ، ويذكر مؤلف تاريخ عمـان أن الأسر والأمتعة الخاصـة بالأزد وصلت الى قلهات ، وهى احدى الاستحكامات العسكرية على السـاحل العمانى حيث بقيت هناك فى الانتظار تحت الحراسة المشددة .

وقد علم الأزد ، وهم هناك ، بأن البارثيين يسيطرون على عمان ، فاختار مالك نحو ستة آلاف مقاتل من خيرة المقاتلين من المشاة والفرسان ،

وطلب منهم أن يتقدموا الموكب ، كما انضمت اليهم قوة أخرى استطلاعية بقيادة أصغر أنجاله هناة ، أو كما يقول بعض المؤرخين بقيادة فراهيد ، وذلك للقيام بعمليات الاستطلاع • وعند وصول مالك بن فهم الى عمـــان أقام فى البداية فى قلهات ، ريثما ينتهى من عمل الترتيبات اللازمة لإيواء النساء ، ثم عاد الى الجوف ، أو الوادى الذى يقع بين بلدتى أدم ، وبهلا ، وذلك للإشراف بنفسه على عمليات الاستيطان واختيار المكان المناسب ، وبعد أن انتهى من هذا الأمر بدأ يفاوض الفرس وأوفد مبعوثا إليهم يطلب منهم الإذن بالاستيطان فى عمان • وعند وصول مبعوث الأزد الى صحار التى كانت عاصمـــة الفرس فى ذلك الوقت جمع الحاكم الفارسى (المرزبان) وزراءه ، وبعد المناقشات قرر رفض طلب الأزد ، وبعث برده اليهم على ذلك ، ويقال بأن مالك بن فهم عاد ، وأوفد رســولا آخر الى المرزبان ينتقده على رفضه الطلب ويصر على تنفيذه • وعلى أية حال فإن المرزبان لم يرفض الطلب هــذه المرة فحسب ، وإنمــا أخــذ يستعد ويحشــد قواته العسكرية لطرد الأزد من عمــان •

وكان جيش الفرس يتألف من ٣٠ ألف الى ٤٠ ألف رجل تعززه قوات من راكبى الفيلة ، وقد تحرك هــذا الجيش نحــو وادى سمايل ، حيث رابط فى سلوت ، وهى منطقة تقع بين أزكى ونزوى • أمــا مالك بن فهم كما ورد فى « تاريخ عمان » فلم يكن لديه أكثر من ٦٠٠٠ رجل ، وبالرغم من ذلك فإنه بعد معارك استمرت أربعة أيام نجح مالك فى إبادة قوات الفرس عن بكرة أبيهم ، وبنــاء على نتائج تلك المعركة وقعت هدنة بين الفريقين المتحاربين ، وتعهد الفرس بالجلاء عن البلاد خلال عام واحــد وتركها للعرب ، الا أن المرزبان استغل تلك الهدنة فطلب تعزيزات من الامبراطور الفارسى ، خولوكاسيس الثانى ، أما مالك بن فهم فإنه لم يدخر وسعا هو الآخــر فى سبل إعــادة توزيع قواته فى مناطق الوادى القريب من الجوف ، وعند سماع الامبراطور الفارسى ، بمــا حدث لقواته فى عمــان عين حاكما جديدا وبعث بتعزيزات وقوات جديدة الى صحار ، مع تعليمات مشددة

بوجوب طرد الأزد من عمان • غير أن مالكا هو الآخر لم يقف مكتوف اليدين ، فما أن بلغته نوايا الامبراطور حتى بادر الى شن هجـــوم على الفرس أسفر عن انتصار الأزد وانسحاب الفرس ومغادرتهم البـــلاد نهائيا ، ويقال فى هـــذا الصدد إن نجلى مالك ، وهما معن وهناه قـــد تمكنا من قتل عدد كبير من الفيلة التى اشتركت فى القتال وانهما استخدما فى ذلك أيديهما فقط •

وبعد أن تمت لمالك السيطرة على عمـــان بأسرها بقى فى الحكم سنوات طويلة ، وكان يحكمها بالعدل ، وعاش ١٢٠ عاما ، وجاءت وفاته بضربة سهم من نجله الثالث سليمة ، وكان أكثرهم حبا وقربا له ، ثم هرب الابن الى مدينة كرمان فى فارس • ونحن إذا استثنينا مظاهر التحيز والمبالغات فى روايات غزو الأزد لعمان ، كمـــا وردت فى « كشف الغمة » فإن مؤلف هـــذا الكتاب سرحان بن سعيد ، قد ذكر فى وضوح أن الرواية إنما تستند على الحكايات والأســـاطير الشعبية ، التى كانت متداولة فى أوساط العرب ، وأنه يمكن اعتبارها صحيحة وموثوقا بها • ويقول بعض المؤرخين ، أن مالك بن فهم قد بعث بعدد من أتباعه للاستيلاء على البحرين والحـــيرة والفرات ، وأنهم أقاموا إمارة هناك ، حكمها اثنان من أنجاله ، وأن عملية اغتياله قد تمت هناك ، وأن النجل القاتل هرب بعد ذلك ، والتجأ إلى عمان على أن قسما كبيرا من المعلومات المتعلقة بمالك بن فهم وبأفراد أسرته تتضمنها التعليقات التى كتبها روس فى كتابه « تاريخ عمان » •

وبعد مرور ستين أو سبعين عاما على غزو الأزد لعمان ، يبدو أن موجة جديدة من الهجرة قد تمت الى عمـــان ، وكان نتيجة لذلك ان طغت العناصر اليمنية فيها على العناصر الأخرى والتفصيلات عن الدفعة الثانية من هجرة تلك القبائل موجـــودة بشكل مباشر فى « تاريخ عمـــان » ويمكن تلخيصها على النحو التالى :

جـــاء إلى عمـــان أعداد كثيرة من قبائل الأزد وكان أول من انضم

الى تلك المجموعات عمران بن عمرو بن عمير ماء السماء مع نجليه الحجر والأسـود ، وقد تفرعت عن الاسمين الآخيرين كثير من القبائل العمانيـة ثم بعد ذلك تحرك ربيعة بن الحارث بن عامر الغطريف مع بعض أخوته ، ولحقهم دوس بن عمر بن عـدى بن حارثة الذى توجه الى الحديدة ، وكذلك عمران بن عمر بن الأزد ، ثم جـاء اليحمد بن حمـد وانجال غانم بن غالب بن عثمان وزياد ، ثم الموالح وأنجال شمس ، وكذلك الدناق ، وبعض بنى يشـكر وبنى عبد ورجال من الهويلة وكل هذه القبائل اتجهت الى عمان ، ومعها شعاراتها وأعلامها ، وكانوا أثناء رحلتهم يستهلكون مؤن سكان البلاد التى يمرون بها حتى وصلوا الى عمـان ، وهناك انتشروا فى عمـان كلها ، واستقروا فى أرضها الخصبة الواسعة ، وأطلقوا على تلك الأرض اسم عمان تيمنا باسم مواطنهم الأصلية الخصبة فى اليمن ، والتى من المرجح أن يكـون اسمها عمـان ، أمـا الفرس فقد أطلقوا على عمان اسم « مزون » .

ولم ينقطع سيل هجرات الأزد الى عمان إلى أن كثرت أعدادهم وذاع صيتهم ، وقويت شوكتهم ، واستطاعوا فى النهاية السيطرة على البـلاد كلها ، ثم امتدت سلطتهم حتى البحرين والأحساء . وبعد أولئك وصـل الى عمـان سامه بن لؤى بن غالب ، واستقر فى توام أو الجـو ، وهى منطقة قريبة من مواطن الأزد ، كما كان يقيم فى نفس المنطقة بعض بنى سعـد وبنى عبد قيس ، كمـا أقام أيضـا بعض قبائل بنى تميم ، كذلك نزح الى عمـان قبائل ابن حازم الذين هاجروا واستوطنوا منطقة عبرى والسليف وتنعم والسر ، كمـا جاءها بعض من بنى الحارث بن كعب الذين استوطنوا ضنك والتى استوطنها مئات من بنى قدعة ، كذلك وفد الى عمان بعض قبائل بنى رواحة بن قتبه بن قيس وكان من بينهم أبو الهاشم » .

وقبل أن يبلغ سابور الثانى سن الرشد ، وهو الذى حكم فارس من عـام ٣١٠ الى عـام ٣٣٠ بعد الميلاد أغار العرب على فارس ، الا أن

سابور بعـــد ذلك ببضع أعوام أنزل قواته العسكرية فى القطيف ، واستولى على الحجر والمناطق المجاورة لها ، وأنه كاد أن يبيد القبائل العربية فيها •

إن الإرهاب الذى عم أواسط شبه الجزيرة من خلال الفظائع التى ارتكبتها قوات سابور قد أدى الى تفرق القبائل التى من أصل عدنان ، فتوجه معظمهم الى عمـــان ، وظلوا يتدفقون ، حتى أنهم أخذوا يهددون سيطرة العناصر اليمنية ، وقد ذكر بادجر فى مقدمته عن بعض تلك القبائل ، كقبيلة سحبان ، ويطى وعاربة ، وسعيد ، وراشـــد ، وواهى ، واخزم ، ومعين ، وبنى السنت ، وحديه ، ومشرفى •

وفى بداية القرن الخامس اخذت فصائل أخرى من قبائل عدنان تتدفق على عمـــان وان كان عدد كبير منها قد اتجه الى حضرموت واستقر فيها ، ومن بين القبائل النجدية التى نزحت الى عمـــان بعد نحـــو قرنين من ذلك التاريخ قبائل عبس التى لا يزال خلفاؤها بنـــو رواحة يقيمون حتى الآن فى المنطقـــة التى تسمى وادى بنى رواحـــة •

وان حرب الأربعين عاما التى نشبت بين عبس وذبيان بسبب سباق جرى بين الفرسين داحس والغبراء عام ٥٦٣ بعد الميلاد تعتبر من أشهر الأحداث فى التاريخ العربى ، فبعد هـــذا الحادث هاجر قيس بن زهـــير زعيم قبيلة عبس الى عمان مع بعض أتباعه واعتنق النصرانية ، وأصبح راهبـــا •

وفى ذلك الوقت بالذات كان عدد المسيحيين فى جنوب وشرق شـــبه الجزيرة العربيـــة كبيرا ، وفى أعقاب بعثة فرومنتيوس الشهيرة بـــذلت جهـــود كبيرة كمـــا يذكر رايتس لإدخال العرب الى المسيحية ، وذلك فى الفترة الأخيرة من القرن الرابع عندما كلف سيفولوس اندس وهـــو من ســـكان دابل فى الســـند ، وكان شخصية موهوبة ، بمهمـــة الى مـــلك

الحميرين من قبل الملك قسطنطنيوس الثانى وقد حمل معه هدايا نفيسة •

وقد نجح سيفولوس فى مهمته واستطاع اقناع أفراد شعبه بإنشاء ثلاث كنائس فى اليمن ، أقيمت إحداها فى ظفار بالقرب من صنعاء ، والثانية فى عـــدن ، والثالثة فى الخليج ، لعلها على الأرجح فى صحار بعمان ، وقد زارها سيفولوس أثناء رحلته ، حيث أقام فيها قيس بن زهير بعـــد مائتى عام من ذلك التاريخ الى أن وافته المنيـــة •

وربمـــا ساهم وإلى حـــد كبير استيلاء المسيحيين الأحباش على اليمن وتدمير الامبراطورية الحميرية عام ٥٢٥ بعد الميلاد ، والذى صاحبه تصاعد النفوذ الرومانى وساعد فى انتشار المسيحية حتى كادت أن تصبح الديانة السائدة فى شبه الجزيرة العربية لولا ظهور عقيدة جديدة وهى الاسلام •

ومنذ غزو الأزد بزعامـــة مالك بن فهم حتى قدوم الساسانيين الفرس فإن معرفتنا بتسلسل الأسر الحاكمة فى عمان تكان تكون معدومة •

وانه لمن المحتمل أن يكون مالك بن فهم قد ترك الحكم لأحـــد أنجاله الذين كانوا كثيرى العـــدد ، ونستدل من « تاريخ عمان » على وجود شخص يدعى مالك بن زهير كانت سيطرته لا تقل عن سيطرة مالك بن فهم نفسه ، غـــير أن الأسرة الوحيدة التى تأكـــدت معرفتنا بها هى أسرة الأمـــراء الجلنديين ، ويقول أبو الفداء فى هذا الصدد إن كل الذين كانوا يتولون الحكم فى عمـــان يلقبون بالجلندى • ومعروف أن أسرة الجلندى ترجع فى نسبها الى قبيلة المعاول التى لا تزال موجـــودة حتى الآن ، وتقيم فى احـــدى مناطق الجبل الأخضر لعمان ، وعلى أية حال فهناك رواية أخرى عن هذه الأسرة الحاكمـــة ترجع نسبها الى بنى قرقر ، ويؤيد هـــذا الرأى المؤرخ سيل •

وعند ظهور النبى صلى اللـــه عليه وســـلم كان الجلنديون يحكمون

عمـــان غير أننا نجهل تماما المرحلة التى ظهر فيها هؤلاء الحكام وتولـــوا سلطة الحـــكم •

وقد أسفر نجاح الحملة الحبشية عام ٥٢٥ قبل الميلاد عن قيـــام حكم أسرة قوية فى صنعاء عاصمـــة اليمن ، وكان لابد لهذا الانتصار المسيحى أن يلقى ترحيبا حارا من امبراطور القسطنطينية الذى بادر إلى إيفـــاد مبعوث الى اكسوم للتفاوض لعقد حلف مع النجاشى ولكسب ولائه للامبراطورية الرومانية ، غير أن حكومة مادين أو سينسافون كانت تنظر الى المشكلة من زاوية مغايرة ، وبالتالى فإن استيلاء الأحباش على اليمن قـــد قوبل باستياء شديد فى بلاط كسرى أنو شروان •

ولا يمكن التقليل بأى حال من أهمية المركز الدولى للعاصمة الرومانية ومـــا حققته من انجازات على المستوى الدولى ، بالنسبة إلى فارس ، ولهذا أدرك أنوشروان ، بمـــا كان يتمتع به من بعد نظر ، كيف أن مصالح فارس قـــد أصبحت تحتم وضع حد للتوسع الرومانى فى ذلك الجـــزء من العالم ، والقضـــاء على نفوذ الأسرة الحاكمـــة الجديدة فى اليمن قبل أن يستفحل أمرها ، وتتحول إلى مركز دينى نشط ، أو تحقق من القوة ما يسمح لهـــا بتقديم المساعدات الى روما ، ولهذا أخذ يتحين الفرص للانقضاض على المغتصبين الأفريقيين ، وقد كانت الحملات الرومانية حتى ذلك الوقت تشغله عن التفكير فى مثل هذا الأمر ، غير أن الفرصة التى كان يحلم بها قـــد واتته أخيرا من خلال المعاهدة التى عقدها مع جوستنيان فى عام ٥٦٢ بعد الميلاد ، وقد ضمنت هـــذه المعاهدة فترة من السلم دامت خمسين عاما ، كانت حافلة بالأحـــداث الحاسمة فيمـــا يختص بجنوبى وشرقى شـــبه الجزيرة العربية • فقد هيأت المعاهدة فى المقام الأول التخلص من الحروب ، مما أتاح لامبراطور فارس أن يقـــوم بإعداد حملة ضد سيطرة الأحباش فى اليمن ، ولم يدخر وسعا فى تعبئة إمكانياته لتحقيق ذلك الهـــدف ، وإن كانت تلك الحملة قد كلفته أعباء كثيرة من الموارد والامكانيات •

ولقد كانت عدن ، وهى الهدف النهائى للحملة ، بعيدة أكثر من ألفى ميل عن الأبلة ، وهى الميناء الذى أبحرت منه القوات الفارسية ، وبصرف النظر عن النشاط التجارى الذى كانت تشهده المنطقة فى تلك الفترة ، فإن وسائل النقل وتخزين المؤن لتلك الرحلة الطويلة كان يتطلب وقتا طويلا ، وعلى كل حال فمهما كان تحمس خسرو لضرب النفوذ الرومانى فى اليمن ، فقد كان من المشكوك فيه أن تنجح الخطة التى وضعت لولا تواجد أحد ملوك حمير ، وهو ذى اليزن ، أبو مرة ، فى عاصمة الفرس فى ذلك الوقت ، وكان ذلك الحميرى قد ترك اليمن فرارا من تعسف الملك الحبشى ، مرزوق بن أبرهة ولجأ الى فارس .

وعلى حد رأى البعض أن ذا اليزن قد توجه أولا الى الامبراطور الرومانى للحصول على تأييده ، ولما لم يفلح فى ذلك المسعى عاد واتجه الى الحيرة ، ومنها الى زيزفون ، حيث توفى هناك بعد وصوله مباشرة ، ويجمع معظم الكتاب على الاشارة الى نجل ذى اليزن ، سيف ، وأن هذا النجل قابل امبراطور الفرس ، وعرض عليه كنوز اليمن وثرواتها ، مما شجع العاهل الفارس على تجهيز الحملة .

وقد مكنت المشورة القيمة والمعلومات السياسية والجغرافية التى قدمها سيف بن ذى اليزن الى كسرى من وضع خطة شاملة وواسعة لا لمهاجمة اليمن وحدها ، بل وساحل شبه الجزيرة العربى كله . وقد ذكر المؤرخ الطبرى . فى تاريخه أن وهرز كان قائدا للحملة ، وكان من كبار رجال الدولة ، غير أنه فى رأى حمزة الأصفهانى كان هذا القائد يدعى خرزاد ، وأن وهرز هو اسم عائلته ، وكان من سلالة ملكية ، تنتسب الى أزدشير ، وأن قيادته للحملة تدل على أنه كان من القواد العسكريين المحنكين .

وتختلف آراء المؤرخين العرب والفرس على السواء حول حجم القوة العسكرية للحملة التى أبحرت من الأبلة عام ٧٥٠ بعد الميلاد على

وجـــه التقريب فى حملتها البحرية الشهيرة ، ويقدر بعضهم عددها بنحـــو ٣٦٠٠ رجل ، بينمـــا ذكر ابن قتيبة أنها كانت تتألف من ٧٥٠٠ جنـــدى ، ويحدثنا الطبرى بأن الحملة كانت تتألف من ثمانى سفن ، فى كل منهـــا مائة رجل فقط ، وأن سفينتين غرقتا بمن فيهما ، ولم يبق من الحملـــــة عند وصولها الى عدن سوى ستمائة رجل ، وإذا صدقنا هذا القـــول فإنه يدل على مدى غرور الفرس واعتدادهم بأنفسهم •

ولعل الطبرى لم يكن يعرف أى شىء عن فتح الفرس لعمان ، وتصور العجز الذى طرأ على حجم القوة من خلال عدد الجنود الذين ركبوا من شط العرب والعدد الفعلى الذى وصل الى عدن بأنه يعود الى فقـــد ربع الحملة فى البحر ، وقد نفترض ، ونحن مطمئنون ، أن الحجم الحقيقى للحملة هـــو ١٦٠٠٠ رجل ، اشترك منهم ١٢٠٠٠ فى الهجـــوم على الأحبـــاش فى اليمن •

لقد اتجه القائد الفارسى بأسطوله أولا الى البحرين ، التى كانت خاضعة لعمان فى ذلك الوقت ، وتمكن من إخضاعها بسهولة ، ثم أقلع منها إلى صحار عاصمة عمان يومئذ ، وقام بإنزال قواته فيها ، وتمكن من اخضاع سكانها العرب للسلطة الفارسية • والمعلومـــة الوحيدة التى أطلعنا عليها عن الحملة الفارسية على عمان هى ما ذكره كتاب « كشف الغمة » غير أن المؤلف لم يفض فى شرح أخبار تلك الحملة ، رغم أن معلوماته ، على ضآلتها تعتبر الدليل الذى لا يسعنا الا التسليم به ، وهو :

« لم يعد الفرس الى عمان بعد أن أخرجهم مالك بن فهم منها حتى نهاية حكمه ، وتولى أنجاله الحكم • وبعد ذلك دخلت عمان تحت حـــكم الجلندى بن المستكبر المعولى ، بينما دانت فارس لبنى ساسان • وقد ساد الســـلام عمان أيام فهم ، واستبقى الفرس فى عمان قوة عسكرية مـــن ٤٠٠٠ رجل ، ومندوبا ساميا لهم لدى ملوك الأزد • وأقام الفرس عـــلى

الجانب الساحلى ، بينما كان الأزد يحكمـون السهول والمرتفعات الداخلية ، وكانت شئون البلاد فى أيديهم • أما الفرس فقد درجوا على ايفاد مندوبين لم يكونوا يحوزون على رضـاء العمانيين ، أو بالأحرى كان العمانيون يرتابون فيهم ، وبقى الوضـع على تلك الحـال الى أن شـاء اللـه للإسـلام أن يظهر وينتصر » •

ويضيف المؤلف :

بأن الفرس أقاموا عاصمتهم فى جمسترد ، وهى منطقة قريبـة من صحـار ، واتخذوا منها المركز الرئيسى ! وتعرف هذه المنطقة الآن بجبل غرابة أو فلج السـوق ، ولا تزال آثارها باقية ، وعلى كل حال فإن احتفاظ الفرس بقوة من ٤٠٠٠ رجل لإرهاب أهل عمـان والاحتفاظ بمظاهـر السلطة الفارسية على عمـان لدليل قاطع على نوايا الفرس فى احتلالها ، إلا أن السيطرة على عمـان لم تتحقق الا من خلال صراع طويل ومقاومة مستمرة من جانب أهلها •

وقد تم تعيين مرزبان أول حاكم فارسى على اقليمى عمان والبحرين ، وكان اسـمه دافيروز هاشمشفان ، وقد أنشـأ ذلك الحاكم قصرا لـه فى جمسترد التى تحولت الى مدينة للفرس • ومن ناحية أخرى فإنه من المحتمل أن يكون الحاكم الفارسى خاضعا للمنذر بن النعمان بن لخم الذى كمـا يقول الطبرى ، هو الرجل الذى عهـد اليـه كسرى بحـكم عمـان والبحرين واليمامـة وجزء من الحجـاز •

أمـا بالنسبة لعلاقة هذا الحاكم بالأمير الجلندى فإن المؤرخـين يشـيرون إلى أن الامبراطور الفارسى قد سمح للأمير الجلندى بالاحتفاظ بنزوى كعاصمـة لملكته ، والاستمرار فى ممارسـة السيادة على القبائل العربيـة التابعة له ، بشرط دفع الزكاة للفرس والتبعية لهم • ومن ناحية

أخرى يبدو أن المندوب السامى الفارسى أو المرزبان ، كما كان يسمى ، قـد حصر مرابطة قواته فى منطقة الشريط الساحلى ، كما لم يكن يتدخل تدخلا مباشرا فى الشئون الداخلية للعمانيين •

وبعد مغادرة الأسطول الفارسى صحار واصل طريقه عبر السـاحل الغربى ، وبعد ضم ظفار وحضرموت ، ألقى مراسيه فى ميناء عـدن ، حيث قـام بإنزال قواته • وقد انتصر الفرس بعد معارك مريرة بفضـل المساعدة التى تلقوها من اتباع سيف بن ذى يزن ، وبذلك الانتصار أضيفت الى الامبراطورية الفارسية مساحات جديدة لا تقل عن ١٥٠٠ ميل من المناطق الساحلية الى جانب أربعة أقاليم أخرى هى عمان والبحرين وحضرموت واليمن • وقد بعث الانتصار حماسا شديدا فى عاصمة الفرس وشعورا بالفخر • واستطاعت فـارس الاحتفاظ بتلك الفتوحات خلال الفترة المتبقية من حكم أنوشروان ، الذى توفى عام ٥٧٩ بعد الميـلاد ، غير أن خليفة أنوشروان كان ضعيفا فتراخت قبضته ، ومن ثم فان الموجـة الأولى من المـد الاسـلامى بعد ستة وعشرين عاما استطاعت أن تكتسح الفرس من عمـان وغيرها من الأقطار •

وكان إخضـاع الأجزاء الشرقية والجنوبية من شبه الجزيرة العربية نقطة تحول بارزة ، باعتباره آخر حدث هام فى شبه الجزيرة العربيـة قبل ظهور الاسـلام • وأنه لمن سـوء الحظ أن المعلومات عن تلك المرحلة الهامـة من تاريخ شبه الجزيرة العربيـة قليلة جـدا • وعلى أية حـال فإن أحـداث ذلك الغزو الفارسى لا تزال عالقة بالذاكرة العربية • وأن آثارها لتتجلى فى كثير من أرجاء شبه الجزيرة العربية •

الفصل الثانى

١ ـ عمـــان

٢ ـ الخليج فى ظل الإسلام

خلال سيطرة الحكام الساسانيين على جنوب شبه الجزيرة العربية ، ولد فى مكة أعظم رجل أنجبته الإنسانية فى تاريخ العالم ، وهو الرجل الذى كان مقدرا لـــه أن يبعث الثورة الروحية إلى آسيا الغربيـــة ، وأن يضـــع أسس أروع امبراطورية عرفها تاريخ البشرية ، وأن يكون الرسول والقائد لأهم النظم الدينية التى عرفتها الإنسانية •

ويختلف المؤرخون حـــول التاريـــخ الصحيح لمولـــد الرســـول محمـــد بن عبد الله ، (صلى الله عليه وسلم) ، غير أن المؤرخين والكتاب الأوربيين متفقون بوجـــه عام على أن تاريخ مولده يقع فيما بين عام ٥٦٩ ، وبين عام ٥٧٤ بعد الميلاد ، أما المؤرخون المسلمون فهم يؤكدون أن تاريخ مولـــد الرســـول هو عام الفيل ، وهـــو العام الذى انقض فيه أبرهة الحبشى ، بعد أن فرغ من تشييد أروع كنيســـة مسيحية فى صنعاء ، على مكة فى محاولة لتدمير الكعبة ، إلا أنه منى بأشر هزيمة على يد أهلها ، بعد تدخل طير الأبابيل إلى جانب سكان مكة ، وهى التى أرسلها الله تعالى لإبادة قوات الغزو الحبشى •

وربمـــا يكون هذا الحادث قد سبق غزو الحكام الساسانيين لليمن بســـنوات كثيرة ، وكان هناك فى السلطة حفيد أبرهة عند وصـــول فافريزز ، غير أنه من الطبيعى أن يتجـــه المؤرخون المسلمون الى تحديد مولد النبى بتلك الفترة الحاسمة ، والتى أمكن فيها إبعاد الخطر عن المدينة المقدسة •

ولم يمض وقت طويل على إعلان سيدنا محمد بن عبد الله دعوته ، حتى أخذ بصيص تلك الدعـوة التى هزت أرجاء شبه الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها يتسلل إلى عمـان ، ومن الجائز ألا تكـون أنباء تلك الأحداث قـد انتشرت فى أجزاء واسعة من العالم ، إلا أنه مع تصاعد شهرة النبى ونفوذه أخذت أنبـاء تلك الحركة تمتد إلى أقصى مناطق شبه الجزيرة العربية بدافع الانتصارات العسـكرية التى كانت تشهدها أرض الحجاز .

والمصادر التاريخية العربية لا تلقى الكثير من الضـوء على الموجات الأولى للإسـلام فى امتدادها المتواصـل إلى الأجزاء الشرقية والجنوبية ، من شبه الجزيرة ، وحسب ما ذكره النووى ، أن شخصا يدعى أبو بشير بن أسـد ، أو عتبة ، كان قد اعتنق الإسـلام وأقام لاجئا فى عمان لأسباب لم تعرف ، واستطاع أن يجمع حولـه نفرا من المسلمين فى محاولة لنشر هذا الدين فى عمـان ، غير أن محاولته لم تنجح ، وأخذ يتضاءل ، عدد مؤيديه حتى انخفض إلى ستين أو سبعين رجلا .

بيد أن المؤرخين العمانيين لهم رأى آخـر ، فهم يذكرون أن رجـلا يدعى مازن بن عضوبة قد توجه إلى مكـة فاعتنق الإسـلام ، وكان أول عمانى يعلن إسـلامه أمـام الرسول ، وهـذا الدليل الذى قد لا يصح أن نرفضـه يكفى لإظهار حقيقة واحدة ، وهى أن رسالة محمد إلى شيوخ عمـان التى دعاهم فيها إلى الإسـلام (والتى أوردها الصحارى فى نسخة فى مؤلفه) « أنساب العرب » — وهى ولا شك وثيقة مزورة — لم تكن المؤشر الأول للتغيير الكبير فى البناء الروحى لأهل عمـان .

أمـا أن محمـدا (صلى الله عليه وسلم) قد وجه رسائل إلى زعماء عمـان مثلما ما وجـه الى غيرهم من الزعماء فى شتى أنحاء العالم فإن تلك حقيقة مؤكدة ، وقد نقل رسالة النبى الى العمانيين عمرو بن العاص ، وأثناء مرور هذا المبعوث بالبريمى سلم رسالة إلى والى الفرس بالباطنة ،

ومنها توجه الى نزوى ، حيث يقيم الزعيمان الأزديان ، وحسب أكثر من مصـــدر ، فقد كان الزعيمان العمانيان هما جيفر وعبد نجلى أو حفيدى الجلندى بن المستكبر •

وكان رد الحاكم الفارسى ، ويدعى مسكان ، ردا فوريا ورفضـــا قاطعا ، غـــير أن زعماء الأزد ، بحكم طبيعة الحذر والتروى التى طبعوا عليها ، استغرقوا بعض الوقت فى اتخاذ القرار للرد على رسالة النبى •

منذ ذلك الوقت ظل العمانيون يراقبون ســـير الأحـــداث فى الحجاز وتطور الصراع الغريب ضـــد الوثنية الذى كان يقوده نبى الإســـــلام ، بالإضافة إلى أن العمانيين كما سبق أن أشرنا ، لم يكونوا يشعرون بحاجة إلى دين جديد ، كمـــا لم يكونوا فى عجلة من أمرهم لإعلان ولائهم للنبى ، خصوصا وأن العمانيين كانوا يعرفون مناعة بلادهم الطبيعية وبعدهـــا عن مقر الإســـلام فى شبه الجزيرة ، حيث تفصلها الصحراء عن بقيـــة أجزاء الجزيرة العربية ، ولهذا فقد كانوا يعتقدون أنهم يعيشون فى مأمن من أى غزو أو عدوان ، وأن فى وسعهم الانتظار ليعرفوا تطـــور الأحداث التى تدور فى الحجاز •

وفى القرن الأول الهجرى (٦٣٠ بعد الميلاد) وهو عام الوفود ، أرسل عمرو بن العاص ، وهو أحـــد دهاة السياســـة فى ذلك الوقت ، إلى عمان ، وعند وصوله عقد اجتماع هام لزعماء عمان ، يضم القبيلتين الرئيسيتين ، وفى هذا الاجتماع وافق العمانيون على طلب الرسول بدفع الزكاة ، بعد أن اقتنعوا أنه لم يعد فى وسعهم أن يتجاهلوا دعوة النبى ، أو التقليل ممـــا حققته من مكاسب سياسية أو أدبية •

ولقد أثرت اعتبارات كثيرة فى النتائج التى توصل اليها العمانيون والتى ساهمت فى تأكيد الاقتراحات التى طرحها رســـول النبى ، ومما لاشك فيه أن أنباء وفود قريش إلى النبى محمـــد فى أعقاب فتح مكة ، والهزيمة التى

منيت بها قبائل ثقيف وهوازن فى معركة حنين قد وصلت إلى عمان بالفعل ، وكان لها تأثير على الرأى العام هناك • وبالاضافة الى ذلك كانت هنـاك الرغبـة عند العمانيين فى إلقاء نير الفرس عن كاهلهم ، وما كانوا يتوقعونه من مكاسب سياسية مع الحكومة العربية الجديدة القوية فى المدينة ، ولعل تلك الاعتبارات كان لها أثرها على اجتماع نزوى ، وعلى القرارات التى اتخذت فيه ، وأصبح هناك اعتقاد أكيد بأن عقلا مدبرا كبيرا قد ظهر فى المنطقة ، وبأن حكومة مركزية قوية قد قامت فى شبه الجزيرة ، ويمكن لكل أن يتطلع اليها لاستمداد التأييد والتوجيه •

غير أنه من الواضح أن الاعتبار الدينى لم يكن له أى تأثير على قرار أهل عمان ، وقد خضع الاجتماع فى مداولاته للاعتبارات السياسية وحدها ، وهكذا اقتنع العمانيون بأن اعتناقهم للإسـلام وتحالفهم مع الرسـول أكثر أهميـة من احتفاظهم بالأصنام ، ومن هذا المنطلق اتخـذوا قرارهم ، كما اتخذت السلطات المختصـة فى نزوى الاجراءات الفورية لوضـع ذلك القرار موضـع التنفيذ •

وتم تشكيل وفد من بعض زعماء القبائل للتوجه الى المدينة والاعراب عن قبول العمانيين الدخـول فى الإسلام ، وفى الوقت نفسه أوفد عبد وجيفر مبعوثين إلى صحار وإلى دبا ، الواقعة شمال عمان ، يطلبون فيها من الناس الدخـول فى الإسـلام ونبذ الوثنية ، ولم تعارض تلك المناطق طلب الزعيمين العمانيين ، وهكذا فإن التحول الذى طرأ على عقيدة أهل عمـان تم بطرق سلمية دون إراقـة أى دمـاء ، وان كان ذلك التحول اسمـيا وسطحيا فقط ، ولا تذكر كتب التاريخ وقوع أى عمليات اضطهاد أو شغب ، كما لم يقع أى صراع على ذلك التحول من الوثنية الى الإسـلام ، والواقع أن العمانيين لم يكونوا يدركون تماما نتائج ما أقدموا عليه ، وحتى تلك اللحظـة لم تتيسر لهم معرفة تفاصيل دعـوة الرسول وأهدافها ، كما لم يكن فى وسعهم أن يتنبأوا بتلك التغيرات الهائلة التى سوف تحدثها دعوة

الرسـول (صلى الله عليه وسـلم) فى حياتهم وظورفهم من الناحيتين الروحية والاجتماعية •

ومن المحتمل أن يكون العمانيون قد ظلوا متمسكين بالعقائد الدينية السائدة فى مجتمعهم فترة من الوقت ، وربما حاولوا مقاومة العقيـدة الجديدة فى الوقت الذى قبلوا فيه التغيير بصـورة شكلية ، بينما لم تتأثر مشاعرهم أو مصالحهم بتلك التطورات ، ولم يتمكن الإسلام من الرسوخ فى عمان إلا بعـد مضى وقت طويل وبالتدريج •

إن الفكرة الأساسية التى يقوم عليها الإسـلام هى الوحدانية ، وقد جـاءت هذه الصفـة كرد فعـل على الثلاثية المسيحية . وعلى عبـادة الأصنام ، ووثنية الطبيعة ، ولعل هذا الجانب الحقيقى فى الإسلام كان السر فى قوته وحيويته وسموه الروحى ، فقد جاء سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) ليدعو الناس الى صيغة دينية جديدة ، وادخال أنماط جديدة من السلوك تحقق الخير والرفاهية للمجتمع بدلا من السجود للأوثان ، وانسمت دعوته بالتأثير الروحى وليس عن طريق العنف ، واقترنت الدعوة فى تطورها لعامل الزمن ، وللقدوة وللتثقيف المتواصل فى الدين الجديد •

وعند مغادرة وفد عمان يحمل رد العمانيين على دعوة الرسـول ، لم يرافقه عمرو بن العاص الذى بقى فى عمان لتعليم العمانيين وتثقيفهم تعاليم الدين الإسـلامى •

ولمـا كان الفرس قد رفضـوا دعوة الرسول لاعتناق الإسـلام ، وحرصا من عمرو بن العاص على إخضاع الفرس ، فقد شجع العمانيين على الثورة ضـد الوجـود الفارسى فى عمان وطردهم من البلاد • ولقـد كان طرد الفرس من أراضى عمان مطلبا قديما للعمانيين ، إلا أنه لم تكن لديهم القوة الكافية لتنفيذ تلك الرغبة ، ولهذا لم يترددوا فى اغتنام تلك الفرصة

لتحقيق آمالهم فى التخلص من الاحتلال الفارسى ، وهكذا استطاعوا بفضل التأييد الذى حصلوا عليه من عمرو بن العاص •

وقامت القبائل العمانية بحشد قواتها استعدادا لخوض معركة فاصلة مع الفرس ، وطردهم نهائيا من عمان •

وعندما رفض الفرس إنذار العمانيين بالدخول فى الإسلام والتخلى عن مطالبهم فى السيادة على البلاد العمانية ، نشبت المعركة بينهما ، وهى المعركة التى سقط فيها حاكم الفرس المرزبان وأصيبت قواته بهزيمة ساحقة اضطرتهم الى الانسحاب إلى معاقلهم الداخلية ، ولكن العمانيين لاحقوهم ، وقاموا بمحاصرة فلولهم ، إلى أن أرغموهم على الاستسلام فى النهاية ، مقابل أن يسمح لهم بالجلاء عن البلاد والعودة إلى فارس ، وبتلك المعركة تم تخليص عمان من الغزاة الفرس •

ولقد كان استقبال الرسول صلوات الله عليه للوفد العمانى استقبالا وديا كما يبدو ، وقد وافق الرسول على إعفاء العمانيين من دفع الزكاة ، شريطة أن توزع على الفقراء فى عمان • ومن المحتمل أن يكون الزعماء العمانيون الذين ذهبوا الى الرسول قد انتهزوا فرصة وجودهم فى المدينة لدراسة الأوضاع السائدة فى غرب شبه الجزيرة العربية ، كما أنه من المؤكد أنهم قد تأثروا جدا بشخصية الرسول (صلى الله عليه وسلم) والاحترام والتقدير الذى كان يحظى به بين أتباعه •

وعلى الرغم من أن ممثلى الأغلبية العظمى لقبائل عمان التى اجتمعت فى نزوى قد اتخذت قرارات للاعتراف بالنبى صلى الله عليه وسلم رسولا من عند الله واعتناق الإسلام ، غير أن هذا لم يكن هو الموقف الغالب بين العمانيين ، فقد امتنعت بعض القبائل من الدخول فى الإسلام ، حتى بين قبائل الأزد نفسها ، وهم الذين كان من المفروض أن يحذوا حذو زعمائهم

فى الدخـــول فى الإسلام ، إلا أنهم تمسكوا بدينهم ، وزيادة على ذلك فإن تلك الفئات لم تعدم الزعيم الشجاع الطموح الذى يتبنى موقفها فى معارضة قرار الأمراء الجلنديين ، وقد كان ذلك الشخص هو ذو التاج لقيط بن مالك من شـــيوخ الأزد ، وان كانت القبيلة التى ينتمى اليها غير معروفة ، فلقد عارض هـــذا الزعيم عمرو بن العاص فى قبوله الدخول فى الإسلام .

وبعد مضى عامين تقريبا على عودة الوفد العمانى من المدينـــة مرض الرسول (صلى الله عليه وسلم) مرض الوفاة ، ولبى نداء ربه ، وذلك فى العام الحادى عشر للجهرة ، وحتى ذلك الوقت كانت جميع أقاليم القبائل العربية فى شبه الجزيرة العربية قد دخلت الإسلام ، غير أن تيار الانتصارات الإسلامية لم يكن قد بدا يتدفق إلى ما وراء شبه الجزيرة .

وبعد وفاة الرســـول حدثت بعض الارتدادات عن الإسلام وفى عمان أيضـــا ، مما اضطر عمرو بن العاص إلى العودة بسرعة الى مكة واطلاع المسئولين بهـــذه الأحـــداث .

أما الجلنديون وعدد من القبائل الأخرى فقد ظلوا متمسكين فى ثبات بالاســـلام ، ولكن الأغلبية من العمانيين وقفوا موقف المعارضين ، وقد انتهـــز ذو التاج لقيط تلك الحالة ليعلن نفسه زعيما للجبهة المعارضـــة للإسلام ويضم اليه عددا من الأتباع ، وقد حقق نجاحا سريعا فى ذلك ، ولقد ظن هؤلاء أن الدولة الإسلامية قد لا تصمد أمام تلك التيارات . مما جعلهم يلتفون حول لقيط والسير وراءه كزعيم لاستقلالهم الدينى والوطنى .

وبدأت خلافة أبى بكر (رضى الله عنه) فى أجواء عاصفة ، ولقد لقى انتخابه شيئا من المعارضـــة ، وسرعان ما أخذت تفد اليه الرسل من كافة أنحاء شبه الجزيرة تحمل إليـــه أنباء الارتدادات والتمرد التى وقعت فى بعض المناطق .

ولقـد هال الخليفة أبا بكر أن يرى ذلك البناء الشامخ الذى اقامه الرسـول (صلى الله عليه وسلم) يتعرض لتلك المفاجآت ، إلا أنه لم يكن أمامه من سبيل إلا التركيز على المناطق الأقرب الى المدينة ، وبعد أن انتهى من تصفية تلك المشكلات ، وبدأت غيوم الخطر على الإسلام تنقشع ، وجه اهتمامه الى المناطق الأخرى النائيـة .

أما فى عمان فقد أخذت القبائل التى ظلت على ولائها للإسلام تلتف حول الزعماء الجلنديين فى نزوى ، وعلى رأسهم عبد وجيفر ، وأخـذت تتطلع إلى خليفة المسلمين أن يخف إلى نجدتها ومساعدتها .

وبما أن أقاليم جنوبى وشرقى شبه الجزيرة العربية كانت قد أعلنت التمرد ، فقد ترتب على ذلك وضع الخطط الكفيلة بإخضاع تلك الاقاليم بحيث يشملها كلها ، وعليه فقد تم اختيار قواد عسكريين كلف كل منهم للعمل مستقلا عن زملائه فى البداية ، ثم أخيرا تجمعوا فى عمان لتوحيد قواتهم . وكان هؤلاء القواد هم عكرمة بن أبى جهل ، الذى وبخه أبو بكر توبيخا عنيفا عن هزيمته على يد مسيلمة الكذاب ، ثم أوفده إلى عمان لكى يقوم بعمل يرد به اعتباره ، وعرفجه بن هرثمة ، وحذيفة بن محصن ، وقد قـام هؤلاء القواد بتنفيذ الخطة بنجاح . وبعد مسيرة طويلة منهكـة عبر الصحراء وصلوا الى توام فى عمان ، وطلبوا من جيفر وعبد زعمـاء الجلندى بملاقاتهم فى صحار حيث تم إعادة تنظيم القوات الإسلامية .

وانقسم العمانيون إلى فريقين ، أحدهما ضد الآخر ، وأحدهما وهو أكثرهم عددا كان يتزعمه لقيط بن مالك ذو التاج الذى ادعى النبوة ، ونصب نفسه زعيما للفريق المناهض للإسـلام ، مستغلا الظروف التى كانت تمر بها الحكومة المركزية الإسلامية بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ونجح هذا الرجل فى إقناع كثير من القبائل العمانية بالارتداد عن الإسـلام . وعلى الجانب الآخر المسلمون الذين كان يتزعمهم عبـد

وجيفر ، وكان هـذان الزعيمان قد قبلا عرض عمرو بن العاص فيما يتعلق باستقرار الأوضاع فى المدينة وتأكيداته لهم بأن الخليفة لن يتخلى عنهم وأنه سـوف يقـدم إليهم المساعدات اللازمـة لمواجهة أعـداء الإسـلام •

وقد رأى القواد المسلمون ألا يبدأوا الهجوم ضـد قوات ذى التاج التى كانت تفوقهم عدة وعددا ، ولكنهم فضلوا أن يلجـأوا إلى الحيـل العسـكرية ، فكلفوا عمر مزيقية بمحاولة إقناع قبائل الأزد بالوقوف الى جانب المسلمين والتخلى عن لقيط ، ولقـد نجحت هذه الخطة بدرجة تفوق التصور ، فقد انقلب قسم كبير من قوات ذى التاج وانضموا الى المسلمين ، بحيث تساوى عددهم مع قوات ذى التاج • ولاشك فى أن وصول عكرمة وحذيفة من المدينة بقوة رمزية قد اقنع العمانيين بأن الحكومة فى المدينة لا تزال قوية وثابتة ، وتتمتع بالقدرة على إثبات وجودها ، مما حمل المترددين على إعادة النظر فى موقفهم ، والعودة إلى معسكر المسلمين الـذى كان يزداد قـوة •

بعد هذا الحادث قرر المسلمون بدء الهجوم على القبائل المرتـدة ، وكانت قد تجمعت قواتها فى دبا ، وقد نشبت معركـة عنيفة وفاصلة بين المسلمين والمشركين امتدت رحاها طوال النهار وتخللتها مذابح ، غير أن نتائج هذه المعركة بقيت مجهولة وقتا طويلا •

أما قوات ذى التاج فبحكم موقعها الاستراتيجى لم تصمد لهجمات المسلمين فحسب ، بل ونجحت فى صدها ، وانهاك قوة المسلمين حتى كادت أن توقع بها الهزيمة ، لولا أن وصلت تعزيزات فى آخر النهار لتدعيم قوات عكرمة ، وهكذا قلب وصول تلك القوات فجأة ميزان المعركة لصالح المسلمين، غير أن المسلمين دفعوا ثمنا باهظا لتحقيق ذلك النصر ، وقد خسر المشركون عشرة آلاف قتيل ، وقام أنصار عبد وجيفر باجتياح ميناء دبـا واحراقه ،

والاستيلاء على ماكان فيه من موجودات ، بحيث لم يستعد ذلك الميناء أهميته ، كما أنه ظل مرتبطا فى أذهان المسلمين بذلك النصر الذى تحقق لهم من عند الله • ومنذ ذلك الوقت أخرست أصوات المشركين فى عمان ، وقبرت الوثنية فيها إلى الأبد ، ولهذا دخلت موقعة دبا فى التاريخ • واعتبرت بداية للعهد الإسلامى فى عمان •

أما زعماء الجلندى ومؤيدوهم من القبائل فقد ظلوا متمسكين بالاسلام ولهذا فقد كوفىء بعضهم من الغنائم التى تم الاستيلاء عليها ، وذلك تقديرا لهم على مساهمتهم فى النصر الذى تحقق للمسلمين • وفى نفس الوقت بادرت القبائل التى أيدت المرتدين عن الإسلام إلى إعلان ولائها للزعماء المسلمين فى عمان اماما حدث لذى التاج لقيط ، مدعى النبوة ، فإن الروايات لم تذكر شيئا عن ذلك ، ولعله تعرض لمطاردة حذيفة الذى بقى فى عمان ، بناء على التعليمات التى وصلت من أمير المؤمنين أبى بكر (رضى الله عنه) لإعادة الاستقرار والنظام وتدعيم الوجود الإسلامى فى عمان وتعميق العقيدة الاسلامية فى نفوس أهلها •

وقد كلف عرفجة بنقل الحصة الخامسة من الغنائم الى الخليفة ، وقد توجه بها إلى المدينة على الفور •

وتقضى التعليمات التى تلقاها عكرمة أن يتولى قيادة جيوش المسلمين ، ثم يتحرك نحو حضرموت التى ارتدت هى الأخرى عن الإسلام بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولكن بعد أن ينتهى من تحقيق الأمن والاستقرار فى عمان •

وأخذ عكرمة يستعد لتنفيذ تلك التعليمات ، وقام بتجهيز القوات المحاربة من أبناء الحجاز ، ثم غادر بالحملة إلى حضرموت والمهرة مصطحبا معه وحدتين عسكريتين إضافيتين من قبيلتى عبد قيس والنجيه بالاضافة إلى قوة صغيرة من رجال سعد بن زيد بن مناة بن قيم •

وعند وصول عكرمة إلى بلاد المهرة رأى أن أهلها منقسمين إلى فئتين ، فئة يتزعمها رجل يدعى سخريت والأخرى يتزعمها مصبح ، وقد ساعد هذا الانقسام المسلمين فى تحقيق الانتصار ، فقد نجح عكرمة فى كسب سخريت إلى صفوف المسلمين وأما مصبح فقد قضى عليه ، وفى ختام ذلك الانتصار عقد مؤتمر كبير من أهالى المهرة وحضرموت الذين أعلنوا فيه قبولهم الدخول فى الإسلام وإعلان ولائهم للخليفة •

وبعد سفر عكرمة من عمان خلفه حذيفة ، وكانت الأوضاع فى ذلك الوقت هادئة فى مظهرها ، ولكنها فى واقع الأمر كانت فى حالة اضطراب وقلق بسبب المرحلة الانتقالية التى كانت تمر بها البلاد • وواضح أن عبد وجيفر قد عجزا عن تقدير أهمية النتائج التى ترتبت على دخولهما فى الإسلام ، وعن التغييرات التى كانت ستشهدها عمان بل العالم كله •

فقبل ثلاث سنوات فقط من ذلك التاريخ كان العرب يعيشون فى حالة من الجهالة والبربرية ، ومنقسمين الى طوائف ومشيخات ، بينما هم الآن قد أصبحوا أمة عظيمة موحدة تربطها عقيدة فى غاية القوة والنقاء ، وعلى رأسها خليفة يوجهها ويقودها الى مزيد من الانتصارات والفتوحات •

ان الاسلام لم يكن مجرد عديد من العقائد الدينية الجامدة وإنما هو دستور كامل من الشرائع والقوانين الدينية التى تدعو العرب الى أن ينبذوا الوثنية ، لينتظموا فى مجموعة جديدة من القوانين التى لا تتناول أشخاصهم فحسب ، وانما تنظم علاقاتهم بعضهم ببعض ، وتحدد موقفهم ورؤيتهم من الملل الأخرى •

ولقد مس التغيير الذى جاء به الإسلام كل شىء ، غير أن الأركان الأساسية للإسلام وهى شهادة ألا إله إلا الله ، والصلوات الخمس ،

والصوم ، ودفع الزكاة ، وحج البيت ، وهكذا حل الإسلام ، وهو أكثر الأديان سموا فى تاريخ الإنسانية ، محل الوثنية التى كانت عقيدة تنحط بالإنسان •

وإنه لمن العسير على المحللين أن يقدروا أهمية النتائج التى أسفرت عنها دعوة الرسول للمسلمين والتغيير الذى أدخله على حياتهم ، وعليه فإن الرسول صلى الله عليه وسلم ، بوصفه مبعوثا إلأهيا للدين الاسلامى فقد كان يستحق التوقير والإجلال من العالم كله ، ذلك أن مهمة الأنبياء هى توسيع آفاق العمل الإنسانى ، ووضع القوانين التى تحـــرر الناس من الاضطهاد والعبودية والتخلف ، وتحـــديد العقوبات على المخـــالفين والعصاة ، وقد حقق الرســـول هذه القيم فى أكمل صورها وجاءت تشريعاته معبرة عن روح عصره وأمته العربية ، ونجحت تلك التشريعات فى محـــو الإساءات والتشويهات التى كانت تعانى منها شعوب الإنسانية ، كمـــا أحدثت تغيرات ليس لها مثيل فى أوضاعهم ، وسمت بالرفاهية الاجتماعية للأمـــة العربية •

ولكى نفهم أهمية تلك التغيرات فإنه من الضرورى أن نلقى نظـــرة فاحصـــة على معالم الحياة الروحية للناس فى العصـــور الوثنية • والواقع أنه من الصعب رسم صورة دقيقة للإنســـان العربى فى عهوده الوثنية ومرحلته الهمجية نظرا لأن الحماس المتدفق من ظهور الإســـلام قد محا كل أثر لصـــور تلك الحقبة ، إلا أنه أمكن استخلاص بعض الملامح مـــن الأدب العربى •

كان العمانيون مثل الحميريين والصابئين من عبدة الأوثان قبل الإسلام وكان يشاركهم الهنود سكان السواحل ، وكانت الآلهـــة التى يعبدونها متعددة ، فقد كان منهم من يعبد الكواكب ومنهم من يعبد الصخـــــور ، وكان لكل قبيلة من هذه القبائل آلهتها التى تحتمى بها ، وان كانت الآلهة فى الواقع مجرد وسيط بينهم وبين الخالق الأكبر ، ومنهم من كان يؤمن

بتناسخ الأرواح ، ولهـذا فقد كان أعظم إنجاز حققه الرسـول هـو تحريمه وأد البنات ، والزواج غير المحدود من النسـاء واستعبادهن ، وزواج الربائب وزوجات الأب ، والخمر ، ولعب الميسر ، ولكن الإسـلام احتفظ بالختان ، وتملك الأسرى ، وإن كان الحق الأخـير قد قام عـلى قيود ولم يتحول إلى مهلكة وقسـوة كالتى اقترفت فى بعض البـلاد المسيحية ، أو البـلاد التى تعتبر أكثر تقدمـا •

أمـا أن الرسـول كان مدفوعا إلى تلك الثورة التشريعية بحـكم دراسته ومراقبته للأوضـاع التى كانت تسـود الأديان الأخرى والمسيحية بوجه خـاص ، فإن تلك حقيقة لا يرقى إليها الشـك ، وربمـا كان فى وسع المسيحية التى سبقت الإسـلام بعدة قرون أن تحل محـل الأديان الأخرى فى آسيا الغربية لولا سلوك رجال الكنيسة الذين أرهقوا المسيحيين بشذوذهم ، فإن ميزة التفوق التى كان يتحلى بها الإسـلام هى فى مجال تحرره من سلطة رجال الدين ، فكان هـذا أمرا غاية فى الوضوح ، ولهذه الأسباب فإن المسيحية فشلت فى تلك المناطق ، ولم تتمكن بعـد ذلك أن تستعيد مكانتها • ولا مراء فى أن سـيدنا محمد قد وضـع عناصر لحياة إنسانية جديدة سـواء فى مجالاتها السياسية أو الاجتماعية أو الأدبية ، وهكذا استحوذت تلك العناصر على العقل العربى بصورة عجزت عنه المسيحية عجزا تاما ، ولهـذه الاعتبارات فإن الرسـول سـيدنا محمـد (صلى الله عليه وسلم) يعد أكبر مصلح عرفه التاريخ • ولعل حيويـة الإسـلام وفاعليته تكمن فى المشـاعر والأحاسيس التى فجرها بنفس القـدر الذى كانت تكمن فى مثل القرآن الكريم ومبادئه ، وإن سيطرة هذه الدوافع على عقل الإنسـان هى التى ميزت بوضوح مفهوم الحيـاة فى ذلك العصر ، ذلك أن أحـداث التاريخ الإسـلامى لا تزال حية فى أذهان أصحابه حتى الآن ، وانها قـد أثرت على سلوك المسـلمين ومواقفهم إلى حـد كبير •

وبطبيعة الحـــال فإن التغيير فى أفكار الناس وعاداتهم من جـــراء الإسلام قد استغرق وقتا أطول فى عمان ، ولم يتسن للإصـــلاحات أن تكون فى عمان بصورة واسعة قبل أن يذهب الجيل القديم ويظهر جيل عمانى جديد لا يعرف أى شىء عن النظام القـــديم ، غير أن الإسلام وتشريعاته كانت مساهمة كبرى فى تطوير المجتمع العمانى وتحقيق أقصى ما يمكن من الرخـــاء والرفاهية لأصحابه ، وهذا ما جعل العمانيون يرحبون بالإســـلام ويفتحون له قلوبهم •

بقى حذيفة فى الحـــكم ثلاث سنوات وكان معتدلا فى سياسته وفى ممارسته للسلطة ، ولم يســـجل المؤرخون وقوع أية حوادث أو شكاوى فى عهده بالنسبة لإدارته لشئون البلاد • وقد ركز اهتمامه على إزالة كل مظاهر مجتمع الوثنية وفى تعليم العمانيين مبادىء وتشريعات الدين الجديد ، وعمل ما فى وسعه ليمهد الطريق للدين الإسلامى تنويرا لعقول العمانيين ، ولابـــد من الاعتراف بأن عمان قـــد أخذت تشهـــد عهدا جديدا مـــن الاشراق والسمـــو الروحى والرخاء يوشك أن يطل على مجموعة الشعوب الإســـلامية •

وهكذا فإن الحضـــارة المندرســـة للفرس ، والديانات الغامضـــة كالزرادشتية وغيرها ، والأشكال النمطية للمسيحية والفساد الذى كان يستشرى بين رهبان الشـــام ، كل تلك المظاهر كان عليها أن تختفى وأن يحـــل محلها نظام أقـــوى وأوضح ليعم الدنيا كلها من ســـواحل الأطلسى الى سمرقند •

والواقع أن العمانيين بوجه عام لم يتخلوا نهائيا من عاداتهم ومعتقداتهم الخرافية بسهولة أو بغير صراع ، إذ لابد أن تكـــون قد تخللت تلك المرحلة بعض مظاهر المرارة والحقـــد والاضطهاد قبل أن يستقر القرار بالـــدين الإســـلامى ، ولعل تمرد لقيط قد أماط اللثام عن مـــدى رسوخ المؤسسات

القديمـــة فى باطن الوعى العربى وعن كيفية سيطرة المعتقدات الخرافيـــة القديمـــة على العقـــول •

ولابد أن يكون قد خرج الى الوجود أكثر من جيل عمانى واحـــــد قبل أن تختفى العصبيات القديمـــة وتحل محلها التغـــيرات والتطلعات الجديدة للإســـلام •

ولا يتحدث المؤرخون العرب عن العملية التدريجية لتلك التغييرات ولابد من التكهن لتحديد ملامح عمليات التصحيح التى سادت المجتمعات العربية فى تلك الفترة لكى تخلى مكانها للأفكار والمبادىء الجديدة •

ولكى نتعرف على الحالـــة المعنوية للعمانيين بعد ظهور الإســـلام فإنه يمكننا ذلك عن طريق مقارنتها بأوضاع أهل دمشـــق وبغداد اللتين تعتبر عمـــان صـــورة مصغرة لهما •

عند ظهـــور النبى صلى الله عليه وســـلم كان عبد وجيفر أمـــراء الجلنديين يقيمان فى نزوى أثناء ولاية حذيفة لعمان • وكان عبد قد توجه الى المدينة ضمن قافلة الغنائم والأسرى التى رافقت عرفجة فى رحـــلة العودة ، وعند وصول عبد الى المدينة التحق بالعمل على مايبدو لدى الخليفة أبى بكر رضى الله عنه ، وفى العام الثالث عشر من الهجرة (٦٣٤ م) توفى الخليفة أبو بكر وكان عمره حينئذ ٦٣ عاما ، بعد أن نجح بكثير من الجهد والمعاناة من لم شمل البلاد العربية التى كادت أن تودى بها الانشقاقات • وخلفه عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، الـــذى اشتهر فى سلوكه بالشـــدة والصرامة فى تطبيق الشريعة الاسلامية • ولأسباب ظلت خافية قرر الخليفة عمر استدعاء حذيفة من قيادته لقوات المسلمين فى عمـــان ، والسماح لعبد وجيفر بتولى السلطة بدلا منه واخضاعهما لسلطة الأمير الإســـــلامى فى البحرين أبى العاص الثقفى ، وكان من أشهر المحاربين •

وجدير بالذكر أن الوضع الخاص الذى منحه الرسول (صلى الله عليه وسلم) للعمانيين فى العام التاسع للهجرة بتوزيع قيمة الزكاة العمانية على فقراء عمان ، قد سحب فى أعقاب تمرد لقيط ، وتلقى المسئول فى البحرين تعليمات بإرسال الزكاة العمانية الى الخليفة .

وطوال خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، بقيت الإدارة الذاتية فى عمان تخضع للزعيمين الجلنديين ، وكانا يمارسانها بالاشتراك ، ونظرا لموقع عمان الطبيعى ، حيث يحدها البحر من جهة والصحراء من جهة أخرى ، فإنها لم تكن أقل المناطق تطورا عند ظهور الإسلام ، غير أن حوافز التطور التى فجرها الإسلام لابد أنها كان هائلة .

وكانت لعمان علاقات تجارية مع الهند والخليج . وعلى أية حال فإن اعتناق العمانيين للدين الإسلامى قد أيقظها من سباتها وبدأت تسرى فى أوصالها روح جديدة من الحماس الدينى والثقافى والعسكرى ، وأخذ تعداد السكان فى عمان يتزايد والحرف الصناعية تنتشر فى البلاد ، كما انضم كثير من شبابها للخدمة العسكرية مدفوعين بحماس العقيدة ، كما أخذت كل أسرة فى عمان تقريبا تشجع أبناءها على الانخراط فى الأعمال الملاحية والتجارية ، كما اختفت الصراعات والعصبيات القبلية ، وأخذ سيل من الثروة يتدفق عليها ، ويفسح لها الطريق لحياة الازدهار والترف ، كما تدعم التعاون الاجتماعى والاستقرار العائلى ، وأخذت القرى والأحياء المزدهرة تبرز وتنمو فى كل بقعة من البلاد ، واتسعت رقعة الأراضى الزراعية ، وساد البلاد نموذج من الحياة المتحضرة بعد أن كانت قبل وقت قصير غارقة فى الجهالة الوثنية والجمود .

وهكذا كانت الأوضاع فى عمان تبشر بخير عميم عند وفاة الإمام جيفر الجلندى فى نزوى ، وبما أنه لم ينجب ذرية فقد خلفه فى الامامة ابن أخيه عباد بن عبد ، وذلك فى عهد خلافة عثمان بن عفان .

وتحت نبض الاسلام وقوة تأثيره واصل عبـاد حـكم الدولة العمانية بالسـلام والرخاء الى أن وقع حادث اغتيال الامام على بن أبى طالب ، وأسفر عن أحداث وانقسامات أصيب بها المسلمون ، وأدت الى نشـوب صراع ضـد بنى أمية .

وقد رفضت عمان سلطان الخليفة الأموى الأول واحتفظت باستقلالها وكغيرها من أقطار شبه الجزيرة .

وإنه من المناسب أن نشير هنا إلى أن فترة نصف القرن التالية قـد شغلتها أحداث هامة فى انجلترا ابتداء من عام ٦٢٠ الى ٦٧٠ م وتمثلت فى الصراع البريطانى بين السلتين أى الشماليين والانجلو سكسونيين الذين قاموا بغزوها وانتهى الصراع بانتصار الأخيرين .

ولقد ترك الإمـام عباد حكم مملكته التى كانت تنعم بالاستقلال والرخاء إلى نجليه سليمان وسعيد ، ويبدو لنا أن كلا من يزيد ومروان خليفتى بنى أمية لم يتدخلا فى شـئون عمـان فى ذلك الوقت ، ربمـا لانشغالهما بأمور أكثر أهمية .

وفى عهد عبد الملك بن مروان الذى نجح فى توطيد دعائم حكمه بعد وفاة عبد الله بن الزبير ، تم تعيين الحجاج بن يوسف واليا على العراق فى سنة ٧٥ بعد الهجرة كما تبع ذلك فتوحات السـند وعمـان وسـاحل بلوشستان .

واقتصر الأمر فى البداية على ايفاد مندوبين الى تلك المناطق لتحصيل الزكاة لحسـاب الخليفة إلا أن العمانيين وقد شجعتهم الانتصـارات التى حققها الإباضيون فى مناطق أخرى من الامبراطورية رفضوا مطالب الحجاج بن يوسف مما اضطره الى التفكير فى استخدام القوة العسكرية لإخضاعهم

وعلى الفور جهزت حملة عسكرية عقد لواؤها القاسم بن شعوه المازنى ، وأبحرت فى العام السابع والسبعين للهجرة تقريبا •

ويعتقد المؤرخون بأن الحملة رست بالقرب من ميناء الجصة على ساحل عمان بحيث تمكنت من مفاجأة العمانيين بمجيئها من وراء خطوطهم ، ولكن يبدو أن القوة نزلت فى مكان آخر وهوبتى الواقعة فى منطقة وادى الميح وهى منطقة وعرة متعرجة تتناثر فوقها سلاسل من الصخور •

وعلى الجانب الآخر كان الإمام سليمان قد أعد العدة لمواجهة قوات الحجاج ، وكانت قبائل الأزد ونزار تقف كلها من خلفه ، وأقامت القوات العمانية معسكرها فى نقطة تمكنها من مواجهة الخصم عند الاحتكاك به •

وفى وادى حطاط التقى الجيشان ونشبت المعركة بعد أن تدفقت القوات القبلية العمانية الى ميدان المعركة عبر وادى سمايل ، وهو الطريق العام فى عمان •

واذا كانت المراجع التاريخية لا تعطى رأيا حاسما عن حجم القوتين ، إلا أنه من المؤكد أن العمانيين قد حشدوا جيشا جرارا ، وكان جيشا واثقا من نفسه ومن معرفته الدقيقة بأراضيه ، وهكذا نشبت معركة ضارية قاتلت فيها قوات الخليفة ببسالة نادرة ، غير أنه كان فى وسع العمانيين أن يهاجموا جيش الخليفة من نقاط كثيرة ، وكانت هجماتهم ساحقة لاتقاوم •

وقد قتل قاسم المازنى قائد جيش الخليفة أثناء المعركة ، وخسر عددا كبيرا من أفراد جيشه لم ينج منهم إلا عدد قليل لاذوا بالفرار عن طريق البحر •

ونتيجة تلك المعركة أنقذت عمان مؤقتا من الغزو ، غير أن ذلك النصر كان نصرا قصير الأجل ، لأن عبد الملك بن مروان الذى هزمت قواته بصورة

مشينة على أيدى العمانيين ثارت ثائرته ، ولهذا أصدر أوامره لإعـداد قوة أكبر لغزو عمان ، لمحـو العار الذى لحق به ، « ومعاقبة المتمردين العمانيين » .

وكانت الحملة الجديدة التى خطط لها وأشرف على إعدادها الحجاج بن يوسف شخصيا ، وأظهر فيها كل مهاراته العسكرية ، وقد عقد لواءها لمجاعة بن شعوة شقيق قاسم ، بلغ من حرص الحجاج على إنجاح حملته العسكرية الجديدة على العمانيين أنه حذر جماعة الأزد فى البصرة من الاشتراك فيها أو تقديم المساعدة للعمانيين بأى شكل من الأشكال .

وقدر عدد أفراد الحملة هذه بنحو أربعين ألفا من الفرسان والمشاة وبالرغم من أن هذا الرقم قد يكون فيه مبالغة ، إلا أن الـذى لاشك فيه هـو أن الحملة الثانية كانت أقوى وأكبر من الأولى .

ولكن حتى هذه الحملة منيت بالفشل ، وذلك بسبب فقدان التعـاون والتنسيق بين فصـائل قوات الحجاج ، وان كان الانتصار الذى حققـه العمانيـون هذه المرة قد كلفهم ثمنا باهظا .

وبما أن الإمام سليمان قد عرف بأمر الحملة مقدما فقد حرك قواته التى كانت تتألف من ٣٠٠٠ فارس و ٣٥٠٠ من راكبى الجمال ، وبعد عبور هذه القوة منطقة البريمى التقت بجيش الحجاج فى أبو ظبى ، وانقض بعنف على قوات الحجاج رغم تفوقها فى العدد فاضطرت الى التقهقر عبر صحراء الدهناء .

وفى الوقت الذى كانت هذه الأحداث تجرى كان مجاعة يبحر بأسطوله عبر الخليج فنزل بقواته على ساحل الباطنة فى منطقة قريبة من المصنعة ، ومنها تحرك نحو بركا ، والتحم بقوات سعيد بن عباد الجلندى الذى انهار جيشـه بسرعـة .

هرب سعيد بن عباد الى الجبل الأخضر غير أن مجموعة من الجيش النزارى تعقبته الى هناك وحاصرت قواته • أما سليمان الذى كان قد ظهر منطقته من الغزاة فى الناحية الشمالية من عمان وبلغه وصول مجاعة فقد عاد الى الباطنة ، وعند وصوله الى مسقط وجد أسطول الخليفة الذى يتكون من ٣٠٠ سفينة راسيا فى الميناء ، فهاجمه وتمكن من اقتحام وتدمير وحرق نحو ٥٠ سفينة من الأسطول ، بينما فرت بقية السفن الى عرض البحر •

وبعد أن تمكن سليمان من القوة البحرية لخصمه ، تحرك بقواته الى وادى سمايل فى محاولة لانقاذ أخيه سعيد • وكانت قوات مجاعة بن شعوة ترابط فوق التلال ، ويبدو أن جيش مجاعة كان قويا وكان قد وزع توزيعا استراتيجيا ، ولهذا فلم تسفر المعركة التى نشبت بين الجانبين عن نتيجة حاسمة ، وفى النهاية ادرك مجاعة أن مركزه غير مضمون ، فقرر أن يتراجع وهكذا انسحب من مواقعه عبر ساحل الباطنة وتوجه الى جلفار •

علم الحجاج بهزيمة مجاعة فى موقعة أبو ظبى على يد الإمام سليمان بن عباد ، وأصيب بخيبة أمل كبيرة ، الا أنه لم يستسلم ، وأخذ على الفور فى إعداد قوة أخرى بنحو ٥٠٠٠ فارس ، وعين قائدا عليها عبد الرحمن بن سليمان الذى تحرك على الفور متجها الى عمان عبر طريق الصحراء ، وفى سمايل التقى الجيشان • وبوصول القائد الجديد عبد الرحمن الى ميدان المعركة وبجيش قوى تغيرت الصورة ، وتمكن مجاعة من استئناف هجومه على العمانيين الذين كانوا قد انهكوا من طول القتال ، واستنزفت قواهم من جراء المعارك المتواصلة ، التى كانوا يخوضونها دفاعا عن بلادهم ، كما أن وصول امدادات جديدة الى قوات الحجاج قد أثر على معنوياتهم ، ومن ثم فقد قرر الأميران الجلنديان وقف الحرب ومغادرة البلاد ، وهكذا خرجا من عمان ، هما وعائلاتهما واتجها إلى شرقى إفريقية ، وهناك قضيا بقية حياتهما • وهكذا كانت النهاية لحكم أسرة الجلندى فى عمان •

وأعقب ذلك خضـــوع أهل عمـــان لسيطرة الحجاج وتعرضهم لعمليات اضطهاد قاسية انتقاما للمقاومة العنيدة الباسلة التى أظهروها ضـــد الخليفـــة .

وقد غمرت الحجاج السعادة فى الإنتصار الذى حققه جيشه على العمانيين بعد نكسات وهزائم عديدة ، وقد عين على عمـــان الخيـــــار بن سبرة المجاشعى ، ومنحه لقب أمير ، كمـــا فرض ضريبـــة جديدة عـــلى العمانيين بالاضافة الى الزكاة .

بعد هذا الفتح الـــذى أسفر عن تشريد عائلات الأزد ، قرر عبـــد الملك بتحريض من الحجاج بن يوسف أن يمـــد سيطرته إلى الهند ، ولمـــا كان جزء كبير من ساحل مكران قـــد خضـــع بالفعل لبنى أمية ، فقد عين الحجاج سعيد بن أسلم بن زرعة القلالى حاكما على ســـاحل مكران ، وأعطاه التعليمات بمواصلة الحرب ، وقد قام سعيد باعدام شخص يدعى صفن بن لام الحمامى ، وينتمى إلى أسرة العوفى العمانية ذات النفـــوذ ، وهى من بنى عصمة . وقد ثار على ذلك العمل محمد ومعاوية نجلا حراص العوفى ــ وهاجما الوالى سعيد بن أسلم وقتلاه واستوليا على السلطة . وبمجرد أن أبلغ الحجاج بن يوسف بذلك الحادث أمر باعتقال سليمان العوافى من أهل البصرة واعدامه ، كمـــا اتخذ فى الوقت نفسه اجراءات صارمة لتأكيد سلطته وذلك بإيفاد جناح بن سبرة التميمى على رأس قوة عسكرية وأمره بالتوجه إلى كرمان .

حل محمد بن هارون بن زرعة المعمرى محل مجاعة ، وفى عهـــد محمد هـــذا قام بعض القراصنة من السند بالهجوم على ثمانى سفن كانت فى طريقها من سيرلانكا بشحنة من الهدايا للخليفة ونهبوها ، وعندمـــــا بلغ الحجاج ذلك ســـير حملة بقيادة عبيد الله بن نبهان لتأديب القراصنة ، غير أن الحملة هزمت ، وذبح قائدها عبيد الله باشتراك بعض العمانيين ،

إلا أن الحجاج لم يرضخ لتلك النتيجة وجهز حملة أخرى أكبر بقيادة بديل بن تحفة البجلى ، وكان هذا يرأس بعض وحدات الجند التابعة للخليفة فى عمان • وقيل أن الحملة توجهت بطريق البحر ، ولكن هناك احتمال آخر ، وهو أن تكون الحملة قد تحركت عن طريق مكران حيث كان الوالى هناك محمد بن قاسم قد تلقى تعليمات من الحجاج بتزويد الحملة بـ ٣٠٠٠ مقاتل بالاضافة إلى إمدادات أخرى أرسلت من عمان بقيادة عبد الله بن قحطان ، غير أن محمد بن قاسم الذى فتح السند أصدر فيما بعد عفوا عن جميع العمانيين •

فى عام ٨٦ بعد الهجرة الموافق ٧٠٥ بعد الميلاد توفى عبد الملك بن مروان ، وخلفه أكبر أنجاله الوليد الذى أطلق عليه « فرعون بنى أمية » وفى عهده اتسعت آفاق الامبراطورية الاسلامية ، وارتقت إلى أعلى ذراها وقوتها من حيث المساحة التى شملتها •

وبالرغم من أن الوليد أبقى على الحجاج فى العراق ، إلا أنه أجرى حركة تنقلات لبعض الحكام الصغار العاملين تحت سلطة الحجاج فى بعض الاقاليم ، ومن بينها عمان التى عين فيها صالح بن عبد الرحمن الليثى •

وحل يزيد بن أبى أسلمة محل الحجاج فى العراق مما تترتب عليه تعيين يزيد بن سيف بن هانى الحميدان واليا فى عمان •

وفى عام ٩٦ بعد الهجرة تولى سليمان بن عبد الملك الخلافة بعد أخيه الوليد ، وعلى الفور أجرى حركة تنقلات بين المناطق العمانية ، فعين صالح ابن عبد الرحمن حاكما عاما ، إلا أنه أدرك فيما بعد ضرورة إعادة أولئك المسئولين إلى وظائفهم ، بينما ترك صالح أميرا على عمان •

ولم يستمر صالح بن عبد الرحمن طويلا فى السلطة ، فعندما تولى

يريد بن المهلب ولاية بغداد عام ٩٨ بعد الهجرة قام بتعيين أخيه الصغير زياد محـل صالح عبد الرحمن ، ولمـا كان آل المهلب قد ذاع صيتهم فى الكرم والأريحية ، فلم يكن من المستغرب أن يؤكـد المؤرخون العمانيون على تأييد العمانيين لحكم زياد ورضاهم عنه .

وعندما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة تورط يزيد بن المهلب فى فضيحة فى دمشـق ، فحل محله زياد بن على الفزارى كحاكم على عمان ، غير أن هذا الأخير عين شخصا آخر بالنيابة عنه لحكم عمـان ، فأفسـد هـذا فى الحكم مما اضطر العمانيين إلى أن يطلبوا من الخليفة سحبه . وعلى العموم فقد كانوا راضين عن زياد . إلا أن عمر كان غير راض عن آل المهلب ورفض تثبيت زياد فى عمان ، وأخيرا عين أميراً جديدا هـو عمر بن عبد الله بن صبيحة العوسرى ، وقـد أيده العمانيون لعدله ونزاهته فى الحكم ، وبقى فى هـذا المنصب حتى نهاية عمر .

وبعد اغتصـاب يزيد للحكم فى البصرة ، استدعى عمر بن عبد الله العوسرى وعين بدلا منه أخاه زيادا كحاكم على عمان .

وبالنسبة لمعركة دبا ، التى وقعت فى العام الثانى عشر بعد الهجرة ، أشرت إلى أن أبا صعرة الأزدى كان أحد الشبان الذين وقعوا فى الأسر بعـد سقوط تلك المدينـة .

وبالتالى فان تعيين حفيد هـذا الزعيم وهو زياد كحاكم على عمان يسمح لنا برسم صـورة مصغرة لهذه الأسرة العمانية التى ذاع صيتها فى العالم الإسـلامى من حيث المركز والإنجازات ، التى قامت بها خلال حكم بنى أمية على نفس المستوى الذى ذاع فيه صيت البرامكة خلال حـكم العباسيين ، والاسم الكامل لأبى صعرة هو سالم بن سراق العتيقى الأزدى ، وقـد أقام فى البصرة كما يبدو ، وأنجب ثلاثة أبناء هم المهلب ، وصفرة ، ومـورق .

ولقد كان المهلب من أبرز الرجال وأعظمهم موهبة ، وكان أحد زعماء عصره ، وقد ولد على ما يبدو بعد عشرين عاما من وفاة الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه ، ولكنه لمع وهو لا يزال فى سن الشباب .

ولقد لعبت قبائل الأزد دورا هاما فى الحروب التى نشبت فيما بين المسلمين أنفسهم ، مما كان له تأثير على مجرى الأحداث فى تلك المرحلة من التاريخ .

ويبدو أن هذه الأسرة العمانية بما كانت تتمتع به من قوة ونفوذ والتى استولت على بعض الأقاليم الفارسية كهرمز ، ولارستان ، قد أسهمت بدور كبير فى بناء الامبراطورية الاسلامية ، ولقد تغنى الشعراء العرب بشجاعتهم وفضائلهم وأريحيتهم . واستطاعوا إلى حد ما أن يستعيدوا بعض أمجادهم فى عهد العباسيين ، أما فى أواخر عهد بنى أمية فقد وصل الحقد والعداء عليهم إلى أقصى الحدود .

وبعد خمسة عشر عاما من اعتناق العمانيين للمذهب الأباضى انهار حكم بنى أمية ، وقامت دولة العباسيين بزعامة عبد الله بن محمد الملقب بأبى العباس السفاح ومؤسس الدولة العباسية الذى أتخذ من الهاشمية مقرا له .

وفى عام ١٣٣ بعد الهجرة منح أبو العباس حكم البصرة وتوابعها — البحرين وعمان — إلى عمه سليمان بن على الذى كلف بدوره جناح بن عبيدة بن قيس بن عمر على الهنائى بحكم عمان . وبالصدفة فإن عددا كبيرا من أصدقاء بنى أمية ومؤيديهم الذين كانوا قد فروا من البصرة بعد الأحداث التى وقعت فيها ، وتمثلت فى المعركة التى قادها ضدهم جيش من خراسان ، لجأوا إلى عمان التى استضافهم أهلها ومنحوهم الحماية ، غير أن المسئولين فى الدولة العباسية لم يشاءوا فى البداية التعرض لتلك الأسر انتظارا لفرصة مواتية .

فى ذلك الوقت كانت عمان قد تحررت من السيطرة الخارجية ، كما كان العمانيون راضين عن النهاية التى انتهى إليها الأمويين بعد أن ذاقوا على أيديهم مر العذاب ، فقد كانوا يشعرون بالقلق من حكم أولئك الخلفاء ، ولذلك فإنهم لم يرحبوا بالدولة العباسية ، غير أن المرحلة لم تكن مواتية لإعلان ثورتهم ، كما لم يرغبوا فى أن يجعلوا من أنفسهم هدفا لنقمة أبى العباس السفاح • ولهذه الأسباب فضل العمانيون السكوت مؤقتا والسماح لمبعوث العباسيين بممارسة مهامه وبدفع الزكاة إلى الخليفة •

كان جناح بن عبيدة حاكما حذرا وحصيفا ، وكان يعى تماما ما يسود موقفه من حساسية وظنون ، ولهذا فقد سعى إلى كسب رضاء العمانيين وانتهاج سياسة الاعتدال والليونة ، وتجنب كل مامن شأنه أن يثير المشاعر ، كما كان على ما يبدو يتعاطف مع العمانيين لدرجة أنه اعتنق المذهب الأباضى بنفسه ، وأصبح من أكبر الدعاة لهذا المذهب • غير أن ذلك الموقف كان لابد أن يغضب المسئولين فى الهاشمية ، وسرعان ما صدر قرار بعزل عبيدة وتعيين نجله محمد خلفا له •

وعلى أية حال فقد أطلق تعيين محمد بن جناح الاضطرابات السياسية من عقالها فى كل أنحاء عمان ، وأما والده فقد أعلن بعد صدور القرار بفصله بأنه من أتباع المذهب الإباضى ، وشرع فى تأليب الشعور المعادى للخليفة ، وتحريض العمانيين على الثورة ضد السيطرة العباسية •

وانحازت الطوائف السنية من العمانيين إلى الحاكم محمد بن جناح ، ولكن الفئات الإباضية التى كانت تشكل الجانب الأقوى فى عمان رفضت سيطرة الخليفة وجمدت الزكاة ، مما اضطر الحاكم محمد بن جناح بعد أن أصبح موقفه حرجا أمام تهديدات الطوائف المنشقة ، إلى مغادرة عمان ، والتوجه إلى الخليفة فى بغداد لعرض الأمر عليه •

ولقـــد أعقب ذلك فترة من الاضطرابات والصراع المرير ، وتفجرت الأحقاد القبلية القديمة والعداوات المذهبية ، وبالرغم من أن جنـــاح ابن عبيدة كان قد ربط مصيره بالطائفة الإباضية ، الا أنه على ما يبدو لم يكن له دور قيـــادى فى الحركة المناهضة للخليفة ، مما اضطر العمانيين إلى اختيار رئيس جديد لهم ، ولم يطل الوقت بهم فقد قام العلماء ورجال الدين بانتخاب أمام جديد هـــو الجلندى بن مسعود .

كان هـــذا الاختيار نقطة تحول فى تاريخ عمـــان ، لأن هـــذا الإمام كان الرجل الذى أجمع الإباضيون على انتخابه بمحض إرادتهم ، وعليه فقد لقب (بالإمام الصالح) ـــ ولقد برهن الجلندى بن مسعود على كفاءة ومقدرة نادرتين ممـــا أتاح لـــه الفرصـــة لتصفية الاضطرابات وبعث الروح الثورية والحماس المذهبى فى العمانيين .

غير أن تلك التطورات قد هيأت ، من ناحية أخرى ، الفرصة التى كان يتحينها الخليفة العباسى لتوجيه الضربة إلى عمـــان ، فقد كان مصمما على اتخاذ كافة الاجراءات لإشباع شهوته وتثبيت سلطته .

ولم ينس الخليفة العباسى الأمويين الذين تمردوا عليـــــه ولجأوا إلى عمـــان ، فقد كان مصمما على الانتقام منهم ، وعلى الرغم من أنهم كانوا يتمتعون بالحماية فى عمان إلا أنه كان واثقا من أنهم فى متناول يده ، وليس هؤلاء وحدهم فحسب ، بل الزعماء العمانيون الذين آووهم ،وتمردوا على سلطته وقاموا بطرد ممثله .

وهكذا فى عام ١٣٣ بعد الهجرة صـــدرت الأوامـــر بإعداد حملـــة عســـكرية وضعت تحت قيادة الشيخ شيبان . غير أن الخليفة العباسى هو الآخر ارتكب نفس الخطأ الذى وقع فيه عبد الملك بن مروان وذلك للتقليل من قـــوة خصومه ثم تبين لـــه أن الحملة كانت أضعف مما يجب ، كمـــا

كان يجب أن تبحر الحملة من ميناء البصرة ، (ثم تلتقى عند وصولها بكتائب قبائل السنية والنزارية بقيادة هلال بن عطية الخوراسانى ويحيى ابن نجيبه) •

وقد تمت العملية فى موعدها المحدد • وفى مدينة توام تقابلت القوتان العمانية والخليفية ، وقد كلف الإمام الجلندى كلا من هلال ويحيى بقيادة القوات العمانية غير أن نتيجة تلك المعركة ، والتى سقط فيها القائد الإباضى يحيى من الجانب العمانى ، وشيبان القائد العام لقوات الخليفة من الجانب الآخر ، لم تحسم الموقف بين الجانبين •

وحال مصرع شيبان من مواصلة العمليات من جانب قوات السفاح ، وقد تم إبلاغ نتائج المعركة إلى السفاح الذى ثارت ثائرته عند سماع أخبارها ، وأمر على الفور بإعداد حملة من الامدادات وكلف خازم بن خزيمة بقيادتها •

وقد وصلت الحملة الثانية إلى عمان دون أن يتعرض لها أحد • ولما كان القائد الجديد للحملة واثقا من نفسه ، فقد خير الإمام الجلندى بين الدخول فى طاعة الخليفة وتسليم اللاجئين الهاربين أو الحرب •

رفض الإمام الجلندى إنذار خازم بن خزيمه بعد أن عقد مجلس حرب مع كبار زعماء البلاد ، كما رفض الزعيم العمانى تسليم ختم وسيف القائد القتيل شيبان ، وهكذا أصبح لا مفر من القتال الذى دارت معاركه فى جلفار ، وانتهى بهزيمة ساحقة للعمانيين ومصرع قائدهم هلال بن عطية وأسر الإمام الجلندى واعدامه ، بعد حكم ناجح دام عامين وشهرا •

كان هذا فى عام ١٣٥ بعد الهجرة وكان خامس غزو تتعرض له عمان منذ أن أسلم جيفر وعبد فى « عام الوفود » أى قبل ١٢٥ عاما من ذلك التاريخ •

وفى أعقاب تلك المعركة انفسح المجال للطوائف السنية فى عمـــان لإثبات وجودها . فلم تتردد فى اغتنام تلك الفرصـــة فى ظل حـــكم خازم ابن خزيمه للانتقـــام من الإباضيين بشن حمـــلة من عمليات الاضطهاد والنهب والإرهاب ، حتى أن المؤرخين العمانيين أطلقوا عليهم اسم « جبابرة عمان » لمـــا اقترفوه من فظائع ضـــد الإباضيين بدرجـــة تقشعر منهـــا الأبدان .

وتقول الروايات التاريخية أن خازم بن خزيمه عاد بالقـــوات الى العراق دون أن يعين ممثلا للخليفة فى عمـــان ، ولهـــذا وقعت البـــلاد فى غمرة من الفوضى والاضطرابات .

غير أن الجلنديين عادوا الى المسرح فخرج منهم محمد بن زيد ، وراشـــد بن شاذان بن النظر ، وبمجرد أن استولى هذان الزعيمان على السلطة ، قام غسان النهائى من بنى محارب بالهجوم على نزوى فى شهر شعبان ١٤٥ هـ ونهبها ، كما هاجم قبائل بنى نافع وبنى حنين ، وتمكن من إجلائهم عن تلك المدينة بعد مجزرة مروعة . إلا أن غســـان استهدف هو الآخـــر فى الانتقام ، فأغتيل من جانب مجموعة من بنى الحارث الذين كانوا قـــد تمركزوا فى العتيق ، الواقعة بين صحار ودبا ، لكن هؤلاء أيضا استهدفوا لهجوم من الجلنديين فى أبرا ، إلا أن بنى الحارث صدوا الهجوم بعـــد أن فقدوا أربعين رجـــلا .

كل هذه الأحداث وقعت فى عهد الخليفة المنصور الذى كان قد أمر بتدمير المدائن ، ونقل مقر الحكم من الأنبار الواقعة على نهر الفرات إلى بغداد على نهر دجلة ، وهو نفس المكان الذى سبق لبختنصر الملك الحصيف البسيط قبل ١٣ قرنا أن يختاره ويشيد عليه مدينته المعروفة .

أما فى عهد الخليفتين المهدى والهادى (١٨٥ — ١٧٠ هـ) ، (١٧٤ — ٧٨٦) فلا توجـــد معلومات مسجلة عما كان يجرى فى عمان ، كمـــا أنه

من غير المؤكد أن حكومة الامبراطورية كانت فى وضع يسمح لها بممارسة أى سيطرة على الإدارة أو جباية الضرائب والزكوات • وأما عن الأوضاع الداخلية ، فهناك الكثير من المعلومات عن الصراع الطائفى المرير ، بين المتزمتين والمعتدلين للسيطرة على الأمور وقد ظل محتدما على امتداد نصف القرن ، الذى أعقب ذلك مسببا هوة سحيقة بين الطوائف الدينية المتناحرة •

وخلال تلك الأجـواء تمكن الإباضيون أخيرا من الإمسـاك بزمام الأمور ، من خلال تمكنهم من انتخاب إمام جديد لهم فى العاصمة نزوى سنة ١٧٥ بعد الهجرة وهو الشيخ موسى بن أبى جابر الأزكانى ، والذى على ما يبدو كان لـه دور مؤثر فى عملية الانتخاب ، غير أن هـذا الامام تخلى عن الإمامة للشيخ محمد بن أبى عفان بعد أن رشحه لذلك المنصب •

وعلى مدى عامين تمكن هذا الإمام من ممارسـة الحـكم بحـزم بمساعدة مؤيده القوى ، بالطبع ، الشيخ موسى • غير أن سلوكه فى الحكم وتعجرفه أرغمه على التخلى والانسحاب •وقد عقد مؤتمر بعد ذلك أقر تنحية أبو عفـان ، وتولية الشيخ الوارث بن كعب الخروصى الشـارى اليحمدى وذلك عام ١٧٧ بعد الهجرة •

وخلال هذه الفترة لم تكن العلاقات بين الاقليم العمانى والحكومة المركزية فى بغداد على مايرام ، نظرا لامتناع العمانيين عن دفع الضرائب ، مما جعل حكومة بغداد تفكر فى اتخاذ التدابير العسكرية لفرض الطاعـة عليهم • وبمـا أن الأسباب الحقيقية لتوتر العلاقات لم تعرف ، فإننـا سنعول على الافتراضات فى تحديد الأوضاع العامة ، والعوامل التى تملى على الحكام سياستهم القومية •

وينبغى أن نتذكر بأن هـذه هى المرة الرابعة أو الخامسـة التى يتحـدى فيها أهل عمان حكومة الخليفة ، ولكن ذلك الموقف ليس مقطوع

الصلة بالنجاح الذى حققه العمانيون فى الميدان السياسى بعد أن ادركوا أن وضـــع حكومة الامبراطورية قد يسمح لهم بتأكيد استقلالهم • وكانت تصوراتهم كما يتبين فيما بعد صحيحة إلى حدما ، وكانت نقطة الضعف الوحيدة فى ذلك الموقف تكمن فى الانقسام الـــذى يسببه التطرف الطائفى •

وليس من شـــك فى أنه لو استطاعت القبائل العمانية المحاربة أن تهضم خصوماتها المذهبية وتنضوى تحت لواء جيش قـــوى موحـــد فلربما استطاعت الحفاظ على استقلالها • وصـــدت بغداد عنها • فسلسلة الجبال فى عمـــان تهيىء مانعا دفاعيا طبيعيا ، يسمح للعمانيين بالتحصن فيما بين الاستحكامات والقلاع والأودية التى تتناثر فيها ، وتجعل من الصعب على أى قوة غزو أن تنال منها •

ويقول أحـــد ثقاة المؤرخين العرب ، وهو البلاذرى ، أن أهل عمان امتنعوا عن دفـــع الضريبة المفروضـــة عليهم فىعهـــد الخليفـــة هارون الرشيد ، فأرســـل الأخير حملة بقيادة عيسى بن جعفر من البصرة لفرض الطاعة عليهم ، ولكن جنود الخليفة ارتكبوا فظائع مما حمل العمانيين على مقاومتهم وقتل قائدهم ، واعلان عمان دولـــة مستقلة • ويعزز أقـــوال البلاذرى المؤرخون العمانيـــون الذين يقدمون معلومات مفصلة عن تلك الحملة التى انتهت نهاية مفجعة لهيبة الخليفة • وكان جيش هارون الرشيد يتألف من ١٠٠٠ من الخيالة و ٥٠٠٠ من المشاة وتم نقله عبر أسطول نقل ضخم • ووصل هـــذا الجيش إلى عمـــان فى نحو سنة ١٨٧ بعد الهجرة (٨٠٢ م) •

وعند نزول الجيش لم يواجه أية مقاومة تذكر واستطاع احتـــلال الساحل دون قتال • ولو أن قائد الجيش واسمه الكامل عيسى بن جعفر بن سليمان بن على بن عبد الله بن العباس (وكان من أسرة البيت الحاكم فى بغداد) استطاع أن يسيطر على أصحابه ، وينهج سياســـة العدل والمرونة

مع أهل عمان فلربما نجح فى كسب ود العمانيين وإعـادة فرض سلطان الخليفة دون حاجة إلى استخدام القوة وسفك الدماء • غير أن عيسى لم يهتم بذلك ، ثم إنه لم يدخل فى اعتباره ضعف موقفه العسكرى • وهكذا فجرت تصرفات أفراد جيشه غضب العمانيين • فعند نزول القوة الغازية أظهر الشعب هدوءا غريبا ، ولم يدرك قائد جيش الخليفة أن براكين الثورة كانت تشتعل فى ثنايا الشعب ، وهكذا اشتعلت نارها من أقصى عمـان إلى أدناها •

وفجأة أعلنت عمان الثورة ، وفى إطار من السرية وسرعة التعبئة ، التى عرفت بها القبائل العمانية فى فترات الحروب ، أخذت جموعها تتدفق هادرة كالسيل ، لتنضـوى تحت قيادتها القومية ، وأخذت فرقها تهرول نحـو سهول الباطنة لتضع نفسها تحت إمرة القائد العسكرى العمانى ، فارس بن محمد ، الذى كلفه الإمام الوارث بتولى القيادة العامة •

كان أسطول الخليفة قد ألقى مراسيه فى الطرف الشمالى الغربى من ساحل الباطنة فى مكان يقع بين صحار وشناص ، أما القائد عيسى فقد عسـكر فى وادى حطاط ، أو بالأحرى بالقرب منه ، ولكنه لم يفكر فى التقدم بقواته مسافة أبعد نحـو المنافذ الداخلية للبلاد •

وقد انخدع قائد الخليفة بالموقف السلبى الذى اتبعه العمانيـون فى البداية ، غـير أنه كان بين شعب يتصف بالصـلابة والعنف ، وحيث لا يستقر السيف أو النصـل فى غمديهما ولا مكان للضعفاء أو الغرباء ، وهكذا فقـد لقى عيسى نفس المصـير الذى لقيه الغزاة السابقون ، الذين لم يحترموا أقدار العمانيين • فما أن التحم الجيشان حتى أسفرت النتيجة عن المعركة • لقـد عجز الغزاة عن صد تيار الهجوم العمانى الخارق الذى تخللته مذبحة رهيبة لمعت فيها سيوف العمانيين • ولاذ بعض أفراد جيش الخليفة بالفرار ونجح فى الوصول إلى السفن الراسية التى أطلقت عنانها للريح ، وكان عيسى من بين أولئك ، غير أن القائد العمانى فارس بن محمد

أوفد مجموعة من رجاله برئاسة حمد بن فاتح السلوتى وعمرو بن عمر فتمكنا من القبض عليه واحضاره إلى صحار حيث أودع القائـد عيسى السجن • وأثناء وجوده فى السجن • هاجمه فريق من العمانيين بقيادة يحيى ابن عبد الله وبتروا عنقـه ، وقـد جاءت تلك العملية من جانب يحيى انتقاما للفظائع التى ارتكبتها قوات عيسى •

ولقد فجرت تلك الهزيمة المدمرة غضب الخليفة هارون الرشيد وخيبت أمله فى النهاية المأساوية لحملته ضـد العمانيين ، وعلى الأخص ماحـدث لقائده عيسى ، ولهذا فقد قرر إنزال أقسى الإنتقام بالثوار ، وأصـدر أوامره بإعداد حملة ضخمة • غير أن هذه الخطة لم تنفذ ، ربما بسبب وفاة الخليفة هارون الرشيد ، وان كانت وفاته لم تحدث قبل مضى أربع أو خمس سـنوات على تلك المعركة • وربمـا كان السبب هـو عودة العمانيين إلى ارسـال الزكاة إلى بغداد ، سـواء بانتظام أو بغير انتظام ، كما أن الإمام بعث بهدايا ورسل إلى الرشيد ووعد بالولاء لـه •

أما بعد وفاة هارون الرشيد فقد شعر أهل عمان بالارتياح من سياسته وبخاصة الأزد بسبب موقفه منهم ، فإن خليفته الأمين والمأمون شغلتهما خلافاتهما وصراعاتهما عن التفكير فى القيام بأعمال عسكرية ضـد عمان التى ظلت على امتداد قرن من الزمان فى مأمن من الغزوات والاعتداءات •

كانت إمامة الوارث خيرا وسلاما على عمـان ، فقد حكم بالعـدل والحكمـة حتى وفاته غرقا أثناء محاولة قام بها لإنقاذ بعض السـجناء فى أحـد الوديان • وقد حدثت وفاته سنة ١٨٩ بعد الهجرة (٨٠٤ م) فى نزوى ، بعد حكم استمر اثنى عشر عاما ونصف العام •

ان الانشقاقات السياسية على إثر وفاته حالت دون انتخـاب خليفة للإمـام الوارث وكانت فترة فاصلة بين عهدين استمرت زهـاء ثلاثـة أعـوام ••• وفى شهر ربيع الثانى من عام ١٩٢ هـ عقد مؤتمر عام للقبائل

العمانيـــة تمخض عن انتخاب الشيخ غســـان بن عبد الله الفجحى اليحمدى إماما للبـــــلاد • وكان هذا الاختيار سليما ، فقد كان هذا الإمـــام ذا عزم وحسم ، وعلى خلق مستنير ، وبذل أقصى ما فى وسعه ليجعل عمان تمتطى موجـــة التقدم الروحى والمـــادى وهى السمات التى كانت تشكل خصائص الأمـــة الإســـلامية فى عهد هارون الرشيد •

والواقـــع أن المؤرخين لم يترددوا فى التحدث إلينا عن روح العلم والتحضر التى سادت بلاط الخليفة ، والتى كانت ترســـل إشعاعاتهـــا إلى أقصى زوايا الامبراطورية الإسلامية ، وامتدت إلى عمـــان بأقصى ما فيها من شمول الوحدة • وهكذا ازدهر التذوق للثقافة والأدب ، وسمت القيم الدينية ، وخرجت أعداد من الكتب المؤلفة فى عهد الإمام غسان •

فى هذه الحقبة بالذات (كما سوف نبين فيما بعد) تطورت المشروعات التجارية والملاحية ، وازدهرت إلى حد أكبر بين سكان العالم الإسلامى • وكانت من سمات نشاط أهل عمان وسر تطورهم ورخائهم ، كما اتخـــذت بعدا أوســـع ، وأدت إلى نمـــو ثروة أهل عمـــان وقوتهم إلى حـــد هائل • ولا يخامرنا الشـــك اطلاقا فى أن عمـــان قد وصلت فى ذلك الوقت إلى الثراء والحضارة والتطور الثقافى والتقدم العام ، وأنها أخذت تنعم بحياة الترف ، وزاد عدد سكانها بشكل لم يعرف فى أى مرحلة سابقة ، كمـــا تمتعت فى الوقت نفسه بقوتها العسكرية وباستقلالها الذى يكاد أن يكون تاما •

غير أن هذه المكاسب كان يشوهها ، أو بالأحرى يهددها ، ذلك العداء الكامن فى المجتمع العمانى بين السنيين وبين الإباضيين ، والصراع العنصرى بين قبائل نزار وبين قبائل يمن ، وهو الأمر الذى كان يعوق الإستقرار والســـلام الاجتماعى ، وكان سببا فى عرقلة عجلة التقدم الذى بات من المؤكد أن تجنى عمان ثمراته خيرا وسعادة وأهمية بين الأوطان •

وفى عهد هذا الإمام كما تشير كتب التاريخ لأول مرة تم انشاء أسطول بحرى مسلح لحماية الشواطىء العمانية وتجارتها البحرية من هجمات القراصنة • وكان قراصنة السند يعتدون منذ وقت طويل على سواحل الهند الغربية ، غير أنه لم يعرف ما إذا كانوا قد مارسوا نشاطا كهذا فى المياه العربية ، ولكن ما إن بدأت السفن التجارية المحملة بالسلع تقطع مياه الخليج فى طريقها من وإلى الهند حتى انطلق هؤلاء القراصنة يعيثون فسادا فى السواحل العربية ، ويهاجمون قوافلها البحرية للسلب والنهب والقرصنة لما كانت تضمه أسواق المدن العربية مثل صحار وسيراف ومسقط من ثروة ومنتجات لدرجة أن العمانيين بعد أن استفحل خطر هؤلاء اللصوص أعدوا أسطولا خاصا من السفن الصغيرة الحجم لكبح جماحهم • ولما كان العمانيون أقدر وأمهر فى الشئون الملاحية من الهنود ، فقد نجحوا فى حملاتهم التأديبية إلى الحد الذى لم يعد أولئك القراصنة يفكرون فى القيام بالاعتداء على السفن والملاحة •

وبعد حكم دام خمسة عشر عاما وسبعة أشهر مرض الإمام ووافته المنية فى شهر ذى القعدة عام ٢٠٧ بعد الهجرة (٨٢٢ م) أثناء خلافة المأمون •

وفى شهر شوال من العام التالى انتخب الشيخ عبد الملك بن حميد من أسرة سودة بن على بن عمرو بن عامر والملقب « بماء السماء » اماما للإباضيين فى نزوى •

وعلى أية حال فقد اشتهر الإمام الجديد بالورع والنزاهة وحب العدل ، غير أن كهولته مكنت القاضى الطموح موسى بن على من اغتصاب السلطة (دون أن يجرد الإمام من سلطته الروحية) وأخيرا من تركيز السلطة السياسية بكاملها فى يديه •

ومن قبيل التكهن أن نقول أن القاضى موسى قد بذل جهدا فى الوصول

إلى الإمامة ، وإذا كان هـذا التكهن صحيحا فإن مخططات موسى قد فشلت أمام رفض شيوخ الأمة الذين كانوا يعرفون سلوكه .

فى عام ٢١٨ بعد الهجرة (٨٣٣ م) تولى الخليفة المعتصم مقاليد السلطة فى بغداد ، ولكنه قرر أن ينقل مقره من بغداد إلى سامراء ، وبذلك وضع سلطة الخلافة كلها فى أيدى حفنة من الحرس التركى ، وهو الحرس الذى كونه بنفسه .

من ذلك الوقت بدأت مظاهر الانهيار تسرى فى أوصال الامبراطورية واستمرت هكذا . وفى عهد هذا الخليفة كانت وفاة الامام عبد الملك بعد حكم استمر ١٨ عاما وخلفه الشيخ مهنا بن جيفر الفجحى اليحمدى الذى تم انتخابه فى شهر رجب عام ٢٢٦ بعد الهجرة (٨٤٠ م) .

كان الإمام مهنا يمتلك عزيمة فولاذية ، وكان اباضيا دقيقا . وفى عهده تمرد سكان المهرة ورفضوا دفع ضريبة الصدقة التى كانت تجبى منهم عينيا . ولهذا أصدر الإمام أمرا إلى ولاة أدم وجعلان بالقيام بمحاولة اعتقال وسيم بن جعفر زعيم المهرة . وهكذا أدخل وسيم السجن وبقى فيه إلى أن نجح أهل المهرة فى الإفراج عنه ، عن طريق قبيلة اليحمدى ، التى تم الاتفاق عن طريقها على أن يقوم المهرة بتسليم الإبل المخصصة إلى العمانيين شخصيا ، وألا يضطروا حكومة الإمام إلى ايفاد مندوبين لتحصيلها . إن هذه الحادثة الصغيرة لها أهميتها ، وهى تعنى أن أهل المهرة كانوا فى ذلك الوقت معترفين بالسيادة العمانية عليهم ، وبالتالى فلن يعود صعبا أن نقتنع بأن تبعية الساحل الجنوبى لحكومة عمان قد استمرت قرونا فيما بعد .

وثمة حادثة أخرى فى عهد الإمام مهنا تلقى ضوءا أكثر على الأحوال السياسية فى عمان ، وعلى الغموض الذى يكتنف تاريخ قبيلة

الجلندى • فقد نشب تمرد فى الظاهرة قامت به القبائل السنية ومنها قبيلة الجلندى • وقد زحف اتحاد القبائل السنية تحت قيادة المغيرة بن روشن الجلندانى على البريمى وهاجموها واستولوا عليها • وكان الوالى عليها فى ذلك الوقت أبو الوضاح الذى عينه الإمام ، وقتل أثناء الهجوم ، وسرعان ما وصلت أنباء الهجوم إلى صحار التى كانت فى ذلك الوقت تحت سيطرة الإمـــام ، فبادر والى صحار أبو مروان إلى العمل على وضع حد للتمرد ، وتحرك فورا إلى توام ، يرافقه المطار الهندى زعيم الهند مع قوة ضخمة قيل أن عدد أفرادها اثنا عشر ألف رجل ، ولكنه عدد مبالغ فيه ، وعند التحام القوتين نجح أبو مروان فى توقيع هزيمة ساحقة بالمتمردين إلى درجة أنهم أبيدوا واحرقت مستوطناتهم ، وأرغمت عائلتهم على التيه فى الصحراء • وبعد هذا الحـــادث لم يسمع شىء عن أسرة الجلندى التى انقرضت بفعل عمليات الامتصاص • ومن هذا يتضح أن الجلنديين رفضوا دائمـــا المذهب الإباضى وظلوا متمسكين بالمذهب السنى ، كما نفهم مـــن سياق الأحداث أن نفـــوذ الإمام كان النفوذ الأقوى ، حتى أن وكيل حكومة الخلافة لم يستطع تقديم أية مساعدة للمتمردين •

لم يحظ تصرف الامام مهنا بموافقة كل مؤيديه ، غير أنه سمح له بالبقاء فى السلطة إلى أن توفى فى شهر ربيع الثانى سنة ٢٣٧ بعد الهجرة (٨٥١ م) وذلك فى عهـــد الوالى السفاح والخليفة المتوكل باللـــه • وقـــد دامت امامته عشر سنوات وبضعة أشهر •

ويحدثنا المؤرخ « قدامه » الذى كتب عن الحالـــة الاقتصـــادية للامبراطورية فى تلك الفترة أنه فى نفس ذلك العام بلغت قيمة الضريبة التى تدفعها عمان لبغداد ٣٠٠ر٠٠٠ دينارا ذهبيا ، أو ما يعادل ٤ر٥٠٠ر٠٠٠ درهم ، كما ذكر الفون كريمر كيلر ، ويؤيد هذا القول ابن المدثر • وعلى أية حال فان ضخامة هذا المبلغ الذى كانت تدفعه عمان لحكومة الخليفة لدليل على حالة الازدهار التى وصلت اليها بفضل صناعاتها وفنونها • وتجارتها ،

كما أنه برهان ساطع على ثروة البلاد العمانية ، وكثافة سكانها ونشـاط أهلها الذى وصل فى تلك الحقبة من التاريخ إلى ذروة وجودها القومى .

فى نفس اليوم الذى توفى فيه الامام مهنا ، انتخب شيوخ القبائل الإباضية الصلت ابن مالك الذى مارس حكما عادلا لعدد من السنين حتى أنه عاش بعد معاصريه وكبار مؤيديه ، وأصبح عاجـزا جسمانيا إلى أن شـاخ وهرم ، رغم أن قواه العقلية لم تتأثر على الاطلاق حتى آخر يوم من حياته ... وفى عام ٢٧٣ بعد الهجرة (٨٨٦م) طرد من نزوى لقيام مؤامرة دبرها ضـده القاضى موسى بن موسى (٨٨٨ م) ولجـأ إلى فرق حيث وافته المنية هناك فى شهر ذى الحجة عام ٢٧٥ بعـد الهجرة (٨٨٨ م) .

ولقد دام حكم هذا الامام فترة تفوق غيره من الأئمـة الذين سبقوه بحيث امتدت نحو ٧٣ عاما وسبعة شهور ، جلس خلالها على عرش بغداد ستة من الخلفاء . أما الأجـواء السياسية فى عمان فقد ظلت على مايبدو هادئة ، لم تعصف بها التيارات الهادرة أو على الأقـل لم يسجل المؤرخون نشـوب اضطرابات خلال تلك الفترة من التاريخ . وعلى أية حال فإن الأحـداث المتتابعة أظهرت بجلاء أن ثمـة مشكلات حادة كانت تؤرق أذهان الناس تحت ذلك الهدوء وأن الجو كله كان ينذر بعواصف تفجـر الصراع والفوضى والحرب الأهلية ، وكل فظائع الغزو والهيمنة الخارجية . ولا يخامر المؤرخين العمانيين أى شـك فى أن عهد الصلت هو العهد الذى شهـد تحرر عمـان من تبعية بغداد ، وامتناعها عن دفع الزكاة . ويعود الفضل فى هذه المعلومة إلى ابن خردازبة الذى تناول الموضـوع فى عـام ٢٧٠ بعد الهجرة أو ٢٧٥ هـ (٨٨٣ أو ٨٨٨ م) والذى أكد دون لبس أن شرقى أفريقيا كان فى أيدى الأباضيين وليس تابعا للخليفة المعتمد .

بعد خلع الامام الصلت تسلم الإمامة راشد بن النظر وذلك فى شهر ذى الحجـة عام ٢٧٣ بعد الهجرة (الموافق ٨٨٦ م) ويرجع الفضـل فى

تنصيبه إلى موسى بن موسى وكان صنيعته ، غير أنه برهن عن عجز وضعف فى ممارسته صلاحيته فى تلك الفترة الدقيقة من تاريخ عمان • وإن السلبية التى رافقت تجريده من السلطة وحرمانه من طموحات حياته كان سببها على مايبدو خضوعه للقاضى موسى بن موسى الذى استغله فى تحقيق أطماعه من التعصب الدينى والاستبداد • وكانت نتيجة تلك السياسة صراعات تتفجر فى كل بقعة من عمان ، على شكل خصومات دينية تؤدى إلى شطر وحدة الأمة العمانية ، ونشوب حرب أهلية دامت سبع سنين •

أما السبب المباشر لذلك الخلاف الذى أدى إلى نتائج خطيرة ، فلا يتحدث المؤرخون الإباضيون بشىء عنها ، غير أن ذلك الصمت بالنسبة لبعض نقاط الخلاف ربما يدل على أن موسى بن موسى هو السبب الأساسى للمشكلة ، وهو السبب الأول للحرب الأهلية الضروس التى فرقت عمان ، وجلبت لأهلها البؤس والخراب ، وأدت فى النهاية إلى وصول وفود من الخارج • وهذا لا يعنى أن الطوائف الإباضية فى الأقاليم الأخرى لم يكن لهم دور فى تأجيج نار العداء الدينى فى عمان •

ومما يعزز الاعتقاد بأن السنيين العمانيين لم يكونوا سببا فى ذلك الصراع هو أن السنيين كانوا يشكلون أقلية فى عمان ، وبالتداعى فليس من المحتمل أن يكونوا هم البادئين بالصراع غير المتكافىء • وفى كل الأحوال ، ففى المرتين اللتين قام فيهما السنيون العمانيون بالنزاع خلال الأعوام الثلاث التى أعقبت تلك الحرب ، كان النزاريون مرغمين الى الخروج من عمان على أثر المعركة التى نشبت بالقرب من وادى تنوف ، وكان يتولى قيادتهم كل من فهم بن وارث ومصعب بن سليمان ثم فى المعركة الثانية التى نشبت بالقرب من الرستاق عندما هزمت قوات شاذان بن معن بن الصلت وأرغم أفرادها على الفرار •

ويبدو أنه فى أعقاب تلك الأحـداث سقط كل من موسى بن موسى والامام راشـد بعد ما تبين أن ذلك الامام لم يكن يخضع بصورة تامـة لسيطرة القاضى موسى بن موسى ، وبالتالى فقد استغل نفوذه لخلع راشد ابن النظر ، كمـا استغل نفوذه سابقا فى خلع الصلت • وبعد أن تم لـه التخلص من الامام راشـد ، عين صديقه الشيخ عزان بن تميم الخروصى وذلك فى شهر صفر من عام ٢٧٧ بعد الهجرة (٨٩٠ م) •

فى البداية سارت الأمـور سيرا طبيعيا ، غير أن العلاقات بين الإمام الجديد ومجموعة القضاة مالبثت أن تأزمت • فقد استاء الإمام الجـديد عزان من تدخل موسى بن موسى فى صلاحياته ، ومن محاولاته المستمرة لتقليص سلطته ، ولهذا قرر أن يحسم الموضوع • وانفجر بينهما الخلاف • وكان من نتيجته أن جرد موسى بن موسى من منصب القضـاء وهرب إلى أزكى حيث لجأ إلى نفس الفئات التى ظل يناصبها العداء لفترة طويلة ، غير أن استقبال تلك الطوائف لموسى بن موسى أثار القلق لدى الإمام ، الأمـر الذى ضاعف من العداء بين الطائفتين •

وهكذا انفجر الصراع من جديد • وفى شهر شعبان ٢٧٨ بعد الهجرة (٨٩١ م) أى بعد مرور ثمانية عشر شهرا على تقلد الإمـام عزان لمنصب الإمامة قام بإرسـال قوة عسـكرية من الإباضيين إلى أزكى لمحاصرة المداخل المؤدية إلى القلعة التى يقيم فيها موسى بن موسى فى الحى الذى يقطنه النزاريون •

كانت الحملة من القوة بحيث استحالت مقاومتها ، فبعد قتـال قصير استولت قوات الإمام على القلعة ودمرتها ووقعت مجزرة رهيبـة أسفرت عن انتصار ساحق لقوات عزان ، وكان موسى بن موسى من بين القتلى •

استقبل الإمام عزان بشرى ذلك النصر بتكريم الرسل الذين جاءوا

بها إليه ، وكافأ جنده بسخاء ، بعد أن شعر بالارتياح لخلاصه من رفيقه ومؤيده السابق موسى بن موسى .

ان المعلومات عن أخلاق وسلوك موسى بن موسى قليلة جدا بحيث لا تسمح بإصدار أحكام دقيقة ، إلا أن سياسة ذلك القاضى كانت على ما يبدو سياسة رعناء يتحكم فيها الطموح والتعجرف ، غير أن مثل هذه الاستنتاجات فى كتابة التاريخ لا تشكل أدلة حقيقية ، ولا تبرر اعتبارها أحكاما أكيدة ، فلربما كانت له أسباب حقيقية فى خلع الصلت وراشد وفى مخاصمة عزان . غير أن مثل تلك الأحداث قد أملتها أنانية رجل ماكر خداع كان مدفوعا بشهوة وحب السلطة .

وقد ازداد الخصام بين تلك الأطراف بعد تلك الحادثة ، وأخذت قبائل نزار تجنح إلى الانتقام . فقد كان ذلك الصراع أكثر الصراعات دموية وخطورة خلال السنوات الخمس التى استغرقتها الحرب الأهلية ، ومع ذلك فقد كانت تلك بداية الشقاء والمعاناة التى أخذ الشعب يشرب من كؤوسها .

منذ ذلك الوقت ورغم أن النزاريين كانوا أقل عددا من الأزد ، وكانوا مغلوبين على أمرهم فى أكثر الأحوال ، وعاجزين عن التصدى لخصومهم علنا ، إلا أنهم كانوا مصممين على مواصلة النضال ضد الأزد والقيام بهجوم مضاد على الإمام وأتباعه .

إن الرجل الذى تولى مقاليد النزاريين بعد ذلك هو الفضل بن الحوارى وكان الشيخ عبد الله من بنى حدان ، والهوارى بن عبد الله السلوتى ، وبنى الحارث فى الباطنة وغيرهم من زعماء النزاريين من مؤيدى الفضل . توجه الفضل أولا إلى البريمى لجمع الأنصار ، ثم عاد إلى موطنه فى الظاهرة ، وبعد أن فرغ من تدبير مؤامرته مع شيوخ المنطقة

تحرك بقواته فى اتجاه صحار التى وصلها يوم ٢٣ شول ٢٧٨ بعد الهجرة (٨٩١ م) وفى الوقت نفسه لم يكن الإمام عزان غافلا عما يجرى حوله .

وقد حل شهر رمضان فتوقف القتال ، غير أن الإمام عزان بن تميم إستغل ذلك الشهر فى تعبئة قواته التى وضع على قيادتها شيخ بنى هناه اهيف بن حمحام الهنالى . ولما كان هذا القائد على علم بتحركات جيش الفضل ، فقد سار بقواته عبر الباطنة لمواجهته ، وفى الطريق انضم إليه فهم بن وارث اليحمدى (ولعله نفس القائد الذى أنهزم فى موقعة القاع قبل ثلاث أو أربع سنوات) .

التقى الجيشان فى مجيس ، وهى قرية تبعد قليلا عن مدينة صحار وذلك يوم ٦ شوال . وفى المعركة التى نشبت أبيدت قوات الفضل عن بكرة أبيها ، وأنهت تلك المعركة الحرب تقريبا ، وسمحت للجناح اليمنى فى عمان بأن يكون سيد الموقف . غير أن المعلومات القليلة التى بقيت لنا عن تلك الأحداث لا تترك مجالا لرسم صورة صحيحة عن القوى التى كانت تتصارع ، بيد أنه من الواضح أن كفة الحرب قد تغيرت تماما ، منذ أن بدأ الخلاف بين الإمام والقاضى موسى بن موسى . ففى بداية الأمر كانت الحرب حربا مذهبية بين السنة والإباضية ، أما فيما بعد فقد تحولت إلى حرب طائفية بين النزاريين واليمنيين ، بحيث أن فهم بن الوارث والجناح السنى فى بنى هناة وغيرهما والذين كانوا من المعارضين سابقا ، تحولوا إلى صف الإمام .

وعلى الرغم من أن عزان ظل محتفظا بمنصبه كإمام ، إلا أن المؤرخين يذكرون أن الإمامة أصبحت ألعوبة وهدفا للمطامع الشخصية بحيث تولاها خلال فترة لا تزيد على العام الواحد ما لا يقل عن ثلاثة عشر إماما ، عجز كل منهم عن كسب تأييد الأمة . وكان هذا بعد غزو محمد بن نور لعمان . ويبدو أن ذلك الطاقم من الحكام لم يكونوا من العناصر التى تتمتع بموهبة الزعامة والحكم ، وهكذا تدحرجوا الواحد تلو الآخر عن كرسى السلطة .

وإنه لمن الواضح أن العمانيين قد أصبحوا فى وضع حرج نتيجة للخلافات الداخلية المدمرة ، وأنهم قد غرقوا فى تيارات من الأحقاد والحروب ضد بعضهم البعض ، وذلك بدافع من الغيرة ونزعة الثأر ، وعلى الرغم من أن زعماءهم كانوا يعالجون تلك المشكلات بشىء من الكياسة والوطنية إلا أن الأئمة كانوا بوجه عام يواجهون حملات الغزو بروح التحزب وليس من منطلق الروح القومية ، بينما كان التجانس والوحدة مفقودين بين مواطنيهم .

وفى شهر رجب ٢٧٩ هـ (٨٩٢ م) توفى الخليفة المعتضد ، وخلفه ابن أخيه المكتفى بالله ، الذى كان والده موفق ناصر الدين قد أرغم الخليفة الضعيف المعتمد بالله بأن يختاره للخلافة على حساب نجل الأخير والوريث الشرعى للحكم . أما المعتضد بالله (شأنه شأن والده) فقد كان الحاكم الفعلى للامبراطورية منذ وفاة والده ، وقد برهن عن كفاءة وكياسة سياسية وتمكن من توثيق قبضته على أرجاء الامبراطورية بحزم بحيث شعر الكل فى أنحاء الامبراطورية بقوة نفوذه .

ولم تغرب عمان عن باله . إذ لم يكن من المعقول أن يقبل خليفة قوى وطموح كالمعتضد بالله ذلك الموقف المناهض من هذا الاقليم دون أن يقوم بمحاولات لاخضاعه وإعادته إلى الطاعة .

وقد ظلت عمان على امتداد عشر سنوات تمتنع عن إرسال الزكاة المفروضة عليها إلى بغداد ، كما لم تكن تسمح لأى مبعوث من بغداد بالحضور إلى عمان لجمع تلك الضريبة . ومن هنا فقد كان طبيعيا أن يشعر الخليفة بالاستياء الشديد من العمانيين ، غير أنه لم يكن من المتوقع أن يتفجر غضب الخليفة ضد العمانيين بتلك السرعة ، لو لم تعجل به الأحداث التى كانت تجرى فى عمان نفسها . ذلك أن الصراع الدموى الطويل قد ولد الكراهية بين الفئتين المتناحرتين ونعنى بها قبائل نزار ويمن ، وشطرتهما إلى معسكرين متعاديين ، كل منهما يحاول سحق الآخر ،

كمـا أن الكراهية التى ولدها ذلك العداء كانت السبب الحقيقى للثـورة التى كانت تعتمل فى صمت فيما بينهم • وعلى الرغم من أن الأحداث التى أشرنا إليها قـد ساهمت فى شـد انتباه حكومة بغداد لمـا يجرى فى عمان ، إلا أن معاملة الفئات الإباضية للسنيين قد أثارت استياء شـديدا بين إخوانهم فى المذهب ، ممـا دفـع الطوائف السنية فى النهاية إلى طلب تدخل بغداد ونجدتها لهم •

بعد موقعة مجيس سنة ٢٧٩ هـ (٨٩٢ م) على ما يبدو تحـرك زعماء قبائل نزار بعد أن يئسوا من إمكان المحافظة على مركزهم عن طريق القوة ، ورغبة منهم فى الانتقام من مضطهديهم إباضية عمـان ، فقد قرروا أن يطلبوا تدخل الخليفة الإسـلامى لمساعدتهم على استرجاع نفـوذهم •

وعلى الرغم من أنه كان هناك استفزازا فعليا من جانب الفئات الإباضية ضـد قبائل نزار ، إلا أن تحريض الفئات السنية لدولة أجنبية لغـزو بلادهم ، من أجـل تعزيز سيطرتهم المذهبية والسياسية لم يكن يعتبر عمـلا غير حكيم فحسب ، بل ومناف للوطنية ، نظرا لأن مثل ذلك الإجراء لن يؤدى إلى استئصال جذور المذهب الإباضى فى عمان بأى شـكل من الأشكال ، وبالتالى فقد كان إجراء مقضيا عليه بالفشل ، ثم أن الدمـار الذى لحق بالبلاد ، والقسـوة التى استخدمت فى تلك الحروب والدماء البريئة التى أهدرت ، كان أبشـع ما عرف ، كمـا يؤكد ذلك المؤرخـون ويقولون بأن حجمه فاق كل ما سبق من فظاعات وانتهاكات للقيم الانسانية ، ويشكل وصمـة عار فى جبين الفئات المسئولة عنـه •

ويذكر بعض المؤرخين العرب بأن المبعوثين الذين اختيروا لعـرض مطالب النزاريين ودعوتهم للخليفة هما الشيخ محمد بن عبد القاسم السامى وبشـير بن المنذر وكلاهما ينتمى إلى قبيلة بنى سامه بن لؤى بن غالب ، وتعتبر من أقوى القبائل النزارية فى عمـان • وغير معروف ما إذا كانت

تلك البعثة قد توجهت سرا ، أو أنه سبقها محاولات للتفاهم قبل تقديم طلب المساعدة الخارجية . وبما أننا لا نملك معلومات عن دعوة المجلس العام لشيوخ عمان للانعقاد قبل ذلك ، فإن الاستنتاج الوحيد هو أن قبائل يمن لم تخطر بعزم النزاريين عن طلب تدخل الخليفة فى عمان ، ومهما يكن من أمر فمن المحتمل أن يكون الوفد قد توجه إلى البحرين أولا ، حيث كان يقيم أمير منطقة الشرقية فى شبه الجزيرة والذى تشمل سلطته اقليم عمان .

كان أمير المنطقة الشرقية فى ذلك الوقت هو محمد بن نور ، وكان يتبع والى العراق ونحن لا نعرف ، أى شىء عن هوية ابن نور ، غير أن العملية الناجحة والبارزة التى قام بها والتى أبرزته كقائد ممتاز ، وصمت اسمه فى الوقت نفسه بالعار وبالقسوة الفائقة .

أنصت محمد بن نور باهتمام بالغ لما قاله له وفد الإمام عن الحرب الأهلية فى عمان ، وعن الآلام التى تعانيها الطوائف السنية على يد الإباضيين ، ولهذا قرر فى دخيلة نفسه أن يقتنص الفرصة التى أتيحت له لممارسة نفوذه على إقليم عمان ، وبأن « يدوس بأقدامه على الذين داسوا على كرامته واضطهدوا الجماعة الإسلامية فى عمان » . ومما لا شك فيه أن محمد بن نور كان يفكر منذ مدة فى إخضاع عمان ، وكان يسابق الزمن حتى واتته تلك الفرصة التى تحقق له مشروعاته وطموحه مقتديا فى ذلك بالمهلب ، قاهر الإباضيين ، وقد شد من أزره التأييد الذى وعدته به قبائل معد ، كما أن مناقشة تفاصيل الفكرة مع رسل الطوائف السنية قد مكنته من إعداد خطة الحملة ، وذلك قبل عرضها على الخليفة فى بغداد لدراستها ، واتخاذ القرار بشأنها .

وقد احتفظ أمير منطقة الشرقية ببشير وأوفد زميله محمد بن أبى القاسم إلى بغداد بخطاب إلى الخليفة ، يشرح له فيه الأوضاع

العمانيـــة وانقسام العمانيين على أنفسهم ، ويطلب فيـــه التعجيل بإرسال حملـــة تأديبيـــة لمعاقبة الإباضيين وأكـــد لـــه بأن الظروف التى تســـود عمـــان تسمح باتخاذ مثل ذلك الإجراء .

وأتاح وجـــود ذلك الخطاب مع محمـــد بن أبى القاسم من سرعـــة المثول أمام الخليفة المعتضـــد بالله الذى فهم مضمـــون الخطاب ، وبمـــا أنه كان يعلم بأن الحروب الإباضية السابقة قد عمقت من هـــوة الخلاف بين المنشقين والتقليديين ، وأن عمان قد أصبحت كلها فى قبضة الإباضيين ، فقـــد واتته الفرصة لتسديد ضربة إلى « وكر الفتنة » ، وبذلك يمكن إخماد جذوة تلك الفئة التى أخذت تهدد العالم الإسلامى . كمـــا أدرك الخليفة أهمية طلب الطوائف السنية والنزارية للحماية ، نظرا للروابط المذهبيـــة التى لم يكن فى الامكان تجاهلها ، ولهـــذا قرر المعتضد باللـــه بأن يقبل طلب الوفـــد العمانى ومقترحات محمد بن نور ، فأصدر أوامر عاجلـــة لتنظيم وإعداد حملة عسكرية ضخمة ، مستفيدا من الأخطاء التى أسفرت عنها حملة هارون الرشـــيد السابقة .

وهكذا ذاعت أنباء الحرب الوشيكة بسرعة فى أوساط القبائل القريبة التى أخذت تبعث بنصيبها من المقاتلين للانضـــواء تحت لـــواء « جيش الثـــأر ضـــد الأزد » ، وقد لقيت الحملة تجاوبا شاملا ، كمـــا كانت القبائل الشمالية تبـــدى لهفتها للغنائم والأســـلاب ، حتى إنه خلال شهور خمسة استطاع محمد بن نور وأبو القاسم استكمال كافة الاستعدادات اللازمـــة للحملـــة .

وهكذا أخذت الطوائف والقبائل السنية والنزاية تفد من كل مـــكان من شمال شبه الجزيرة وسوريا والعراق ويدفعون بأنفسهم إلى الصراع بكل حماس انطلاقا من الروابط الطائفية ، بأمل تصفية الهراقطة وجمـــع الغنائم والأســـلاب من الأقليم العمـــانى . وتطوع المئـــات من الشـــيوخ هم وأسرهم وأتباعهم البدو الشرسين للمعركة ، وبذلك ضاعفوا من حجم

الحملـــة ، وكان أهم القوات التى تطوعت للقتال كتيبة من قبلية طى الشهيرة من الشـــام ، وبذلك تألف جيش قوامه خمسة وعشرون ألف رجل بما فيهم خمســـة آلاف من الفرســـان الآليين الذين تم تشكيلهم من قبائل معـــد المحاربة ، التى انضـــوت تحت راية الحلفاء .

ويبدو أن هذه الحملة الكبيرة الجيدة التسليح قد قسمت إلى فرقتين ، تحركت إحداهما بحرا من البصرة بحمولاتها من المعدات والمؤن ، والأخرى وتتألف من الرجال بقيادة محمد بن نور تحركت بطريق البر من الإحساء . وبعد أن عبرت السبخة وصلت إلى أبو ظبى ومنها إلى البريمى بعد أن شغلت بعض قبائل المنطقة فى اشتباكات محدودة . وقد وصلت طلائع تلك القوات إلى الجـــو (كمـــا كانت تسمى فى ذلك الوقت) يوم ٢٤ محرم سنة ٢٨٠ بعد الهجرة (٨٩٣ م) وهناك التقت على ما يبدو بالفرقة الأخرى القادمة من جلفار ثم تحركت الحملة بكاملها ، وعبرت منطقة الظاهرة لكى تشـــن هجومها على نزوى عاصمـــة الإباضيين .

ان اقتراب جيش بذلك الحجم الهائل ، وهو مصمم على إخضـــاع العمانيين ومعاقبتهم ، لابد وأن يثير القلق والاضطراب فى جميع أنحـــاء عمـــان ، ولقـــد تأكد للعمانيين فى تلك اللحظـــة أن بلادهم من أقصاها إلى أقصاها أمام تهديد خطـــير بكارثة قومية ، وأنه ليس لهم مفر منها إلا بمعجزة ، وهكذا وجدت عمـــان نفسها أمـــام خطر داهم .

كانت الخلافات والصراعات الدموية المحتدمة بين الطوائف المتخاصمة لا تسمح بقيام جبهة موحدة قوية فى وجه العدو ، نظرا لأن بعض القبائل العمانية كقبائل نزار كانت هى المسئولة وحدها عن تلك المحنة التى تتعرض لهـــا البلاد ، وهكذا ففى وجه تلك القوة العانية للجيش الغازى ، والتى أخذت تحدق بحدود الوطن العمانى فقد القادة العمانيون ثقتهم فى أنفسهم ، وفى قدرتهم على التصدى للمهاجمين ، وسيطر شعور بالفزع واليأس عليهم .

أما القائد محمد بن نور فقد دخل وإلى صفه مجموعة من العوامل المشجعة • فقد كان جيش الإمام عزان صغير الحجم ، كما كانت إمكانياته محدودة ، وكانت سلطته مقصورة على قسم واحد من الأمة ، فكان عليه والحالة تلك أن يتولى قيادة الأمة ويتصدى فى الوقت نفسه لقوات الغزو • ومن ناحية أخرى فإن الإمام عزان على ما يبدو لم يكن يتمتع بمواهب وخصائص القائد المدرب الذى يمكنه أن يقوم بتوحيد صفوف الأمة ، وأن يوحى اليها بالثقة ، غير أنه على أية حال لم يتخل عن المسئولية التى ألقيت على كاهله ، ولهذا فقد أدى واجبه فى رجولة وإخلاص • فقام بمحاولات مضنية للتوفيق بين أتباعه وإشاعة الانسجام بينهم ، ورفع الروح المعنوية فى صفوفهم ، وحثهم على الانضمام إلى الواجب الوطنى المقدس ومواجهة الغزاة ، غير أن الاستجابة لندائه لم تكن فى مستوى الموقف ، هذا على الرغم من نجاحه فى إقناع بعض القبائل السنية على الوقوف إلى جانب المصلحة الوطنية • وعلى أية حال فإن بعض العائلات العمانية الثرية ، وبعض الشيوخ المتنفذين الذين أسهموا بدور ملحوظ فى السياسة المعادية لقبائل نزار ، فرت هاربة من عمان دون أن تشترك فى مواجهة الموقف ، وقد نشير فى هذا الصدد إلى شخصية معينة هو سليمان بن عبد الملك بن بلال السليمى الذى خرج هو وأفراد أسرته وخدمه إلى هرمز ، بالإضافة إلى بعض الذين غادروا البلاد من صحار ومنطقة الباطنة ولجأوا إلى البصرة وشيراز ، بينما توجه البعض الآخر إلى شرقى إفريقية •

والواقع أن أولئك المهاجرين كانوا يمثلون الفئة الأكثر ثراء ، ففضلوا أن يعيشوا بما يملكونه فى مأمن حتى تمر العاصفة ويعودون إلى البلاد •

عسكر محمد بن نور بقواته فى البريمى ، ومنها بدأ زحفه عبر منطقة الظاهرة فى اتجاه العاصمة نزوى ، ولقد ازداد جيشه حجما بمن انضم إليه من قبائل نزار المنشقة بحيث وصل عدده بعد ذلك إلى ٣٠,٠٠٠ رجل •

وفشـــل الإمام فى وقف الغزو رغم الجهود التى بذلها • وهكذا فإزاء تلك الأوضـــاع وتخلى أعداد كبيرة من رجاله عنه أدرك أن الدفاع عن العاصمـــة أصبح غـــير ممكن ، فتراجع بمـــا بقى عنده من بضع ألـــوف من الرجال إلى سمـــد الشـــان ، حيث قرر أن يبقى هناك ليصمد ويقاوم ، ومن ســـوء الحظ أن القبائل التى صمـــدت فى القتال إلى جانب الإمـــام فى تلك اللحظات الحرجـــة الحاسمـــة من الصراع غير معروفة •

وبينمـــا هو فى طريقه إلى نزوى مر محمـــد نور على السر وعبرى وبهلا ، وبعد أن احتل العاصمـــة نزوى دون مقاومة وأقام مقره العام ، واصل تقدمه إلى سمد الشان • وفى هذه القرية وفى يوم ٢٥ صفر ٢٨٠ بعد الهجرة (٨٩٣ م) نشبت معركة عنيفة استمرت طوال اليوم ، غـــير أن قوات الخليفة بحكم تفوقها فى العدد والسلاح والتنظيم انتصرت عـــلى العمانيين رغم شجاعة العمانيين ومقاومتهم اليائســـة وانتهت بمذبحـــة رهيبـــة •

وهكذا انفجرت العاصفة فى عمان ، وأطبقت عليها الغيوم السوداء التى أخذت تهدد البلاد بالطوفان ، وقدر لشعب عمان أن يواجه تلك المأساة القومية • وقتل الإمام عزان وقام محمد بن نور بارسال رأس الإمام إلى الخليفة المعتضـــد بالله ، ثم عاد بجيشـــه المنتصر إلى قاعدته فى نزوى ، واحتفل بانتصـــاره بسلسلة من المجازر الوحشية تلتها عمليات ســـلب ونهب من قبل قـــوات الخليفة ، كمـــا فرضت الطاعة بقوة الســـلاح ، وعربد فى البلاد بعجرفته التى لم يعرف لها مثيل ، وهكذا تم إخضـــاع عمـــان كلها •

أمـــا قبائل نزار التى كانت فى وضع يائس قبل ذلك فقـــد أصبحت الآن ســـيدة الموقف ، ومـــما لاشك فيه أنهم لم يتركوا أية فرصـــة للانتقام والتعويض عن الاضطهاد والخسائر التى تحملوها سابقا على يد القبائل الإباضية •

لقـد احتفظت عمان بكامل استقلالها لفترة امتدت ١٦٣ عاما ، وأوقعت الهزيمة بقوات هارون الرشيد الذى حاول فرض الطاعة عليها • غير أن الخلافات الداخلية والصراعات الطائفية والمذهبية التى اجتاحت البلاد وبعثرت قواتها وامكانياتها ، قد عرضتها لكارثة أقسى وأكبر وأشد هولا كما يقول روسى فى « تاريخ عمان » •

ولقد كانت الرغبة فى ممارسة الأعمال التجارية التى تدر الأرباح ، وانتشار روح الخنوع والترف والتواكل والكسل التى سادت المجتمع فى أعقاب انتعاش التجارة من بين الأسباب التى أدت إلى الاستسلام والموقف السلبى للعمانيين من الغزو الأجنبى لبلادهم •

وقد جاءت تلك التطورات فجأة وبصورة شاملة بحيث اعتبرت مولدا لمرحلة جديدة فى تاريخ الخليج ، كما أن الثروات التى جمعت من خلال تلك الحركة الصناعية والتجارية قد ساهمت فى إدخال تغييرات اجتماعية هامة على حياة السكان • وبحكم تلك التغييرات أصبح سكان المناطق الحضرية أو المدن أقل رغبة فى الحروب ، وأقل قدرة على تحمل مصاعبها ، كما أن العناصر البدوية التى كانت دائما المصدر الرئيسى للمقاتلين فى الصراعات والحروب الأهلية أصبحت أقل قدرة على مواجهة الجنود المدربين والخبيرين بالحرب كجنود الخليفة •

وفى الوقت الذى كان محمد بن نور يمارس عمليات الإبادة والقتل ضد العمانيين كان « الفريد الكبير » يرقد على فراش الموت • ومن المصادفات التاريخية الغريبة أن تمر البلدان فى تلك المرحلة بظروف متشابهة •

فخلال القرن التاسع هاجم انجلترا واحتلها الدايفون ، وبما أن الألفجار قد عجزوا عن صدهم حتى انقلب الحظ لصالحهم وتمكن الفريد

من احراز النصر فى موقعه برايتن هيل ، أو أتا ندون ، يوم ٥ مايو سنة ٨٧٨ بعد الميلاد مما قلب كفة الحرب وتم طرد الشماليين من البلاد . وكانجلترا وجدت عمان الفجارها ، وفشلت هى أيضا بحكم افتقارها إلى الرشد والمهارة العسكرية .

أما الفجار عمان فهو شيخ بنى هناة — الأهيف بن حمحام الذى تولى قيادة العمانيين فى محاولة لطرد الغزاة من البلاد ، ويحكى أن حمحام كان شجاعا وذا عزيمة وسياسيا محنكا ، ولهذا فقد وقع على كاهله عبء مواجهة العاصفة وقيادة الأمة بعد وفاة الإمام عزان .

فمنذ يوم الكارثة التى حاقت بالعمانيين فى سمد لم ينفك يبحث عن فرصة لبعث روح الثورة فى الشعب ضد المحتلين ، وسرعان ما واتته تلك الفرصة عندما أدرك الشعب العمانى المقهور ، والذى كانت لاتزال جروحه تنزف ، بأن العدو قد بات مطمئنا على وجوده ، متشبثا بقوته ، غير عابىء بشىء بل إنه غارق فى فجوره وملذاته .

إن قسما كبيرا من القبائل الشمالية التى انضوت تحت قيادة محمد بن نور كانت مدفوعة بغاية واحدة ، وهى السلب والنهب ، قد عادت إلى البصرة ، بينما وزع عدد آخر من قوات الغزو على عدد من المناطق فى البلاد لبث الرعب فى قلوب المواطنين ، والمرابطة فى القلاع والحاميات العمانية لحفظ الأمن ، ورغم ذلك فقد بقى فى العاصمة مالا يقل عن ١٢ ألف أو ١٥ ألف رجل من تلك القوات التى كانت ترابط مع القائد فى مقره . وقد وجهت التعليمات كتابيا إلى زعماء القبائل الإباضية واليمنيين تدعوهم إلى الثورة ضد المحتل وطرده من أرض الوطن ، وقد لبى النداء كثيرون وبحماس بالغ . وهكذا غدت عمان تعج بالثوار والعزم الأكيد على تطهير البلاد من الغاصب . وأخذ العمانيون يتجمعون تحت قيادة واحدة يشدهم إلى ذلك هدف مشترك . وهكذا أصبح تحت تصرف الإمام العفيف عدد ضخم من المقاتلين البواسل الذين احتشدوا وانقضوا

فجأة على نزوى وارغموا محمد بن نور بضربة مفاجئة على اخلاء العاصمة والتراجع بسرعة نحو المنطقة الساحلية • وفى طريق تقهقر جيش الاحتلال مر بوادى الطايين ثم منه إلى مدينة قريات الساحلية ، وكانت قوات الإمام تلاحقه ، وفى هذه المنطقة أرغم محمد بن نور عن التوقف والصمود فى مواجهة المصير المحتوم فقد أصبح فى وضع يائس بين البحر والجبل بحيث لم يعد أمامه طريق للتراجع •

وبعد معركة عنيفة ، أبلى فيها الجيشان بلاء حسنا وقاتلا بشجاعة قتل وجرح خلالها عدد كبير من الجانبين ، وبدأت كفة الحرب تميل لصالح العمانيين ، غير أنه فى اللحظة التى كاد أن يتقرر فيها مصير تلك الحرب لصالح العمانيين تلقت قوات محمد بن نور إمدادات جديدة أرسلها أبو عبيدة محمد شيخ بنى سامة ، وهى نفس القبيلة التى ينتمى اليها محمد بن نور وانضمت إلى قواته • وقد قلب وصول تلك القوة الإضافية إلى جيش العدو ميزان الحرب ، واستطاعت قوات محمد ابن نور انتزاع النصر الذى كاد أن يحرزه العمانيون • وقد قتل الأهيف بن حمحام بينما كان يقاتل ببسالة نادرة ، ولم ينج سوى عدد قليل من الإباضيين •

عاد محمد بن نور منتصرا مرة أخرى إلى نزوى وبسرعة ، وما أن عاد حتى أخذ يشفى غليل انتقامه من المواطنين الأبرياء •

وبموت الإمام فشلت الثورة ، ولم يبق فى الساحة قوى تتحدى محمد بن نور ، غير أن ذلك كله لم يشف غليل محمد بن نور الذى أصدر أوامره للتنكيل والبطش والإرهاب بالعمانيين وتخريب المنشآت وحرق المزارع وهدم المرافق ، وتعرض المواطنون لضروب وحشية من التعذيب والتمثيل بأجسادهم • فقد أمر بقطع الأيدى والأرجل والآذان وفقء الأعين ومصادرة الممتلكات ، وتحويلها إلى النزاريين ، واستعبدت

وأذلت النســـاء ، كمـــا أمر محمد بن نور بتدمير قنوات الرى التى يعتمد عليها العمانيون فى حياتهم ، وهكذا انتشر الدمار فى كل مكان .

إن هذه الفظاعات التى ارتكبها محمد بن نور وقواته قد قضت بضربة واحـــدة على التطور الذى حققته الحضـــارة العربية فى عمان . وانحدرت به إلى أدنى درجات البؤس والخراب لدرجـــة أن عمـــان قد قضت وقتا طويلا قبل أن تنهض من هول تلك الكارثة المروعة التى نزلت بها . وإلى هـــذا اليوم يذكر العمانيون محمد بن نور بمزيج من الكره والاحتقار ، ويروون الحكايات عن جرائمـــه ومساوئه وهم يطلقون عليه اسم (الخارج على طاعـــة اللـــه) .

وإننا لا نعرف الفترة التى امتد إليها حكم هـــذا الأمير الجائر على عمان ، غير أنه من غير المحتمل أن تكـــون تلك المرحلة الرهيبة طويلة الأمد . وبعـــد رحيله عين على عمان أحمد بن هلال سنة ٣٠٤ بعد الهجرة (٩١٦ م) ليخلفه على إمارة عمان ، كما يبدو أنه سحب الجزء الأكبر من القوات بحيث ارتأى الأمير أحمـــد أن ينقل مقره إلى بهلا ، وهى بلدة قديمـــة تطل على أحـــد وديان الجبل الأخضر ، كمـــا كانت البلدة الرئيسية للقبائل النزارية والسنية فى عمـــان .

والآن جـــاء دور القرامطة .

لقـــد ظهرت القرمطيّة فى عهد المعتمـــد بالله وقد ســـددت أول ضرباتها إلى الخلفاء ثم تحولت الى حركة إرهابية ضـــد الإســـلام ، ونحن مدينون بكل معلوماتنا عن القرامطة إلى أم . دى . جوجى . وكان مؤسس القرمطية من أصـــل فارسى ، وكان يتميز حقدا وكراهية ضد الإســـلام والعنصر العربى . وقد ظل هذا الزعيم الدينى ينشر الخراب والدمـــار ، ويهدد الكيان الإسلامى لفترة امتدت قرنا من الزمان . وكان يدعى عبد الله

القداح • وبعد أن اجتاح القرامطة البحرين والاحساء بدأوا يوجهون اهتمامهم إلى الأقطار المجاورة كاليمن وعمان ، وكانوا يخططون لإخضاعها لنظامهم •

إن الخليفة المكتفى بالله الذى خلف المعتضد بالله سنة ٢٨٩ هـ (٩٠١ م) كان خليفة قويا وحاكما قديرا ، وقد حاول استرداد أمجاد الخلافة ومكانتها غير أن حكمه كان قصير الأجل جدا ، ولم يتمكن من تحقيق الكثير فى ميدان الإصلاح • ولقد كان من نتيجة ذلك الاندفاع ، ربما فى سنة ٢٩٣ ب هـ (٢٩٥ م) أن قام أبو سعيد بأول محاولة للاستيلاء على عمان • وهناك مراجع عديدة عن هذه الحملة ، غير أنه لا يوجد فى أى منها تحديد للسنة التى تم فيها ذلك الغزو • ويذكر المويرى وغيره أن حملة الغزو كانت تتألف من ٦٠٠ رجل وأنها أبيدت عن آخرها •

وعلى أية حال فان البيهقى يذكر بأن القرامطة قد حققوا بعض الانتصار فى حملتهم باحتلال إحدى الحاميات العمانية التى يعتقد أنها توام (التى هى البريمى الآن) أو جلفار •ويعود فشل الحملة القرمطية إلى شجاعة قبائل نزار ، والحامية التابعة للخليفة بقيادة أحمد بن هلال ، الذى تمكن من حشد قوة كافية لردع الإباضيين ومنعهم من تعبئة قواتهم ، كما استطاع أن يسحق غزو القرامطة فى نفس الوقت • ولم يفكر أبو سعيد فى القيام بمحاولة أخرى بعد ذلك الفشل • وفى سنة ٣٠١ هـ اغتيل أبو سعيد بينما كان فى منزله فى الإحساء •

فى عام ٣٠٥ بعد الهجرة (٩١٧ م) قام القرامطة بزعامة سعيد الذى خلف والده أبو سعيد فى الرياسة فى الإحساء بمحاولة جديدة لإخضاع عمان • غير أن المسعودى لم يشر إلى هذه الحادثة ، رغم أن هذا الرحالة والمؤرخ المشهور يذكر لنا أن أحمد بن هلال كان لا يزال أميرا على عمان عند زيارة المسعودى لصحار فى تلك السنة ، أما الجوزى فيذكر

أن الأمـير أحمد بن هلال أرسل هدايا ثمينة إلى الخليفة المقتـدر فى سنة ٣٠٥ بعـد الهجرة (٩١٧م) وأرفقها بطلب لإرسـال قوة عسكرية للمسـاعدة فى صـد الغزو المتوقع من جانب أعداء الإسلام الذين تحركوا من الإحسـاء للاعتداء على عمان ، ومن بين الهدايا التى أرسلها أمير عمان إلى الخليفة المقتدر ، كمـا يقول السيوطى ، دمية تتكلم ، وكانت تردد كلمات هندية وفارسية أفضل من الببغـاء • وقد بعث الخليفة بالقـوة فورا بحيث أن العملية القرمطية ضـد عمـان بقيادة أبو طاهر سـليمان شقيق سعيد الأصغر فشلت مثل سابقتها ، مما جعل القرامطة يصرفون النظر نهائيا عن غزو عمـان •

ونظرا للضغوط السياسية التى كانت تتعرض لها بغداد فى تلك الفترة قرر الخليفة المقتدر باللـه سحب واليه وقواته من عمان ، والسمـاح لها بشىء من الاستقلال بشرط أن تدين بالولاء للخليفة ، وتدفع الزكاة السنوية إلى خزينة الدولة • ولقد أدرك المسئولون فى بغداد أن الاحتفاظ بعمـان كإقليم تابع للخليفة يكلف الخزانة نفقـات باهظة ويشـكل عبئـا على القوات العسـكرية ، ولهـذا رأت السلطة فى بغداد أن تضع حـلا يحقق الاستفادة من عمـان دون أى تكاليف أو أعباء عسكرية •

وبعد أن تحررت عمـان من اعتداءات القرامطة وسيطرة الخلفـاء العباسيين تنفس شعبها الصعداء ، واستطاع أن يستأنف حياته فى ظل الانسجام القومى والوحدة الوطنية ، ويتخلص من الصراع الطائفى الذى ابتليت به البلاد • وهكذا سارت الأمـور سـيرا طبيعيا • ولا يقـول المؤرخون شيئا عن مجموعة الأئمـة الذين بويعوا فى عمـان على التعاقب السريع ، كما لا يحددون تواريخ توليهم الحكم ••• الخ وكان أحـد هؤلاء الأئمـة هو عبد الله بن محمد وكان يلقب بأبى سعيد القرمطى ، ربمـا لتشبيهه بتاجر الحبوب المشهور أو شىء من هذا القبيل • وهنـاك الشيح الحوارى بن مطرف الحـدانى وهـو الإمـام السابع فى السلسلة

بعد ان استردت عمان استقلالها • ويقولون عن هـذا الإمام أنه عندما كان يحضر مبعوث الخليفة لتحصيل الزكاة كان هو يغادر مقره ليقيم فيه المبعوث ثم يعود اليه بعد أن ينهى مبعوث الخليفة مهمته • غير أن هـذا التصرف لم يرتفع بهيبة الإمام بين قومه • ورغم أنه كان إماما عنيدا فى الحق وعادلا ، وكان يأخذ المنحرفين بمنتهى الشـدة • غـير أنه بسبب ما تعرضت لـه البلاد العمانية من استنزاف رهيب من جانب محمد بن نور واتباعه من النزاريين فإننا لا نعتقد بأن المبالغ التى كانت تتجمع من الزكاة تعادل المبالغ التى كانت تجمعها عمان أثناء خلافـة المتوكل والتى بلغت (أربعة ملايين ونصف مليون درهم أى ما يعـادل ١٨٠٫٠٠٠ جنيـه استرلينى) •

بعد وفاة الامام الجوارى ، بويع ابن أخيـه عمر بن محمد بن مطرف ويقول المؤرخون أنه سـار على منوال عمـه فى السياسـة ، وكان يتبع نفس النظام الـذى كان يتبعه عمه عند قدوم مبعـوث الخليفة لجمـع الزكاة السنوية •

ويقول روس نقلا عن مؤلف « كشف الغمة » أن جميع الأئمـة بعد الصلت بن مالك ، لم يكونوا يتمتعون بتأييد كامل من الشعب ، كمـا أن نفوذهم كان يقتصر على بعض مناطق البلاد •

فى عام ٣١١ بعد الهجرة (٩٢٣ م) شن القرامطة هجوما على ميناء البصرة ، واقترفوا فيه سلسلة من جرائم القتل والارهاب والتدمير للبلاد وأهلها ، وقـد أدى ذلك النجاح الذى حققه القائد القرمطى وهو أبو طاهر سليمان إلى خلع أخيه سعيد من الحكم وتنصيب أبو طاهر نفسه •

أمضى أبو طاهر السنوات القليلة التالية فى إنشـاء قلعة ضخمة فى الإحساء ، اكتمل بناؤها فى عام ٣١٥ بعد الهجرة (٩٢٧م) وسميت المومنية كما سميت بدار الهجرة •

بعد ذلك أخذ القرامطة يستعدون لعدوانهم على مكة المكرمة ، وهو العدوان الذى ارتكبوا فيه من المجازر ضد المسلمين ما تقشعر له الأبدان • وقد تربصت قوات ذلك الغزو لقافلة الحج التى أوفدها الخليفة المقتدر عام ٣١٦ بعد الهجرة برياسة منصور الديلمى ، وانقض أفرادها بقيادة أبو طاهر على الحجيج قتلا وتنكيلا ، وبثوا الرعب والفزع فى قلوب الحجاج حتى غطت دماؤهم أرض تلك البقعة الطاهرة • وقد عاد أبو طاهر من مكة محملا بالغنائم والأسلاب والأشياء النفيسة يسوق وراءه أسراب الأسرى المذعورين من الرجال والنسوة والأطفال •

ولفترة من الوقت خضعت أقطار شبه الجزيرة لطوفان القرامطة الوحشى المدمر بما فى ذلك عمان نفسها ، غير أن ذلك البلاء لم يدم طويلا • ولما كانت عمان هى آخر قطر يسقط فى يد القرامطة ، فقد كانت الأولى التى تثور عليه • كما أن الرباط الذى كان يربط عمان بعرش الخلفاء قد تمزق ، وتحولت الزكاة التى كانت تحصل عليها بغداد من العمانيين إلى الاحساء لفترة من الوقت لم تعرف مدتها ، غير أن الفترة التى توقف فيها إرسال الزكاة إلى بغداد لم يتحدث عنها أى مؤرخ ، وكل ما نعرفه عنها أن وكيل الخليفه قد فر الى فارس •

ويشير ابن خلدون إلى هذه الحادثة ، غير أن معلوماته عنها غامضة لا تفيد ، رغم أنه يذكر بوضوح أن خضوع عمان للقرامطة حدث بعد احتلالهم لمكة •

وعلى أية حال فهناك الكثير من الأسباب التى تدعو إلى الاعتقاد بأن استيلاء القرامطة على عمان لم يرافقه تدخل ما فى المؤسسات السياسية أو إلى اضطهاد الطوائف الإباضية ، التى رحبت بالقرامطة باعتبارهم محررين وليسوا غزاة ، ولعل قبائل نزار أبدت بعض المقاومة إلا أنها لم تؤد (كما تجمع الروايات التاريخية) إلى صراع دموى وأن انتصار القرامطة كان انتصارا سلميا نسبيا •

فى عام ٣٢٠ بعد الهجرة (٩٣٢ م) اغتيل الخليفة المقتدر بالله خارج أسوار بغداد نتيجة خلاف بينه وبين قائده مؤنس المظفر الذى كان قد استدعاه من الموصل .

خلف المقتدر بالله أخوه القاهر بالله وهو أحد الخلفاء الذين حكموا وسيطروا وآخرهم أيضا ، كما أنه كان أشدهم قسوة . وخلال حكمه قامت ثورة بسبب تصرفات على بن بليق الذى كان يهاجم زعماء الحنابلة وقد اعتقل بليق هو واتباعه ، ثم شحنوا فى بعض السفن من البصرة إلى عمان .

بعد اعتزال الإمام عمر بن محمد ، فى أعقاب غزوة القرامطة لعمان ، مرت فترة لم يتم انتخاب أى امام خلالها ، وبما أن القرامطة اكتفوا بالزكاة من العمانيين ، ولم يتدخلوا فى شئون الامامة ، فقد سعى الإباضيون إلى مبايعة الشيخ محمد بن يزيد الكندى إماما لهم ، غير أن البلاد قاست من الحروب الأهلية كثيرا فى عهده .

ولما كانت عمان قد انفصلت عن الخلافة بحكم وجود القرامطة فيها ، وكانت حكومة بغداد تدرك خطورة ضياع عمان وحرمانها من الزكاة السخية التى كانت تدفعها لها ، فقد أخذت تفكر فى القيام بإجراء ما . وهكذا أعدت حملة قوية وأرسلتها إلى عمان ، ربما بتشجيع من القبائل السنية ، وقد تمكنت هذه الحملة من إبعاد القرامطة الى المناطق الجبلية ، وإقامة معسكرين للمراقبة احداهما على الساحل فى نخل على سفح جبل الشيبه . وقد أدى استمرار عمليات الحملة إلى فرار الإمام محمد بن يزيد واللجوء أما الى زنجبار أو اليمن . وهكذا تم احتلال نزوى ، وأصبح الإباضيون مرة أخرى تحت رحمة الطوائف النزارية . وربما كانت تلك الحملة هى حملة يوسف بن وجيه الذى حدثنا عنه ابن الأثير ، غير أنه من غير المحتمل وجود ابن وجيه فى ذلك الوقت المبكر . ولعله من الأفضل

أن نفترض أن تلك الحملة التى أرسلها الخليفة القاهر بالله قد حققت نجاحا مؤقتا ، الى أن عاد القرامطة بعد تلقيهم امدادات من البحرين لطرد الغزاة والاستيلاء مرة أخرى على عمان .

لقد مهدت عودة القرامطة الطريق لانتخاب إمام أباضى جديد هو الملا البحرى الذى يصفه بعض المؤرخين بأنه كان معتوها وتوفى بعد انتخابه مباشرة .

وليس هناك أدنى شك فى أن الإباضيين العمانيين كانوا يفضلون سيادة القرامطة من الخضوع لنير الخلفاء ، ليس لأنهم استطاعوا من خلال ذلك أن يستعيدوا مركزهم السياسى فحسب ، وانما وجدوا ، ولو لبعض الوقت ، متنفسا لهم فى مزاولة الحروب والعودة إلى حياة السلم والفنون ، وأن يتطلعوا الى دفعة جديدة من الرخاء والثروة ، غير أن تلك المتغيرات وخلاص العمانيين من الطغيان لم يكن يكفى وحده لتحقيق تلك الآمال السعيدة ، بل كان الأمر يحتاج إلى زعيم قوى ورشيد ليسير بالأمة عبر الأخطار والمتاعب والفوضى التى تحدق بها . ويبدو أنهم وجدوا ضالتهم تلك فى شخص أبو القاسم سعيد بن عبد الله بن محمد بن محبوب بن الرحيل بن سيف بن هبيرة ، فارس الرسول صلوات الله عليه وسلم ، فبايعوه إماما بعد وفاة الملا مباشرة .

ويكيل المؤرخون الثناء لهذا الامام بلا حساب ، ويصفونه بأنه كان مثالا للورع والاستقامة والتبحر فى العلم . ويؤكدون بأن ما أنجزه ذلك الإمام الفذ يفوق كل ما حققه الأئمة السابقون ، بما فيهم الجلندى بن مسعود الذى كان من الأئمة العمانيين القدماء ، وفى عهد هذا الامام خمدت نيران الصراع المذهبى ، بينما ازدهرت الحياة الروحية للأمة وذلك نتيجة حتمية لوجود حكم مستقر يكرس جهده الى تنمية المواهب وتطوير الحرف والصناعات ولهذا فقد كان عهده من أبرز العهود التى أخذت عمان فيها

قسطها من الرقى الحضارى ، وكان يمكن أن تسترد جانبا كبيرا من ازدهارها التجارى ووفرتها لو قدر لذلك الامام أن يستمر فى السلطة فترة أطول •

وحتى لو اعتبرنا رأى المؤرخين متحيزا من الوجهة الدينية فممـــا لاشـــك فيه أن الامام سعيد بن عبد الله كان حاكما قديرا وحكيما • ولا يذكر المؤرخون عودة القوات الامبراطورية إلى عمـــان فى عهده ، وبالتالى فيمكن أن نستنتج بأن القرامطة قد كانوا سادة الموقف لبعض الوقت • غير أن عهد الرخاء والخير الذى جلبه حكم ذلك الإمام لعمان قد انتهى بوفاته المفاجئة ، فقد قتل أثناء محاولة كان يقوم بها لقمع تمرد فى سنة ٣٢٨هـ فى الرستاق إبان خلافة الراضى باللـــه • وتاريخ وفاته كمـــا ورد فى « تاريخ عمان » •• تأليف روسى هو ٣٢٣ هـ (٩٣٨ م) غير أن هـــذا التاريخ لا يمتد إلى أكثر من خمس سنوات على وصول القرامطة ، لكى يشكل مرحلة فاصلة بينه وبين حكم الأئمـــة الثلاث • ولذلك فإنى أعتقد بأن التاريخ الذى يحدده ابن الأثير هـــو أكثر احتمالا •

خلف الخليفة الراضى باللـــه عمه القاهر باللـــه وذلك عام ٣٤٤ هـ وتميز حكمه بالقســـوة والبطش وسفك الدماء بحيث خلع عن السلطة بعـــد عامين وأصيب بالعمى • اما الراضى باللـــه فقد كان حاكما رقيقا وطيب النفس ، غير أن الخلافـــة كانت قد بدأت فى التفسخ والانهيار الذى ازداد ســـوءا بتعيين محمد بن رائق كأمير للعمرة وتخويله صلاحيات غير محدودة إلى أن سقطت الامبراطورية على أيدى المرتزقـــة الأتراك الذين عجلت تصرفاتهم بانهيارها •

أما فى عمان فلم يكن قد مضى وقت طويل عندما بدأ الاتراك دورهم فى غزو عمـــان واخضاعها لنفوذهم •

أدار الامام سعيد بن عبد الله شـــئون الإمامة بالكثير من الحكمـــة

وأظهر كياسة نادرة فى التوفيق بين فئات الأمة ، ولهذا فقد اعتبرت وفاته محنة حقيقية للبلاد ، فقد كان عهده عهد سلام • وعلى الرغم من أن بعث النشاطات التجارية قد أضفى على البلاد جوا من الهدوء والاستقرار ، الا أن تلك العوامل لم تفلح فى جعل القبائل تنسى مشاحناتها وأحقادها القديمة ، إذ سرعان ما تبين أن عناصر الشقاق التى سكنت بعض الوقت كانت لاتزال حية ، وانها كانت تنتظر اللحظة المناسبة لتنفجر • وقد جاءت تلك اللحظة عند انتخاب الإمام الجديد ، الأمر الذى أدى الى عودة الصراع والانقسام إلى جسم الأمة العمانية •

وفى الاجتماع الذى عقد فى نزوى وافق المشايخ الثلاثة الذين لعبوا دورا رياديا فى المشكلة على ترشيح راشد بن الوليد • غير أن ذلك الاختيار واجه اعتراضات كثيرة ، وبالتالى فنظرا الى تعدد الآراء بين ممثلى الطوائف ، استوجب الأمر عقد مجلس عام انعقد فى منزل راشد ابن الوليد نفسه ، وحضرته على ما يبدو العناصر المؤيدة له ، فأجمعت على انتخابه بسهولة • وعلى أية حال فمن خلال الدفاع عن تلك الاجراءات من جانب المؤرخين الإباضيين نستنتج أن المجلس كان يعى تماما ضعف موقفه ، كما نفهم أيضا أن المجلس رغبة منه فى تجريد المعارضة من أسلحتها اتخذ قرارا بانتهاج سياسة اللين بالنسبة لحكومة الإمام الجديد ونسيان ما حدث من انشقاقات نتجت عن وفاة القاضى موسى بن موسى على عهد الامام عزان قبل خمسين عاما ، وأدى إلى صراع مزمن جلب البؤس للبلاد •

وفى مجلس يضم مثل تلك المجموعة لا يسع المرء الا أن يتشكك فى النتائج ، فعندما تم التصويت على القرار توجه الإمام المرشح الى إحدى الساحات العامة ، لعلها تقع بالقرب من وادى كلبوة ، حيث كانت جموع غفيرة من الشعب قد توافدت للاستماع الى البيعة • وقرأ البيان على الشعب أبو محمد عبد الله بن محمد بن شيحه ، الذى طلب اليهم التصديق

على القرار بمبايعة الامام ابن الوليد ، وقد منح الشطر الإباضى من السكان مباركته دون تردد على انتخاب الإمام • وانفض الاجتماع فى هدوء • وعلى الفور عين الإمام راشد نوابه ووكلاءه فى الأقاليم والقرى العمانية ، وطلب الى الوكلاء تنفيذ تعليماته فيما يختص بجمع الصدقات والهبات والضرائب ، كما أنه أعاد تجهيز الحاميات والقلاع ، وهكذا أخذ يتصرف كأمير مستقل له كامل الصلاحيات ولا يخضع لأوامر أى جهة فيما عدا مندوب القرامطة فى نزوى الذى كانت وظيفته لا تتعدى جمع الزكاة من العمانيين •

وقد تحدث المؤرخون عن الامام راشد حديثا يفيض بالثناء على خصاله فى العدل والمجاملة وحسن الأداء • ولعل تلك الخصائص هى التى تحمل على الاعتقاد بأنه كان يحظى بتأييد جميع القبائل بما فيها القبائل السنية والنزارية ، الذين حتى ولو لم يبايعوه ، الا أنهم على الأقل لم يعارضوا حكمه • ولقد بدأ عهده باليمن وتمتعت عمان فيه بقسط وفير من الرخاء والعدل والسلام •

غير أن الغيب كان يخبأ لعمان تغييرا لتلك الأوضاع وذلك عندما بدأ معارضوه يحيكون الدسائس ضده • وهكذا حل محل الوئام والولاء الانقسامات والتمرد والشرور • فقد انفض عنه قسم كبير من القبائل الإباضية وسحبوا تأييدهم له مما أضعف من مركزه •

ولقد فشلت كل تلك الفضائل التى يتحلى بها من إبقائه فى الحكم ، كما أنه على ما يبدو كان يفتقر الى القدرة والحسم فى قمع الفتن والانشقاقات التى عصفت بالبلاد •

خلال تلك الفترة تلقت عمان أنباء عن حملة عسكرية يجرى إعدادها فى بغداد لغزو عمان ، وبأن السلطان كان بالفعل فى طريقه إلى بلدة السر •

ان تلك الأنباء قد غيرت مجرى التطورات فى عمان على ضوء ما أحدثته من بلبلة وقلق بين صفوف العمانيين • ويبدو أن الامام راشد انتهز تلك الفرصة فقرر على الفور مسار العمل وأخذ يدعو قبائل البلاد الهامة للالتفاف حوله للدفاع عن الوطن ، غير أن دعوته ذهبت أدراج الرياح • فقد قررت القبائل الإباضية التزام موقف الحياد ، بسبب الخلافات الأخيرة ، بينما لم تتردد قبائل نزار من إعلان موقفها بالترحيب بالغزاة ، وانتهاز الفرصة للتجمع تحت قيادة زعمائهم فى بهلا • وقد توجه الامام راشد الى بهلا فى محاولة لتوحيد الصفوف لمواجهة الخطر القادم واقناعهم بالتخلى عن قرارهم ، وذلك من أجل المصلحة العامة ، غير أن العداوات الدينية وكرههم للهيمنة الإباضية كانت أعمق وأقوى من وطنيتهم •

فى تلك الأثناء كان الجيش التركى بقيادة يوسف بن وجيه قد تقدم من أبو ظبى الى البريمى ، أما الإمام راشد الذى خشى من البقاء وسط بنى نزار فى بهلا فقد اعتزل فى أدم أولا ثم انتقل الى وادى المناخر •

ولا نعرف شيئا عن طفولة وتاريخ يوسف بن وجيه الذى حكم عمان عدة سنوات ثم مات غيلة هناك على يد أحد العبيد ، كما أن أحدا من المؤرخين العمانيين أو غير العمانيين لم يذكر تاريخ فتحه لعمان ، وان كان ابن الأثير قد أشار إلى أنه كان سيد عمان سنة ٣٣١ هـ (٩٤٢م) ، ومعنى ذلك أن الحملة قد وقعت قبل ذلك العام •

ولقد كان العراق فى تلك الفترة فى وضع يرثى له من الفوضى وانهيار النظام ، وكان الخليفة يخلف الخليفة والأمير يخلف الأمير فى تتابع سريع •

وعندما كانت جيوش يوسف بن وجيه ، أو السلطان الطاغية ، كما كانوا يلقبونه ، تزحف دون مقاومة عند الظاهرة ، فى طريقها الى العاصمة

العمانية (نزوى) • كان الإمام راشـــد بن الوليد يبذل جهودا مستميتة للحصـــول على مؤيدين ، وما أن نجح فى تسليح قوة كبيرة حتى تحرك بالاشتراك مع حلفائه القرامطة واتخذ لـــه موقعا فيما بين منح ونزوى • وعلى أية حال فلم يكن الهـــدف من حملة القائد التركى هو سحق الإباضية فى عمان بقدر ما كان يهدف إلى طرد القرامطة منها وتحويل الزكاة التى كانت يدفعها ذلك البلد من الإحساء الى بغداد • ولكن القرامطة كانوا مصممين على الدفاع باستماتة ، وكانت القوة المرابطة خلف خطوطهم تشكل العمـــود الفقرى لجيش الدفاع عن عمان •

وربما كان الإمام راشد أكثر حكمة لو أنه وضع نفسه فى قيادة قواته وتحرك بهم مباشرة ضد العدو • غير أنه فضـــل أن يعســـكر فى عقبة الفيح وهى جدول مـــاء صغير شرقى منح ، وحتى هناك أرسل قواته بقيادة الشيخ أبو محمد عبد الله بن أبى المؤثر لشن الهجوم على الأتراك • وعلى الرغم من أنه لم يتخلف لنا معلومات عن نـــوع العمليات التى جرت بين الجانبين إلا أن المعركة دارت فى منطقة تسمى القضيب القريبة من نزوى وذلك فى شهر ذى القعدة ســـنة ٣٣١ هـ (٩٤٢ م) ، وانه بالرغم من ان العمانيين قـــد قاتلوا ببســـالة إلا أن الصراع لم يكن متكافئا بين الجانبين ، وبالتالى فقد تعرضت القوات المشتركة للابادة واستشهد القائد أبو محمد ، ولم يبق على قيد الحياة ، إلا نفر قليل من العمانيين والقرامطة •

بسقوط نزوى فى أيدى القوات التركية ، توقفت كل مقاومة ، وأخذت الحاميات والحصـــون والقبائل تستسلم الواحدة تلو الأخرى ، وهكذا سلم العمانيون رقابهم للسفاحين الجدد ، وان كان ابن وجيه قـــد حاول على ما يبدو كبح جماح جنوده ، وإعادة النظام والهدوء إلى البلاد •

وهكذا عادت عمان مرة أخرى تحت سيادة بغداد ، غير أن معلوماتنا عنها عن تلك الفترة ضئيلة جـــدا مما لا يسمح بإعطاء تفســـير حقيقى لذلك

الاستسلام المطلق لقـوات الغزو خصوصـا وأن العمـانيين لم يعودونا بذلك .

احتفظ الإمام راشـد بمركزه فى الفيح الى أن عاد أفراد جيشه المهزوم ممن استطاعوا النجاة من المذابح وأبلغوه بمـا وقـع للقـوات العمانية ، فبادر الى الخروج عن طريق وادى سمايل والالتجاء بالمناطق الجبلية ، وهناك ظل تائها يتعقبه أعداؤه وبعـد أن تخلى عنه أصدقاؤه . وأخيرا عاد الى نزوى ، غير أنه أرغم على اعلان فروض الولاء للأتراك ، إلا أنه توفى بعد ذلك بوقت قصير منبوذا ومنسيا من قومه .

لقـد خرج القرامطة من عمان لفترة من الوقت ، إلا أنهم واصلوا محاولتهم للعودة اليها وفرض الزكاة على أهلها . أمـا أبو القرامطة حمدان أو عبيد اللـه فلم يعش طويلا لينعم بانتصاراته فى عمـان ، إذ توفى فى عام ٣٢٢ هـ (٩٣٣ م) وخلفه على الزعامة أبو القاسم ، الذى حوصر بعد ذلك بعشر سنوات فى مقره بالإحساء من جانب يزيد قائد الخليفة ، وهى فترة شهدت تغييرات فى مسـار الأحداث ، إذ توفى فى نفس العام أبو طاهر سليمان أبرز زعماء وقواد القرامطة العسكريين ، والذى لم يوجد من يخلفه فى الزعامـة ، غير أن اختفاء أبو طاهر قد مكن يوسف بن وجيه من الاحتفاظ بقبضته على عمان لفترة طويلة .

وما كاد يفرغ يوسف بن وجيه من فتوحاته فى عمان ويتجه الى تدعيم سلطته حتى تلقى تعليمات من أمير البصرة للقيام بحملة ضـد البريمى . وعلى أية حال فقد نجح يوسف حتى ذلك الوقت فى تدعيم سيطرته علـى العمانيين وفرض الوفاق فيما بينهم بحيث أصبحت كل امكانيات البلاد تحت تصرفه لدرجة لم يعد يخشى من قيام أى تحرك أو تمرد ضـده . ولقـد تمكن من حشـد قـوة بحرية ضخمة من السفن والناقلات فى ميناء جلفار ، وهو الميناء الذى كان يستخدمه العرب فى تلك الأيام كميناء حربى ويفضلونه

على ميناء مسقط وصحار وقام بنقل جنوده وعتاده الحربى الى سفن ذلك الأسطول فى أواخر ٣٣١هـ (٩٤٢م) واستطاع يوسف بذلك الأسطول أن يحقق نصرا قصيرا ، غير أن الحظ عاد فانقلب عليه نتيجة للاستراتيجية التى اتبعها البريدى والتى أدت الى تدمير أسطول يوسف بن وجيه ، الأمر الذى أرغمه على العودة إلى عمان ببقايا أسطوله المحطم .

ولا يبدو أن مركز يوسف بن وجيه فى عمان قد تأثر بتلك النكسة ، إذ يذكر ابن الأثير أن يوسف بن وجيه ظل محتفظا بسلطاته فى عمان ، كما أنه وجد العمانيين مايزالون مستكينين له كما كانوا عندما غادرهم قبل ذلك بشهرين .

وعندما تولى عز الدولة مقاليد الحكم فى عاصمة الرشيد فى عهد المستكفى بالله قرر أن يلعب هذا الأخير دوره فى دراما التاريخ العمانى . وكان أخواه الأكبران على وحسن ، واللذان يلقبان بعماد الدولة وركن الدولة قد توسعا فى فتوحاتهما فى الأقاليم الفارسية ، وعندما قررا مهاجمة شيراز انضم اليهما أحمد ، غير أن المستكفى بالله قد اتهم بأنه كان يتآمر لإعادة الحرس التركى ، فاقتيد الى بيت الأمير وتم خلعه عن السلطة فى شهر جمادى الآخرة سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٥ م) وخلفه خصمه ومنافسه المعطى بالله الذى كان سعيدا كل السعادة لاشتراكه فى عملية فقء عينى ابن عمه السيىء الحظ .

لم تتوفر أية معلومات عما كان يجرى فى عمان فى تلك الفترة ولكن ثمة من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد بأن القرامطة لم يستسلموا لمحاولات اقصائهم عن عمان ، وانهم قاموا بأكثر من محاولة لاسترجاع نفوذهم وانتزاع ما يمكن انتزاعه من أموال الزكاة .

ويذكر لنا ابن حوقل نقلا عن دى جوجى بأن الزكاة العمانية كانت من مصـــادر الدخل العادية ، كمـــا يروى عن قيام حملة بقيادة أبو على حسن بن عاصم ، زحف فيها زعمـــاء القرامطة بجحفل على عمان • غير أن شجاعة جنود يوسف بن وجيه والأتراك قضت عليهم • ولعل هذه المحاولة قد تمت سنة ٣٣٢ هـ (٩٤٣ و ٩٥٠ م) • ولم يكف القرامطة عن محاولاتهم للاحتفاظ بعمـــان ، كمـــا يذكر ذلك ابن خلدون الذى يقول بأن محاولات زعماء القرامطة للاحتفاظ بعمان ظلت مستمرة ويائســـة وأنها لم تتوقف حتى سنة ٣٧٥ هـ (٩٨٥ م) •

وخلال عام ٣٣٩ هـ (٩٥٠ م) كان القرامطة يعملون فى خدمة معـــز الدولـــة ، وقد استطاعوا حتى ذلك الوقت استرداد بعض ما كان لهم من نفوذ فى عمان وجزءا من الزكاة من الحاكم التركى يوسف الذى كان يكره البويهيين وكان مستقلا بحكمه لعمان • ويبدو ان يوسف لم يضيع أى فرصة كانت تسنح لتسديد ضرباته الى الأسرة البويهية حتى أنه فى عام ٣٨٠ هـ (٩٥١ م) انتهز فرصـــة نشـــوب خلاف بين القرامطة ومعز الدولة ليخطط ويقود حملة ضد البصرة لاحتلالها •

وقد استدعى معز الدولـــة القرامطة لمشاركته فى حملته على البصرة ، غير أنهم رفضوا طلبه • وما أن علم يوسف بن وجيه بذلك حتى بادر على الفور بفتح حوار مع القرامطة لعقد حلف معهم مقابل أن يتعاون القرامطة معه على البر ، بينما يتحرك أسطوله العمانى من ناحية البحر فى شـــط العرب ، للقيام بهجوم مشترك على المدينة • غير أن محاولـــة يوسف بن وجيه هذه تسربت أخبارها الى الوزير المهلبى الذى كان قد عينه المعـــز لتسوية شئون إقليم الأهواز • فتحرك فورا وتمكن من احتلال البصرة قبل أن يظهر أسطول يوسف بن وجيه ، وفى نفس الوقت كان يوسف بن وجيه قد غادر بأسطوله عمان فى مستهل ٣٤١هـ (٩٥٢م) وعند رسو الأسطول علم بمـــا حـــدث ، وادرك أن الوزير قد فوت عليه الفرصـــة ، ليس ذلك

فحسب بل أن معز الدولـــة نفســـه قد تحرك بقواته بسرعة لدعم الوزير ، كمـــا خاب أمل يوسف بن وجيه مرة أخرى عندما بلغه أن الكتيبة القرمطية بقيادة أبو العرب يوسف الحسن الجنابى أخى أبو طاهر قد اضطرت الى العودة ولم تقدم عونها له كما كان متفقا عليه •

ورغم ذلك فقد تقابل الجانبان فى معركة حامية استمرت يومين ولم تؤد الى نتيجـــة ، وهكذا اضطر يوسف الى الانسحاب والفرار وفقدان أسطوله كلـــه •

ومن المحتمل أن يكون نافع عبد يوسف بن وجيه قد قام باغتيال سيده فى العام التالى ، وذلك انتقاما منه ربما لإهانة أو اساءة وجهها اليـــــه • وربمـــا يكون تاريخ هذا الحادث سنة ٣٣٢ هـ (٩٤٣ م) ولكن بمـــا أن يوسف بن وجيه كان على قيد الحياة سنة ٣٤١ هـ (٩٥٢ م) فإن وفاته لم تحدث قبل عودته من البصرة • أمـــا عن أسباب تلك المـــأساة فلا توجـــد معلومات يعتـــد بها ، غير أن المؤرخين يذكرون بأن نافعا استولى علـــى السلطة ، وبقى حاكما على عمان حتى قيام معز الدولة بغزوهـــا •

وقد مرت على تلك الأحداث نحـــو عشر سنوات ، لا يشـــير المؤرخون إلى شىء عنها حـــول تاريخ هذه البلاد ، والتى لم تقع فيها أى تغييرات ســـواء فيما يختص بمنصب الخليفة أو أمير البصرة •

وإذا كنا لا نعرف شيئا عن طبيعة حكم هؤلاء لعمان لأنه كان حـــكما اسميا نظرا لأن العمانيين لم يكونوا يطمحـــون الى أكثر من أن يتركـــوا وشأنهم ، فإنه لابد أنهم عانوا الكثير تحت حكم الأتراك ، ومن المؤكـــد أن نافعا وجماعته الأتراك كانوا يسيطرون على عمان أو على الجزء الأكبر منها •

فى ٣٥٢ هـ (٩٦٣ م) صمم الأمير معز الدولة على مهاجمة خصومه

فى عمان بعد أن تخلص من مشاكله فى العراق ، وفى سبيل ذلك كلف رئيس وزرائه أبو محمد الحسن بن محمد المهلبى بالزحف على عمان على رأس جيش كبير • ووصـــل ذلك الجيش الى ميناء جلفار كما تم إعداد أسطول فى ميناء البصرة وظل منتظرا هناك لنقل الجنود • ويبدو أن المهلبى قـــد أجهد نفســـه فوق طاقتها فى اعداد وتنظيم ذلك الجيش ، وعندما كان متوجها من بغداد الى البصرة لقيادة الجيش مرض فى الطريق وعند وصوله الى الميناء تدهورت حالته أكثر مما اضطره الى صرف النظر عن الخطة والعودة الى العاصمة • غير أن القدر كان له بالمرصـــاد ، ففى شهر شعبان بعد شهرين من تلقيه تعليمات الأمير بقيادة الحملة الى عمان ، توفى متأثرا من ذلك المرض •

وقد مرت سنتان قبل أن يجد معز الدولة نفســـه فى حالة تسمح له بتجميع طاقاته من جديد لغزو عمـــان • وقد قرر فى هذه المرة أن يتولى القيادة بنفســـه ولا نعرف شيئا عن حجم القوات التى تم جمعها فى هـــذه المرة ، غير أن معز الدولة لم يكن ليحتمل نكســـة أخرى ، وقد حرص على أن يكون الجيش المكلف بغزو عمان من القوة بحيث يرهب الأتراك ويجعل كل محاولة لمقاومته فى حكم المستحيل • ويبدو أن عملية إنزال ذلك الجيش قد تمت دون مقاومة ، وبالتالى فإن نافع بعد أن أدرك أن خوض أى معركة مع جيش الغزو ســـوف يؤدى الى إبادة قواته ، رأى أن من الأفضل أن يسلم نفســـه ، وقد وافق معز الدولـــة ، وأصـــدر قرارا بذكر اسمى الخليفة ومعز الدولة فى خطبة الجمعة فى الجوامع ، وصك الاسمين على العملة العمانية وهكذا أصبحت عمان مرة أخرى اقليم الخلافة الشرقى •

أمـــا كيف كان ينظر العمانيون الى تلك التغييرات التى تناولت الطغاة الذين كانوا يحكمون البلاد وكيف كانت معاملة أولئك الطغاة لهم ، وما هى المواقف التى اتخذها العمانيون من طغيانهم ، فلا توجـــد أدلة على ذلك • غير أن عـــدم الإشـــارة إلى وجود مقاومـــة من جانب القبائل العمانية

يحملنا على الأعتقاد بأن عملية انتقال السلطة وتهدئة الأوضاع فى البـلاد قد تحققت بدون عنف أو إراقة دماء أو عمليات سلب ونهب •

لم يبق معز الدولة فى عمان وقتا طويلا • ولكن نافعا استجاب لسيده بحيث نال حظوته وكسب ثقته لدرجـة أنه تم تعيينه حاكما وجامعا للزكاة بأمر من أمير البصرة ، ثم أبحر معز الدولة مع قواته عائدا الى البصرة • ولقد لعب نافع لعبته بذكاء وحقق هدفه ، فبعملية اغتيال غادرة لسيده يوسف ابن وجيه سنة ٣٤٢ هـ (٩٥٣ م) وصل الى السلطة ، ثم ها هـو ذا فى سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) ينجح بتملقه للأمير فى الاحتفاظ بسلطته على عمان بعد مغادرة معز الدولـة •

وما أن عادت قـوات البويهيين الى البصرة ، حتى تجمعت القبائل الإباضية بعد أن علمت بقدوم قوة كبيرة من القرامطة الى عمان ، فانتهزوا تلك الفرصـة للتخلص من نير الأتراك واعلان استقلالهم عن الخلافة • وقبل أن يتمكن نافع من قمع تلك الانتفاضة العمانية كان القرامطة قـد وصلوا الى الحدود العمانية ، ودخلوا منطقتى الجـو والظاهرة • وقـد تصدى لهم الأتراك فى هاتين المنطقتين محاولين وقف تقدمهم ، غير أن الأتراك لم يعودوا يتمتعون بتأييد القبائل السنية فى عمان ، فدارت معارك ومناوشات بين الجيشين ، غير أنه بعد قتال عنيف وجـد القرامطة أنفسهم غير قادرين على التقدم وطلبوا من زعيمهم النجـدة • ويبدو أن القبائل العمانية لم تشارك فى تلك المعارك ، ولم تؤيد طرفا ضـد الآخر لأنها كانت مستاءة من شيوخها الذين استكانوا للسيطرة الأجنبية ، وبالتالى فبعـد وصول تعزيزات جديدة لجيش القرامطة تلاشى كل أمل للأتراك فى النصر •

وسرعان ما تغلغل القرامطة الى نزوى نفسها واحتلوا القسم الأكبر من المقاطعات الجبلية • أمـا نافع الذى منيت قواته بالهزيمة ، فقد فر الى العراق لإبلاغ سيده معز الدين بالكارثة التى حلت بهم •

بعد أن أتم قائد القرامطة الذى قدر عدد أفراد جيشه بثمانية الى عشرة آلاف جندى احتلال عمان فرض ضرائب باهظة على العمانيين وسامهم العذاب لدرجة أن نفذ صبرهم فثاروا للانتقام منه .

وبعد رحيل هذا القائد عن عمان عين شخصا يدعى على بن أحمد كوكيل أو نائب عنه لإدارة شئون البلاد وجمع الزكاة .ويبدو أن هذا الشخص كان خسيسا ، إذ يقال أنه فرض لنفسه ضريبة اضافية تقدر بعشر قيمة الزكاة . وقد تسببت اصوصيته فى تعيين شخص عمانى يدعى ابن طوغان كمحكم أو قاض . وكان ابن طوغان من صغار القادة فى البلاد ، وقد أثار تعيينه فى تلك الوظيفة غيرة وعداء بعض المواطنين مما جعله يخشى منهم . وبالتالى فقد هجم على ثمانين من أولئك القادة وقام بذبح بعضهم وإغراق البعض الآخر . غير أن مثل تلك الجرائم فى شبه الجزيرة العربية لا تمضى بدون ردع أو عقاب . فقد انبرى اثنان من أقارب المقتولين الذين انتهزوا فرصة تواجدهم فى احدى المآدب وقاموا بذبح ابن طوغان .

حل محل ابن طوغان فى تلك الوظيفة عمانى آخر اسمه عبد الوهاب ابن أحمد بن مروان الذى مارس سلطته كوكيل للقرامطة لفترة من الوقت ، غير أن على بن أحمد الوكيل السابق تآمر عليه ووضع خطة لكسب ود العناصر الزنجية فى جيش القرامطة ، وكان هؤلاء الافريقيون يقدرون بنحو ٦٠٠٠ رجل ، وكانوا يشكلون القوة الرئيسية فى جيش القرامطة . وعندما كان على بن أحمد يوزع معاشات الجنود كان يدفع للعناصر العربية والفارسية ، أو الجنود البيض ، كما كان هؤلاء يتسلمون مستحقاتهم كاملة ، بينما كان يدفع للسود نصف مستحقاتهم ، برغم أنه كان يعمل بمقتضى أوامر من عبد الوهاب . وقد ثار الزنوج على ذلك الوضع ورفضوا أن يتسلموا مستحقاتهم ناقصة . وعلى أثر ذلك وعدهم على بن أحمد بدفع مستحقاتهم كاملة شريطة أن يحترموه ويؤيدوه فى طلبه بفصل عبد الوهاب . غير أن البيض فى القوات القرمطية احتجوا على ذلك . وقد

اشتد الخلاف بين الطرفين ، بعد أن تمسك كل طرف بموقفه ، وبالتالى فقد تم الاحتكام الى السيف • وفى الصدام الذى وقع بينهما حقق الزنوج انتصارا على البيض لتفوقهم فى العدد • وبذلك فصل عبد الوهاب من وظيفته وهرب من البلاد وتولى على بن أحمد منصب النائب •

كانت النتيجة الأساسية لمؤامرات على بن أحمد هو اقصاء القرامطة من عمان • وقد خبر أهل عمان بما فيه الكفاية سلوك على بن أحمد كحاكم ولم يعودوا يحتملون جشعه ولصوصيته ، وهكذا وجدوا الفرصة سانحة أمامهم ، نظرا لتدهور وانشقاق صفوف القرامطة ، ليجهزوا عليهم • وهكذا استعاد العمانيون وحدتهم الوطنية بنجاحهم فى طرد القرامطة من البلاد ، وتحررها من قبضتهم • وحتى لو لم يحدث ذلك ، فان سيطرة القرامطة على عمان لم تكن لتستمر أكثر من بضعة شهور ، إذ أن الفترة الفاصلة بين غزو الأتراك الأول وغزوهم الثانى تقع بين منتصف عام ٣٥٤ و ٣٥٥ هـ (٩٦٥ م) •

كان قد مضى أكثر من نصف عام ٣٥٥ هـ عندما أعد معز الدولة جيشا آخر لغزو عمان • وفى البداية تحرك الجيش الى منطقة الواسط ، حيث كان ينوى مهاجمة عمران بن شيخان الذى كان قد استعد لمواجهتهم ، وعند اقترابه من المدينة استقبله نافع الريجى ورحب به • وفى شهر رمضان كان قد انتهى من حربه مع عمران ، وأصبح فى امكانه التقدم الى الأبلة القريبة من البصرة ، حيث مكث هناك لتجميع السفن والرجال والعتاد ، وفى تجهيز حملته على عمان • وقد كلف أمير البصرة أبو الفرج محمد بن عباس بقيادة الحملة ، وأبحر هذا بجيشه على ١٠٠ سفينة من البصرة فى منتصف شهر شوال ، وفى طريقه التقى فى سيراف بالجيش الذى ألفه عضد الدولة فى اقليم فارس لتعزيز قوات عمه معز الدولة • وبعد مناقشة مستفيضة للخطة ومسارها قرر القائدان جمع الجيشين فى قوة واحدة والاتجاه به

نحـو جلفار ، حيث رست الحملة فى مينائها فى اليوم التاسع من شـهر ذى الحجة ، وهو آخر شهور عام ٣٥٥ هـ (٩٦٥ م) .

وكما كشفت النتائج ، أدرك العمانيون أنهم قد أخطأوا فى طرد القرامطة إذ لو أنهم استمروا فى عمان وتحالف العمانيون معهم فلربما تمكنت القبائل العمانية من مقاومة غزو البويهيين والقائهم فى البحر . غير أن مقاومتهم قد انهارت أمام جيش البويهيين ، ووجدوا أنفسهم تحت رحمـة عدو لا يرحم لأنهم لم يجدوا مسـاعدة من أحـد .

ولا توجد معلومات تفيد عن محاولات العمانيين الدفاع عن أنفسهم غير أن أبا الفرج مـا إن دخل عمان واستولى عليها حتى بدأ حملة من المذابح ضـد السكان ، كانت من أفظع ما عرف ، وهكذا اجتاحت عمان موجـة ضارية من الحرق والتدمـير والبطش وهتك الأعراض ، تركت العمانيين يعانون آلامـا لا توصف من جراء الإرهاب الوحشى الذى تعرضوا لـه أمـة وبلدا . وهناك قول أن ٩٨ سفينة عمانية قد دمرت ، وأن قرارا صدر مرة أخرى بالدعاء لمعز الدولة أثناء إلقاء خطبة الجمعة .

فى العام التالى ٣٥٦ هـ (٩٦٦ م) غادر أبو الفرج محمد بن عباس الأراضى العمانية على عجل بعد أن تلقى خبر وفاة أمير البصرة معز الدولة فى يوم ١٣ ربيع الأول . وكان معز الدولة قد كلفه بالاشراف على شئون عمان بعـد استيلائه عليها ، وقد سلم مقاليد السلطة الى نائبه عضد الدولة .

ما أن غادر أبو الفرج المسرح الذى شهد انتصاره ، حتى تبعه نائب عضـد الدولة الذى غادرها هو الآخر على ما يبدو الى كرمان ، تاركا وزيره أبو القاسم المظهر بن محمد للاشراف على القوات الفارسية المرابطة فى عمان ، بينما اسندت القيادة العليا لشخص يدعى عمر بن نبهان الطائى

كنائب عن أبى الفرج الذى حكم البلاد ست سنوات باسمى الخليفة وأمير البصرة • غير أن هذا الوضع استرعى فى النهاية نظر عضد الدولة الـذى بعد أن وجد ابن عمه عز الدولة قد أخذ ينفرد بالسلطة قرر أن يحتفظ بعمان لنفسه ، وأعلنها كجزء لا يتجزأ من أراضيه •

فى هذه اللحظة وقعت حادثة استدعت اتخاذ قرار حاسم بشأنها ، وعجلت بقرار عضد الدولة فى ضم عمان بالقوة الى ممتلكاته •

كان جيش الاحتلال الديلمى فى عمان بقيادة النائب عمر بن نبهان الطائى ، وكانت كل الجيوش فى ذلك الزمن تتألف من الزنوج الى حد كبير ، وكان يتم جلبهم من ساحل إفريقية الشرقى ويسميهم العرب الزنج • وكان هذا الجيش الذى بلغ تعداده بضعة آلاف قد قام بحركة عصيان سنة ٣٦٤هـ (٩٧٣ م) واشترك معهم بعض الفرق من الجنود الديالم البيض • وقـد اختاروا لهم قائدا يدعى الحـلاج وتحت قيادته قامـوا بتلك الثـورة واستهلوها بقتل الحاكم النائب عمر ، وبذلك أصبحت البلاد تحت تصرفهم ورحمتهم ، وسرعان ما وصلت أنباء تلك الأحداث الى العراق ، غير أن عز الدولة كان فى ذلك الوقت مشغولا فى محاولات الحفاظ على مركزه بحيث لم يكن فى مقدوره توجيه أى اهتمام الى ما يحدث فى عمان • ولاشك أن الثوار قد وضعوا ذلك فى حسابهم عند قيامهم بحركة العصيان •

أمـا عضـد الدولة أمير إقليم فارس فقد كان ينظر الى الموضـوع من زاوية أخرى • فقد كان يتحين الفرص منـذ وقت بعيد لغزو عمـان والاستيلاء عليها ، وبالتالى فما أن وصلته أخبار تمرد القـوات المرابطة فى عمان والفوضى التى تسودها حتى قرر فورا إعداد حملة لإرسالها إلى عمـان •

كلف بقيادة تلك الحملة أبو الحرب طوغان ، وطلب منه بعد أن توفرت

لـــه وسائل النقل الاقلاع بقواته عبر الخليج وانزالها فى جلفار • وبعـــد أن أتم أبو الحرب انزال القوات على ساحل عمان ، بعث الأسطول الى صحار لمهاجمة الأسطول الذى كان فى ذلك الوقت فى يد المتمردين •

عندما بلغ خبر وصول الفرس للزنج والديلم ، تحركوا على الفـــور من المنطقة الداخلية لمواجهة العدو ونشبت معركـــة عنيفة انتهت بتصفية الزنج وتشريدهم بعد مذبحة مروعة ، كمـــا حقق أسطول الفرس هـــو الآخر انتصارا على أسطول الزنج فى صحار ، مما دفع القائد أبو الحرب الى ابادة سكان تلك المدينة واباحتها لجنوده ، وقد أشار الى هذا الحادث ابن مجـــاور •

بعد تلك الهزيمة لجأ المتمردون الى وادى الجزى ، وتبعتهم هناك قوات أبو الحرب حتى البريمى • وفى هذه المنطقة استدار الزنوج علـــى خصومهم مرة أخرى ، ونشب قتال يائس جديد أسفر كسابقه عن انتصار الفرس ، وقد استولى أبو الحرب على عدد كبير من الأسرى ، وبذلك ضم عمان الى ممتلكات سيده عضد الدولة حاكم اقليم فارس •

ان دحر وتشتيت هذه العصابة من الخارجين على القانون والعصاة والذين كانوا ينشرون الرعب فى عمان قـــد استقبل مـــن جانب العمانيين بالترحيب وذلك لمـــا لاقوه على يدهم من قسوة وعنف وسلب ونهب •

غير أن قوات أبى الحرب التى غزت عمان وخلصت العمانيين من ذلك الوباء قد جلبت معها كثيرا من الشرور لأنها كانت مدفوعـــة بشهوة الفتح والأخضاع ، وليس بدافع تحرير العمانيين أو تخليصهم من الاضطهاد • ومن هنا فلم يكن غريبا أن تبدأ فى عمان حركة قومية ضـــد الغزاة الذين اشمأزت من أعمالهم وبشاعتهم كل الأطراف والطوائف العمانية •

وقد ساد صفوف الإباضيين بصـــورة خاصـــة حماس شديد واجتمعوا

فى نزوى ، وانتخبوا إماما وقائدا لهم هو الشيخ وارث بن زياد والشيخ حفص بن راشد نائبا له ، وقد توافد على مقر قيادة هذا الامام مجموعة ضخمة من المواطنين وكونت من بينها قوة مهيأة لدخول المعركة وطرد الغزاة من البلاد نهائيا •

لم تتوفر لنا تفاصيل عن هذا الصراع لأن المؤرخين التقليديين لم يكونوا يميلون الى التحدث عن انتصارات الإباضية ، بينما المؤرخون الإباضيون التزموا الصمت عن تلك الفترة من تاريخ عمان •

ومن المؤكد أن القبائل العمانية قد خاضت صراعا باسلا لاستخلاص حريتها وكادت أن تحقق أملها فى الاستقلال ، غير أن الخلاص حتى ذلك الوقت لم يكن فى متناول أيديهم ، وأن النجاح النسبى الذى حققوه ، كما سوف نرى ، تمخض فقط عن المزيد من البطش والتنكيل من جانب الغزاة •

ويبدو أنه فى مستهل عام ٣٦٣ هـ (٩٧٣ م) نمى الى علم عضد الدولة أمير اقليم فارس عن ثورة العمانيين ضد سلطته ، وما لقيته قواته من كارثة على يد الإباضيين • وعلى الفور أمر بتنظيم قوة من الامدادات لنجدة جيشه المنهار فى عمان ، وأقلعت الحملة بقيادة وزيره أبو القاسم، وقد أبحر الأسطول أولا الى خور فكان التى تقع شمال عمان وهاجموا البلدة ، واحتلوها وسقط فى القتال عدد كبير من القتلى والأسرى من أهل خور فكان •

وفى صحار عاد الوزير فشحن جيشه على السفن وأقلع الى دغمر ، القرية القريبة من قريات وتبعد ٢٠٠ ميل عن صحار ، وفى هذا الجزء من الساحل العمانى يوجد سهل ساحلى عند فتحة وادى ضيقة ، حيث كانت قد تجمعت القوات العمانية بقيادة الامامين وارث وحفص • وهنا قام أبو القاسم بانزال جنوده ونشبت معركة هائلة بين الجيشين المتحاربين

أرغمت العمانيين على الفرار • ويذكر المؤرخون أنه قد تخللت المعركة مذبحة رهيبة ، وأن عددا كبيرا من شيوخ عمان قد وقعوا أسرى ، كما أن تلك المعركة قد حسمت مستقبل البلاد ، ومنحت الفرس مزية عظمى وقاعدة للعمليات العسكرية ، أما الإمام ومن بقى من أتباعه فقد انسحبوا من وادى الطايين الى نزوى ، غير أن الوزير لا حقهم الى هناك ، كما أن الامام بعد أن اضطر الى الانسحاب من العاصمة عند اقتراب جيش المعتدين عاد فصمد للمعركة التى دارت رحاها وراء السهل ، غير أنهم منوا بهزيمة أيضا ، وحقق أبو القاسم نصرا ساحقا أباد فيه القوات العمانية فى معركة دموية رهيبة ، ويشاء الحظ أن يسقط الامام شهيدا ، بينما نجح حفص من الهروب واللجوء الى الساحل ومنه سافر الى اليمن حيث عمل مدرسا هناك •

ومع ذلك فان العمانيين لم يستسلموا رغم هزائمهم المتكررة فى معركتى قريات ونزوى ، وكان بنوريام يشكلون عصب القوة التى واصلت تحديها للغزاة ، وتمكنت من تجميع قوة فى سهل واد بالقرب من بهلا غير البعيدة من الجبل الأخضر ، وهناك حشدت قواتها لمواجهة الفرس •

ويذكر ابن الأثير أن جيش العمانيين كان يتألف من ١٠٫٠٠٠ مقاتل غير أن الرقم قد يكون مبالغا فيه •

اما الفرس فقد كانوا أقل عددا بلاشك ، غير أنهم كانوا منتشين بالانتصارات التى حققوها على العمانيين ، كما أنهم بالاضافة الى ذلك كانوا أفضل تسليحا ، وكانوا يشكلون قوة متراصة صلبة ، وبهذا قاموا بهجوم مستميت على بنى ريام وتمكنوا من القضاء عليهم • وكانت تلك المعركة خاتمة الصراع فبعدها خضعت البلاد العمانية كلها لسلطان أمير فارس ، ولم يبق فى عمان منطقة أو مقاطعة لم تستسلم له •

انشغل الوزير بتهدئة الوضع وتسوية شئون البلاد وتعيين الولاة

وتوزيع الجنود على الحاميات ، الى أن استدعاه عضـــد الدولة الى كرمان فى العام التالى ٣٦٤ هـ (٩٧٤ م) .

بينما كانت هذه الأحـــداث تتبلور فى عمان ، كانت هناك تحولات أخرى تأخذ مجراها فى الحكومة المركزية فى بغداد ، فلقد قرر الخليفـــة المتقى بالله التنازل عن الحكم لنجله وذلك فى شهر ذى القعدة سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٣ م) بعد حكم استمر ٢٩ عاما وذلك نتيجة لاصابته بالشلل .

عند وفاة الخليفة ٣٧٢ هـ (٩٨٢ م) عن عمر يناهز السابعة والأربعين قسمت ممتلكاته فيما بين انجاله ، وكانت عمان من نصيب أمير فارس شرف الدولة أبو الفوارس شير زايد ، الذى ثبّت واليه استاد هرمز فى منصبه . غير أن التنافس والصراع الذى دب فيمـــا بين أنجاله وشمل كل الأقاليم التابعة للبويهيين سرعان ما شعر به العمانيون وثاروا على الفرس .

فى سنة ٣٧٤ هـ (٩٨٤ م) دبر همام الدولـــة الأخ الأكبر مـــؤامرة للاستيلاء على عمان ، ونجح فى كسب حاكمها استاذ هرمز ، ورجال الحامية الذين على ما يبدو قد تخلوا عن سيدهم ، شرف الدولة ، دون قتال ، غير أن نصر المغتصبين لم يعمر طويلا ، إذ ما أن أبلغ شرف الدولـــة بمـــا حـــدث حتى بادر إلى إرسال قوة كبيرة الى عمان تمكنت من القضـــاء على استاد هرمز ، وإعادة عمان الى سلطة أمير فارس شرف الدولة ، وقد اعتقل استاد هرمز وزج به فى السجن فى احدى القلاع حيث توفى هناك بعـــد أن جرد من الممتلكات والثروة التى جمعها بالحرام خلال وجوده فى عمان .

ولا نعرف ما اذا كان همام الدولـــة قد استولى على عمان عند وفاة شرف الدولة سنة ٣٧٩ هـ (٩٨٩م) أم لا .

كما أنه لم يرد ذكر للقرامطة لفترة طويلة من الوقت ، إلا أنهم ، كما

يذكر ابن خلدون ، كانوا فى وضع حرج فى عمان حتى سنة ٣٧٥ هـ (٩٨٥ م) حيث لم يعد لهم وجود ، وأنهم بالفعل قد اختفوا من مسرح التاريخ ، ولقد كانت آخر معاقلهم فى عمان ، كما نعتقد ، هى البريمى .

ومن ناحية أخرى فان تاريخ الأسرة البويهية فى عمان ، تاريخ غامض ومتضارب وحساس بدرجة يصعب معها أن تحدد اسم الأمير أو السيد الذى كانت تتبعه عمان ابتداء من ٣٧٩ — ٣٨٨ هـ (٩٨٩ — ٩٩٨ م) .

فى العام السابق لذلك تولى بهاء الدولة أبو ناصر فيروز الأخ الأصغر لشرف الدولة منصب أمير البصرة فى بغداد ، وكان الأخير يخوض حربا ضد أخيه همام الدولة أمير فارس ، وكان قد منى بهزيمة نكراء على يد أبو على ابن استاد هرمز عندما اغتيل همام الدولة فى شيراز على يد ابن أخيه فى سنة ٣٨٨ هـ (٩٩٨ م) .

وعلى أثر ذلك ضم بهاء الدولة اقليم فارس الى ممتلكاته السابقة وفى عام ٣٩٠ هـ (٩٩٩ م) عين أبو محمد بن مكرم حاكما على عمان . أما عن ماضى هذا الرجل فيمكننا أن نستشف شيئا من المعلومات من ابن الأثير ، غير أننا لا نعثر على أية معلومات عن طبيعة حكمه لعمان ، فيما عدا أنه كان حاكما يتسم بالاعتدال كما أننا نستدل من كتاب روسى « تاريخ عمان » عن إمام يدعى الخليل ابن شاذان انتخبه العمانيون فى أوائل القرن الخامس عشر ، ومن المسلم به أن صلاحيات هذا الامام اقتصرت على الشئون الدينية فقط ، وإذا وضعنا فى الاعتبار العداء الدينى القائم بين الفرس والعمانيين خلال تلك الفترة فإن هذه المسألة على ما يبدو جديرة بالاهتمام .

وفى عام ٤٠١ هـ (١٠١٠ م) أوفد الخليفة القادر بالله الذى خلف الطائع بالله سنة ٣٨١ هـ (٩٩١ م) القاضى أبو بكر البكالى الى أمير

البصرة بهاء الدولة يحذره من أن العلويين والعباسيين يقاتلون بعضهم بعضا على طول المنطقة الممتدة من الكوفة الى بغداد •وقد كوفىء هذا القاضى على الخدمات التى قدمها خلال تلك الفترة بتعيينه كبير قضاة عمان والساحل الشرقى من إفريقية •

توفى أمير البصرة بهاء الدولة سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) وخلفه أكبر أنجاله سلطان الدولة أبو شرجه ، الذى انتقلت فى عهده إمارة عمان من أبو محمد بن مكرم إلى نجله أبو القاسم ، الذى احتفظ بادارة هذا الاقليم سنين عدة •

توفى سلطان الدولة فى شيراز سنة ٤١٥ هـ (١٠٢٤ م) وقد نشب نزاع على وراثة الحكم بين أخيه ونجله •

وكان الأخير عماد الدين الكاليجار مرزبان الذى كان لا يزال شابا فى ذلك الوقت يقيم فى الاهواز ، فاستدعى على التو من جانب حاكم عمان الأخير ، أبو محمد للحضور لتسلم منصب والده ، غير أن عماد الدين لم يكن مستعدا لذلك • ومن ناحية أخرى كان عمه قوام الدولة أبو الفوارس حاكم كرمان على استعداد لتولى المنصب والاستفادة من تلك الأضاع ، وعلى الفور زحف الى شيراز واحتلها وتولى مقاليد السلطة دون مقاومة • وقد حاول أبو محمد أن يهرب إلى عمان ، غير أنه اعتقل وأعدم بأمر قوام الدولة ، وعندما علم أبو القاسم بوفاة والده ، أعلن موقفه ضد قوام الدولة وعرض حكم عمان على أبو الكاليجار الذى قبل العرض • ومضت سنة تمكن بعدها الكاليجار من جمع مؤيدين وأنصار وشكل جيشا ودخل به المعركة ضد عمه أبو الفوارس ، وتمكن من سحقه والعودة الى كرمان ، ثم بعد ذلك استولى على مقاليد الحكم فى اقليم فارس •

وفى سنة ٤٢٨ هـ (١٠٣٦ م) توفى أبو القاسم على بن حسين بن مكرم

سـيد عمان والشخصية الليبرالية الهامة ، وخلفه أكبر أنجاله أبو الجيش ابن مكـرم .

أما أين كان الحكام البويهيون يقيمون ويحكمون ، فلا توجد بيانات عن ذلك ، غير أن هناك من الأسباب ما يحملنى على الاعتقاد بأن مقر حكمهم الرستاق . وكان يتولى قيادة جيش أبو القاسم على بن حطان وكان لـه مساعد أو نائب ، مقره نزوى ، ويدعى المرتضى .

كان أبو الجيش على ما يبدو من معدن ضعيف وكان حكمه قصيرا ، غير أنه لم يخل من أهمية ، وكان لـه ثلاثة أخوة هم المهذب ، وأبو محمد ، وأخ ثالث كان لا يزال فى المهد .

ولقد استاء الأخ الثانى ، وهو المهذب ، من مظاهر الاحترام التى كانت تكال للقائد على بن هطال من أبى الجيش حتى انه كان يقف له احترامـا عند قدومه ويبالغ فى تعظيمه . وكان المهذب يهجو هطال صراحة . ولكن القائد الماكر أحس بذلك ، ودبر دسيسة لتحطيم المهذب ، فقد دعاه الى وليمة وأغرقه بالمجاملة والتكريم ، واستطاع أن يجعله يشرب كؤوسا كثيرة من الخمـر حتى فقد وعيه كلية . ثم أخذ يحدثه عن خطة للقيام بثورة ضـد أبو الجيش الذى قال عنه هطال ، بأنه ضعيف وغير صالح للحكم ، وأنهما بعد أن ينجحا فى خلعه يقوم هطال بتنصيب المهذب مكانه ، وقد وافق المهذب على الخطة لأنه لم يكن يعى ما يقوله من شـدة تأثير الخمر . فطلب منه هطال أن يكتب لـه رسالة يخوله بتنفيذ تلك الخطة ، ويتعهد بتكريمه والإغداق عليه فى حالة نجاحها .

فى اليوم التالى توجه هطال مباشرة الى أبو الجيش ، وأبلغه أن أخاه المهذب يدبر مؤامرة ضـده ، وأطلعه على الخطاب الذى كتبه المهذب . وقد ثار أبو الجيش وأمر باعتقال المهذب ، ووضع الأغلال فى يديه ، وبالتهور والتسرع الذى عرف به الحكام الشرقيون أمر بإعدامه خنقا .

وقعت هذه الحادثة سنة ٤١٣ هـ (١٠٣٩ م) وبعد بضعة شهور من نفس العام توفى أبو الجيش •

فى ذلك الجو وجد على الهطال نفسه سيد الموقف ، وبدأ يضع الخطط لتمجيد نفسه •

فقد قرر أن يعين نجل أبو القاسم الثالث ، وهو أبو محمد ، حاكما على أن يبقى تحت سيطرته طالما شاء ، ثم بعد أن يتخلص منه بطريقة أو أخرى يتولى سلطة الحكم فى عمان •

غير أن الخطة فشلت بتدخل والدة الفتى التى رفضت أن تسلم ابنها الى عهدة الهطال ليكون وصيا عليه ، وقالت له بأنه فى إمكانه أن يتولى أمور البلاد إذا شاء ذلك ، ولكن ابنها لن يتدخل لأنه لا يزال صغيرا •

ولو كان على الهطال حاكما رشيدا وناجحا لاستطاع أن يحتفظ بالسلطة فى يده لوقت طويل ، غير أنه ما إن ذاق حلاوة السلطة حتى شرع فى الاساءة الى تلك السلطة بتصرفاته الاستبدادية واستيلائه على ممتلكات الغير وأموال التجار بالقوة •

وما لبثت تصرفات على الهطال وموقفه من أنجال أبو القاسم أن وصلت أخبارها الى البلاط الملكى فى شيراز فكانت بمثابة الصدمة لأبو الكاليجار ورئيس وزرائه • فكتب العادل أبو منصور بن مهنا للنائب المستهدى باتخاذ الاجراءات اللازمة ضد الهطال وبارسال قوات من البصرة لمساعدته ، وقد استجاب أهل عمان بسرعة لدعوة المستهدى عندما طلب اليهم أن يشاركوه فى تلك العملية بعد أن ذاقوا الأمرين من بطش وقهر الهطال • وهكذا بتأييد قوات الديلم التى أرسلت الى عمان استطاع النائب استرجاع أجزاء كبيرة من البلاد ، أما المناطق الباقية فقد تمكن الهطال بمن معه من القوات الصمود فى مراكزهم الحصينة فيها •

غير أن المستهدى قرر اللجوء الى فكرة اغتيال على الهطال بعد أن تعذر القبض عليه وذلك عن طريق أحد العبيد الذى اغتصبه على الهطال من ابن مكرم وبتلك الطريقة نجح المستهدى فى اعادة الهدوء والاستقرار الى عمان .

وبمجرد علم عادل أبو المنصور بوفاة على الهطال وبزوال الخطر عن عمان بادر الى التوجه اليها ، وهناك قام بتعيين الزعيم الشاب أبو محمد ابن أبو القاسم بن مكرم حاكما على عمان وذلك فى سنة ٤٣١ هـ (١٠٣٩ م) .

غير أن حكم أبو محمد لم يرض العمانيين ، فقد كانت تنقصه الخبرة مما اضطره الى توزيع سلطة الدولة على نوابه والمسئولين الآخرين الذين كانوا ككل الطبقات الفارسية من ذلك الطراز ، ظالمين ومبتزين ولصوص .

وقبل مضى عامين كانت البلاد العمانية قد هبت فى ثورة ، وتأزمت الأمور هناك بحيث اضطر ملك فارس أبو الكاليجار الى التوجه بنفسه .

وأبحر على رأس قوة عسكرية من أحد الموانى الفارسية الى صحار حيث قام بإنزال الجنود والاستيلاء على المدينة . ولا توجد لدينا معلومات عن المناطق التى وصلت إليها قوات الكاليجار أو المدة التى استغرقها فى اخضاع ذلك الاقليم ، وكل ما نعرفه أن ذلك الملك الفارسى قد نجح فى قمع الثورة وبعد أن تم له ذلك عين ابنه حاكما على عمان وعاد مع قواته الى شيراز [1].

لقد بدأ الاحتلال الفارسى لعمان الآن يقترب من نهايته وأن تخلى الأسرة البويهية مكانها لقوة أعظم وأطول عمرا ، ونعنى بهم السلاجقة الأتراك . ان ازدياد عوامل الضعف فى الحكام الديلم قد شجع العمانيين

---

(١) من المحتمل أن أبا محمد قد قتل خلال هذه الانتفاضة ، اذ لم نعد نسمع عنه شيئا بعد ذلك .

على الثورة ، وآخر محاولة من هـذا النوع لم تحقق الا نجاحا ضئيلا ، كمـا أن المحاولة الثانية لتخليص البلاد من المحتلين باءت بالفشـل هى الأخـرى .

فى عام ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م) توفى الأمير عماد الدين أبو الكاليجـار مرزبان أمير فارس فى شـيراز ، وخلفه أبو نصر خسرا فيروز رحيم آخـر رجل فى العائلة . وكان الأمير أبو مظفر نجل أبو الكاليجار هو الذى يحكم نزوى ، والذى دحرجته الثورة عن عرشـه سنة ٤٢٤ هـ (١٠٥٠ م) أى قبل ست سنوات من انهيار تلك الأسرة ووضعت نهاية للسيادة الفارسية على عمان .

ان السبب الأكبر لتلك الثورة هـو المعاملة القاسية والسـلوك الاستبدادى لأحـد العبيد الافريقيين الذى كان سيده أبو مظفر قد اسند اليه سلطة شـئون الدولة والذى كان يحكم ويسيطر فعليا على البـلاد كلها . ولقد فجرت أعمال الابتزاز والقسـوة التى كان يتصرف بها ذلك العبـد ، استياء عامة الشعب ، وبالتالى تحـول الاستعباد إلى كره . ولقد جاءت اللحظة المناسبة والشخصية التى كان يبحث عنها العمانيون وقـد تجسـدت فى رجل يدعى الامـام راشـد بن سعيد الذى هو صـورة طبق الأصـل من السيد أحمد بن سعيد مؤسس أسرة البوسعيد . وكان هذا شخصية قوية تتسم بالصرامة والعنف ، وكان قد برز وتصدر الأحداث منذ عهد أبو القاسم بن مكرم فى مكافحة المعتدين الفرس ، وفى محاولاته لتصحيح الأمـور وحماية الضعيف . وبعد أن نجح فى إثارة القبائل وجمع عدد كبير من المؤيدين حولـه ، بدأ حركته المناهضة ضد المحتلين ، وعندما تحرك أبو مظفر بجنـوده لمواجهة راشـد نشبت بينهما معركة قـدر للعمانيين أن يخسروها [1] .

---

(١) كانت تلك الثورة هى الفشل الأول للشيخ راشد .

غير أن القبائل لم تستسلم لذلك الفشل وأعادت تجميع قواها وصممت أن توجه ضربتها الساحقة هذه المرة الى الغزاة وانتزاع الحرية منهم • كما أنه على الرغم من فشل الهجوم الأول للعمانيين الا أنهم لم يفقدوا ثقتهم فى راشد كزعيم ، ولهذا فقد توحدت الأمة مرة أخرى تحت قيادته وتوافرت عليه من كل جانب •

وفى المعركة الثانية انتصر الشيخ راشد وتمكن من تصفية الديلم نهائيا • وقد تم اعدام العبد الذى أثار غضب الشعب ، كما أخذ مظفر نفسه أسيرا الى المناطق الجبلية ، أما بقية الديلم الذين نجوا من الموت فقد أخذوا أسرى ولقوا نفس مصير أميرهم • وعلى أثر ذلك استولى راشد على مقاليد السلطة وقام باستئصال عمال وجباة الضرائب من الديالمة ، كما أنه أمر بهدم قصر الأمراء لأنه كما صرح كان قصرا يستخدم لتدمير الشعب وتحقير العدالة • ويذكر ابن الأثير أن راشد طغى بعد ذلك النجاح لدرجة أنه لقب نفسه بالراشد بالله ، وأخذ يرتدى الأقمشة الصوفية ، وشيد لنفسه منزلا على هيئة المسجد • غير أن المؤرخ العظيم للعصور الوسطى ابن الأثير ، الذى بعث أعمال راشد من مهاوى النسيان : كان سنيا متعصبا وقد أعقب ذلك الانشاقات المذهبية ، وكان يبدى تجبرا واضحا ضد العمانيين •

ويقول روسى فى « تاريخ عمان » أن العمانيين هم الذين انتخبوا الامام راشد الذى توفى فى شهر محرم ٤٤٥ هـ / ١٠٥٣ م ، وربما جاء انتخابه فى أعقاب إقصاء الطغاة من البلاد ، وكان تعبيرا عن تقدير الشعب وامتنانه للدور الذى قام به فى تحرير عمان من نير السيطرة الأجنبية ، إن ذلك المؤرخ ومن غير أن يشير الى مآثر ذلك الامام قد استشهد ببيت من الشعر يشيد بسلوك راشد بن سعيد كحاكم •

وإننا نعرف من أحد مؤلفات محمد ابراهيم الفارسية أن الديلم

لم يستسلموا لهزيمتهم وطردهم من عمان كنهاية لنفوذهم فى عمـان ، لأن جيشـا جديدا تم ارسـاله من جانب ملك فارس لاعادة احتلال عمان والثأر لأبو مظفر • واسندت قيادة هذه الحملة الى شهريار بن طفيل ، ويبدو أنها نجحت فى اعادة إخضاع عمان جزئيا وكليا ، لأن شهريار كان هـو الحاكم خلال غزو السلاجقة لتلك البلاد ومن المحتمل أن يكـون الامام راشـد قد قتل فى المعارك التى نشبت بغزو شهريار أو على يديه بعـد الانتصـار •

على الرغم من أن اقصـاء القرامطة عن عمـان قد تم بعد انقضاء ٧٥ عاما فإن العلاقات الودية بينهم وبين العمانيين ظلت قائمـة ، فالقصة التى حدثت فى عام ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) تقريبا تؤيد هذا الرأى •

فقد نشبت ثورة خطيرة فى جزيرة أوال بعـد فرض ضريبـة باهظـة على أهلها من جانب حكومة القرامطة فى الأحساء ، فقام رئيس الوزراء القرمطى يومئذ وهو عبد الله صنبر بايفاد أنجاله الى عمان لطلب المساعدة المـالية والعسكرية من أهل عمـان • وقد استجاب العمانيـون بسـخاء للطلب ، ورجع نجل الوزير ومعـه ٥٠٠٠ دينار و ٣٠٠٠ رمح كمساهمة من أهل عمان لحكومة الأحسـاء ، وعلى أية حال فإن هذه المساعدة لم تصـل الى وجهتها لأن عصابة اعترضت ابن الوزير وهو فى طريق العودة فقتلته مع ٤٠ من مرافقيه واستولت على ما لديهم •

كان الجـو فى بغداد فى ذلك الوقت ينذر بالعواصف نتيجـة لمـا أصاب الحكم البويهى من ضعف وخلخلة ، فقد انتقلت مقاليد الخلافـة الى عناصر أخرى ، وسيطرت الفوضى على البلاد ، وأن تلك الامبراطورية العربيـة التى هزت العالم فى يوم من الأيام قـد انحدرت الى أحط دركات التفسخ والانحلال والضعف ، وكادت أن تحتضر عندما استنجد الخليفـة القاسم بأمر الله سنة ٤٧٧ هـ (١٠٥٥ م) بنجـل الفاتح طغرل بك

السلجوقى الذى دخل العاصمة وتولى شئون الحكم ، وأدخل دما جديدا الى الامبراطورية بعد أن أقصى أمير البصرة عن السلطه ، وهكذا تسنى له جمع شمل الأقاليم مرة أخرى ، وعاد النظام والرخاء ليحلا محل الاضطراب والتفسخ ، ورغم أن رجال طغرل بك كانوا متوحشين ومتعطشين للدماء إلا أن محاسن ذلك الحكم كانت أكثر من مساوئه .

كانت عمان هى آخر اقليم تكتسحه جحافل الأتراك ، أما تفاصيل ذلك الغزو فلم يمط اللثام عنها إلا منذ فترة وجيزة بفضل البروفسور هوتسيما .

أما ابن المجاور فقد أفادنا بالفعل فى مؤلفه « تاريخ المستبصر » انه علم من أبى بكر البصراوى أن عمان كانت تابعة أولا لملوك كرمان من أسرة السلاجقة ، ثم حكمها الغز ، كما أن صحار قد اخليت من سكانها بعد أن قام العرب بتدميرها . وهذا فى نظرى هو الدليل الوحيد الذى بين أيدينا عن احتلال الغز لعمان .

كما نجد أن السلاجقة كانوا المسيطرين على عمان ابتداء من ٤٣٣ هـ أو ٤٤٨ حتى ٥٨٣ هـ (١٠٤١ و ١٠٥٦ م حتى ١١٨٧ م) وأن الملك دينار هو الذى خلفهم فى الحكم وأنه اعتبارا من ٦٢١ — ٧٦٦ هـ ، (١٢٢٤ — ١٣٦٤ م) كانت أسرة الغز التى تنتمى الى كرمان هى المسيطرة .

ولاشك أن أمراء الأتراك قد هيمنوا على عمان جزءا طويلا فى الفترة التى لم يؤرخ لها المؤرخون العمانيون ، ومن المحتمل أن يكون سبب ذلك هو وحشية التركمان وعمليات إذلالهم لشعبها ، إذ أن هؤلاء المؤرخين شأنهم شأن كل المؤرخين العرب لم يشاءوا أن يلطخوا صفحات تاريخهم بتلك الأعمال المخزية .

وفى عام ٤٥٦ هـ (١٠٦٣ م) استولى قادربك وهو الأول من أسرة السلاجقة على عمان وذلك بعد أن تمت له السيطرة على اقليم فارس .

وفى عام ٤٥٦ هـ (١٠٦٣ م) وجه قادر بك اهتمامه كما أشرنا آنفا الى عمـــان التى كان يعتقد أنها بلد غنى وأنها حافلة بالكنوز من كل الأنواع ، كمـــا أنها عزلاء ، ولم يكن يتوقع أية مقاومة لخطته أو خطر إلا من البحر الذى كان شيئا غريبا عليـــه .

وعلى هـــذا الأساس أصدر أوامره الى أمير هرمز التى كانت على اليابســـة فى ذلك الوقت وليست جزيرة أن يقوم بجمع اسطول من السفن واتخـــاذ كافة التدابير اللازمـــة لشحن الجنود ونقلهم الى عمـــان . ولقد نفذ الأمـــير ما طلب منه . وهكذا ركب قادر بك البحر على رأس ذلـــك الأسطول ، رغم أنها كانت المرة الأولى التى يرى فيها البحر ، وتوجه به الى الســـاحل العمانى .

كان الهجوم على ما يبدو مفاجأة غير متوقعة ســـواء بالنسبة لأهل عمـــان أو بالنسبة للحاكم الديلمى والحامية ، إذ أن ظهور الأسطول وفى أعقابه نزول القوات قد فاجأ العمانيين تماما ، الذين لم تتح لهم الفرصة لتنظيم قواتهم ومقاومـــة العدوان . وهكذا لم يكن أمام أمير شـــهريار — أو تازيك كمـــا كان يلقب — إلا أن يختبىء . وقد انتشر السلاجقة بسرعة فى البلاد دون أن يلقوا أى مقاومة من أحـــد ، واقترنت الحملة بمذابح بشعة وهتك للأعراض ، واعتداء على الأطفال ، كما عمـــد الغزاة الى الحرق والسلب فى كل مكان . واستولى قادر على البلاد وأصبح سيدها غير المنازع ، ثم أعلن نفسه الحاكم الشرعى والعادل ، وأمر بصك العملة باسمه ، ثـــم بدأ فى ممارســـة الهدف الأساسى من عدوانه وهو نهب الشعب وســـلب ثروة البـــلاد .

فى نفس الوقت كان البحث عن الأمير المختفى يجرى على قدم وساق ، وأعلن الحاكم بأنه ســـوف يحافظ على حياته إذا ســـلم نفســـه . وبدأت عملية بحث واسعة أسفرت عن العثور عن شهريار مختبئا فى أحـــد الأفران ،

وعند مثول شهريار بين يدى قادر أخـذ يعنفه ويوجه اليـه الاهانات ، ثم غير من موقفه ووعد على حـد رأى المؤرخ الفارسى بإعادته فى منصب الحاكم على عمـان ، بشرط أن يعين معه مسئولا سلجوقيا فى وظيفة وكيل سياسى • وبهـذا تم اخضاع الديلم والعمانيين لسلطان السلاجقة ، وقد ناشـد شهريار أمير السلاجقة بالابقاء على حياة أطفاله الذين اختطفوا كرهائن فى بداية الغزو • ويبدو أن السلطان قد وافق على الطلب • غير أنه اضطر الى أن يترك الكنوز والأموال التى استولى عليها أثناء سيطرته على البلاد • فخلال حكم السلاجقة لعمان وجهوا كل نشاطهم الى تدمير القرى والأحياء • وعندما تم جمع الأموال وغيرها من الغنائم على الميناء تمهيدا لشحنها ، غادر قادر وأتباعه التركمان البلاد وأبحروا الى جرمسير •

لقد رأينا كيف أنه خلال ما يقرب من مائة عام تعرضت عمان لما لا يقل عن عشر موجات متتابعة من الغزو والعدوان ، كان يتغير فيها الغزاة والحكام كثيرا • فمنذ غزو الخلفاء بقيادة محمد بن نور ، وما رافق حملته من قهر واضطهاد للمعارضين ، استهدفت عمان لسلسلة متتالية من الغزاة : العرب ، والترك ، والفرس ، والقرامطة ، والديلم ، والتركمان ، كانوا جميعا مدفوعين بشهوة التسلط والسيطرة والسلب والنهب ، وبدون أقل استفزاز من جانب العمانيين ، وارتكب أولئك الغزاة أهوالا من المذابح والاعتداء على الأعراض والحرمات ، واغتصاب أملاك العمانيين وأموالهم •

إن أقطارا قليلة جدا تعرضت لمثل تلك الأعمال المشينة ، بل وأقل من ذلك ، ولكن الشعب العمانى أظهر من الثبات والجلد والصمود والكبرياء القومى والشجاعة النادرة والطاقة الفائقة لاسترداد حقه فى الحياة والحرية • ان التاريخ قل أن يكشف عن مشهد أكثر ايلاما من مشهد ذلك الشعب النبيل المعتز بنفسه الذى كان مصمما المرة تلو الأخرى وبعزيمة لا تلين على أن يقهر جحافل البرابرة القادمين من أواسط آسيا •

كان توارد أمير كرمان ، السلطان عضـد الدين ألب أرسلان الـذى

خلف طغرل بك سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) والخليفة بأمر الله معاصرين لهارولد وليم فاتح انجلترا ، كما أن غزو السلاجقة لعمان قد سبق ببضع سنوات أهم حدث فى تاريخ انجلترا وهو الفتح الرومانى .

فى سنة ٤٦٥ هـ (١٠٧٢ م) قتل عضد الدين ألب أرسلان سلطان بغداد وقبل مقتله كان قد حرم نجله الأكبر من حق الوراثة ، وعين بدلا منه نجله الثانى هلال الدين أبو الفتح ، الذى خلفه على العرش بلقب ملك شاه ، وما أن تولى هذا الأمير مقاليد السلطة حتى انفجرت الاضطرابات فى كل مكان من المناطق الخاضعة له ومن بينها كرمان ، التى تمرد فيها قاوارد ، وأعلن نفسه حاكما مستقلا عليها . ولكن مالك شاه سير حملة ضده على الفور ، وتمكن من دحره وأخذه أسيرا فى أشد المعارك دموية فى تاريخ فارس . وقد تم إعدام قاوارد بعد ذلك مباشرة ، وبقى اقليم فارس وكرمان تحت ادارة عملاء مالك شاه مدة عامين .

فى عام ٤٦٧ هـ (١٠٧٤ م) عفا مالك شاه عن نجل قاوارد سلطان شاه ومنحه ولاية اقليم كرمان مع توابعها فى عمان . ومن المحتمل أنه حكمها على غرار حكم والده مع وجود أميرسلجوقى فى العاصمة للاشراف على الأمور واستلامه الايرادات .

وفى سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٤ م) توفى الخليفة الكامل بالله بعد حكم طويل دام ٤٥ عاما وخلفه نجله المقتدى بالله ، الذى بدا بموافقة ضمنية من مالك شاه فى ممارسة بعض الصلاحيات الخاصة بالفرس ، كما حاول تطهير القضاء من الفساد فى بغداد .

ويبدو أن عمان استمرت تحت حكم السلاجقة خلال حكم كل من طوران شاه ٤٧٧ — ٤٨٩ هـ (١٠٨٤ — ١٠٩٥ م) وايران شاه ٤٨٩ — ٤٩٤ هـ (١٠٩٥ — ١١٠٠ م) . غير أن الاضطرابات بدأت فى عهد خلفه أرسلان شاه بن كرمان شاه الذى استمتع بحكم طويل دام ٤٢ عاما ،

وكما جـاء فى الكامل أن الأمير أبو سعيد محمد بن مظهر بن محمود قـد استولى فى ٤٩٥ هـ (١١٠١ م) على الجزء التابع للبصرة من عمان • وفى ذلك الوقت كان الخطر يحدق بالاسـلام من الداخل ومن الخارج • لقد ولى عهد السلاجقة العظام وغدت الامبراطورية ساحة لصراعات مزمنة ، بينما بدأ البابا اربين بتحريض من بيتير جوتيير سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) أول حملاته الصليبية ، ودخل جود فرى دى بليون القدس •

أمـا القول بأن وضع السلاجقة فى عمان فى ذلك الوقت قد أصبح حرجا ، وأن القبائل العمانية قد استعادت الى حـد ما استقلالها ، فيؤيده ما أشـار اليـه المؤرخون العمانيون عن انتخاب عدد من الأئمـة ، غير أنهم لم يوردوا أية تفاصيل عن حكمهم • وأول أولئك الأئمـة كما يذكر روس فى « تاريخ عمـان » هو محمد بن خنبش الذى تم انتخابه عام ٥١٠ هـ (١١١٦ م) • أمـا الامـام الثانى فكان راشد بن على الذى انتخب سنة ٥١٣ هـ (١١١٩ م) وكان هناك امام ثالث هو موسى بن جابر المعالى ابن موسى بن نجاد الـذى توفى سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) • والذى جاء بعده كما يحتمل الامام محمد بن خنبش الذى توفى سنة ٥٥٧ هـ (١١٦١م) ويقال أن مـوت هـذا الامام سبب محنة للشعب العمانى تفوق ما قاساه من خلال وفاة الأئمة السابقين غير أنه لا توجـد أدلة على نوعية المشـاكل التى تعرضت لها البـلاد نتيجة لذلك •

أمـا الآن فيجدر بنا أن نعود قليلا الى سلاطين عمان ونعنى بهم سلاجقة كرمان • فقد توفى أرسـلان شـاه سـنة ٥٥٦ هـ (١١٤١ م) وخلفه مالك مغيث الدين محمد الذى كان تركيا ومولعا بأن يكـون الحكم كلـه لـه ، ولم يتحمل وجـود أخ له ، وبدا حكمه بنفس الطريقة التى اعتادها قومه ، وهى اغتيال وفقء عيون إخوته ، الذى استطاع أحـدهم لحسن حظه وهو سلجوق شاه الهرب واللجوء الى عمان •

ويبدو أن الحامية هناك قد رحبت به ، وربما أهل البلاد أيضـا

الذين منحوه ولاءهم عن طيب خاطر ،وذلك للتخلص من طغيان حكومة كرمان • ومن المؤكد على كل حال أن وكيل حكومة كرمان ، لم يعد يقيم فى نزوى أو يمارس السيطرة على الأمور فيها •

توفى ملك مغيث الدين فى سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦ م) بعد حكم امتد أربعة عشر عاما • ولا يوجد مايدل على أن هذا الحاكم قد حاول أن يسترد السلطة فى عمان من أخيه سلجوق شاه ومن المحتمل أن تكون سيطرته على عمان انتهت فى سنة ٥٣٨ هـ (١١٤٣ م) مما يحدد فترة طولها ٨٢ عاما من هيمنة أسرة قاوارد الكرمانية على عمان •

أما ما الذى حدث عند وفاة سلجوق شاه وفى أى عام حدثت وفاته فهى أحداث لم يسجلها المؤرخون ، ولكن من المحتمل أن وفاته سبقت الامام الشيخ محمد بن خنبش الذى تقلد السلطة فيما بعد •

خلف محمد بن خنبش نجله حفص بن محمد ، ثم بعد هذا نصل الى عهد حكم النباهنة فى عمان ، والذى لا نعرف عنه إلا القليل ، فالمؤرخون لا يذكرون شيئا عن أصل وظهور حكم هذه الأسرة ، وأسماء وتواريخ ملوكها أو زعمائها ، وهى غير متوفرة على الاطلاق • وعلى أية حال فقد كان نفوذ النباهنة على مايبدو يتركز فى منطقة الظاهرة ، ولم يشمل كل عمان ، وان الزعماء كانوا يلقبون بالملوك ، وكانت سلطتهم سلطة زمنية دنيوية فقط •

وعلى كل فلم تكن عمان فى تلك الفترة بلدا مستقلا ، فقد انتقلت من السيطرة السلجوقية بعد فترة قصيرة ، الى سيطرة الغز الكرمانيين وكان الغز قبائل متوحشة من التركمان قاموا فى سنة ٦١٩ هـ (١١٢٢ م) تحت قيادة زعيمهم بوريك حجاب بغزو كرمان والاستيلاء عليها من أبو القاسم الززونى ، ثم هاجموا عمان واستولوا عليها بعد ذلك وبقيت فى قبضتهم حتى سنة ٧٦٦ هـ (١٣٦٤ م) •

فى سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) اهتز العالم بسقوط الخلافة الشرقية ، عندما استولى هولاكو خان (حفيد جنيكز خان) على بغداد عاصمة الامبراطورية وقام بذبح المعتصم آخر الخلفاء مع أفراد أسرته .

ان سقوط بغداد الذى تسبب فى تمزيق الامبراطورية كان له تأثير هام على التجارة نظرا لأنه حول مسارها بعد أن كانت تتدفق من الشرق الى الغرب ، اتجهت الى قنوات جديدة ، وهكذا فعلى حين تضاءل شأن صحار والبصرة ، ظهرت أهمية عدن ومصر .

أما الحادثة التالية التى سمعنا بها عن عمان فهى اعتداء هرمز على الساحل العربى وذلك سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١ م) .

تأسست أسرة الحكم فى هرمز على حد قول تكسيرا على سواحل كرمان ، وكان مؤسسها هو الشاه محمد الدغستانى ، ولعلها غدت تابعة للغز حكام كرمان . ففى عام ٦٦٠ هـ (١٢٦١ م) كما زكرنا آنفا قام ركن الدين محمد ، الملك الثانى عشر لهرمز ، وكان أميرا مقاتلا ومغامرا ، وبدأ حكمه فى سنة ٦٤١ هـ (١٢٤٣ م) بتوجيه حملة مشتركة من الهرمزيين والغز الى قلهات ، عاصمة النبهانيين ، وطالبا زعيميهما أبو المعالى كهلان ابن نبهان وأخيه عمر بن نبهان بالزكاة ولكنهما رفضا وأخذا يماطلان . ولما كان ركن الدين غير قادر على ما يبدو أن يقوم بمحاولة للاستيلاء على داخلية عمان توجه عن طريق البحر الى ظفار ، بعد أن ترك حامية من الغز فى قلهات ، وقد انتقل جزء من تلك الحامية الى طيوى فى محاولة لنهب سكانها . الا أنهم هوجموا وطردوا بعد أن تكبدوا خسائر فادحة من جانب بنى جابر ، ولا يزال قبور هؤلاء الأتراك موجودة فى طيوى ولعله لم ينج من القتل الا قليل منهم عادوا الى قلهات .

أما عن تاريخ هذا الاحتلال فمن الملاحظ أن المؤرخ ياقوت الحموى

الذى توفى سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٨ م) يذكر بأن عمـان فى ذلك الوقت كانت خاضعـة لهرمز .

فى عـام ٦٥٥ هـ (١٢٧٦ م) كانت عمـان مسرحا لغارة شنها مغول شيراز ، عندما قام فخر الدين وشهاب الدين نجلا الحاكم بانزال قـوة عسكرية قوامها ٤٥٠٠ فارس على ساحل صحار ، ومنها زحفوا على نزوى فنهبوها وأحرقوها ، كما قامت تلك الحملة بتدمير الأسـواق والجوامع والكتب واختطاف النسـاء . وقد وقع هـذا خلال حـكم هلال بن عمر ابن نبهان الذى هاجم الفرس وخلفاءهم ، ولكنه منى بالهزيمة وخسر ٣٠٠ من رجاله . ثم بعد ذلك قام فخر الدين أحمـد من البداية بمحاصرة بهلا ، ولكنه رد على أعقابه . غير أن وفاة فخر الدين وضعت حـدا لتلك الحملة ، واضطر الفرس الى الخروج من عمان بعد إقامة دامت أربعة أشهر فقط .

ويذكر ياقوت الحمـوى أن صحار كانت فى زمانه عاصمـة لعمان ، غير أن أبو الفدا الذى كتب بعده بنحو قرن واحـد يقول ، بأن صحـار كانت مجرد أطلال وخرائب .

فى سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ م) تقريبا ، نقلت عاصمـة هرمز من ساحل كرمان الى جزيرة حبرون عنـد فم الخليج التى عرفت فيما بعد بهرمز .

فى ٧٣١ هـ (١٣٣٠ م) زار عمـان الرحالة الشرقى ابن بطوطـة ، ووجد قلهات فى يد قطب الدين ملك هرمز ، ويخبرنا ابن بطوطـة ، أن سلطان عمـان فى ذلك الوقت كان أبو محمـد النبهانى ، وكان لقب محمد هو لقب كل السلاطين الذين كانوا يحكمون عمان من النباهنة .

فى سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) ظهر وباء الطاعون الأسـود الـذى يحتمل أنه جاء من الصين وانتشر انتشـار النار فى الهشيم فى أوربا ، ورغم أن المؤرخين لا يشيرون الى ذلك فإن من المحتمل أن يكـون ذلك الـداء قـد انتشر فى عمـان وحصـد أهلها .

وكما جـــاء فان أسرة الغز الكرمانية قد انتهت حوالى سنة ٧٦٦ هـ (١٣٦٤ م) مما يسمح لنا بالاعتقاد بأن عمان قد استردت استقلالها وذلك بعد رحيل الغز ، واستأنف النبهانيون سيطرتهم المطلقة .

وعلى امتداد أربعين عاما لا يوجـــد ذكر لصراع أو تنافس علـــى السلطة بين النبهانيين ورجال الدين الإباضيين ، غير أننا نجـــد أنه فى سنة ٨٠٩ هـ (١٤٠٦ م) انتخب الامام مالك بن على الهوارى الذى كان مقره نزوى ، ومارس سلطته على القسم الأكبر من البلاد .

فى عام ٨٣٣ هـ (١٤٢٩ م) توفى الامام الهنائى ، ثم بعد مـــــرور سبع سنوات خلفه أبو الحسن بن خميس بن عامر الذى انتخب سنة ٨٣٤ هـ (١٤٣٠ م) وتوفى هذا سنة ٨٤٦ هـ (١٤٤٢ م) وتبعه فى تولى الامامة الامام عمر بن خطاب بن محمد بن أحمد بن شاذان بن الصلت سنة ٨٥٥ هـ (١٤٥١ م) أو على حد قول روسى فى سنة ٨٥٥ هـ (١٤٨٠ م) .

فى سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) قام عبد الرازق بن اسحاق مبعوث شاه رخ من الهند برحلته التى وصـــل فيها الى مسقط ، ومنها الى قريات وصور . غير أن هذا المبعوث كان مريضا لدرجة أنه لم يدون أية معلومات عن الحالة السياسية للبلاد العمانية . أمـــا الامام عمر فلم يكن مقدرا له بأن ينعم بالسلم ، إذ أنه بعد حوالى عام واحـــد من انتخابه هزمه سليمان بن سليمان بن مظفر النبهانى وتمكن من خلعه وذلك فى مدينة سمايل . ويبدو أن الامام عمر قد أعيد انتخابه . وفى عام ٨٨٧ هـ (١٤٨٢ م) انتقم لهزيمته واستولى على أملاك بنى نبهان وصادرها .

خلف الامام عمر ، القاضى محمد بن سليمان بن أحمـــد بن مفرج فى سنة ٨٩٤ هـ (١٤٨٨ م) غير أن هـــذا الامام خلع بعد ذلك مباشرة ، وانتخب

الامام عمر بن شريف ، واستمر فى منصبه عاما واحدا اعتزل الامامة بعدها • وبعد ذلك أعيد انتخاب محمد بن سليمان فى نزوى •

أما الامام الذى تولى بعد ذلك فلعله الامام محمد بن اسماعيل الذى بدأ حكمه فى سنة ٩٠٦ هـ (١٥٠٠ م) والذى ظهر خلال حكمه الفاتـــح الأكبر الفونســـو البوكويرك الذى أحال المنطقة كلها من رأس الحد الى رأس مسندم الى حطام •

الفصل الثالث

البرتغاليون فى شرقى شبه الجزيرة العربيــة

يتعتبر انتقال السيطرة على التجــارة الدوليــة للمحيط الهندى من الفينيقيين الى البرتغاليين ، ومن البرتغاليين الى الهولنديين ، ثم مــن الهولنديين الى الانجليز خلال القرون الســادس عشر والســابع عشر والثامن عشر موضوعا مثيرا وبالغ الأهميــة مما يستوجب رسم بعض الصــــور للأحــداث التى سبقت الوجــود البرتغالى فى شبه الجزيرة العربيــة •

فى منتصف القرن الخامس عشر كانت فينيسيا ، أو البندقية ، تعيش أوج قوتها ، وذلك بفضــل الثروة التى تدفقت عليها من احتكارها للتجارة بين الشرق والغرب • وبفضــل تلك القــوة البحرية التى توافرت لهــا ، وأصبحت تمثــل القــوة التجارية للأقطار المسيحية ، غــير أن ذلك الصعود فى الثراء والتطور قــد توقف فيها عند ذلك الحــد ، وبعد أن توجت عظمة مجدهــا لتلك الانجازات بدأت تخسر نفوذها وتتدهور ، وكانت أول ضربة سلطت عليها هى احتلال الأتراك للقسطنطينية عام ١٤٥٢ م وهى نفــس المدينة التى سبق لأهل جنوا أن طردوهم منها • وقد مكن ذلك الانتصار الأتراك فى التحكم فى تجارة الشرق ووضــع نهاية مؤقتة لتجارة فــارس والشــام •

إن حروب الجمهورية الفينيقية مع جنوا وأطماعها التوسعية فى قلب الأراضى الايطالية قد استغرق كل اهتمامها وشكل اختبارا لها • وربمــا كان فى استطاعتها أن تصمــد طويلا فى صراعها مع منافسيها والاحتفاظ بالتفوق التجارى دون منازع ، لولا مغامرة وشجاعة دولــة أصغر وأضعف منها فى الغرب الأوربى ، ألا وهى البرتغال •

فى شهر أغسطس من عام ١٤٩٨ تمكن المكتشف الأكبر فاسكودى جاما من الوصول بسفينته الى أحد الموانى الهندية ، وهى ميناء كليكوت ، بعد أن دار بسفينته حول رأس الرجاء الصالح • وبفضل تلك الرحلة المشهورة فى تاريخ الملاحة الشرقية والتى لم تفىء بالثروة والصيت لصاحبها فحسب ، بل عادت بالخراب على ثلاث دول قوية متنافسة ، هى مصر ، وتركيا ، والبندقية ، ولقد سقطت مصر خلال عشرين عاما ، وأغلقت البندقية أسواقها عام ١٥٧٣ أى بعد احتلال الأتراك لقبرص ، بالرغم من أن الجمهورية قد أطفأ نابليون بريقها ، نهائيا عام ١٥٩٦ ، أما تركيا فقد جاء سقوطها بالتدريخ ، فقد عاشت بعد ذلك سنوات أخرى تعرف برجل أوروبا المريض •

وعن الفترة التى نتناولها فى هذا الكتاب فقد كانت التجارة البحرية بين الهند والبصرة تمر عبر الخليج ، وعلى امتداد ساحل البحر الأحمر حتى السويس فى أيدى عرب عمان واليمن ، الذين كانوا يحتكرون تلك التجارة منذ عصور بعيدة ، وبالتالى فقد كان من الطبيعى أن يقاوم هؤلاء العرب وبأقصى الشدة تدخل فاسكو دى جاما ، لأنهم كانوا الضحية الأولى للضربة القاتلة التى سددها الملاح البرتغالى الى مصالحهم التجارية ، كما أدركوا بأن النظام التجارى الذى يمر بسوريا ومصر وتتقاسمه أطراف عديدة أصبح مقضيا عليه •

لكل تلك الأسباب ما أن وصل فاسكودى جاما الى كليكوت حتى قام أولئك العرب بإبلاغ نبأ وصوله إلى حكام مصر طالبين ابلاغ السلطان العثمانى عن احتمال التدخل البرتغالى فى المنطقة وحتى يكون على بينة من ذلك قبل أن تصل أخبار ذلك النجاح الى ملك البرتغال ، ومن ناحية أخرى أدرك تجار البندقية أهمية رحلة فاسكو دى جاما بعد أن وصلتهم أخبارها عن طريق مصر ، وقد أثارت موجة من الذهول فى أوساطهم •

غير أن البندقية لم تستسلم فورا للضربة من الدولة المنافسة لها ، وقامت بمحاولات كثيرة جادة وان لم تكن ناجحة لتفادى ذلك الخطر ولاستعادة سيطرتها التجارية ، كما أنها أوضحت لكل من تركيا ومصر أبعاد ذلك الخطر ، وطلبت مساعدتهما بالرد على تلك المؤامرة • وعلى الرغم من أن تركيا ومصر لم تدركا مغزى ذلك الخطر ، إلا أنهما استجابتا للطلب ، وبالجهود المشتركة بين تلك الدول تم إعداد أسطول قوى فى ميناء السويس أبحر الى بحر العرب للتصدى للبرتغاليين •

وفى عام ١٥٠١ بعث دوق البندقية بسفيره السنيور بترو بيالجو الى لشبونة لاستطلاع الأمور هناك ،وقد استقبله الملك دون مانويل بحفاوة بالغة ، ولكنه ذكر بأنه إذا كانت حكومته ترغب فى إرسال سفنها التجارية الى لشبونة فإنه يرحب بذلك ، وبأن تجار البندقية سوف يجدون كل تسهيل وترحيب وحماية فى البرتغال ، غير أن السنيور بترو الذى أدرك بأن عهد احتكار البندقية لتجارة الهند كان يقترب من نهايته وبأن طريق البحر الأحمر لم يعد يستطيع منافسة رأس الرجاء الصالح ، الأمر الذى سيؤدى الى دمار تلك الدولة ، ولهذا قرر العودة الى بلاده •

أما دوق فينيسيا فإنه لم يرحب بدعوة الملك دوم مانويل لفتح موانى بلاده للجالية الفينيقية بسبب اشتراكه الفعلى مع باشا مصر الذى كان فى ذلك الوقت يعمل مستقلا عن الباب العالى ويشن هجوما على البرتغاليين فى البحر العربى ، مما يفرض عليه القيام بدور مزدوج ، وخوفا من أن تتعرض مخازن السلع فى كل من الاسكندرية والقاهرة للخطر ، الأمر الذى سوف يدفع بحلفائه المصريين الى أن ينقلبوا عليه ويصبح معزولا عزلا تاما ، كذلك فقد كان الدوق متأثرا بعوامل الهيبة والكرامة الى جانب العوامل السياسية ، وذلك فى رفضه شراء التوابل من حلفائه السابقين •

والى جانب تلك الاعتبارات فقد كان من الطبيعى أن يرفض أهل البندقية الذين لم يسبق لهم قط أن شاركوا فى أى اكتشافات على الساحل الغربى فى افريقيا الاشتراك فى التجارة البحرية الجديدة ، على أثر أول رحلة يقوم بها فاسكو دى جاما للهند ، ربما بدافع غرورهم وصلفهم وكرسوا جهودهم لإحباط محاولات البرتغاليين إيجاد مصدر تجارى جديد لهم ، غير أن أهل البندقية لم يحققوا نجاحا يذكر فى تلك المحاولات شأنهم شأن التجار العرب فى كليكوت فى محاولتهم مقاومة فاسكو دى جاما .

وبإيعاز من البندقية بعث باشا مصر برسالة شديدة اللهجة الى البابا والملك دوم مانويل يطلب منهما منع المسيحيين من الملاحة أو الاتجار فى البحر العربى ، ويهدد بقتل جميع المسيحيين فى مصر وتدمير القدس . وبما أن ذلك التهديد قد قوبل بالإهمال ، فقد قام اتحاد دول المشرق بإرسال أسطول الى المحيط الهندى ، غير أن ذلك الأسطول قد أبيد عن آخره عندما دخل فى معركة مع الأسطول البرتغالى عام ١٥٠٨ .ومع توالى خروج الأساطيل من لشبونة ، الواحد تلو الآخر ، الى الشرق أخذ معدل التجارة يتصاعد بسرعة ويقلب الأساليب القديمة السائدة . وكان الانخفاض فى شحن السلع كبيرا جدا ، بحيث انخفض الى ٦٠ ٪ وبحيث تعذر على العرب أن ينافسوهم ، وهكذا تدهورت أحوال الطرق التجارية القديمة عبر الخليج والبحر الأحمر .

وخلال الرحلات البحرية الأولى للبرتغاليين نحو الشرق فى القرن السادس عشر برز اسم الفونسوا البكويرك كأحد الملاحين العباقرة ، وكان قد أبحر من لشبونة فى اليوم السادس من فبراير عام ١٥٠٣ على رأس أسطول من ثلاث سفن وكانت وجهته كوشين ، وأثناء وجوده فى الهند استغل وقته فى جمع المعلومات ووضع الخطط عن المنطقة لتقديمها الى الملك . وعند عودته عام ١٥٠٤ عرض على الملك دوم مانويل مشروعات

عديدة للغزو والضم والتجارة والسيطرة البحرية ، وكان ذلك الملاح يعتقد أن مشروعاته كلها قابلة للتحقيق ، وذلك بسبب ضعف الشعوب الآسيوية ، وقد اعتمدت الخطة الطموحة للبكويرك بعد مناقشات حامية فى المجلس ، حيث اعترض عليها الماركيز سلدانا وغيره من النبلاء ذوى النفوذ ، ولكن الملك قرر أن يعهد بتنفيذ تلك الخطة الى العقل المدبر الذى وضعها ، وقد عين الدوق الميدا حاكما عاما للهند عام ١٥٠٥ ، وقد قام بأعمال جليلة هناك مما استدعى ابقاءه فى منصبه ، أما البكويرك فلم يعد للهند قبل عام ١٥٠٦ ، وغادر بلاده مزودا بالتعليمات الخاصة بوضع سياسة تهدف للتوسع والفتح وضم الأراضى فى الشرق ، وهى الخطة التى وضعها بنفسه ، والواقع أنه كان مكلفا بمهمة خاصة من جانب الملك بوصفه نائبا له وحاكما عاما على الهند ، وقد أمضى فى هذا المنصب ثلاثة أعوام ، وخلف الدوق الميدا الذى تقرر أن يعود إلى أوروبا •

إن الفتوحات وعمليات الاخضاع التى قام بها البرتغاليون فى الساحل الإفريقى كانت تشكل ، على ما يبدو أحد الفصول الهامة والممتعة فى تاريخ العالم ، وهى تنتظر من يسجل أحداثها ، وذلك بالرغم من وجود مصادر عديدة قد تناولت هذا الموضوع ، ومع ذلك فلا تزال هناك معلومات غزيرة لا تزال تنتظر من ينتزعها من طيات النسيان فى محفوظات لشبونة وجنوا • أما المؤرخ العمانى ، كما هو متوقع فقد لزم الصمت حول وصول البرتغاليين أو فتوحاتهم فى عمان ، غير أن بعض الحوار الذى ثار فى فترة لا حقة بعد أن تداعت الحاميات البرتغالية فى عمان قد سجلها العمانيون بشىء من الحماس وعلى الأخص المراحل الأخيرة لطرد البرتغاليين من هذه البلاد كما يظهر ذلك فى كتاب (تاريخ عمان) تأليف روس •

وفى عام ١٥٠٦ بعث ملك البرتغال بثلاثة أساطيل كان أحدها يتكون من ١٦ سفينة غادرت خليج تاجون يوم ٦ مارس وكانت تقل الفاتح الأكبر

الفونسو البكويرك وكان كبير ربابنة الأسطول هو ترستان داكونها الذى تلقى الأوامر بالإبحار الى سقطرة لإنشاء قلعة فيها لحماية المسيحيين المقيمين فى تلك الجزيرة ، بالإضافة الى استخدامها كقاعدة لتموين الأسطول المكلف بمواجهة التحالف المصرى الفينيقى ، كما عهد اليه أيضا بفرض حصار على البحر الأحمر ، وبعد أن يتم انشاء القلعة عهد الى داكونها بالتوجه الى الهند ببعض قطع الأسطول وترك الباقى فى عهدة البكويرك للقيام بالهجوم على جدة وعدن ، واعتراض طريق سفن التجار العرب .

وبعد محاولات وخسائر كثيرة فى الرجال وصل داكونها الى سقطره فى منتصف عام ١٨٠٧ ، وأثناء سيره بالأسطول انضمت اليه السفينة البرتغالية فلور ديليمار ، التى كان يقودها الكابتن جواد نوفا ، الذى كان قد توجه الى الهند بأسطول آخر إلا أن داكونها وجد فى سقطره استقبالا غير الذى كان يتوقعه ، فقد كانت الجزيرة فى ذلك الوقت تخضع لحكم السلطان ابراهيم الذى رفض أن يسلم بمطالب الأميرال البرتغالى ، ولهذا عمد القائد البرتغالى الى قصف حامية البلدة ، وتمكن فى النهاية من احتلالها رغم المقاومة العنيفة التى أبداها المهرة ، وقد قام البرتغاليون بإعادة بناء القلعة ، وأطلقوا عليها اسم السينت توماس وعين دوترونا قائدا على الحامية ، وفى نهاية شهر يونيو ١٥٠٧ تم تسوية جميع الأمور فى الجزيرة وأصبحت الظروف مواتية لكل من البكويرك وداكونها أن يفترقا كل فى طريقه ، وأن يتبع كل منهما الخط المرسوم له من جانب ملك البرتغال .

وقد تم توزيع قطع الأسطول على القباطنة البرتغاليين ، وكان من نصيب البكويرك سفينة القيادة سيون ، ثم بعد ذلك غادر القبطان ترستان الى الهند يوم ٧ أغسطس تاركا حرية التصرف للبكويرك فى ممارسة عملياته البحرية ضد التجارة العربية ، وهناك خلاف كبير بين المؤرخين البرتغاليين حول التعليمات التى صدرت للبكويرك ، أو ربما كانت

الأوامـــر التى صـــدرت اليه كانت غامضـــة مما اضطره الى التصرف وفقا لإرادته أو بمـــا كانت تمليه عليه الظروف •

وكمـــا جـــاء فى يوميات البكويرك فلقد كانت الأوامر المعطاة لـــه تقضى بأن يقوم بتدمير مدينـــة هرمز ، وأن يعمل كل ما فى وسعه لاعتراض وعرقلة النشـــاط الملاحى العربى المتجـــه الى الشرق عبر الاسكندرية والبصرة ، وذلك قبل أن يبدأ بالهجوم العســـكرى على المنطقة نفسها • أمـــا كوتو فيؤكد بأن التعليمات التى كانت قد صـــدرت للبكويرك تقضى بالاستيلاء على ميناء عـــدن واعتراض الســـفن العاملة فى البحر الأحمر فقط •

غير أن البكويرك كان لا يجهل بأن الأسطول الـــذى تحت تصرفه لا يسمح لـــه بالاستيلاء على قلعة عدن الحصينة ، ولهذا فقد آثر بأن يخرج على الأوامر التى صـــدرت اليه ، فيبحر إلى شرقى شبه الجزيرة مباشرة ، لأنه بعـــد أن يتمكن من احتلال قلهات ومسقط اللتين كانتـــا بالإضافة الى هرمز أهم أسواق الخليج ومناطقه الحرة فى ذلك الوقت ، حيث كان النشاط التجارى كله يتركز فيها قبل أن ينتقل الى موانىء شط العرب ، وبالتالى فلقـــد قرر البكويرك احتلال هرمز وجعلها محطة للتجارة البرتغالية دون غيرها •

ولكن البكويرك قبل أن يتخـــذ قرارا بهـــذا الشـــأن رأى أن يعقد مجلس حـــرب ، وفى ذلك المجلس وبنـــاء على التوقعات بشـــأن المؤن واتجاهات الرياح الجنوبية الغربية صرف النظر عن الهجوم على مينـــاء جـــدة ، وتقرر بدلا من ذلك أن يتوجه الأسطول الى البحر الأحمر لاصطياد سفن العرب ثم يواصـــل منها سيره الى مســـقط ، وعند وصـــوله اليها يتم اتخاذ الخطوة التالية • وفى يوم ١٠ أغسطس خرج الأسطول البرتغالى ووجهته الساحل العربى مارا بجزر كوريا موريا ، غير أنه لم يتوقف عند

تلك الجزر بل واصل سيره ، وفى تلك الأثناء قرر القائد صرف النظر عن الحملة النهائية خوفـا من نفاذ المؤن ، وكان قد وافق سابقا على ذلك نزولا على رغبة مساعديه •

ويبدو أن الأسطول البرتغالى بعد إقلاعه رسـا بالقرب من جزيرة مصيرة فى المياه العمانية ، ثم اتجه منها بعد ذلك الى رأس الحـد ، وألقى مراسيه فى منطقة هادئة حيث بدأ عملياته الحربيـة من هناك ، وكان هناك نحو ثلاثين أو أربعين مركبا تابعة للعرب ، فوجه نشاطه ضدها ، كما اكتشف البرتغاليون وجـود بعض السفن التابعة للعرب فى خـور جراما فقصفها بمدفعيته ودمرها ، ثم بعد ذلك تحرك الأسطول الى مدينـة قلهات ، وأخذ يستعرض قوته أمـام الشواطىء العربيـة • وكانت هذه المرة الأولى التى تظهر فيها سـفن حربيـة أوربية فى خليج عمان منذ أيام الأسكندر ، قبل ثمانية عشر قرنا تقريبا • ولم يضطر البرتغاليون إلى القيام بعمليات حربية ضـد سكان قلهات لأنهم استسلموا بمجرد ظهـور الأسطـول البرتغالى • وفى تلك الأثناء علم الفرس بتحركات البرتغاليين فى المحيط الهندى وبنشاطهم الحربى وتفوقهم العسـكرى •

فى ذلك الوقت كان يحكم عمـان الامام محمـد بن اسماعيل الذى انتخب عـام ٩٠٦ هـ (١٥٠٠ م) وتوفى عام ٩٤٢ هـ (١٥٣٥ م) • وكان يمـارس سيطرة تامـة على المنطقة الداخلية من البلاد ، وكان مقـره الرستاق • بينما كانت المنطقة الساحلية تخضع منذ عام ١٢٧٠ بعد الميلاد لملك هرمز الفارسى الذى كان له نائبـه فى مدينة قلهات الساحلية •

فى اليوم الأول لم يجر البكويرك أى اتصـال بأحـد فى المدينـة ، غير أنه فى اليوم التالى بعث بضابطين ومترجم الى حاكم البلد حيث لقيا استقبالا وديا ، وعلم الضابطان من الحاكم بأن البلدة تخضع لملك هرمز ، ولكن إذا كان البرتغاليون فى حاجة الى أى شىء فان الحاكم سوف يقدم لهم ما يطلبون •

فى اليوم الثانى تم اتصـــال آخر بين البكويرك وحاكم البلدة حيث تلقى البكويرك سلة من الفواكه كهدية من الحاكم ، وعلى أية حـــال فلقد رفض البكويرك الهدية وأعادها الى الحاكم مع مطالبته بالاستسلام دون قيد أو شرط ، والاعتراف بتبعية قلهات لملك البرتغال •

وبمـــا أن حاكم قلهات لم يكن مستعدا لمقاومـــة البرتغاليين فقـــد ناشـــد البكويرك أن يتجـــه الى هرمز للاتفاق مع ملكها بشـــأن تبعيـــة البلدة ، ولكنه وعد القائد البرتغالى باستعداده للاعتراف بســـيادة البرتغال عليه أيا كانت النتيجـــة ، وذلك لكى يجنب قلهـــات أخطـــار الحـــرب وسفك الدمـــاء •

وقد فهم البكويرك المعنى الذى ينطوى عليه الرد الملتوى للحاكم ، وبمـــا أنه كان فى حاجـــة ماســـة الى المؤن فقـــد قبل مقترحات الحاكم عمـــلا بنصيحة مساعديه الى أن تحين الفرصـــة المناسبة ، وقبل أن يغادر البكويرك شواطىء قلهات تعهد بالنيابة عن الملك دوم مانويل بضمان أمن قلهات وسلامتها من اعتداءات الســـفن البرتغالية الأخـــرى ، غير أنـــه لم يخجل من المســـاومة على أحـــد المراكب التابعـــة لعـــدن واستولى عليها بالقوة وضمها الى أسطوله •

وفى يوم الأحـــد ٢٢ أغسطس أبحر البكويرك من قلهات متوجها الى طيوى التى كانت حسب اعتقاده احـــدى الموانى العمانية الهامة ، إلا أنه عدل عن رأيه بعد أن تبين لـــه أنها ليست أكثر من مورد للمـــــاء ، فغادرها الى قريات حيث قضى الأسطول الليلة هناك •

فى اليوم التالى لم تصـــل الى البكويرك أية سفينة من قريات ، فأيقن بأن البلدة قد أعدت عدتها للمقاومة والحرب ، ولذلك أخـــذ يرصد تحركاتهم ويضـــع الخطط للهجوم على البلدة • وعرف البرتغاليون بأن هناك حاميتين فى البلدة وقد أقاموا فى إحداهما أربعـــة مدافـــع ، ولهذا صوب البرتغاليون

هجـومهم على تلك المواقـع لتدميرها • ونشب قتال عنيف وطويل ، غـير أن أهـل قريـات اضطروا فى النهايـة الى أخـلاء مواقعهـم ، ولكن البرتغاليين لاحقوهم ، وانهالوا عليهم قتلا وإبادة دون تمييز بين النسـاء والرجـال والأطفال فكانت مجزرة ، وقام البرتغاليون بقطع آذان وأنوف أهـل البلدة تشفيا وزهـوا بالنصر ، ثم انطلقوا فى عمليات سلب ونهب وحرق للمنشئات والمنازل ، كمـا استولوا على كميـة من الأسلحة كالسيوف والرماح والسهام والأقواس • ثم قاموا بتدمير وحرق السـفن الراسية فى الميناء والتى كان عددها لا يقل عن ٨٣ سفينة •

أمـا مسقط فقد كانت الهدف الثانى للغزو فقد وصـل اليها البكويرك بعـد مسـيرة أربعة أيـام ولكنه وجـد المدينة منيعة ومحصنة ، كمـا كانت مسقط الميناء الرئيسى على السـاحل ، ولعل سكانها قـد بلغهم ما حـل بأهل قريات ، وبالتالى فعند وصـول البكويرك الى الميناء بادروا الى ايفاد اثنين من زعمائهم اليه يعرضون الاستسلام له واستعدادهم لقبول أية شروط يمليها عليهم •

وبمـا أن الوفـد لم يكن يحمـل معه تفويضا كتابيا من الحاكم ، فقد طلب منهم البكويرك أن يعودوا اليه فى اليـوم التالى • وفى نفس الوقت قـام البرتغاليون بعملية استطلاع لمعرفة التحصينات العمانيـة المنتشرة على السـاحل ، فاكتشفوا بأن العمانيين قد أقاموا المتاريس والاستحكامات حـول المدينـة ، كما وضعوا داخلها بعض المدافع •

وعند عـودة الوفـد فى اليوم الثانى الى البكويرك طلب هـذا القائد من أهـل مسقط أن يدفعوا لـه جزية سنوية وأن يزودوا أسطوله بالمياه والمؤن استعدادا للعمليات التى كان ينـوى القيام بها ضد هرمز • وقـد تم تزويد السـفن البرتغالية بالمؤن على الفـور ، غير أنه أثناء الليل تلقى أهل مسقط إمدادات عسـكرية من أحـد زعماء الداخلية الأقوياء ، ممـا

جعلهم يعتقدون بأنهم قـد أصبحوا من القـوة بحيث يمكنهم التصدى للقائد البرتغالى ومقاومته • وما أن عرف القائد البكويرك بذلك حتى بادر بقصف المدينـة لتدميرها بأسرع وقت ممكن ، فقام بتصويب مدافعه على التحصينات والبطاريات الساحلية ، غير أن نيران مدفعية البرتغاليين لم يكن لها أى تأثير ، ربمـا لبعد المسافـة بينها وبين السفن الغازية ، وبالتالى فقـد قرر البكويرك أن يعقـد مجلس حرب لاتخاذ القرار المناسب ، غير أن مساعديه الذين ضاقوا ذرعا بدكتاتوريته وصلفه ، وبعد أن أيقنوا بأن قائدهم قد عقـد العزم على تنفيذ الخطة التى وضعها فانهم لم يناقشوه أو يبدوا رأيهم فى الخطة بل أبلغوه استعدادهم لتنفيذها • ولهذا أصدر البكويرك أوامره بشن الهجـوم على مسقط • وقد أسفرت العمليات التى تولى قيادة احدها البكويرك نفسـه • عن سقوط الاستحكامات العمانيـة رغم ما أبداه العمـانيون من بسالة ومقاومة فى الدفاع • وفى وسـط المدينـة التحم الجيشان فى معركـة ضارية تمكنت القوات البرتغالية فى النهاية من دحر الجيش العمانى من وسـط المدينة الى منافذها الخارجية •

أما الزعماء العمانيون الذى أثار وصولهم الحماس والاصرار بين العمانيين فقد انسحبوا ، غير أن عمليات الذبح والتقتيل فى الأهالى كانت فظيعة ،وكان بين القتلى الحاكم الفارسى للمدينة وعدد من النساء والأطفال ، وقد قام مسـاعدو البكويرك بدور كبير فى عمليات القتـل والاعتـداء على الحرمات ،وان كانوا فى النهاية قد تخلوا عن قائدهم ، إلا أن البكويرك كان أكثرهم قسـوة وهمجية وإجراما ، فقد أطلق العنان لجنوده بعد أن جمعهم فى ساحة المدينة ليذبحوا كل من يصادفونه من المواطنين نسـاء أو أطفالا أو شيوخا دون تمييز ، ثم بعد ذلك أمـر الجنـود بنهب المدينـة وحرقهـا والسماح لأتباعه بالاحتفاظ بالأمـوال والغنائم التى نهبوها من السـكان ، تعويضـا لهم عن التضحيات التى بذلوها ، وبعـد أن فرغ من كل ذلك أعلن استعداده لإخلاء البلدة • وكان بعض أهـل المدينـة قـد لجأ الى المرتفعات الجبلية فقاموا بإيفاد واحد عنهم ليرفـع رايـة

بيضـــاء دليلا على طلب الهدنة ، وناشـــدوا البكويرك بأن يكف عن قتـــل النساء والأطفال وحرق الســـفن ، غير أن البكويرك لم يستجب لهم ، وأعرب عن أسفه على مـــا اضطر اليه ، بسبب نقض سكان المدينـــة للاتفاق الذى عقدوه معـــه فى البداية • الا أنه وافق على إخلاء المدينـــة نظـــير عشرة آلاف أشرفى ذهبا ، على أن تدفع فورا ، غـــير أن أهل مسقط لم يكن لديهم ذلك المبلغ ، وبالتالى فقـــد أصر القائد البرتغالى على إشعال النار فى البلدة والسفن بمـــا فيها من قـــوارب الصيد ، كمـــا دمر جامع المدينة الذى وصفه بأنه كان مبنيا بأسلوب فنى جميل ، وعليه كثير من النقـــوش وأعمال الحفر الخشبية ، ويقال بأن الرجال الذين تولوا حرق الجامـــع قد احترقوا هم أيضا فيه بعد أن تساقط البناء فوق رؤوسهم وأصبحوا طعمة للنيران ، هكذا كان الأعتقاد ، ولكن الرجال الثلاثة عادوا فظهروا فجأة من بين الأنقاض ، ولذلك فقد تقـــدم القائد بالشـــكر للعذراء عن تلك المعجزة التى حفظت أرواح الرجال : وفيما يلى وصف لمدينة مسقط كتبـــه البكويرك نفســـه :

« مســـقط مدينـــة كبيرة وسكانها كثيرون وتحتضنها من الجهتين سلسلة من الجبال العالية بينما تنفتح واجهتها على البحر • وخلف المدينة من الجهة الأمامية يوجـــد سهل كبير كميدان لشبونة تغطيه سطوح الملح ولكن لا علاقـــة للمياه فى ذلك وإنمـــا للموحة المـــاء ، ويكاد الإنســـان أن يعثر بالكاد على المـــاء العذب ، وفى المدينة حدائق واحراش وأشـــجار النخيل التى تسقى من مياه الآبار بطريق النزف وغيره من الوســـائل • أمـــا ميناء البلدة فصغير على شـــكل حدوة الحصـــان ، ومحاط بالجبال من الجانبين بحيث تحميه من الرياح ، ومسقط الميناء الرئيسى لملكة هرمز وتزوره السفن التى ترتاد هـــذه المناطق لكى تتفادى الساحل المفتوح ، وكثير من المناطق الضحلة • كما أن هذه المدينة بها سوق قديم للجياد والبلح ، ومسقط نفسها مدينة جميلة تضم بيوتا جميلة الشـــكل ، وتتزود بحاجيتها من المـــواد الغذائية من المنطقة الداخلية التى ترســـل اليها الحنطـــة ،

والشعير والبلح لتموين السفن الكبيرة التى ترتاد الميناء • ومدينة مسقط جزء من مملكة هرمز • وأما المنطقة الداخلية فانها تخضع لحاكم اسمه ابن جابر وله شقيقان وقسمت البلاد بينهما ، ويحد البلاد من الشمال خليج فارس ، ومن هناك تمتد حتى حدود مكة ، والعرب يسمون هذه المنطقة جزيرة العرب لأن البحر العربى يستدير عليها حتى شواطىء البحر الأحمر بحيث جعل للبلاد شكلا دائريا ، ويكاد الماء يحيط بها من كل الجهات ، أى مياه البحر الأحمر ومياه بحر الخليج ، انها بلد صغير ولهذا سميت بجزيرة العرب ، وكل هذه المنطقة كان يحكمها سابقا حاكم يدعى ابن جابر وكان لهذا الحاكم ثلاثة أبناء ، ثم ترك البلاد ، وبعد وفاته قسمت بين أبنائه واحتفظ أكبرهم باسم جابر تيمنا باسم الوالد واعترف به الأخوان سيدا عليهما ، ويحكم ابن جابر هذا رأس فرتك وظفار وقلهات ومسقط ، وتمتد حدوده الى بلاد شيخ عدن ، أما أخواه فإنهما يقيمان على ساحل فارس ، كما أن أحدهما قد أخذ جزيرة البحرين من ملك فارس وهى جزيرة اللؤلؤ ، كما أخذ القطيف أيضا ، وكانت سابقا خاضعة لملك هرمز وتقع على الساحل العربى ، ويوجد فى بلاد ابن جابر كثير من الخيول التى يربيها المزارعون للاتجار فيها ، كما توجد فيها الحنطة بكثرة الى جانب قطعان الإبل والماشية • وهناك جماعة تقوم بالصيد بالصقور ، ويصحبون معهم ظباء صغيرة يدربونها على الجرى لكى تساعد الصقور على الإمساك بالفريسة » •

وقد نشب خلاف بين كبير القباطنة وبين قبطان السفينة فلور دى لامار ، فقد حصل البكويرك على معلومات تفيد بأن ذلك القبطان يعتزم الانشقاق عنهم ، ولكن أمكن حل الخلاف وواصل الأسطول مهمته •

رسا الأسطول البرتغالى على شاطىء مدينة صحار بعد أن مر بجزر الديمانية وهناك تسلم البكويرك رسالة من حاكم المدينة يؤكد له

فيهـا بأن المدينة تابعة لملك هرمز وبأنه لو فكر فى النزول فسـوف يلقى استقبالا لا يروقه ، كمـا تحـدث الرسـول عن الاستعدادات العسكرية الجارية على السـواحل لمواجهة الغزو ، غير أن البكويرك طلب من الرسول بأن ينصـح الحاكم بأن يعدل عن موقفه ويعلن تبعيته لملك البرتغال ، وإلا فان الحامية سـوف تتعرض للقصف والتدمير •

أمـا مساعدى البكويرك فقد كان لهم رأى آخـر ، غير أن البكويرك لم يهتم برأيهم ، ومـا أن غادر رسـول الحاكم حتى أمر البكويرك ببدء الاستعدادات للهجـوم على المدينـة ، وبينمـا كان الهجوم على وشـك أن يبدأ إذا بمبعوث من حاكم المدينـة يصل لإبلاغ البكويرك بأن الحاكم قـد أمر بتسريح قـوة قوامها سبعة آلاف مقاتل أرسلها ابن جابر لتدعيم وسـائل الدفـاع عن البلدة ، وبأنه أصبح مستعدا لاعلان خضوعه لملك البرتغال خصوصا وأن ملك هرمز لم يبعث بالمساعدة العسـكرية التى وعد بها ، وأعلن عن رغبته فى تسليم الحامية للبرتغاليين • ولقد أبدى البكويرك سروره من موقف الحاكم وفضـل عرضـه واشترط دفـع جزية سنوية لحكومته • وقد وافق الوفـد على شروط القائد بعـد أن اذهلتهم قـوة الاستعدادات التى شاهدوها على سفن الأسطول البرتغالى ، وهكذا رفع علم البرتغال على الحامية وأديت التحية بتلك المناسبة •

وحينما شاهد البكويرك مناعة المكان قرر على الفور الاحتفاظ بـه وذلك لأهميته الاستراتيجية لأنه يسيطر على الساحل العمانى • لكنـه أعاد النظر فى ذلك القرار ، ورأى أن يعهد بالسلطة للحاكم المحلى مؤقتا ، وبالتالى فقد عينه مسئولا عن البلدة ، وحدد المبالغ التى يتوجب دفعهـا كل عـام من جانب الحامية العمانية فى صحار • وقد اعترف الحاكم بسيادة ملك البرتغال ، وبالمقابل يتعهد البكويرك بحماية المنطقة • وبعد أن تمت تسـوية الأمـور بذلك الشـكل أبحر البكويرك الى خور فكان •

قبل وصـول البكويرك الى خـور فكان كان سكانها قد عرفوا بمقدمة

من بعض بحارة السفن المحلية ، فقاموا باستعراضات عسكرية على الساحل اعتقادا أن ذلك سوف يردع البرتغاليين عن القيام بأية عمليات عسكرية ، ولما لم يتسلم البرتغاليين أية رسالة من حاكم خور فكان فقد قرر البكويرك شن هجوم فى صباح اليوم التالى ، فقام أولا بقصف الساحل لاخلائه من الجنود ثم قام بعمليات الانزال ، وتمكنوا من دفع العرب الى داخل الحامية ، ثم أطبقوا عليهم ، وتمكنوا بعد قتال عنيف ومقاومة عنيدة من جانب السكان من الاستيلاء على الحصن • وكان بين الأسرى العرب رجل كهل أدلى بمعلومات هامة للبكويرك عن مملكة هرمز ، كما أطلعه على تاريخ الأسكندر من وجهة النظر الفارسية ، وقد كافأه البكويرك بأطلاق سراحه ومعاملته معاملة كريمة •

أمضى البكويرك والأسطول البرتغالى بضعة أيام للتزود بالمؤن والماء ، قام أثناءها السكان العرب بمحاولات عديدة لاسترداد الحصن دون جدوى • وقد وصف البكويرك خورفكان فقال عنها :

« إنه ميناء يقع على سطح جبل عال ومحصن من الجانب البرى ، وأن المناخ فى البلدة معتدل وصحى ، والبلدة كبيرة ، ويقطنها عدد من التجار الهندوس ، وهى تابعة لهرمز ، وتنتج الذرة والشعير والبرتقال والبلح والتين ، كما أن بها مرفأ جيداً تحميه بعض الجزر الصغيرة ، وتربى فيها الخيول التى تصدر الى الهند ، أما المنطقة الداخلية من البلدة فخاضعة لابن جابر ، شأنها شأن الأجزاء الأخرى من عمان » •

كانت خور فكان المحطة الأخيرة لغزوة البكويرك للساحل العمانى ، ولم تأخذه الرحمة فيها ، فأمر بحرقها وتدميرها مزهوا بقوته المتعجرفة ، وبعد ذلك أطلق لسفنه العنان •

كان الهدف الأساسى لحملة البكويرك هو الاستيلاء على هرمز كما

سبق أن أشرنا ، ولقد اقترنت عمليات البكويرك فى هرمز بنفس القدرة والكفاءة العسكرية والنجاح ، وعلى كل فبسبب خلافاته مع مساعديه وقباطنته وعطب سفينتين من سفنه فقد اضطر الى التخلى عن خطته قبل أن توضع النهاية لرحلة فتوحاته • وقد توج البكويرك تلك الفتوحات ببناء قلعة للدفاع عن البلده وحمايتها • ثم بعد ذلك أبحر الى جزيرة سقطرة ، وعند وصوله اليها وجد الحامية فى حالة يائسة ومجاعة بسبب توتر الوضع والموقف العدائى لأهل البلاد • غير أنه نجح فى تسوية الأمور بسرعة بعد أن انضمت سفينتان جديدتان الى أسطوله ، قدمتا من البرتغال لتعزيز الأسطول • وفى يوم ١٥ أغسطس ١٥٠٨ أبحر من سقطرة عائدا الى هرمز ، وأثناء عودته هاجم قلهات ، وأخضعها انتقاما من أهلها للمساعدات التى قدموها لحاكم هرمز ، ولنقضهم للاتفاقية التى وقعوها معه أثناء الحرب • وبعد رسو الأسطول فى قلهات أوفد البكويرك ابن أخيه نورونها فى أحد القوارب لاستطلاع الحالة فى المدينة ، وصادف أن التقى هذا المبعوث برسول كان قد أرسله حاكم المدينة مع هدايا لتقديمها الى القائد البرتغالى ، فعاد نورونها مع الرسول الى سفينة القيادة •

وقد أخذ البكويرك فى استجواب الرسول ، فسأله عن اسم الحاكم وعن حجم القوات التى تحت تصرفه ، وبعد أن حصل على المعلومات التى أرادها ، عاد البكويرك فأوفد نورونها مرة أخرى الى الحاكم فى مهمة محددة ، وعند وصول المبعوث الى الحاكم ذكر له بأن البكويرك مجرد ضابط وصل حديثا من البرتغال ومكلف بايصال بعض المهمات الى هرمز • غير أن شريف الدين كان لبقا ، فاستقبل مبعوث البكويرك استقبالا وديا إلا أنه رفض أن يذهب معه للاجتماع بالبكويرك فى سفينته •

عند عودة نورونها من عند الحاكم أخذ البكويرك فى الاستعداد لشن هجوم على البلدة التى كانت تقع على سفح أحد الجبال ، ولم تدم المعركة طويلا ، فقد انسحب شريف الدين فى حالة يائسة مع قواته

مذعورين من المجزرة التى نشبت ، وتراجعوا الى منطقة التلال • ومن هناك أخذ شريف الدين يراقب تحركات البرتغاليين •

وقد أصدر البكويرك أوامره لجنوده بنهب المدينة وقام بتحديد نقاط عسكرية وتوزيع الجنود على المناطق الاستراتيجية •

ومن ناحية أخرى قرر شريف الدين أن يقوم بمحاولة أخرى لاستعادة البلدة من أيدى البرتغاليين فشن هجوما بخمسمائة رجل ، حاول بهم شق طريقه عبر مداخل المدينة • وفى البداية تمكن شريف الدين من زحزحة البرتغاليين من مواقعهم ، لكن هؤلاء عادوا فنظموا صفوفهم وانقضوا على الفرس ، واستطاعوا بعد قتال عنيف من إبادتهم •

وبعد أن أنهى البكويرك عملية تدمير المدينة ونقل ما استطاع من الأموال والمؤن والأمتعة الثمينة أمر بحرقها ، ولكنه حرص بصورة خاصة على تدمير الجامع مما فجر غضب المواطنين عليه •

وتتفق أوصاف البكويرك لجامع المدينة مع أوصاف ابن بطوطة ذلك الرحالة العربى الذى زار المدينة قبل نحو مائتى عام • ومما ذكره الاثنان بأن الجامع يعتبر عملا لفن معمارى رائع • غير أنه لم تبق أية قطعة من أحجار ذلك الجامع فى مدينة قلهات وربما كانت بيوت قلهات ومبنى الجامع قد بنيت من الجص أو الحجر أو الآجر ، غير أن المبانى قد اندثرت نهائيا بسبب التدمير والتخريب الذى تعرضت له المدينة على يد الفاتح البرتغالى ولم يبق لها أى أثر •

استطاع البكويرك أن يحصل من هذا المكان على معلومات هامة من مبعوث الحاكم شريف الدين الذى كان لايزال تحت الحجز داخل سفينة القيادة • ثم سمح البكويرك لوفد الحاكم بالعودة وقدم لأعضائه بعض الهدايا وبعد ذلك أصدر أمرا بحرق وتدمير جميع السفن العمانية الموجودة فى الميناء • ثم دعا مساعديه للاجتماع لمناقشة الأمر ، وأصدر

غرارا بسفر الحملة الى هرمز ، وفى اليوم التالى أبحر الأسطول بعد أن توقف قليلا فى طيوى للتزود بالمـاء •

لقد انتهى الفصـل الأول فى تلك الدراما بتدمير قلهات ، وأعقب تلك الرحلة العاصفة للفاتح ، وهى الرحلة التى اتسمت بسلسلة من عمليات سفك الدمـاء والحرائق فترة هـدوء • وقد مرت خمس سـنوات على مابيدو دون أن يتعرض عرب المنطقة لأية أعمال عدوانية من جانب البرتغال • وقد كانت تلك فرصـة لهم لإعادة بناء البلاد •

فى شهر مايو ١٥١٤ اكتشف البرتغاليون جزيرة البحرين ، فقامـوا بزيارة لها ، فبعد أن انهى بدرو البكويرك فى شهر مايو جولته فى بحر العرب بإيعاز من عمه وصـل الى هرمز ومنها اتجه الى المنامة عاصمـة البحرين التى كانت خاضعة يومئذ لحكم هرمز ، وربما كان الهدف الأسـاسى من زيارة البرتغاليين للبحرين هى السيطرة على مغاصات اللؤلؤ الذى كـان يشكل فى ذلك الوقت وحتى الآن المصـدر الرئيسى للأسـواق الأوربيـة والآسيوية • وعلى كل فإن بدرو البكويرك لم يفعل شيئا أكثر من تثبيت الاتفاقيات التى كانت قائمـة بين ملك هرمز وشيوخ البحرين ، ثم بعـد ذلك قفل عائدا الى هرمز • وفى عـام ١٥٢١ أى بعد مضى سبع سـنوات على ذلك اليوم وخلال الفترة التى كان فيهـا دياجو دى سكويرا نائبـا للملك فى الهند أرسلت قوة كبيرة من هرمـز بقيادة انتونيو كورسـا الى البحرين ، فاستولى عليها ، وبقيت منذ ذلك الوقت تحت حكم البرتغال لفترة طويلة من الوقت •

كان فى نية البكويرك الذى عين النائب الثانى لملك البرتغال فى الهند أن يعـود الى الخليج فى عـام ١٥١٢ ، غير أن الظروف لم تكن مواتية لـه ، وبعد عامين أبحر من جـوا بأسطول مكـون من أربع سفن كبيرة وثلاث عشر سفينة صغيرة ، وفى يوم ٢١ مارس ١٥١٥ لمح القائد أرضـا

بالقرب من رأس الحد ، ثم بعد أربعة أيام وصـل الى قريات • وهناك التقى بأسطول آخر كان قد وصـل من هرمز للبحث عن القراصنة فلم يتحرش به • وواصـل سفره الى مسقط حيث بقى فيها يومين للتموين •

كان الحاكم الفارسى فى ذلك الوقت هـو حامد بن أخ الرئيس نور الدين ، أحد رجال ملك هرمز • وقد تأثر البكويرك من الطريقة الاستبدادية التى كان يحكم بها ذلك الرجـل البلاد • ولعله استعاد فى تلك اللحظـة فظائع البرتغاليين أنفسهم خلال حكمهم ، فأراد أن يتصرف بطريقة أكثر انسانية • وبعد أن قام نائب الملك باحتلال هرمز بدأ يسـتعد للإبحـار جنوبا ، فعين أحـد أقاربه قائدا للحامية ، وزوده بقـوات كافية لإرهاب السكان فكان ذلك القرار هـو آخر قرار يتخذه فى حياته ، فقـد داهمه المرض فمات بالقرب من جـوا ، وقد عجل من وفاته النبـأ الـذى تلقاه باستدعاء الملك البرتغالى لـه •

ويتحـدث الكابتن دى باروز فى إسهاب عن دخل هرمز الذى كان يبلغ نحـو ١٩٨٫٠٧٨ أشرفى ، كان يتم جمعها من المناطق الخاضعة لهرمز فى عمـان والسـاحل ، وهى قلهات ومسقط وصحار وخـور فكان ودبا وليما وجلفـار أو ساحل القراصنة • كما كان يسـاهم فى ذلك الدخل ما تربحه السفن من صيد اللؤلؤ •

ويقدم نفس الكاتب لمحـة عن الحالة السياسية فى عمـان فى تلك الفترة ، فيقول بأن الأمـام محمـد كان يمارس سلطات زمنية وروحية مطلقة فى جميع الأجزاء الداخلية الرئيسية من البلاد وكانت أكثر مناطق الداخلية كثافة سكانية هى نزوى ومنح وبهلا ، وكان لكل من تلك المـدن وسائل دفاعها وحامياتها وولاتها الذين كانوا يمارسون سلطاتهم بطريقة شعبية •

وبعد أخضاع هرمز تحولت ثلاث مناطق على الساحل العربى وهى

مسقط وقلهات وصحار الى مراكز للتجار البرتغاليين ، وكانت تدار كلها من هرمز ، وكانت سفن ملك البرتغال تقوم برحلات من الهند الى هذه المناطق فى دوريات لحمايتها ، وبما أنه لم يكن يسمح لأية سفينة بعبور المحيط الهندى بغير تصريح ، فقد كان البرتغاليون يتحكمون فى التجارة البحرية ، وبالتالى يتحكمون فى الأسواق ، إلا أنه يبدو أن البرتغاليين لم ينشئوا لهم حاميات على الساحل .

وفى عام ١٥١٩ تعرض البرتغاليون لأول عملية تحد لنفوذهم فى الخليج ، وقد انعكس رد الفعل على الوجود البرتغالى بين مواطنى تلك المناطق فى السنوات الأخيرة فى تلك الانتفاضة الشاملة ضد البرتغاليين فى كل من المناطق العربية والفارسية .

ولمواجهة تزعزع الوجود الفارسى فى قلهات فقد استنجد حاكم هرمز بالقائد البرتغالى هناك (دوم جراسيا) لمساعدته على فرض سلطته . وتلبية لرغبة الحاكم الفارسى أصدر القائد البرتغالى أوامر الى قائد الأسطول فى الخليج باعتقال شهاب الدين وإحضاره الى هرمز ، غير أن القائد لم يتمكن من ذلك ، لأن حاكم قلهات قد أتخذ الاحتياطات اللازمة لتقوية وسائل الدفاع ، كما كان أذكى من أن يستدرج الى الفخ الذى نصبه له البرتغاليون والفرس . غير أن الفرصة قد سنحت للقائد البرتغالى عندما تجمعت تحت تصرفه قوة بحرية من سبع سفن كانت قد أرسلت من موزمبيق بإيعاز من السلطات الحاكمة فى لشبونة ، وقد وصل الأسطول الى مسقط فى بداية ١٥١٩ مما سمح للقائد بتنفيذ التعليمات . فقام بإنزال قوة صغيرة فى قلهات بعد الغروب ، ثم تحركت من هناك تحت جنح الظلام الى منزل الحاكم شهاب الدين لاعتقاله ، غير أن الهجوم قد فشل ، فقد كان الفرس متيقظين وتمكنوا من صد الهجوم فى جميع الجبهات ، وبسبب تفوق قوات قلهات فى العدد والعدة فقد تقهقر البرتغاليون ولجأوا الى بعض البيوت ، غير أن الفرس اشعلوا

النار فى تلك البيـــوت ، وبعد قتال عنيف وخســـائر فادحة تمكنت البقية الباقية من البرتغاليين من العـــودة الى سفينة الأسطول بفضل نجدة عاجلة أرسلت إليهم •

بعد فترة قصـــيرة من تلك الكارثة وفى السنة التالية ١٥٢٠ وصـــل نائب الملك دوم ديجولوبيس دى سكويرا على رأس أسطول مـــن ثلاث وعشرين سفينة الى ميناء مسقط • وكان وصوله منتظرا منذ مـــدة ، وعندما سمع بمـــا حدث فى قلهات استدعى الأميرال دوم جـــورج دى البكويرك والقائد دوروبى فنسكيلو ، وبعد التحقيق فى الأحداث أمر بايداع القائد منديس السجن غير أنه لم يقم بأية اجراءات انتقامية ، وتمكن من اطلاق سراح ١٥ أسيرا برتغاليا كانوا فى قلهات •

وفى العام التالى ١٥٢١ أى بعد سنوات سبع فقط من سقوط هرمز ووفاة الفاتح الأكبر نشبت ثورة فى هرمز ، وامتدت الى الساحل العربى والبحرين وقلهات ضـــد البرتغاليين واجتـــاح الثـــوار جميع الحاميات البرتغالية بعمليات ساحقـــة مفاجئة ولولا استبسال المدافعين لأبيدوا عن آخرهم •

ويبدو أن خطة الثورة قد أحكم اعدادها من جـــانب حاكم هرمـــز ووزرائه ، فقد ارسلت تعليمات الى حكام الفرس فى الاقاليم العربية الخاضعة لهم على الساحل تحثهم على الثورة ضـــد الوجـــود البرتغالى ، كما حددت ساعة الصفر لتلك الثورة • وقد تم إعداد الخطة بحيث تشمل الثورة جميع المراكز والحاميات البرتغالية وبحيث يستحيل عليهم مقاومتها بالانتقال من مركز الى آخـــر • ولكى تنجح الثـــورة فى التغلب على الأســـطول البرتغالى الذى كان يمثل عصب القوة البرتغالية فقد افتعل ملك هرمز تفشى أعمـــال قرصنة فى بعض مناطق الساحل العربى ، وطلب من قائد أسطول البرتغال دوم جارسيا إرســـال بعض قطعه الى تلك المناطق • وقد وافق

القائد على طلب الملك وأمر بتحريك نحـو نصف الأسـطول المرابط فى المنطقـة .

فى يوم ٣٠ نوفمبر ١٥٢١ نشبت الثورة وبدأت بهجوم قامت بـه شاهبندر على سفينتين برتغاليتين كانتا على السـاحل ، وتمكن المهاجمون من الاستيلاء عليهما والايعاز الى زملائهم على السـاحل بذبح جميـع البرتغاليين المقيمين فى المدينة ، وكانوا فى تلك اللحظة نائمين . وقد قـام الجنـود والمواطنون الفرس بقتل نحو ٦٠ برتغاليا ، أمـا الباقون منهم فقـد تمكنوا من الهرب واللجـوء الى الحاميات المحصنة انتظارا لوصول نجدات الى البرتغاليين من الهند .

وكان نائب ملك البرتغال فى جـوا فى ذلك الوقت هـو دوم دورثى دى منزيس وبمجرد ان علم بثورة الأقاليم العربيـة أوفد دوم كونسالوا الى هرمز لحث رجال الحامية على المقاومـة ، ريثما تصـل النجـدات السريعة التى كان يتم إعدادها بقيادة دوم كونر .وانه ليبدو أن وصـول دوم كونسـالوا الى الخليج قـد قلب الأمـور لصـالح البرتغاليين ، فتمكنوا من استرداد نفوذهم عن طريق عمليـات انتقـام رهيبة مارسوها ضـد أهل البـلاد .

وفى شهر فبراير ١٥٢٢ أقلع دوم لويز دى منزيس شقيق نائب الملك بأسطول من ثمان سفن لاتخاذ إجراء انتقامى ضـد الذين تسببوا فى تلك المذابح من ناحية ، ولدعم النفـوذ البرتغالى فى الخليج من ناحية أخرى . وقد رسـا الأسطول فى البداية فى قلهات ، ووجه دوم لويز إنذارا فوريا الى الحاكم لتسليم الأسرى البرتغاليين الذين لم يبق منهم على قيد الحياة حتى ذلك الوقت غير عشرين فردا ، غير أن الحاكم رد على الانذار بتحويل الخطاب الى ملك هرمز مع سلسلة من الاتهامات ضـد القائد البرتغالى الحالى والسـابق ، غير أن الحاكم استدرك فذكر للقائد البرتغالى بأنـه شخصيا لا يملك سلطة تسليم الأسرى ، ولابد من الانتظار حتى يصل الرد .

وبمـا أن أسطول القائد كان فى حاجـة الى التزود بالمـاء فقد قرر القائد التوجه الى طيوى حيث وقع صـدام بينه وبين السكان العـرب فى تلك البلدة ، ولكن العرب هزموا فى المعركـة • وأثناء وجود الاميرال فى طيوى تلقى رسالة من الشيخ راشد بأن ديلا مير شاه فى طريقه إلى مسقط على رأس قوة عسكريه كبيرة ، وأنه يطلب المساعدة ، ولهـذا قرر الأميرال تكليف إحـدى السفن الحربية بالتحرك لمساعدة الشيخ على ان تقتصر المسـاعدة من البحر دون إنزال أية قـوات برية أو اشتباك على الأرض • كما استعان الشيخ ببعض المتطوعين البرتغاليين ، وقام بهجومه على الفرس فى منطقة الوادى الكبير وتمكن من هزيمتهم ، وقد قتل خلال المعركة قائدهم ديلامير شـاه •

وبعد يومين وصـل دوم لويز مسقط فهنأ الوالى وكافأه بسخاء على الحماية التى وفرها للمواطنين البرتغاليين أثناء الاضطرابات • ويبدو أن دوم لويز قد أنشـأ حامية للدفاع عن المدينة بالإضافة إلى مرابطة سفينه حربية فى الميـناء بصفة دائمة وبعدها غادر مسقط •

ويبدو أن مدينة صحـار قد خضعت لـه وكان بها فى ذلك الوقت حامية فارسية كبيرة ، ومن ناحية أخـرى كانت قبائل بنى جابر لاتكف عن مقاتلة الفرس ، ولهـذا حـاول القـائد دوم لويز أن يعقد حلفا معهم فعرض عليهم الفكرة •

وكانت الخطة التى وضعها الأمـيرال البرتغالى تقضى بأن يقـوم المواطنون العرب بمحاصرة صحار من البر ويشن هو هجوما عليها مـن البحر • وفى يوم ١١ مارس كان الشيخ حسين قد اتخذ مواقعه عند مشارف المدينـة تمهيدا لمهاجمتها ، غير أن الوالى الفارسى شهاب الدين نجح فى الافلات من الكماشة والهرب الى هرمز تاركا وراءه رجال الحامية بغـير قيادة • غير أن هؤلاء اقتنعوا بعدم جـدوى الدفاع أو مقاومة الأسطول البرتغالى •

غير أن الشيخ حسين وأتباعه — الذين لم يعلموا شيئا عن الخطة ولا عن قرار الحاكم الى هرمز استاءوا من ذلك التصرف ، فاحتجوا على عدم اشراكهم فى عمليات السلب والنهب التى كانت هى غايتهم الوحيدة ، ولهذا فقد منحهم الأميرال تعويضات من الأموال والغنائم التى استولى عليها .

بعد أن أعلن الأميرال البرتغالى استقلال صحار وفصلها عن هرمز عين الشيخ حسين حاكما بالنيابة وذلك بموجب اتفاق يسمح بتعيين مستشار برتغالى مقيم للاشراف على تنظيم الدخل والمصاريف ، وبعد أن تزود أسطول القائد بالماء عاد الى هرمز .

وفى عام ١٥٢٦ نشبت ثورة أخرى على الساحل العمانى الذى كان يعتبر حتى ذلك الوقت خاضعا لهرمز ، فقد ضاق الأهالى ذرعا بما كانوا يعانونه من ظلم وتسلط على يد ديجو دى ميلو قائد الحامية البرتغالية فى هرمز ومن الملك نفسه ورئيس وزرائه الرئيس شريف ، فأعلنوا استقلالهم عن البرتغال ، وناشدوا كلا من حاكمى مسقط وقلهات أن يشتركا معهم فى رفع لواء الثورة .

فى ٢١ فبراير ١٥٢٦ وصلت أنباء ذلك التمرد الى النائب العام الاقليمى للبرتغال ويدعى لويز هنريك دى منزيس .

وفى مايو ١٥٢٧ صدرت الأوامر الى قائد سامباتو بالتحرك فورا بخمس سفن لفرض الطاعة والنظام على المناطق المتمردة ، وأثناء سير الأسطول اضطر الى التوقف بسبب سوء الأحوال الجوية ، وخلال ذلك فقد عددا من أتباعه ، وأخيرا وصل قلهات ، وهناك انتهج سياسة مرنة ، ووعد السكان بالتحقيق فى شكاواهم وبتلك السياسة نجح فى استعادة ثقة السكان دون اللجوء الى الوسائل القهرية .

وانتهز القائد البرتغالى فرصة وجوده فى عمان فقام بتعزيز الحامية

البرتغالية وإنشـــاء عدد من الثكنات تعرف باسم الجريزة ، وقد تحولت فيمـــا بعد الى مساكن يقيم فيها حكام عمـــان ، وكلمة جريزة مشتقة من اللفظة البرتغالية ومعناها الكنيســـة .

وقبل مغادرة القائد خليج عمان انضم اليه هكتور دى سيلنيرا الذى قام فى شهر أبريل ١٥٢٦ بشن هجوم على ظفار وتدميرها ، وبعد رحلة عبر فيها البحر الأحمـــر مر بمسقط وقلهات .

فى شهر يناير ١٥٢٨ أقلع الأميرال دوم انتونيودى ميراندا ازيفيدو من جـــوا على رأس عشرين سفينة الى البحر الأحمـــر بهدف القيـــام بعمليات استعراض للقـــوة ضـــد الأتراك الذين كانوا قد ركزوا أنفسهم بزعامة مصطفى باشا ابن أخ السلطان سليمان فى جزيرة كامران فى محاولة للسيطرة على البحر الأحمـــر .

ولقد حاول سليمان الأول الملقب بسليمان القانونى خلال فترة حكمه محاولات مضنية لتقويض النفوذ البرتغالى ، ومن المعتقد أن الأتراك قد استولوا على كامران بعد احتلالهم مصر مباشرة عام ١٥١٧ كما احتلوا اليمن أيضـــا .

وقد مر أسطول انطونيو بكوشين وعدن ، غير أنه لم يجرأ على مهاجمة السفن التى كان قد استولى عليها مصطفى باشـــا ، كمـــا أنه لم يدخل مضيق باب المندب ، وبعد أن قام بجولة قصيرة فى خليج عـــدن اتجـــه الأسطول الى مسقط ، وهناك عهد بالسفن الكبيرة الى المـــاجور داسيلفا ، وانتقل هـــو الى هرمز حيث أمضى الشتاء هناك ، وفى شهر أغسطس عاد أنتونيو دى ميراند الى مسقط بعد أن أجـــرى بعض أعمـــال الصيانة لسفنه ، ثم عـــاد وأبحر مرة أخرى للقيام بجولـــة فى بحر العرب بحثا عن سفن العمانيين .

وفى شهر أبريل ١٥٢٨ أقلع دوم نونو داكنها نجل ترستان داكونها المشهور من لشبونة بأسطول الى الهند بعد أن عينه الملك جون نائبا له هناك • وبعد أن أمضى فترة من الوقت فى إحدى مناطق الساحل الشرقى لأفريقية قام خلالها بمحاولة فاشلة كلفته ثمنا باهظا للاستيلاء على ممباسا ثم أبحر الى قلهات ووصلها يوم ١٠ مايو ١٥٢٩ •

وفى يوم ١٩ مايو وصل هذا القائد الى مسقط ، ولدى وصوله البلاد حضر لزيارته رئيس وزراء البلاد الشيخ راشد وكان حليفا للبرتغاليين أثناء الثورة الأخيرة • وقد ترك داكونها معظم سفنه ورجاله هناك للعلاج والنقاهة بعد الأمراض التى أصيبوا بها فى ممباسا بسبب رداءة مناخها •

وكان الشيخ راشد مكروها من الرئيس شريف الذى كان يسعى منذ اندلاع الاضطرابات الأخيرة للانتقام منه واخضاعه لسلطته • وقد استدعاه الى هرمز أكثر من مرة بحجة مناقشته فى بعض الشئون المتعلقة بكشوف الحسابات وادعى بأنه لايزال فى ذمته للملك نحو ٢٠٫٠٠٠ أشرفى لم يسددها لخزينة الدولة ، غير أن الشيخ راشد كان يدرك الهدف من تلك المناورة ، فرفض التوجه الى هرمز •

وقد شرح راشد ملابسات تلك القضية للقائد البرتغالى ، وأبدى استعداده للسفر الى هرمز لكن فى حماية السلطات البرتغالية إذا هى وافقت على ذلك ، وتقريرا لمواقف الشيخ راشد من حكومة البرتغال فقد وافق القائد على اقتراحه •

اتسمت اقامة داكونها فى هرمز بأحداث خطيرة أخطرها الحملة البرتغالية الفاشلة على البحرين ، والتى كان لها انعكاسات سيئة على هيبة البرتغاليين ونفوذهم فى المنطقة ، كما قتل خلالها سيمون أخ داكونها •

وأثناء عودة داكونها من هرمز توقف فى مسقط لتفقد مرضـــاه وسفنه التى تركها هناك ، ثم أبحر عائدا الى الهند •

فى شهر فبراير ١٥٣٢ غادر مانويل دافاسكو نسلير جوا على رأس أسطول من عشرة سفن مختلفة الأنواع وذلك للبحث عن سفن للأتراك والعرب والوقوف على تحركاتهم ورصد نشاطاتهم فى البحر العربى • وعند اقتراب الأسطول من جزيرة سقطرة حيث كان هذا القائد يتوقع وجود الكثير من المراكب التجارية للعرب ، وبالفعل فقد استولى الأسطول على سفينة محلية كانت تحمل شحنة كبيرة من البضائع •

وأعقب تلك الحملة حملة أخرى بقيادة القبطان المـــاجور أنطونيو داسلدانا ، غير أن سفر الأسطول تأجل فى جـــوا لبعض الوقت • وقد زار هـــذا الأسطول منطقة الشحر وحضر سلطان البلاد الى سفينة القيادة لكى يعرض شكوى ضـــد فاسكو نسليو الذى استولى اغتصاباً على بعض السفن التى كانت فى ميناء الشحر ، ثم بعد ذلك أبحر سلدانا الى عدن ، غير أن ســـوء الأحوال الجوية أرغمه على تغيير خط ســـيره وتوجه بدلا منها الى مسقط التى وصلها يوم ٦ مايو • وفى ميناء مسقط التقى سلدانا بمانويل فاسكو نسليو ومعه السفن التى اغتصبها الى جانب سفن أخرى كانت وصلت من جوا بقيادة بعض الربابنة البرتغاليين الذين كانوا جميعهم يفتشون عن السفن التجارية العربية لكى يستولوا عليها بالقـــوة ، وكان الأسطول ينتظر تحسن الأحوال الجوية لكى يبدأ نشاطه فى البحث عن ضحاياه •

فى العام التالى أى سنة ١٥٣٣ غادر ديجـــو داسلفيرا فى رحلتـــه الثانية الى رأس الغطروف حيث كان ينوى اقتناص السفن التجارية العاملة بين سومطره والبحر الأحمر • وبعد أن انتهى من تلك الجولة أبحر شرقا لتمضية الشتاء فى الخليج ، وأثناء سيره استولى على إحـــدى سفن الأتراك

بالإضافة الى سفن أخرى • وعند وصوله الى مسقط التقى بجـون فرنا نديس ، وكان الأخـير قد استولى على إحـدى السفن التى كانت تحمل ترخيصا مزورا ، وقد تم بيع السفينة فى مسقط بمبلغ ٦٠٠٠ كروزادوس • وقد ترك سلفيرا سفنه فى مسقط وأبحر الى هرمز لقضـاء بعض الوقت هناك ، ثم غادر مرة أخرى الى خليج عـدن واستولى على عدد من السفن وقام بحرقها وأخذ بعضها معه الى مسقط لبيعها هناك •

وعلى امتداد فترة تصـل الى ٤٠ عاما ظل الأتراك ، بمـا كـان لديهم من قـوة يبذلون مـا فى وسعهم لتقويض النشـاط التجارى المتصاعد من الشرق ، وذلك بحكم احتلالهم لليمن وسيطرتهم على المراكز الهامـة الواقعة على الساحل العربى ، غير أنهم على ما يبدو لم يمدوا بنشاطهم الى منطقة الخليج قبل عام ١٥٤٦ عندما توغلت بعض سفنهم الى السـاحل الجنوبى من شبه الجزيرة حتى مسقط ، كمـا قاموا بقصف ظفار بمدافعهم بالإضافـة إلى قصفهم لمدينة مسقط نفسها ، غير أنهم لم يقوموا بأى عمليات إنزال •

وفى عام ١٥٥٢ أى بعد سته أعـوام عاد الأتراك الى الظهور على المسرح عندما وصلوا المنطقة بأسطول أقوى بقيادة بيرى باشا ، أميرال البحـر فى مصر ، الذى كلف بقيادة الحملة الثانية الى البحر العربى بعد حملته الناجحة على عدن • وكان الدافع وراء تلك الحملة هـو الانتقام من البرتغاليين على المساعدة التى قدموها للثوار العرب فى البصرة ضد الحكم التركى هناك • وقـد وصـل الأسطول التركى الى مسقط •

وقد أدى تدخل البرتغال لدى الباب العالى الى اصـدار تعليمات الى داود باشـا والى مصر بتجهيز أسطول وارسـاله الى البصرة مباشرة وبالاشتراك مع القوة التى كانت ترابط هناك يقـوم بالتحرك الى هرمز والاستيلاء عليها • وقد أمضى الأمـيرال المكلف بتلك الحملـة شهورا فى

الاستعداد وجمع السفن والرجال والعتاد اللازم وبعد أن فرغ من ذلك غادر السويس فى شهر يوليو (١٥٥٢ — ٩٦٠ هـ) وكان الأسطول يتكون ثلاثين سفينة وستة عشر ألف رجل •

وفى تلك الاثناء تسربت أخبار تلك الخطة الى البرتغاليين ، فعمد قائد الحامية البرتغالية فى هرمز ، وهو الفارودا نورونها ، بإيفاد بعض رجاله لجمع معلومات عن الحملة التركية المزمعة • وعند عودة الرسل أكدوا له النبأ ، فأمر بمرابطة بعض السفن البرتغالية بالقرب من رأس الحد للقيام بمراقبة المنطقة ، غير أن الأسطول التركى واجه عاصفة هوجاء بالقرب من رأس الحد فقد فيها عددا من سفنه واضطر الى الالتفاف حول رأس الحد والدخول الى خليج عدن •

كان قائد الحامية البرتغالية فى مسقط فى ذلك الوقت دوجوا والستوا ، وكان قد كلفه الملك ببناء قلعة لحماية المدينة وميناءها ، ولم يكن البناء قد اكتمل حتى ذلك الوقت وبالتالى فقد شخص القائد وأتباعه فى تلك القلعة استعدادا لأى هجوم قد يقوم به الأتراك ، وفى الوقت نفسه أرسل أفراد أسرته الى هرمز •

كانت خطة الجنرال التركى تقوم على اجتياح المدينة أولا فنفذها ، ثم استدار على القلعة ،ولما تعذر اقتحامها فرض عليها الحصار ، كما تمكن من قصف وتدمير بعض أجزائها • وقد ظل البرتغاليون يدافعون بشجاعة ويصدون هجمات الأتراك لفترة امتدت ثمانية عشر يوما ، غير أن نفاذ المؤن والماء اضطرهم إلى فتح حوار مع القائد التركى لتسليم المدينة • وقد لعب أحد عملاء الأتراك ويدعى جوان وابارى دورا فى حمل البرتغاليين على التفاوض •وقد تم الاتفاق على ضمان حياة وحرية أفراد الحامية شرط استسلامها فورا • غير أن القائد التركى سرعان ما نقض تعهده ، فبدلا من إطلاق سراح أفراد الحامية أعدم بعضهم ، ووضع

الاغلال فى أيدى البعض الآخر وفيهم القائد البرتغالى نفسه ، كما أمر بتدمير القلعة ونقل الغنائم والأسلاب إلى الأسطول الذى غادر بعد ذلك متجها إلى هرمز حيث قام بإنزال جنوده هناك بهدف نهب المدينة •

لقد هيأت الفترة الطويلة التى استغرقتها العمليات التركية فى مسقط الفرصة لتجار هرمز لنقل أسرهم وممتلكاتهم الى جزيرة قشم ، غير أن بيرى باشا الذى علم بالموضوع تحرك بأسطوله الى تلك الجزيرة واستولى على كل ما أمكنه من أموال سكان الجزيرة وممتلكاتهم كما أخذ بعض الأسرى •

فى تلك الأثناء كانت التعزيزات البحرية التى جهزها البرتغاليون قد وصلت الى الخليج وبادرت فى تعقب الأسطول التركى حتى ميناء البصرة ، غير أن بيرى باشا الذى خشى على ضياع الغنائم منه فر الى مصر •

و يعتبر التدمير الذى أصاب مسقط من جانب الأتراك النجاح الوحيد الذى حققه الأتراك منذ حملتهم فى البحر العربى ، وكان من الممكن أن تشكل الحملة خطرا أكبر على حصون البرتغاليين لولا أن هدف القائد التركى كان مجرد جمع الغنائم • أما النصر العسكرى فقد كان بعيدا عن هدفه • وعلى أية حال فإن نتائج الحملة قد شجعت السلطان التركى سليمان الذى كان سيد عصره فى ذلك الوقت على استئناف محاولاته لإقصاء البرتغاليين عن منطقة الخليج • ولهذا فقد أصدر أوامره إلى مراد باشا الذى كان والى المنطقة ليتسلم قيادة ما تبقى من أسطول بيرى باشا والتحرك الى البحر الأحمر للاشتباك مع الأسطول البرتغالى الذى كان يبحر فى تلك الفترة فى المناطق القريبة من جدة •

غادر مراد باشا البصرة فى أغسطس ١٥٥٣ بأسطول مكون من ٦٠ سفينة غرقت إحداها ، غير أن تحركات مراد باشا لم تخف على

القبطان ـ الماجور ديجو نورونها الذى تحرك لاعتراض الأسطول التركى فى المنطقة الواقعة بين هنجام ورأس مسندم ، وبعد معركة يائسة كاد القائد البرتغالى أن يقضى على الأسطول التركى • وقد قتل فى العمليات القبطانان التركيان مع عدد من البحارة ، غير أن البقية الباقية من الأسطول التركى تمكنت من الإفلات والعودة الى البصرة •

برهنت تلك المعركة للأتراك على تفوق الأسطول البرتغالى وعلى عدم التقليل من قدرته • ولو استطاع الأتراك التنبؤ بالنتائج المدبرة لمستقبل امبراطوريتهم من واقع التغييرات التى قد طرأت على خطوط التجارة بسبب الوجود البرتغالى لتمكنوا من غير شك من تعبئة قواتهم فى المشرق ولتعاونوا مع الآسيويين لطرد منافسيهم التجاريين من الهند • وربما أن الأتراك كانوا فى ذلك الوقت فى أوج قوتهم ، وكانوا أقوياء أيضا فى أوروبا ، فقد كان فى إمكانهم أن يصولوا ويجولوا بأسطولهم فى بحر العرب بشكل أقوى مما كان ، ثم إنهم بما كان لهم من حماس دينى فى العالم الاسلامى ، كان يمكنهم كسب التأييد لقضيتهم والتحالف مع كل من حاكم فارس وامبراطور المغول فى الهند •وبحكم تلك الاعتبارات كان يمكن للأتراك ابعاد الأوربيين عن المحيط الهندى لسنوات طويلة • وبرغم ماكان يتمتع به سليمان الكبير من مواهب ، إلا أنه قد أخفق فى استيعاب الأهمية الحيوية لتعبئة قواته لبلوغ ذلك الهدف • وبدلا من تدعيم أواصر الصداقة مع فارس كان فى ذلك الوقت مشغولا بالإعداد لحملة عسكرية ضد تلك الدولة والأدهى من ذلك أنه أمر بقتل الشخصية الوحيدة التى كانت تؤازره ، وكان يمكن أن تتعاون معه ضد خصومه ، ونعنى بها نجله الموهوب الأمير مصطفى •

لقد كانت تلك الفترة من أدق وأخطر الفترات فى تاريخ العالم ، فقد كان ميزان القوة قد أخذ يميل لصالح الدول المسيحية ، وبوفاة سليمان الكبير سنة ١٥٦٦ خلفه على الحكم شاب ضعيف وبذلك ضاعت

من الأتراك والى الأبد فرصة تقويض النفوذ البرتغالى من الشرق .

لقد شكلت البقية الباقية من أسطول مراد باشا المنكوب النواة للأسطول التركى الجديد الذى عهد السلطان سليمان بتنظيمه وقيادته الى قائد اختاره بنفسه لتلك المهمة وهو الملاح المشهور سيدى على بن حسين الذى سبق أن عمل تحت إمرة القائد البحرى الشهير بربروسا أو خير الدين ، الروديسى الأصل ، وكان يشغل منصب قائد أسطول منطقة اسطنبول . وتقديرا من السلطان لخدماته فقد نقله وعينه أميرا للأسطول التركى فى مصر .وهو مؤلف لدراسة علمية بعنوان « التخلص » وان كان قد كتبها باسم مستعار هو الكاتبى . عند وصول هذا القائد البحرى الى البصرة بدأ عمله على الفور وأخذ فى جمع المواد اللازمة لإصلاح سفن الأسطول وتجديدها . وقد بعث والى البصرة التركى شريف مصطفى الذى أوفده الباب العالى الى الخليج لجمع المعلومات بتقرير الى سيدى على ذكر فيه بأن للأوربيين أربع سفن فقط . ثم توجه بعد ذلك للالتحاق بالأسطول التركى الذى أقلع من البصرة فى يوليو ١٥٥٤ .

من ناحية أخرى تم إبلاغ قائد حامية هرمز البرتغالى الكابتن — الماجور دوم فرناندیس دى مينزنيس عن الاستعدادات التركية التى تجرى فى البصرة وبتحركات الأميرال التركى . وبالتالى فقد قام القائد البرتغالى بتجميع عدد كبير من السفن المختلفة الأنواع لصد الهجوم التركى المتوقع . ولكنه إمعانا فى التكتم على حجم القوة ، فقد وزع أهم السفن فى خليج مسقط وبذلك ضلل الأتراك الذين لم يجرأوا على التحرك أبعد من مضيق هرمز . وفى شهر يوليو بعث بثلاث سفن للقيام بدوريات فى مياه الخليج ، وأثناء وجود تلك السفن علم من بعض بحارة المراكب المحلية بأن الأتراك قد تحركوا بالفعل ، وقد تم إرسال عدد من الصيادين إلى المكان الذى كان يرابط فيه الأتراك لافتعال بيع أسماك لهم . وعن طريق تلك الخدعة أمكن جمع معلومات دقيقة عن تحركات الأسطول التركى .

بعد ذلك أقلع القبطان فرناندیز فی نفس الیوم مع القبطان نورونها متوجهین الی مسقط بالسفن الصغیرة للالتحاق بالأسطول البرتغالی المجتمع هناك • وأثناء سیر الأسطول علم القائد بأن الأتراك قد تحركوا فعلا فی طریقهم إلی رأس مسندم ، وأنهم یبحرون فی طابور واحد ، فأصدر أوامره بالاستعداد للمعركة والبدء بالقصف لمجرد ظهور الأسطول التركی • وبعد مناوشات محدودة النطاق تفرق الأسطول البرتغالی وعاد الی مسقط ، ومما لاشك فیه أن انسحاب الأسطول البرتغالی إلی مسقط كان نتیجة لفاعلیة نیران القصف التركی • وكان تقریر الأتراك عن تلك العملیة هو كما یلی حسب ما أورده میشیل •

« عندما شاهد الأتراك أسطول البرتغالیین تأهبوا فورا للقتال وبعد أن رفعوا الاعلام هتفوا • الله أكبر ، وشنوا الهجوم علی خصومهم بعنف لا مثیل له ، وبمشیئة الله أصابت إحدی قواتهم سفنا برتغالیة فتحطمت علی الفور ، بالقرب من جزیرة فك الأسد ، وهكذا أبلی الأتراك بلاء حسنا فی القتال الی أن جن اللیل ، وأضاء القبطان المصابیح ، وعلی أیة حال فإن المشركین قد أطلقوا رمیة واحدة دلیلا علی نیتهم التقهقر الی هرمز • وهكذا تم النصر بعون الله للمسلمین ، ثم غادروا المكان فی ثانی یوم مستفیدین من مسار الریح وتوجهوا الی خور فكان حیث تزود الأسطول بالماء ثم بعد ١٧ یوما وصلوا الی منطقة قریبة من عدن » •

أما البرتغالیون فلم یجرأوا علی مهاجمة الأتراك إلا بعد أن اقتربوا من مسقط وأصبح القتال أمرا لا مفر منه •

فی ذلك الیوم وقع حدثان بارزان فی مسقط اعتبرهما البرتغالیون نذیر شؤم ، فقد ظهر فی البحر حیوان مرعب علی شكل حوت كبیر لم یر الناس له نظیرا من قبل ، وأخذ الحیوان الهائل یحوم حول سفن القیادة البرتغالیة ویرهب البحارة ، أما العرب فلم یكترثوا لذلك ، بل اعتبروا ظهور الحیوان نقمة ینزلها الله علیهم واقتادوه الی البر علی ساحل المكلا •

أما الحادث الثانى فهـو ظهور نجم كبير مذنب ومتسع صادف أن سقط فى مكان المعركة التى دارت بين الأتراك والبرتغاليين • ولا نستطيع أن نجـزم ما إذا كان البرتغاليون قد اعتبروا ذلك حدثا لصالحهم أو لغير صالحهم • وقد بعث البرتغاليون ببعض أفرادهم لاستطلاع الأمر فعادوا بخبر يقـول ، بأن الأتراك قد وصلوا إلى مقربة من جزر الديمانية على بعد ١٢ فرسخا من مسقط ، وعلى الفور أمر القائد برفع الأعلام والمراسى والتحرك لمواجهـة العدو •

وفى نحـو الساعة التاسعة صباحا يوم ١٥ أغسطس تقابل الأسطولان وكانت سفن الأسطول التركى تسير بمحاذاة ساحل الباطنة • وكانت الأحوال الجوية غير ملائمـة فى غبة خالد • بينمـا التزم الأسطول البرتغالى طريقه داخل البحر لمحاصرة الساحل ومنع السفن التركية من الأقتراب وقد نشب قتال بين الجانبين وفقد الأتراك بعض سفنهم التى احترقت كمـا فقدوا بعضها بعد قتال جرى بالأيدى • وبمـا أن بعض سفن سيدى على لم تشترك حتى ذلك الوقت فى القتال وكانت تراقب سـير المعركـة من بعيد فقـد صمم القائد على فشـل انتصـار البرتغاليين عليه ، وحاول التحرك شمالا نحـو الشاطىء الآخـر ولم يجرؤ على العودة الى القسطنطينية خوفا من أن يبتر السلطان عنقه وقد ظل القائد البرتغالى يقصف الأتراك أثنـاء تقهقرهم نحـو الساحل • وكانت غنائم البرتغاليين ستة وأربعين مدفعا الى جانب بعض المدافع الصغيرة •

لقد كانت هزيمة الأتراك وفقدانهم لعـدد كبير من سفنهم أمـرا لاشـك فيه ، فقد كانت الكارثة بالنسبة اليهم مزدوجـة فهم لم يمنـوا بهزيمة ساحقـة فحسب ، وانما أيضـا لم يتمكنوا من العودة الى السويس بسبب سـوء الأحـوال الجوية ، وبالتالى فقد أرغموا إلى الاتجاه نحـو المحيط الهندى حيث اضطروا الى التنازل عن جميع ماتبقى عندهم من العتاد الحربى والذخيرة والعبيد •

وقد دارت تلك المعركة الفاصلة فى منطقة تقع بين الحيل على الساحل العمانى والفحل وهى جزيرة صخرية تبعد ٦ أميال من مسقط ، وقد أطلق عليها البرتغاليون فيما بعد « جزيرة القصر » •

منذ تلك المعركة أخذت الأمور على مايبدو تسير فى هدوء فى منطقة الخليج ، فقد ظل البرتغاليون سادة المنطقة ثم أن الابادة الشاملة للأسطول التركى قد ساهمت إلى حد كبير فى تعزيز هيبة البرتغاليين ونفوذهم ، كما كان له وقع عميق بين الفرس والعرب إذ لم نعد نسمع بعد ذلك ولفترة طويلة تمتد ثلاثين عاما عن الأتراك أو عن أية أحداث مثيرة فى المنطقة •

وفى عام ١٥٨٠ أو ١٥٨١ وصلت الى الحامية البرتغالية فى مسقط معلومات عن حملة عسكرية يجرى إعدادها فى عدن لشن هجوم على مسقط واحتلالها ، غير أن قائد حامية هرمز لم يؤكد تلك المعلومات ، وبالتالى فقد أهمل إرسال تعزيزات واكتفى بتحذير رجال الحامية فى مسقط بالتزام اليقظة والاستعداد لصد أىّ هجوم عسكرى •

ولما كان الحاكم البرتغالى فى مسقط أكثر الناس معرفة بموقف القبائل العمانية من البرتغاليين فقد كان لديه من الأسباب ما يجعله يتصور بأن خطة الغزو قد تمت بوحى من القبائل التى تقيم بالقرب من مسقط • فقد قام بعض زعماء القبائل بالاتصال بالحاكم اليمنى مرآة الزمان وكان من أصل ايطالى وحرضوه على غزو مسقط بعد أن أكدوا له أن الحامية هناك لن تصمد لأى هجوم وان احتمال الحصول على غنائم احتمال قوى • وقد اقتنع الحاكم اليمنى برأى أولئك الزعماء ، وخلال ذلك كان ناصر وأتباعه قد عرفوا بالخطة فبعثوا بأحد رجالهم الى رأس الحد لاستطلاع الأمر والحصول على ما أمكن من معلومات عن تحركات اليمنيين •

وقد ساعدت الأحـوال الجوية الملائمـة على تدفق سيل من المعلومات من عدن غير أن المبعوث لم يعد بشيء أكيد ، وبالتالى فقد اطمأن البرتغاليون ولم يقوموا بأية استعدادات لمواجهة أى طارىء .

أمـا مرآة الزمان فقد عهد بقيادة الحملة الى مغامر تركى يدعى مير على بك ، وفى شهر أغسطس غادر هـذا التركى ميناء عدن على رأس أربع سفن ارتطمت احداها فى مكان ما من الساحل الغربى وغرقت . أمـا السفن الباقية فقد نجحت فى تضليل مبعوث القائد البرتغالى والوصول الى مسقط يوم ٢٢ سبتمبر . ولكن على بك لم يدخل ميناء مسقط وإنما رسـا بسفنه فى خليج سـداب حيث نزل هـو ومائة وخمسـون من أتباعه ، وأرسـل السفن الى ميناء مسقط ، وطلب من بحارتها ألا تظهر قبل الفجر وبمجرد ظهورها تبدأ فى القصف على الفور على أن تتظاهر فى الوقت نفسه بإنزال جنود الى البر بحيث توجه اهتمام رجال الحامية البرتغالية الى ذلك المكان . أمـا على بك فقد انتظر حلول الظلام وعند ئذ تسلل هو وجماعته وتوجهوا الى مسقط . وفى مسقط وزع على بك رجاله فى ثلاث مجموعات رابطت كل واحـدة منها على إحـدى البوابات الثلاث .

كان عدد البرتغاليين فى مسقط فى ذلك الوقت عـدا أفراد الحاميـة لا يتجاوز خمسمائة فرد ، منهم سبعون فقط قادرون على حمل السـلاح ، كمـا أن هؤلاء لم يتلقوا تحذيرا من السلطات البرتغالية عن احتمال هجوم على المدينة مما جعلهم يطمئنون بل ويصرفون النظر عن ارسال أفراد عائلاتهم الى مناطق أخرى ، وفى هذه الأثناء هاجم الأتراك أحـد التجار البرتغاليين وكان يحاول الهرب من البوابة ومعه أمواله فهاجموه وقتلوه واستولوا على مامعه ، ثم بدأت السفن التى كانت تنتظر فى الميناء فى إطلاق نيرانها .

ويبدو أن الهدف الحقيقى من غزوه على بك لم يكن هو طرد البرتغاليين بل كان هدفه هو السلب والنهب ، وبالتالى فإنه لم يبق هناك مفر خصوصا

وأنه كان يعلم بأن السلطات البرتغالية لابد وأن تطلب نجدات من الهند أو جـوا ، وبالنسبة إليه فقد كان يكفيه يوم واحد لجمع الغنائم وشحنها على السفن ، وبذلك اقلعت السفن التركية عائدة الى عـدن •

وبمجرد أن علم دوم كونساليز دامنزيس بالحـادث الذى وقـع للبرتغاليين فى مسقط أوفد القائد لويز دى الميدا على رأس أسطول من السفن لاعتراض سفن على بك وتدميرها ، ولو أن هذا الأسطول كان موجودا فى مسقط عند وصول مير على بك لربمـا نجح فى القضـاء على العصـابة وانقاذ الحامية ، غير أن الأمر كان على عكس ذلك ، لأن ألميدا قد أهمـل الموضـوع ، وبعد أن قطع مسافة طويلة من الطريق صرف النظر عن تعقب على بك وتوجه بالأسطول الى مكران على ساحل بلوشستان ، وذلك أيضا لكى يقوم بعمليات السلب والنهب • أمـا على بك التركى فقد حفزه النجاح الذى حققـه فى مسقط على مواصلة أعمـال القرصنة ضـد المستعمرات البرتغالية ، وبالأخص على الساحل الشرقى لأفريقية ، وأخيرا بعد تسـع سـنوات وقـع فى الأسر أثناء غارة كان يقوم بها ضـد ممباسا ، وقـد اعتقله دوم دى سـوزا وأرسله الى لشبونة ، وهناك تحت تأثير الترهيب والترغيب اعتنق الدين المسيحى وأخيرا توفى ربما من تأثير التعذيب الذى تعرض لـه هناك •

وفى عام ١٥٨٠ تقريبا وقعت البرتغال تحت سيطرة أسبانيا إبان حكم فيليب الثانى الذى استولى عليها بغير اراقة دمـاء ، وعلى أية حـال فقد أحرز البرتغاليون امتيازات أكثر مما كانوا يتوقعون بفضل عـدم مقاومتهم للأسبان ، ولذلك سمح لهم بالاحتفاظ بمصالحهم الاحتكارية لتجـارة الهند وفارس •

ان انهيار نفوذ اللوتوانيين يبدأ اعتبارا من ذلك التاريخ على حـد رأى المؤرخين البرتغال الذين يعزون السبب الى عـدم اكتراث البـلاط

الأسبانى خلال الستين عاما التى خضعت فيها البرتغال للسيطرة العثمانية ، ومن المحتمل أن يكون البرتغاليون قد فقدوا مستعمرة هرمز وغيرها من موانىء الخليج خلال تلك الفترة وتقلص نفوذهم ، غير أنه كانت هناك مظاهر لسيطرة جديدة تتمثل فى الصراع الذى اندلع بين الهولنديين والانجليز كما تضافرت عوامل أخرى للوصول بالبرتغال الى تلك النهاية .

لقد كشفت عملية على بك عن ضعف وسائل الدفاع البرتغالى على مسقط من البحر وأدركوا أنهم لابد وأن يتعرضوا الى مزيد من التهديدات إذا لم تتوفر وسائل أكبر وأكثر فعالية للدفاع عن البلاد . كما كان البرتغاليون يعرفون بأن للأتراك أطماعا فى مسقط ، وأنه لم يكن من المستبعد أن يقوموا بمحاولات للاستيلاء عليها . وقد انقضى وقت طويل حتى وصلت موافقة حكومة لشبونة على إنشاء سلسلة من القلاع الدفاعية ، غير أن تنفيذ المشروع لم يتم قبل سنة ١٥٨٦ . وقد عهد بأنشاء أول قلعة برتغالية الى ملشبور كلاكا الذى كان يعمل قبطانا على احدى السفن البرتغالية فى مسقط . وقد اقيمت القلعة على أحد المرتفعات ، وتتكون من برجين وما تزال هذه القلعة قائمة فى مكانها وإن كانت قد تهدمت بعض أسوارها بفعل طلقات المدافع ، وقد انتهى العمل من بنائها سنة ١٥٨٧ ، وسميت بسانت جوا ويسميها أهل البلاد بقلعة الجلالى ، غير أن مشروع القلاع البرتغالية لم يبدأ الا عند وصول نائب الملك الجديد دوم كوتنهو الذى غادر لشبونة فى سنة ١٥٨٧ . وقد انتهى العمل من القلعة الأخرى الواقعة على الجانب الغربى فى سنة ١٥٨٨ وكانت تحت اشراف خليفة القائد البرتغالى دوم مارتن افونسو دى ميلو بومبيورد الذى برز فى معركة اخراج الأتراك من افريقية الشرقية ، وتضم هذه القلعة كنيسة وبعض الكتابات الحفرية لا تزال واضحة حتى الآن على مدخل الكنيسة ، وعليها التاريخ وغيره من التفاصيل . وقد سميت فى ذلك الوقت بقلعة القبطان ولكن العرب يسمونها قلعة الميرانى أوكوت الميرانى .

وفى أواخر عـام ١٦١٥ أو مستهل سـنة ١٦١٦ ، قام حـاكم صحار محمد بن مهنا بتحريض من سلطان بن حمير بهجوم على صحـار التى كانت خاضعة للأمير عمير بن حمير الذى كان فى ذلك الوقت موجودا فى بهـلا ، وكان الهجوم مباغتا لأهل صحـار ، وبالتالى فقد نجح ولقى شقيق الأمير على بن حمير مصرعه أثناء المعركة .

وقد أثار ذلك غضب الأمير الذى أقسم بالانتقام من محمد بن مهنا الى الحـد الذى جعله يطلب مساعدة البرتغاليين . وتعهد لهم بالعمل على اعادة نفوذهم الى صحار . ولقد كان الوعـد مغريا جـدا ، وبالتالى فقد رحب حاكم هرمز بالعرض طمعا فى استعادة النفوذ البرتغالى على صحار والقضاء على منافسة صحار لمسقط ، ولهذا طلب من نائب الملك فى الهند الموافقـة على الطلب وارسال قوة لتنفيذه . كان القائد المسئول عن الأسطول فى هرمز فى ذلك الوقت هو دوم فاسكو ، وفى شهر فبراير سنة ١٦١٦ انضم اليـه اسطول بقيادة دوام فرانسيسكو روليم الذى حضر من جوا مـع ست سفن محملة بالأسلحة والمؤن .

وقد اتخذ الأميرال من مسقط قاعدة لعملياته واستأجر سفنا من بعض العرب وطلب منهم التعاون مع البرتغاليين ، ثم تحرك الى السيب علـى رأس قوة من ١٢٠٠ رجل ترافقه قوة برتغالية صغيرة . ومن ناحية أخرى كان محمد بن مهنا هو الآخر يبحث عن قوى وحلفاء ، وقد انضم اليه محمـد بن جيفر الذى اختلف مـع حاكم صحـار ثم تخلى عنه . وقـد عززت تلك الأخبار من معنوية الأميرال الذى تحرك من السيب بعد استراحة ٧ أيام الى صحار عبر ساحل الباطنة ، ووصلها فى ١٩ من شهر ربيع الثانى . وقد نشبت مناوشات غـير حاسمـة بين الجانبين ولكن الأميرال استطاع احتلال ضواحى المدينة . وفى نفس الوقت كان البرتغاليون قـد أنزلوا معداتهم الحربيـة الى الشاطىء وبدأوا فى قصف الحصن . وقد انتهت المعركـة التى نشبت بين البرتغاليين والحامية بمصرع محمد بن مهنا ،

وانتقل زمام القيادة الى سلطان بن حمير الذى تراجع الى القلعة الا أن المدينة استسلمت فى النهاية للبرتغاليين وقتل سلطان بن حمير ، كما ارتكب البرتغاليون مجزرة رهيبة ضـد اتباع سلطان واحرقوا المدينة التى تحولت الى كومه من الرماد ، فكان ذلك انتهاكا صارخا لشروط الاستسلام • كذلك استباح البرتغاليون المدينـة بعد نهبها واغتصبوا نساءها وأخذوهن جوارى ورهائن لديهم • وبمقتضى الاتفاقية المبرمة مع الأمير احتفظ البرتغاليون بالقلعة التى بدأوا على الفـور فى ترميمها وعادت القوة البرتغالية الى مسقط •

ومهما يكن فقد أصبح البرتغاليون الآن يواجهون خصما من نوع آخر يختلف عن الآسيويين الضعاف التسليح • فلقد ظهر الانجليز والهولنديون على المسرح لينازعوا البرتغال السـيادة على البحار ولينافسوهم تجاريا ثم فى النهاية كمـا أثبتت الأيام ، يقوموا بتمزيق أوصال امبراطوريتهم فى الشرق • وقد وقعت اشتباكات كثيرة ودامية بين هـذه القوى الثلاث ، غير أن القوة البرتغالية كانت قد بدأت بالفعل تتقلص ، ولم تعد قادرة على التصدى للتنافس غير المتكافىء • لقد بدأت عمليات الملاحـة الانجليزية فى الشرق فى نهاية القرن السـادس عشر تقريبا ، ولم يمض وقت طويل حتى استطاع الانجليز منافسـة البرتغاليين فى الخليج فى مجـال التجـارة مع فارس • وفى عام ١٦١٣ وصلت الى جـواذر السفينة اكسبيديشن حمولة ٢٦٠ طنا وكانت تقل السفير السيد توماس شيرلى الذى كان قد أبدى رغبتـه فى التوجه الى العاصمـة الفارسية أصفهان •

وفى تلك الأثنـاء ولحسن الحظ اكتشفت مؤامرة دبرها البلوش لاغتيال السفير الانجليزى وطاقم السفينة كله • ولهذا قرر السفير التوجه الى الهند • وفى الطريق التقت السفينة الانجليزية بمركب شراعى حمولة ١٥ طنا وكان يحمل تصريحا من حاكم مسقط • وقد رأى السير شيرلى فى ذلك التصريح دليلا على التبعية المطلقة التى يمارسها البرتغاليون على الخطوط الملاحية

فى البحر العربى حتى أنهم لايسمحون لأية سفينة أن تمارس الملاحة بغير اذن منهم .

وقع أول صدام بين الانجليز والبرتغاليين فى خليج عمان فى عام ١٦٢٠ ، ففى ذلك العام كانت أربع سفن انجليزية ، لندن (٨٠٠ طن) ، وهارت (٥٠٠ طن) ، وروبيك (٣٠٠ طن) وايجل ٢٨٠ طن — قد أبحرت من ميناء تليرى هوب متجهة الى سورات فى الهند ، ثم بعد ذلك اتجهت سفينتان من تلك السفن الى ميناء جاسك الواقع على الطرف الجنوبى الغربى لفارس فى خليج عمان ويبتعد نحو ١٥٠ ميلا عن مسقط . وكان أول بريطانى يتبنى فكرة التبادل التجارى مع فارس هو المستر سيشل ، وقد رشح جاسك كميناء مناسب للأغراض التجارية ، وحصل على تصريح بذلك من شاه فارس . غير أن البرتغاليين لم يكونوا غافلين عن تسلل البريطانيين الى مراكز احتكاراتهم ، ولهذا فقد حاولوا إحباط وخنق التجارة البريطانية الناشئة . وكانت السفينتان الانجليزيتان هارت وايجل قد التقيتا عند وصولهما إلى جاسك . وكان الأسطول البرتغالى فى خليج عمان فى انتظارهم لشن هجوم على السفن البريطانية ، ولما كان الانجليز مقتنعين أنهم لا يستطيعون الوقوف فى وجه القوة البرتغالية فقد قرروا العودة الى سورات لجلب التعزيزات ، وفى طريقهم التقوا بالسفينتين الانجليزيتين الأخريين لندن وروبيك وكانتا قادمتين للانضمام اليهما ، وهكذا تحركت السفن الأربع نحو جاسك التى وصلتها يوم ١٥ ديسمبر ١٦٢٠ بعد أن استولت فى طريقها على سفينة برتغالية حمولة ٢٠٠ طن ، وكانت متجهة من مسقط الى سول بشحنة من الخيول . وكان يشترك مع الأسطول البرتغالى سفينتان هولنديتان ، لأن الهولنديين كانوا هم أيضا حريصين على منع البريطانيين من إنشاء علاقات تجارية مع منطقة الخليج .

وقد نشبت المعركة بين الأسطولين فى صباح اليوم التالى فى الساعة التاسعة واستمرت تسع ساعات بدون توقف ، غير أن الأسطولين البرتغالى

والهولندى اضطرا الى الانسحاب تحت ستار الظلام ، وهكـذا انتصر الانجليز فى تلك المعركة • ونظرا لمـا كان للبرتغال من قواعـد عسكرية حصينة فى مسقط وفى هرمز ويمكن أن يستخدموها كمرافىء تلجأ اليهـا سفنهم فقد كان ذلك يحقق أهداف القائد دوم فريردا اندارادا فى مقاومة التغلغل البريطانى فى الخليج ، بينمـا لم يكن للانجليز أى مأوى يحتمون به أقرب من سوارت •

وفى شهر ديسمبر انتهى الانجليز من تفريغ بضائعهم فى جاسك ، وبعد أن قاموا باصلاح الأضرار التى أصيب بها أسطولهم بسبب المعركة التى اشتبكوا فيها أخيرا واضعين فى اعتبارهم قـوة خصمهم قرروا استئناف القتال مع البرتغاليين ، واتخذت سفنهم مواقع قريبة من الأسطول البرتغالى ، وبدأوا فى اطلاق النار على الأسطول ، ودارت معركة عنيفة بين الطرفين استمرت حتى الثالثة بعد الظهر ، وبعد أن أيقن القائد البرتغالى بأن وضعه أصبح يائسـا أمر رجاله بقطع المراسى والانسحاب ، ونتيجة لتلك المعركة أصبح الانجليز هم السادة فى جاسك ، غير أنهم خسروا قائدهم شيلى الذى أصيب بقذيفة أودت بحياته •

وفى ١٤ نوفمبر من نفس العام خرجت حملة بريطانية أخرى من خمس سفن وأربعة مراكب مساعدة الى الخليج بقيادة القبطان بلايث ، والـذى تلقى تعليمات بالتعاون مع الفرس واحتلال هرمز وطرد البرتغاليين منهـا وتجريدهم بالتالى من قاعدتهم الأساسية فى المنطقة • وفى يوم ٢٣ ديسمبر وصـل الأسطول الى منطقة تقع على بعـد النظر من هرمز ، ولمـا كان الفرس غير مستعدين حتى تلك اللحظة فقد قام الأسطول البريطانى بعمليات تهدف الى عرقلة النشاط التجارى للبرتغال والقيام بمناوشات ضدهم • وفى يوم ٨ فبراير بدأ الانجليز حصارهم لهرمز باشتراك قوات فارس البرية وبعد مقاومة مستميتة استسلمت قلعة هرمز وميناؤها للانجليز فى

صبيحة يوم ٢٣ مايو ١٦٢٢ ، وكانت تلك المعركة ضربة ساحقة للبرتغاليين وأدت الى انهيار امبراطوريتهم فى الشرق •

من الواضح أن العرب الذين كانوا يكافحون ضد البرتغاليين وضد الفرس معا قد ساهموا فى انجاح الخطة التى وضعت للهجوم على جلفار (التى تعرف الآن برأس الخيمة) ، والتى كانت المصدر الوحيد للحامية البرتغالية فى هرمز ، وكان طبيعيا أن يحدث هذا ويقوم العرب بدورهم فى طرد الاستعماريين من بلادهم لولا أنهم كانوا يدركون أيضا بأن استبدال الحكم البرتغالى بالفارسى هو عمل أشبه بمن يسقط من المحمصة الى النار ، اذ سرعان ما اتضح أن الفرس الذين اغتروا بالانتصار الذى تحقق لهم فى هرمز قد بدوا يرنون بأنظارهم الى مسقط وصحار • وربما كان من السهل أن يستولى الفرس على صحار ، غير أن احتلال مسقط كان لابد له من مساعدة تقدمها دولة بحرية ، وعلى هذا الأساس بدأوا يفاوضون القائد البريطانى غير أن القائد البريطانى وضع شروطا عسيرة هى : أولا تسليم حامية هرمز للانجليز ودفع نصف دخل جماركها لهم ، وعلى أن يحتفظ الانجليز بأربع سفن هناك لحماية تجارة الخليج ، إلا أن الفرس لم يقبلوا تلك الشروط فقد كانوا يخشون الانجليز كما كانوا يخشون البرتغاليين ، وكانوا يفضلون أن تبقى هرمز فى أيديهم حتى كمنطقة للفرار بدلا من تسليمها للانجليز ، ونتيجة لذلك فشلت المفاوضات بين الفرس والانجليز •

وفى الشهور الأخيرة من عام ١٦٣٣ تحركت الحملة الفارسية إلى مسقط غير أنه لم تتوافر لنا معلومات عن تلك الحملة ، ولكن من المؤكد أنها فشلت ، وربما يعود ذلك إلى تدخل القائد البرتغالى ، وكان القائد البرتغالى قد وقع أسيرا لدى البريطانيين ونقلوه الى الهند ، غير أنه تمكن من الفرار والوصول الى جوا عن طريق مسقط ، وعند وصوله هناك كلفه نائب الملك البرتغالى بالتحرك الى مسقط تصحبه ست سفن لفك الحصار عن مسقط • وبعد أن تلقى روى فرير بعض الإمدادات من السفن التى

أرسلت اليه من نائب الملك فى شول وديو ، لمواصلة الحرب ضد الفرس بدأ يشعر بأن فى مقدوره تغيير وجه الصورة وشن هجمات فى الخليج ضد الانجليز .

فى البداية قرر القائد البرتغالى أن يستولى على صحار ، وأبحر إليها بست عشر سفينة ، وكان الفرس قد عززوا وسائل الدفاع عن صحار ، وأصبح فى إمكان الحامية أن تظهر مقاومة عنيدة ، وفى الهجوم الأول خسر روى واحدا وعشرين رجلا وأربعة ضباط ، غير أن الحصار استمر حتى اضطر الفرس الى أن يستسلموا للبرتغاليين فى نهاية الأمر ، وبعد أن قام القائد البرتغالى بتعيين رجال الحامية انتقل الى خور فكان التى كانت هى الأخرى فى قبضة الفرس ، فاجتاحها البرتغاليون ، وأجبروها على الاستسلام .

وقد شجع الانتصار فرير ورجاله ، كما رفع من هيبة الأسطول البرتغالى . وبما أن روى كان مطمئنا إلى وضعه لوجود قاعدة له فى مسقط فقد كان مصمما على تنفيذ هدف الحملة بأسرع ما يمكن ، وهو احتلال هرمز ، وما أن وصل الأسطول بالقرب منها حتى بدأ يضع الخطة لاحتلالها ، ولما كان القيام بهجوم مباشر على الحامية غير ممكن من خلال الإمكانيات المحدودة للبرتغاليين فقد قرر فرض حصار شامل على الجزيرة وقطع خطوط الامدادات عنها ، وقد دام الحصار ستة أشهر ، غير أن فرير اضطر فى النهاية الى فك الحصار بعد نفاذ المؤن .

فى شهر أبريل ١٦٢٤ خرجت من جوا أول وحدة من الأسطول البرتغالى الكبير للقيام بالاستيلاء على هرمز ، وكان يقود الوحدة ، وعدد سفنها عشرة ، سانشو دى ثور ، ثم انضمت اليها بعد ذلك خمس سفن أخرى ، ثم بعض السفن الصغيرة التى وصلت من موزمبيق . وقبل وصول القطع البحرية كان القائد البرتغالى قد نفذ صبره من وصول امدادات

اليه ، فأوفد ميشيل فريرا فى يوم ٢٤ أبريل على رأس اثنتى عشر سفينة لتنفيذ الحصـــار ، أما هـــو فلم يتمكن من الأشراف على العمليات إلا بعد أربعة أشهر عندما توفرت لديه الإمكانات الكفيلة بتحقيق النتيجة المطلوبة •

وفى الشهر التالى نشبت معركة أعنف بين الأسطولين ، إلا أن البرتغاليين لم يتمكنوا من تحقيق أى مكسب •

كانت السفن التى وصلت من جـــوا بقيادة داثور هى القطع الأولى من الأسطول البرتغالى ، وعلى أى حال فلقد أصبحت أعداد البرتغال فى الخليج أكثر قـــوة ، وتمكنوا مـــن الاحتفاظ بتفوقهم ، ولكن فشلت كل محاولاتهم لاستعادة هرمز ، وعلى الرغم من ضياع هرمز من البرتغال إلا أنهم استطاعـــوا الاحتفاظ بمسقط ، وحاولوا قدر المستطاع أن يفرضـــوا مصالحهم التجارية على المنطقة وأن يطوروها لدرجة الأزدهار ، كذلك ، فإن موقع مسقط الفريد وما حبتها به الطبيعية من إمكانات دفاعية قـــد تضافرت لتجعل منها مركزا اقتصاديا وتجاريا يفوق هرمز •

أما البريطانيون الذين كان نجمهم قد أخـــذ فى الصعـــود فى الخليج ، فقد كانوا يركزون على منطقتى البصرة وجبرون ، وعلى أية حال فنظرا لتدفق المصالح التجارية من هرمز الى مسقط أخـــذ تعداد الأخـــيرة يتزايد بسرعـــة •

وهكذا فبسقوط هرمز انفصمت تلك العلاقة القائمة بين تلك الجزيرة وخليج عمـــان ، هذا على الرغم من أن محمد شـــاه ابن أخ ملك هرمز قد أتى به البرتغاليون الى مسقط ليقنع سكانها بالاعتراف به ملكا عليهم •

ومن بين التحسينات التى أدخلها البرتغاليين أثناء احتلالهم لمسقط هى ترميم السور الممتد من بومة صالح الى باب المثاعيب ، وحفر الخندق

وراء السور ، وإنشاء دار جديدة للجمارك ، والتى لا تزال بوابتها تحمل تاريخ ١٦٢٥ ومهبط ساحلى ، ومرفأ صغير تحت القلعة الغربية ، كما أنشأوا أبراجا فى كل من كلبوة ، وريام ، وسداب لتعزيز وسائل الدفاع عن المدينة ، وكان الحاكم البرتغالى فى ذلك الوقت مارتنيا فونسو دى ميللو الذى يقضى أكثر أوقاته فى قصر الجريزة وفى الصيف ينتقل الى قلعة الميرانى •

وقد تزامن استرجاع الفرس لهرمز أثناء حكم عباس العظيم مع قيام العمانيين بانتزاع استقلالهم من البرتغاليين بعد قيام حكم عربى جديد فى عمان ، ففى بداية القرن السابع عشر كان وضع النبهانيين الذين استمر حكمهم خمسة قرون متتالية دقيقا ويائسا أدى الى ضياع الحكم من أيديهم ووقوع البلاد كلها فى غمرة من الفوضى نتيجة للحروب الأهلية ، واحتدم الصراع بعنف بين القوى المتنافسة ، وانتهى فى عام ١٦٢٤ بانتخاب الإمام ناصر بن مرشد اليعربى ، وقد أثبت هذا الحاكم العمانى أنه من أقوى وأكفأ الحكام على الاطلاق ، وتمكن خلال وقت قصير من السيطرة على الأمور وتحقيق الاستقرار ، ثم حول اهتمامه وإمكاناته لطرد المستعمرين الذين كانوا يسيطرون على المناطق الساحلية ، وخاض معهم حربا طويلة أدت الى دحرهم •

وبعد مرور سبعة أعوام على تولى الإمام ناصر للسلطة فى عمان (أى فى ١٦٣١) حاول البرتغاليون بعد أن أخذت تجارة الخليج تتقلص تدريجيا منهم أن يحققوا بالوسائل السلمية ما فشلوا فى تحقيقه بطريق القوة ، ومن ذلك محاولة الملك البرتغالى (دوم ماجول دا نرنوها) شراء هرمز من الفرس أو استئجارها ، وأوفد لذلك مبعوثا خاصا يدعى دمونيك فاتليز الى مسقط وكلفه بالتنسيق مع الأميرال روى فرير الذى كان لا تزال تلك المنطقة تحت قيادته ، وبعد اجتماعه بالقائد توجها معا الى فارس ، غير أن المحاولة لم تنجح بالرغم من العرض السخى الذى قدمه البرتغاليون

للفرس •ولما كان غرير مصمما على تحقيق نتيجة ما فقد مضى بعد ذلك الى جلفار ، وقام ببناء قلعة هناك تجاور قلعة الفرس • غير أن تلك القلعة لم تبق فى أيديهم ، ففى شهر يوليو ١٦٣٣ تمكن الإمام ناصر من طرد الفرس والبرتغاليين واحتلال القلعة • ثم أصدر أوامر الى الشيخ حافظ ابن سيف لبناء قلعة فى صحار لمواجهة القلعة الأخرى التى يسيطر عليها البرتغاليون ، وقام بفرض حصار قوى على الأخيرة يعاونه فى ذلك بعض قبائل بنى خالد والعوامر ، غير أن قلعة البرتغاليين واصلت مقاومتها بعنف شديد لقوات الامام مما اضطره الى ايفاد القاضى خميس بن سعيد الى الحاكم البرتغالى فى مسقط ليفاوضه للوصول الى حل سلمى ، ولقد وافق الحاكم البرتغالى على ذلك واشترط أن يرفع العمانيون الحصار عن قلعة صحار ، وعلى الرغم من هذا الفشل إلا أن الامام قدر القيام بهجوم آخر ضد المراكز البرتغالية فى صور وقريات ، ونجح فى انتزاعهما من البرتغاليين رغم أن البرتغاليين عادوا فاستردوا البلدين بعد ذلك •

فى ١٦٤٠ استردت البرتغال استقلالها من أسبانيا ، كما أن النجاح الذى حققه البرتغاليون على العمانيين فى مسقط فى نفس العام قد ضاعف من ابتهاجهم ورفع من معنوياتهم •

قبيل هذا الوقت طعن الامام ناصر فى السن ولم يعد قادرا على القيام بمسئولياته بحيث لم نعد نسمع شيئا عن الصراع الذى كان محتدما بين الامام والأجانب • ولكن فى عام ١٦٤٨ وقعت أحداث جديدة فقد زحف الامام بجيش عمانى بقيادة مسعود بن رمضان وسعيد بن خليفه لفرض حصار على مسقط وتحريرها ، وقد بدأ هذا الجيش حصاره لمدينة مسقط يوم ١٦ أغسطس ، واستمر حتى ١١ سبتمبر وخلال هذا الحصار ، كما يذكر روس ، نجح العمانيون فى تدمير معاقل البرتغاليين وإرغام الحامية على طلب التسليم بالشروط التى حددها الإمام والتى كان من أهمها دفع ٢٠٠ ألف بارودة لحكومة الإمام ، وهدم السور الذى يحيط

بمسقط ، واعفاء سكان المناطق الداخلية من دفع الرسوم الجمركية على وارداتها • ولما كانت الشروط قاسية على البرتغاليين فقد ترددوا فى قبولها ، واضطر الامام الى تشديد الحصار واحتلال القلاع ، وهكذا اضطر البرتغاليون الى الاستسلام فى نهاية الأمر بعد نفاذ الذخيرة • وفى ٣١ أكتوبر ١٦٤٨ تم توقيع معادة السلم بين الامام والحاكم البرتغالى دوم جوليو نورنها ، ثم بعد ذلك انسحبت قوات الامام الى قواعدها فى الداخل •

كان من بين الشروط الأولية التى تضمنتها معاهدة السلم هى البنود التالية (١) أن يتم تدمير قلعة قريات وصور (٢) أن يتم هدم القلاع التابعة للعرب والبرتغاليين (٣) أن يتم إخلاء مطرح من القوات واعتبارها منطقة محايدة (٤) الا يدفع العرب رسوما أو ضرائب ، وأن تكون التجارة حرة (٥) لا يجوز للبرتغاليين إقامة أى تحصينات خارج حدود مدينة مسقط •

ويبدو لنا أن الحاكم البرتغالى فى مسقط كان قد بعث بطلب عاجل الى حكومة لشبونة لإرسال مساعدات عسكرية وبالفعل قد وصلت بعض قطع الأسطول البرتغالى الى المياه العمانية فى منتصف نوفمبر ١٦٤٨ ، وقد تم اعتقال كل من دوم جوليو وفيدور (مسئول الخزانة) وأودعا السجن عقابا لهما على نتائج المعركة •

وإزاء ذلك قررت حكومة لشبونة فى التعليمات التى بعثت بها فى شهر يناير ١٦٤٩ عن التطورات الأخيرة فى عمان ، الاحتفاظ بحامية مسقط بأى ثمن ومرابطة عدد أكبر من السفن فى سواحلها ، وبعدم السماح لسكانها العمانيين بالبقاء فى المدينة ، ووجوب تعزيز وسائل الدفاع عن قلعة خصب ، وحتى اذا تصورنا أن تلك القرارات كان فى الامكان تنفيذها فمع ذلك فإنها لم تكن إجراءات كافية لاحتفاظ البرتغاليين بحاميتهم فى مسقط

لفترة طويلة • ولو أن الامام ناصر بن مرشـــد بقى فى الحكم فترة أطول فربمـــا التزم الطرفان بنصـــوص المعاهدة ، ولبقى الهدوء يســـود مسقط ، غير أن وفاة ذلك الامام فى أبريل ١٦٤٩ وانتقال السلطة الى حاكم جديد قد أدى الى استئناف الصراع ضـــد المستعمرين ، وبالتالى فقبل أن ينتهى العام عادت مسقط فتعرضت لتهديد وحصـــار جديدين من القوات العمانية •

ويرى المؤرخون العرب بأن الامام سلطان بن سيف الـــذى جـــاء بعـــد الامام ناصر بن مرشـــد أعلن حربا شاملة ضـــد السيطرة الأجنبية فى مسقط وأنه هو الذى أشرف بنفســـه على العمليات العسكرية ضدهم الى أن حقق الله له النصر فى فترة لا تزيد عن ستة أشهر •

حدث هـــذا فى مستهل ١٦٥٠ بعد أن نجح العمانيون فى الدخـــول الى مدينة مسقط خـــلال هجوم شنوه فى الليل وأكتسحـــوا التحصينات والأســـواق ، وقد لجأ عدد كبير من السكان الى المراكب الراسية فى الميناء ، كما استطاع ٧٠٠ مواطن برتغالى من الهرب الى جـــوا ، وقد قامت قوات الإمـــام بضرب حصـــار على مستودعات الســـلاح والذخيرة فى الجريزة وأرغموا الحاكم العـــام الى الانسحاب مـــن الثكنات وتركها للحـــراس ليدافعوا عنهـــا •

وبالرغم من أن خطوط الدفاع هـــذه قد استطاعت أن تصمـــد للهجوم ثلاثة أيام الا أن الأسطول البرتغالى المرابط فى الميـــناء لم يستطع أن يفعل شيئا ، وذلك رغم أن القوات المهاجمـــة كانت قليلة العدد ، وهكذا أرغم الحاكم العام على تســـليم القلاع يوم ٢٣ يناير للقوات العمانية ، وعلى أثر ذلك بعث القائد البرتغالى بطلب عاجل الى نائب الملك يطلب نجـــدة سريعة للدفاع عن الوجـــود البرتغالى ، غير أن الأسطول وصل متأخـــرا بعد أن استولى العـــرب على المدينـــة ، ومن المحتمل أن العمانيين قـــد تمكنوا من إبادة رجال الحاميـــة ، وان كان المؤرخـــون البرتغاليون لم يؤكدوا ذلك •

فى كتاب مذكرات « وزير فى صنعاء » وردت العبارة التالية وهى جديرة بأن نشير اليها •

« فى عام ١٠٥٢ بعد الهجرة توجه بعض التجار الى الأحساء والبحرين والبصرة ، ثم منها سافروا الى بندر مسقط ، وكانت فى ذلك الوقت فى أيدى الأفرنج ، وقد تعرضوا لعمليات سلب ونهب من جانب الأفرنج ، بحيث بدأ الناس يخشون من المرور فى تلك المنطقة ، واقفل الخليج فى وجه الملاحة الى أن احتل العمانيون مسقط ، وطردوا البرتغاليين منها ، وبعد أن استولى المسلحون على مسقط استؤنفت الحركة التجارية ، وأعطيت ضمانات للتجار ضد الاعتداءات ، وفى عام ١٠٥٤ هـ ١٦٤٤ م سيطر العمانيون على ساحل بلادهم الذى كان قد احتله الأفرنج وهم لم يكونوا يتوقعون أن ينجحوا فى ذلك » •

لقد وضع احتلال العمانيين لمسقط النهاية الحاسمة لدور البكويرك فى الخليج ، ولم يقم البرتغاليون بمحاولات جديدة لاستعادة نفوذهم ، غير أن دوم فيليب قد سعى الى تعويض تلك الخسارة بطريقة وأخرى ، فقد حاول أن يستأجر ميناء هرمز أو أن يشتريه من الفرس ، كما ذكرنا آنفا ، كما حاول الحصول على مساعدات عسكرية من الفرس ضد عرب المنطقة •

فى عام ١٧١٨ لاحت للبرتغاليين بارقه أمل جديد فى استرجاع نفوذهم فى الخليج ، وذلك عندما طلب الفرس مساعدة عسكرية من البرتغاليين لاسترداد هرمز من الأتراك والبحرين من العرب • وبناء على ذلك أرسل البرتغاليون أسطولا فى شهر فبراير الى ميناء كونج ، وعند وصوله التقى بأسطول للعرب هناك ونشبت معركة استمرت من الصباح حتى المساء ، واستخدم البرتغاليون فيها المدافع غير أن العرب تمكنوا من الانسحاب مؤقتا ، وفى اليوم التالى استؤنفت المعركة وقاوم العرب

بعنف كما انسحبوا مرة أخرى ، وفى اليوم الثالث استأنف البرتغاليون قصف السفن العربية ، ولكن العرب هربوا ولجأوا الى خليج مالكولم . كما انسحب البرتغاليون الى كونج ، ومن خليج مالكولم توجه أسطول العرب الى جلفار للتزود بالمؤن .

ويقال أن العرب خسروا خمسمائة رجل بين قتيل وجريح ، بينما قتل من البرتغاليين عشرة وجرح خمس وعشرون رجلا ، وفى يوم ٢٧ أقلع القائد البرتغالى الى جلفار ، ونشبت معركة بينه وبين أسطول العرب انتهت بهزيمة العرب .

وأعقب تلك الأحداث نشوب أعمال شغب فى مسقط ، ومن ناحية أخرى فإن وفاة الإمام وتولى ابن أخيه للسلطة أدى الى مساع جديدة لإجراء مفاوضات سلمية مع البرتغاليين ، غير أن البرتغاليين لم يوافقوا على شروط العرب . ومن ناحية أخرى رفض شاه فارس طلب الفرس بفرض حصار على مسقط ، مما أضطر البرتغاليون الى الانسحاب والعودة الى جوا فى نهاية العام .

ومع كل ذلك فقد واصل البرتغاليون إرسال الأساطيل الى الخليج للاشتباك مع السفن العربية والعمل على تدمير التجارة العربية .

وعلى أية حال فقد تعلم العرب من تلك التجارب دروسا كثيرة فقد سعوا الى مضاعفة حجم سفنهم مما مكنهم من القيام بحملات بحرية ناجحة على سواحل الهند وخنق التجارة البرتغالية .

ان تلك الحرب الطويلة غير المجدية بين العرب والبرتغاليين جاءت نهايتها فى عام ١٧٣٩ تقريبا عندما طرد البرتغاليون من المحيط الشمالى للهند من جانب المهراتية الذين انتزعوا منهم بيسين والمناطق المجاورة لها .

الفصل الرابع

أسرة اليعاربة

منذ بداية القرن السابع عشر تصبح موضوعاتنا إلى حد ما أكثر غزارة ودقة ، فلدينا الآن أكثر من عمل عربى يشير إلى تلك الفترة ، ففى ذلك الوقت سقطت أسرة النباهنة التى حكمت عمان لمدة أربعة قرون ونصف القرن ، وتحولت إلى دولة ضعيفة تبسط سلطانها على نصف المملكة فقط ، ويرجع ذلك أحيانا إلى طمعها واضطهاذ الملوك أو الحكام ، وإن كان وبدرجة أكبر يرجع إلى أسباب سياسية ، فقد كان الملك مخزوم بن الفلاح ابن المحسن هو الذى يمثل الأسرة فى ذلك الوقت ، وقد كان يقيم فى ينقل ، وكان شديد المعارضة لأخيه نبهان بن فلاح •

وبوفاة الملك مخزوم حوالى عام ١٦١٥ انتشرت الفوضى فى أسرة النبهانيين ، واستطاع عمير بن عم نبهان بن فلاح أن يهاجمه وينتصر عليه فى يُنقل ١٦١٧ بمساندة سيف بن محمد الهنائى •

وفى الفوضى الناتجة عن ذلك الصراع تحول اتجاه المنتصرين عمير وسيف بن محمد لمدة سبع سنوات حتى وفاة عمير بن حمير ، فسقطت البلاد مرة أخرى فى الفوضى وخمدت شعلة النبهانيين • واشتدت حدة المنافسة على القيادة بين القبائل المختلفة وخاصة بين اليعاربة « وهم إحدى أقدم العشائر وأكثرها تأثيرا فى عمان » •

كان شيخ الرستاق عام ١٦٢٤ وهو مالك بن أبو العزار اليعربى واحدا من الذين كانوا يحاولون الاستيلاء على السلطة ، ولكنه كان يعارض ويقاوم بواسطة القاضى خميس بن سعيد والذى كان تحت قيادته ، ثم عن طريق

الدعـــوة لأجتماع الأعضاء البارزين •• تم انتخاب الشيخ ناصر بن مرشد اليعربى إماما ولم يقلد هذا الانتخاب مراسم الإمامة لأسرة جديدة فحسب ، ولكنه فتح عهدا جديدا فى تاريخ عمان الذى تقدمت فيه البلاد إلى درجة كبيرة من الرفاهية ، حيث كان يقـــود البلاد ناصر بن مرشد ، ذلك الرجل الذى اتسم بذكاء غير عادى وقوة نادرة ، لدرجـــة أنه يمكن أن يوضـــع كواحد من أشهر أمراء عمـــان ، ولكن قرار اجتماع الرستاق كان قراراً محليا ، ولم يجـــد قبولا عاما لذلك ، فعندما انتشرت الأنبـــاء عبر المدن المعارضـــة والقبائل المعارضـــة وجدناها تقف متحفظة تنتظر الأحـــداث وبمساعدة قبيلة اليحـــامد واجه الإمـــام ناصر بن مرشـــد صعوبة إلى حد ما فى أخذ حصن الرستاق من أبناء عمومته ، الذين عادوه بسبب وفاة جدهم مالك بن أبى العرار ، والتى حدثت عام ١٦٢٠ وبالنظر حولـــه رأى الإمـــام وبسرعة أن مركزه أصبح متقلقلا وأن عليه توقع عـــداء أكثر ، ومعارضـــة أكثر فى تأكيد موقفه ، وحتى بطريقة جزئية أمام وجهة النظر الآتيـــة من الاتجاه المعارض من قبائل نزار ، ويجب أن نذكر هنا شيئا جديرا بالاعتبار ، وهـــو أن قـــوة قبائل نزار ازدادت بصـــورة كبيرة فى ذلك العهـــد وأصبحت مساوية فى القوة لليمنيين •

بينما كانت تلك القبائل فى عهد الخلفاء أقلية ، ولكنها ومنذ تلك الفترة وبسبب الهجرة وأسباب أخرى ازدادت تدريجيا ، واستطاعت أن تسيطر على مناطقها •

وفى عام ١٦٢٥ جمع الإمـــام قوته وســـار باتجاه قلعة نخل ، وهى التى أنشأها عمـــه الأكبر سلطان بن أبو العرار ، ولكنه لم يكد يسيطر على تلك القلعة حتى أحاطته وحاصرته مجموعـــة من المعارضين والمنشقين عنه ، ولكنه لم يبت بعد أن تمت نجدته عن طريق الإمدادات العســـكرية من العودة إلى الرستاق ، وتمكن بعـــد فترة من أن يجمع جيشـــا من اليحمديين وبنى رواحة وبعض القبائل الأخرى ، يسانده القاضى خميس بن سعيد ،

وتم التحرك إلى أزكى التى استسلمت له ، ثم نزوى التى دخلها واستقر فيها بضعة أشهر • ثم استولى الإمام على مدن سمد الشان ، وأبرا ، ثم استسلمت له كل الشرقية ، ثم انشغل الإمام لبعض الوقت فى بعض العمليات الصغيرة فى أماكن مختلفة ، حيث وجد نفسه مضطرا لأن يقود حملة ضد قبائل نزار المعارضة والتى أقامت حصونها فى الظاهرة ، وكان القائد الرئيسى لنزار هو ناصر بن قطن من بنى هلال الذين امتلكوا حصون جابى وضنك •• وهاجمت قوات الإمام جابى أولا ولكن بعد مقاومة عنيفة قتل شقيق الإمام •

أما فى ضنك فقد تمت هزيمة بنى هلال للمرة الثانية •• وهزم ناصر ابن قطن الذى استسلمت قلعته ورغم ذلك فقد عمل مع أخيه واليا •

واستولى الامام على عبرى أيضا ، ولكن مقنيات قد صمدت ، ووقفت القبائل اليمنية المتحالفة مع الامام وقفة صلبة ، وبدت الحملة وكأنها وقد تم تأجيلها لعدة سنوات لفرصة مناسبة فى الظاهرة • ورغم أن بهلا ومقنيات وبعض الحصون الأخرى قد تم الاستيلاء عليها فإن الاستياء فى إقليم الظاهرة لم يتم أخماده بالكامل أبدا ، ذلك لأن النزاريين استمروا فى دفع اتجاه العداء والاستقلال فى مواجهة الإمام ناصر خلال حياته . ثم اعتزال الإمام فى الرستاق ، وتم إرسال قوة للبريمى وليوا ، وتم الاستيلاء عليهما رغم مساعدات البرتغاليين لحامية لوى •

ثم قام الإمام بإعداد جيش كبير العدد ووضعه تحت قيادة مسعود بن رمضان ، وأرسله لمهاجمة (مقنيات) وذلك لأنه كان مفتخرا بنجاحه مع القبائل وواثقا فى مهارته العسكرية ، ولكن الجيش بقيادة مسعود بن رمضان وصل إلى ضواحى المدينة حيث لقى هزيمته على يد البرتغاليين وبسرعة لجأ الإمام إلى إعداد خطة لقتل مانع بن سنان حيث دعاه إلى لوى مع وعد بالأمان ، ثم نقض هذا الوعد بقتله له •

وكانت ظفار هى النقطة التالية التى حول إليهـا ناصر بن مرشـد اهتمامه حيث كانت توجد هناك حاميتان ، واحدة أقامها البرتغاليون الذين كان لديهم سفينتان راسيتان هناك ، بينما أقيمت الأخرى بواسطة الفرس تحت حكم ناصر الدين ، وكان جيش الإمام تحت قيادة على بن أحمـد الذى نجح فى الاستيلاء على الحصنين وطرد الفرس ، ثم عاد الجيش بعد ذلك منتصرا إلى نزوى .

وشجع هـذا النجاح الإمـام لمحاولة فرض سلطته على صحار . وأمر حافظ بن سيف والى لوى بجمع قوة لذلك الغرض ، ووصل صحار فى المحرم ١٠٤٣ هـ ١٦٣٣ م وهاجم المدينة ولكن سرعان ما هزمه البرتغاليون وطردوه .

وأوقف البرتغاليون كل الاتصال بمسقط من الداخل ، وأجبر الإمام على عقد اتفاق السلام ، الذى تم التفاوض عليه بواسطة القاضى العجـوز خميس بن سعيد ، وبعد فترة قصيرة قام الإمام بعمليات ضد صور وقريات التى نجت من البرتغاليين الذين كانوا فى ظروف يائسة جدا فى ذلك الوقت .

وفى ذلك الوقت غزا بنو هلال تحت قيادة الشيخ ناصر بن قطن بعد أن اتحـدوا مع قبائل نزار الأخرى فى الجـو والباطنة ، وأرسل الإمام قواته للوقوف ضدهم ، وتمت المهمة بنجاح إلى حـد مـا ، حيث أن الغارات استمرت ، ونقل بنـو هلال الأرقاء بالقـوة ، وتقدم الشيخ ناصر إلى ليوا حيث حدثت المعركـة بينه وبين قوات الإمام يقودها على بن أحمد الذى انتصر ، وهرب الشيخ ناصر إلى الشمال يلاحقه العمانيون وتحول فجأة عن أعدائه وقتل متعقبيه .

واستمر الشيخ ناصر بن قطن الهلالى فى غاراته على عمان ، وأصبح يمثل رعبا لكل البلاد التى كان ينهبها وقتما أراد ، وكانت الهجمات المضادة

للإمـــام فاشلة • وفى الجنوب كان جيش الإمام قـــد تجزأ إلى قطع ، واستمر الشيخ خاضعا مقهورا وكان على أقصى تقدير يشبع رغبته برفع تلك المعونة الكبيرة بواسطة الإمام •• وبعـــد كل هذا فكل ما نسمعه عنه قليل •

وفى عام ١٦٤٨ استؤنفت الحرب بين الإمـــام والبرتغاليين وقد نتج عنها فى أكتوبر من تلك الســـنة معاهـــدة الســـلام التى لم تكن ملائمـــة للبرتغاليين •

توفى الإمام ناصر بن مرشـــد فى الحادى عشرة من ربيع الآخر ١٠٥٩ هـ (١٤ ابريل ١٦٤٩ م) بعد فترة حكم قاربت على ستة وعشرين عاما ، وتم دفنه فى نزوى •

وفى وقت متأخر من القرن الســـادس عشر قبل أن يقوم الانجليز بمحاولاتهم لمنافسة البرتغاليين واكتشـــاف إمكانيات التجـــارة الهندية ، وكذلك البحث فى إمكانيات تلك المشروعات . وكان الفضـــل الأول فى ذلك يعـــود إلى اثنين من المديرين الأذكياء من الشركـــة التركية التى أقيمت عام ١٥٨١ • وكان الاثنان هما الســـادة سمث وستابر اللذين اختارا أربعة أشخاص لتشكيل بعثـــة للذهاب للشرق لجمع المعلومات عن المشروع واحتمال الاشتراك فى التجارة الفينيسية ، وتكونت المجموعة سنة ١٥٨٣ من الســـادة نيومرى وفتش « تجار » والسيد ستورى « نقاش » والسيد ليدز مجوهراتى ، وفى عام ١٥٨٣ أبحروا إلى طرابلس فى ســـوريا ، ومن هناك سافروا إلى بغداد والبصرة ثم أبحروا إلى هرمز وجاوا • وقـــد ظل نيوبرى وليدز فى الهند وتوفيا هناك • ولكن السيد فتش عاد وقد جمـــع كمية كبيرة من المعلومات عن كل الأماكن والبلاد التى مر بها ، وعاد إلى انجلترا من نفس الطريق عـــام ١٥٩٠ •

واندلعت الحرب بين أسبانيا وانجلترا ، وأصدر فيليب الثانى مرسوما يحظر فيه على الانجليز — وكما فعل قبلا فى حالة هولندا — من الحضور إلى لشبونة للتجارة ، واعتقد فيليب بذلك أنه يضرب هولاندا وانجلترا ضربة قوية ، ولكنه كان مخطئا ، وكانت نتيجة هذه السياسة عكس ما توقع ، فقد حولت تجارتهم إلى قناة أخرى ، ودفعتهم إلى المغامرة عن طريق الهند ، وحققوا نجاحا هاما فى ذلك لدرجة أنه فى سنوات قليلة حلوا محل البرتغاليين فى تجارتهم الشرقية .

وفى عام ١٦١٠ م حققت شركة الهند الشرقية التى حصلت على امتيازها فى ديسمبر عام ١٦٠٠ أهدافها فى دعم تجارتها فى الفلفل بتنظيم أشرف عليه السير هنرى ميد لتون ، وكانت زيادة التجارة ألف طن فى حمولة السفينة — أكبر سفينة بنيت فى انجلترا حتى تلك الفترة .

وأبحر سير هنرى أولا إلى موشا حيث عاملوه بقسوة ، ولكنه انتقم بشن حملات قرصنة على المراكب العربية ، وفى العام التالى تم تدعيمه من جانب الكابتن ساريز بثلاثة سفن وقايضوا بضائعهم مع التجار العرب ثم أبحرا إلى بانتام .

وفى عام ١٦١٣ اقترح مستر سثيل — الذى كان قد غادر انجلترا بحثا عن ديون السكك الحديدية ووصل إلى الهند مستخدما كل الفرص لكى يتحقق بالتجربة من ظروف التجارة حيث اعتقد أن مثل هذه التجارة يمكنها أن تؤدى إلى عمل مربح ، وأرسل بذلك تقريرا عام ١٦١٤ مع السير كروثر من سورات Surat ، وبعد فحصه لمسقط أرسل تقريرا من بوشير مع السير كونج ، ونجحت المحاولة أولا ولكن باستثناءات قليلة ، وتم إرسال السير بركر والسير كورماك إلى بوغستان حيث استقبلهم الحاكم بترحيب واعطاهم فرمانا للتجارة .

ولأسباب معينة عارض السير توماس رو بقـوة التجارة مع فارس ، وحذر الشركة لكى تتخلى عنها ، ولكنه بعد بذلك قدم المسـاعدة للمشروع ، وكان السـير توماس شيرلى الذى كان المندوب السـامى لمدة سـنوات ـ يعارض التوسع التجارى للانجليز ويسـاند المصالح الأسبانية البرتغالية ، ولكن ومن جهة أخرى أشار مستر كورماك إلى الخطر الذى يمكن أن ينتج عن السماح لأسبانيا البرتغالية باحتكار التجارة الفارسية .

وفى يونية عام ١٦١٧ وصـل سفير أسبانيا البرتغالية إلى أصفهان ، ووقتئذ طلب الممثل الانجليزى فى فارس إلى الممثل فى سورات أن يرسل على عجل كل بواخر الشركـة إلى جاسك للدفاع عنها لأن الأسطول البرتغالى كان قد تجمع فى مسقط لكى يعوق مرور الانجليز فى الخليج .

وكان لخطاب سير توماس رو تأثير طيب على الشـاه ، وكان من نتيجته صـدور ثلاثة فرمانات ، ثم اتبعها بمعاهدة هامة عام ١٦١٨ ، ثم أرسل خطابا آخر للتصـديق على المعاهدة . وفى مارس ١٦٢٠ أرسل الملك جيمس خطاب إلى الشـاه يشكره على حسن صنيعه واستمرار حمايته للانجليز .

وعندما أخذ البرتغاليون تجارة الشرق من أيدى الفينيقيين ، وجعلوا من لشبونة السـوق التجارى الجديد لأوربا بدأت خطوط التجارة القديمة فى تلك القارة تتضاءل ، وسقطت أماكن المستودعات القديمة ، كما قام كل التجار فى البلاد الأوربية بعمل الترتيبات الجديدة لبيع بضائعهم بعد أن كانت بروج أو جسبرج هما أسـواق فينسيا ، وقـد انتهى عهدها . وفى عـام ١٥١٥ اختار الانجليز انتورب لمناسبتها للسـوق الشمالية فى مكان بروج ، وحالما توسعت وأصبحت مدينة عظيمة ، وفى عام ١٥٨٥ أصـاب الخراب انتورب بسبب بارما وألفا وفقدت مكانتها التجارية التى كانت قد وصلت إلى مستوى عظيم .

فى ذلك الوقت قرر الهولنديون الذهاب بالمنتجات الشرقية إلى الشرق ذاته ، وقرروا فى ذلك الوقت عدم الاستعانة بالوسطاء وحصلوا بالتالى على أرباحهم التجارية بالكامل وتنبهوا إلى تلك المشروعات والمغامرات الجديدة فى سياسة فيليب غير المسئولة .. وكان فيليب قد حرمهم من الذهاب إلى لشبونة مشجعا تلك الاقتراحات والاستعلامات التى انتقلت عن طريق أحد رجال الأرياف — لنشوتن — والذى عاد من الهند بعد خدمة طويلة مع البرتغاليين ، ونشر ما خلاصته : أن البرلمان الهولندى أعطى الحق لإحدى الشركات والتى كانت قد أعدت أسطولا بقيادة مولسار ، وكان ذلك الأسطول يتكون من أربعة بواخر أبحرت من امستردام سنة ١٥٩٥ تحت رعاية (شركة البلاد النائية) وحققت تلك المجهودات لأول مرة نجاحا سارا • وبدأ التحريض على الحرب ضد البرتغال والعمل على زيادة ثراء بلادهم ، كما ازدادت أهمية بحريتهم ، وكذلك نجحوا فى اضعاف قوة البرتغال والاستيلاء على بعض مصانعها وضمها إليهم • وأصبح الهدف الرئيسى لتلك الدول هو الاحتكار الحقيقى لجزر الطيب ، وفى سبيل تحقيق ما أرادوا لم يعبأوا بشىء على الاطلاق •

وهنا وجد الانجليز أن الهولنديين فى الشرق أصبحوا يعملون ضدهم كما كان البرتغال قبلا • فقد أصبح للهولنديين بلدهم الخاص المستقل عن الانجليز ، كما أنهم لم يترددوا فى التضحية من أجل ما اكتسبوا وأن يغتصبوا تجارة الطيب حتى بأسوأ الوسائل دون أى اعتبار لمقاييس الخداع والاحتيال والهدم للتجارة الانجليزية • وحيث أن البلاد كانت فى حالة سلم فقد تمت مناقشة الخلافات والمنازعات داخليا ، وتم تعيين الوسطاء بسؤالهم بشأنها • وكان الهولنديون يعانون قلقا شديدا حول دمج الشركات الانجليزية والهولندية والتى عن طريقها سيحطمون سريعا التجارة الانجليزية ويأخذونها فى أيديهم ، وقد كان ذلك مفهوما فى انجلترا ، ولذلك فشلت الخطة ، ولذلك أرسل الهولنديون إلى وكلائهم أوامر

تقضى بمضايقة وإرهاق وإزعاج الانجليز فى الهند ، وبخاصة فيما يتعلق باحتكار تجارة الطيب معا •

وفى يوليو عام ١٦١٩ تم عقد معاهدة جوفاء بين الشركتين والتى وافقتا بمقتضاها أن تساعد كل منهما الأخرى ، وأن تقوم كل منهما بتجهيز عشرة سفن حربية فى الشرق لحماية التجارة •

وفى العام التالى أصبح سلوك الهولنديين غير محتمل حتى أن الشركة الانجليزية أعدت ست سفن حربية لحماية تجارتها ضد الهولنديين وكان هذا الأسطول الحربى تحت قيادة السير توماس ديل والكابتن باركر كمساعد للقائد • وسرعان ما حطم الهولنديون معاهدة ١٦١٩ التى لم يتوقف انتهاكهم لها يوما واحدا • وفى عام ١٦٢٠ طرد الانجليز ايانتور ، وفى عام ١٦٢٢ جهز الهولنديون المذبحة الشهيرة للإنجليز فى أمبونيا •

كانت المواجهة الأولى بين الإنجليز والبرتغاليين عام ١٦٢٠ فى الخليج • وفى عام ١٦٢١ كانت مهمة الوكالات الانجليزية بالهند تعزيز التجارة مع بلاد فارس التى كانت ذات أهمية كبرى ، غير أنه فى أعقاب تلك المعركة أبحر الانجليز نحو ساحل عمان ، وظلوا فى صور حيث انضمت إليهم سفينتان ، ثم بعد ذلك اتجهوا إلى سورات •

وفى ١٤ نوفمبر ١٦٢١ أصبح الأسطول التجارى تحت اشراف السير توماس دال ومعه بعض السفن الحربية ويتكون الأسطول من خمس بواخر وأربعة قوارب ، كانوا قد تركوا سورات إلى الخليج العربى ، ثم نقل الانجليز مركزهم من جاسك إلى مدينة جمبرون أو بندر عباس وهناك شيدوا مبنى قويا ، ثم حاول الانجليز إقامة حصن فى هرمز عام ١٦٢٦ لكن الشاه منعهم بسبب غيرته ، ولم يكف الفارسيون عن محاولة تواجدهم فى مسقط • وبدأ الخان أو حاكم شيراز استعداده للاستيلاء على

مسقط ١٦٣٢ ، وهنا بدأ الانجليز يحاولون إرضـــاء الخان ، وحاولوا منع الهولنديين من فرصـــة مساعدة الخان .

وفى انجلترا فى ذلك الوقت أهتم أفراد الشركة التجارية بالرحلات الخاصـــة إلى بلاد فارس ، وفى عام ١٦٣٩ أرسلوا الســـادة تورستون وبيرسى فى مهمة لإعادة فتح التجـــارة فى الخليج فى البصرة ، وهى المدينة التى لم تكن خارج أراضى الشـــاه فحسب ، ولكنها كانت من أكثر المدن وكان تأثير الأوربيين قويا عليها ، ووصلوا كونج فى إبريل ، والبصرة فى ٣١ مايو عام ١٦٤٠ ، وحصلوا على فرمان من الباشا يعطيهم امتيازا لم يقـــدم من قبلهم لأى دولـــة أخرى ، وكانت عينات الحمولة التجارية التى أخذوها معهم قليلة ، حيث كان الأسطول البرتغالى فى مسقط قـــد أغرق الأســـواق ببضائع مشابهة ، واقترح مستر ثورستون اقامة مركز لهم فى البصرة ومن المحتمل أنه قد فعل هـــذا .

وباستيلاء الهولنديين على ملاكه Malacca من البرتغاليين أصبحت لهم السيادة على مجموعة الجزر الهندية ، وبامتلاكهم ساحـــلا تجاريا فى الشرق بالإضافة إلى تجارتهم الكبيرة مع أوربا ، ازدادت أرباحهم بصورة عظيمة من نقل البضائع وخاصـــة التوابل من ميناـــاء إلى آخر ، واحتكروا نقل التوابل من الجزيرة العربيـــة إلى الصين ، وكانت هـــذه التجـــارة الساحلية على نفس درجـــة ربحهم من تجارتهم مع أوربا .

واعترفت معاهدة مونستر التى وقعها الأسبان عام ١٦٤٨ باستقلال هولندا ووافق الأسبان ـــ للظروف المخزية ـــ على أن يكفوا عن الدوران حـــول رأس الرجـــاء الصـــالح ، وأنهم سيستخـــدمون كيب هورن فى إبحارهم إلى الشرق .

ونعـــود إلى شئون مسقط فنجـــد نشاط الإمام ناصر فى الحكم ومحاولاته لإصلاح الأمـــور وزيادة قـــوة عمان .

تلك هى أسرة اليعاربة التى قبلت ودون تردد أية مواجهة لدعم مركزها فى البلاد • وبعد وفاة الإمام ناصر دون أن يترك أبناء أجتمع القضاة وأكابر البلاد ووجهاؤها فى الرستاق ، واختاروا ابن عمه سلطان بن سيف خليفة له وإماما ولم يحدث أى عداء ، وقبلت القبائل الكبرى والحكام القائد الجديد دون اعتراض •

وأظهرت معاهدة عام ١٦٤٨ بين الإمام ناصر والبرتغاليين أن السيطرة البرتغالية لمسقط قد أوشكت على النهاية وأنه من الضرورى بذل جهد موحد وقوى لتأكيد الانفجار النهائى ، وأدرك الإمام سلطان بن سيف فى الحال ضرورة وأهمية امتلاك قوة بحرية مساوية لقوة العدو قبل مهاجمة البرتغاليين ، وهكذا ازداد عدد الجنود ، وكذلك السفن الحربية للدفاع عن الشاطىء وحماية التجارة ، وما أن أوشكت سنة ١٦٤٩ على الانتهاء حتى كان الإمام سلطان قد أخذ على عاتقه قيادة آخر حملة تم تخطيطها ضد المستبدين الذين استولوا على الميناء الرئيسى ، وقلعة عمان فى تحد للعرب لمدة مائة وأربعين عاما •

وعندما دعا الإمام قومه للسلاح تجمعت القبائل خارج مطرح وهى على أهبة الاستعداد والتجهيز ، وتم الهجوم على مسقط والاستيلاء على إحدى الحاميات ، وفى ٢٨ يناير استسلم القائد ، وحينئذ كلف الإمام ابن بلعرب حاكم مسقط باعادة بناء الجزء المتهدم من سور المدينة ، وشجع ذلك الانتصار الإمام على مهاجمة الأعداء فى بلادهم فى نفس العام الذى سقطت فيه مسقط وتقدم الإمام سلطان بن سيف إلى جمبرون • وعندما بدأت أحوال البلاد تسوء أرسل حملة بحرية ضد البرتغال ، وقد استمر نمو قوة الإمام سلطان بن سيف لفترة من الوقت إلا أن البرتغال سرعان ما استردوا قوتهم بعد أن تحسن وضعهم إلى درجة كبيرة فى سنة ١٦٥١ •

كان الصراع بين الدول صراعا يـدور بين ما هـو مباشر وبين ما هو غـير مباشر ، ففى عهـد الإمـام سلطان بن سيف كان هناك نوع خفيف من التعاون ، وبعد وفاته ـ التى اختلف البعض فى تاريخ حدوثها ، ففى مذكرات السير إدوارد روس يقول إنه توفىَ فى ١٦ ذى القعدة سنة ١٠٩٠ هـ (٤ أكتوبر سنة ١٦٧٩) بينما يقول جـو بلان أنه توفى سنة ١٦٦٨ أو ١٦٦٩ فى حين يقول بادجر أنه توفى عام ١٦٦٨ .

وفى ١١ نوفمبر بالتحديد . وقد اختير بلعرب إماما دون معارضـة بعد وفاة والده ، وبعد مرور عامين من توليه أرسـل حملة ضد البرتغال فى ديو ، حيث ذكر الكسندر هاملتون فى كتاباته : « حوالى عام ١٦٧٠ جاء عرب مسقط فى أسطول تجارى ، ونزلوا بالليل فى غرب الجزيرة دون أن يكشفهم أحـد .. وعند طلوع النهار فتحت بوابات المدينـة ودخلوا إليها دون مقاومة » .

وعندما بدأ إنذار الناس بما حـدث لم ينج أحـد فى المدينة سوى من دخلوا بوابة القلعة ، ومن المحتمل حـدوث ذلك تحت قيـادة شقيق الإمـام سيف بن سلطان ، وربمـا كان عـرب مسقط فى نفس الوقت يخوضون قتالا آخـر ضد الفرس فى هرمز لمـدة ثلاثة شهور دون أن يتمكنوا من الاستيلاء عليها ، وطبقا للعادة السنوية أرسـل نائب الملك فى جـوا أسطولا قويا كى يكتسح المحيط الهندى مؤكـدا سيطرته وتفوقه البحرى ، وزار هـذا الأسطول مسقط عام ١٦٧٣ ، ولكن قائده لم يعجبه منظر المدفعية القوية للحصـون وخوفا من أن يشترك فى مبارزة معها ذهب عن طريق خليج سـداب الصغير وضرب أسـوار مسقط قبل أن ينسحب ، وعند انسحابه أعـد الإمام عشرة مراكب تجارية بتجهيزات حربيـة ، وفى ديسمبر التالى هاجم أسطول الجيش البرتغالى قرب ديو وكان محمـلا بالعديد من الأشياء المنهوبة والمختطفة التى أخذها العرب وحطموا الجـزء الأكبر منهـا .

فى ذلك الوقت كان يبدو أن هناك هدوءا مؤقتا فى حملات الإمام ، ومن المحتمل أن سبب هـذا الهدوء هو الاضطراب الذى سببته الحرب الأهلية التى قامت بين أشقاء بلعرب وسيف ، الذى تميز بحدة طباعه ، وكان السبب الرئيسى فى الاختلاف هـو الغيرة ، وانقسمت الدولة إلى معسكرين ، وبدأ كل من المعسكرين ينعت الآخـر بأحقر الألقاب ، ولكن سيف كان أكـثر إيجابية ، وكان ينظر إليه على أنـه الأفضـل والأكفأ للحـكم ، وسرعان ما حصل على التأييد القبلى من القبائل ، وأنهى الإمـام بلعرب حيـاته بنفسه عام ١٦٧٩ وإن لم يكن هـذا التاريخ مؤكدا •

وفى فبراير ١٦٧٤ أبحر أسطول الإمـام إلى بيسين فى البرتغال ، وأنزل إليها ستمائة رجل من الأقوياء ، ولكنهم لم يستطيعوا القيام بهجوم ضدها •

وأعقب وفاة بلعرب انتخاب سيف بن سلطان للإمامة وقـد ارتضته القبائل كلها بلا تردد • وكانت شعبية سيف فى ذلك الوقت كبيرة حيث اكتسب الإحترام ، ونال إعجاب العرب لشخصيته القوية المغامرة وصفاته كقائد وهى التى توافقت مـع روح المغـامرة المنتشرة بين العمانيين عن طريق الأمراء اليعاربة أنفسهم • وفى عهد الإمـام الجديد تركز الاهتمام على بنـاء الأسطول وتطويره من حيث القوة والعدد حتى وصـل إلى درجـة من القـوة لم يصل إليها العمانيون من قبل •

وجد الكثير فى أوراق هاملتون واوخنجتون عن عرب مسقط فى تلك الفترة •

وفى ذلك الوقت وقف التجار الإنجليز ضـد الإمـام سيف ، وحدثت بعض اعتداءات فى بداية عام ١٦٨٣ على إحـدى بواخر الشركة ، مما اضطر الشركة إلى إرسالها الى جـوا لإصلاحها •

وقد عرفنا أن العرب بصفة عامة كانوا ممتازين ، غير أنهم وضعوا فى موقف لا يحسدون عليه عام ١٦٩٣ فى سورات حيث حدث اضطراب وتفرق لأسطولهم ، وكان البرتغاليون يحاولون البحث عن وسيلة لتطوير تجارتهم والانتقام من العرب •

ولربما كان الإمام وقتها مشغولا بالشئون الداخلية للبلاد غير أنه كان مهتما أيضا ببناء السفن وتقويتها ، ففى عام ١٦٩٤ جدد الإمام أسطوله وأصبح قويا وأرسله فى عدة حملات ضد البرتغال فى الهند ، وبلاد فارس ، وإفريقية وإحدى حملات الأسطول على ذامون والتى أتوا فيها على ما فيها وأخذوا معهم حوالى ١٤٠٠ من الأسرى كعبيد ، ثم عادوا إلى مسقط •• وحاول الفرس إرسال حملة الى مسقط بمعاونة الانجليز ، ولكن الإنجليز رفضوا حيث إنهم كانوا يعلمون انهم سوف يغضبون الهولنديين لو فعلوا ذلك • فقد كانوا يريدون احتكار تجارة جمبرون ، ولكن عمليات الإمام سيف البحرية كانت تعوق التجارة إذ أن السواحل كانت عرضة لهجمات العرب •

وقد حذر الإمام أى بلد أوربى يساعد الفرس ضده ، وفى عام ١٦٩٥ أرسلت مسقط حملة إلى بارسالور وبنجلور وأماكن أخرى ، وعاد الأسطول بغنائم كثيرة متعددة •

وعلم الإمام فيما بعد من الكابتن داسيلفا أن البرتغاليين سيقومون مع الفرس بعملية حربية ضد مسقط ، وفى إبريل ١٦٩٧ استولوا على باخرة إنجليزية ، تسمى لندن ، تابعة لمستر أفلك من بومباى ، واحتجزوا أفرادها أثناء عملياتهم ضد البرتغال • ولم يقم الإمام بإرسال الباخرة الانجليزية إذ أخبرهم أنه اخذها مقابل إحدى بواخره التى سبق أن استولى عليها الانجليز ، وكان على استعداد لمحاربة الانجليز •

وقد تلقى الإمام نداءات من بعض البلاد لإنقاذهم من الحكم

البرتغالى مما جعـل الكثيرين منهم يسرون بمساعدته وإخراجهم من تلك المعاناة التى سببها لهم البرتغاليون • انكسر البرتغال — وبسط الإمـام نفوذه على ساحل زنجبار وعند عودته إلى مسقط وجـد الفوضى قد عمت البلاد التى استمرت نحـو ثلاثين عاما •

وفى بداية القرن الثامن عشر كانت القـوة البحرية لعمان لا تقل إن لم تزد عن القـوى الأخرى على امتداد شواطىء المحيط الهندى كمـا لم تكن تجارتهم فى الشرق فقط بل مع تجار أوربا أيضا فيمـا عدا البواخـر الانجليزية والهولندية الضخمـة التى تمتلكها شركـة الهنـد الشرقية ، ومازال الأسطول العربى يتحرك هنا وهناك مواجها كل شىء حتى دب الخوف والرعب فى نفوس البرتغال مما دفعهم إلى تقوية وزيادة معداتهم على طول الساحل الهندى • وكان أكثر مالفت نظر الإمـام هو جزيرة البحرين فى الخليج وبخاصـة صيد اللؤلؤ الذى كان يقـوم به الفرس •

وفى عام ١٧٠٤ كتب القائم بالأعمـال فى جمبرون تقريرا قال فيـه إن العرب يعوقون التجارة الانجليزية فى الخليج ، وبعد شهور قليلة كتب حاكم مدراس تقريرا ذكر فيه ان البواخـر العربية تطوقـه فى سـاحل كوروماندل ، ولقـد ذهب عرب مسقط إلى أبعد من ذلك باستيلائهم على باخرة انجليزية تخص الكابتن موريس الـذى أسر هو وطاقمه •

ويخبرنا لوكاير الذى كان بمسقط عام ١٧٠٥ أن العرب قد حسنوا المدينة بصورة عظيمة ، وكذلك الحصون بعد أن خلصوها من البرتغاليين وانهم — أى العرب — كانوا يمثلون رعبا لتجار الهند ، وأن سفنهم كانت تتزايد يوميا ، وقد بنوا بعض قواربهم فى سورات ، وبعضها فى نهر هندوس فى أماكن بناء السفن التى كان الإنجليز يعلمون عنها القليل • ويضيف قائلا انه شاهد بنفسه أربعة عشر سفينة حربية فى الميناء ، وانه علم أن العديد منها كان يطوف البحر بحثا عن سفن الأعداء وقد كانت أكبرها تضم سبعين مدفعا ،

وأقلها لم يكن يحتوى على أقل من عشرين • وبعد وصول لوكاير بفترة وجيزة أخذ العرب سفينة كلكتا الكبيرة ، والخاصة بكابتن مورفيل • وفى فبراير عام ١٧٠٧ سقطت سفينة التجارة الانجليزية ذى دياموند ، والتى كانت تربط بومباى بجمبرون فى أيدى العرب ، وأن هذه العملية وغيرها من عمليات الاستيلاء على السفن الفارسية الصغيرة أقلقت الحكومة للغاية حتى أن الشاه قرر أن يلح فى تعاون الإنجليز والهولنديين للوقوف ضد الإمام سيف الذى كان وقتها مهيمنا ومسيطرا على الخليج حيث كان يمتلك معظم الجزر ، ولإتمام تلك الخطة أرسل الشاه ميرزا ناصر مبعوثا إلى بومباى وأرسل مبعوثا آخر إلى باتافيا ، ولكن المبعوث الرئيسى كان إلى بومباى ، ووصلت تعليمات إلى القائم بالأعمال فى جمبرون بإرسال قوة بحرية للهجوم على عرب مسقط فور انتهاء الحرب فى أوربا •

وقد كان الإمام سيف بن سلطان اليعربى أعظم أمراء اليعاربة ، فقد حافظ على استمرار قوة الدولة ، كما جعلها من البلاد الغنية ، وقد كان طموحا محبا للمجد • وقد توفى فى الرستاق بعد فترة حكم دامت اثنين وثلاثين عاما فى ١٤ أكتوبر عام ١٧١١ حيث نصبت مقبرة لذكراه ، ولكنها تحطمت فى بداية القرن التاسع عشر ، وكانت الاضطرابات الداخلية قليلة جدا فى عهده ، وقد نشرت آراء وكتابات متعددة عن تلك الفترة ، ولكن معظمها يحتوى على معلومات ضئيلة غير موثوق بها •

وقد كان هناك قرصان مشهور باسم جون أوهنرى اغورب ، وكان هذا القرصان يحصل على ضريبة مرور من البواخر التى تعبر خارج أو داخل البحر الأحمر ، وكان يملك ستة وأربعين مدفعا ومعه مائة وثلاثون رجلا ، وكان قد اختار جزيرة بريم ناحية باب المندب قاعدة له ، ولكنه رحل إلى جزيرة سانت مارى فى الشمال الشرقى من مدغشقر ، حيث عاش القراصنة هناك ، ثم أحضروا الرجل الأسود لزراعة الأرض •

كان هذا القرصان يتحرك بين الهند وخليج عدن .. واستولى على باخرة ضخمة بها مائة وعشرة مدفعا تحت قيادة القبطان ابراهيم خان ، وقد كانت ملكا لتاجر من سورات ، وكانت تحمل بعض الحجاج إلى جدة . ويقال إنه كان عليها حوالى ألف وخمسمائة مسافر ، فاستولى على ما معهم من نقود وحلى ثمينة ، تبلغ قيمتها ربع مليون جنيه استرلينى كما كان بها مبلغ ٣٠٫٠٠٠ جنيه استرلينى وهى قيمة الضريبة التى كانت تدفع لشريف مكة ، كما أخذ فتاة ذات مكانة عالية كرهينة ومعها وصيفاتها ، وكذلك بعض الفتيات اللاتى تتراوح أعمارهن بين ١٢ و ١٨ عاما .. ورحل .

ونجح الإمام سيف فى الحكم بفضل ابنه الأكبر سلطان الذى أختير دون معارضة ، وواصل سلطان سياسة والده بحزم مستعدا ومواجها الحرب ضد الفرس والبرتغاليين ، كما حكم بين القبائل بالعدل والأمانة ، وإن الملاحظة التى تلفت النظر هى أنه حول مقر الحكم من الرستاق إلى الحزم ، حيث شيد حصنا يعتبر هو الحصن الثانى بعد حصن نزوى أقوى حصون عمـان، وقد تكلف بناء هذا الحصن كثيرا لدرجة الأقتراض من الوقف .. وتقع الحزم تحت سلسلة التلال التى تعرف بالحجر .

وكل ما نعرفه أن الإمام سلطان فى عام ١٧١٤ نزل إلى الساحل الهندى ، ونجح فى الاستيلاء على باخرة برتغالية كانت قد وصلت من الصين لكن الأسطول البرتغالى حاصره فيما بعد ، وبدأت الحرب فى ١٩ فبراير عام ١٧١٤ ويقال إنها استمرت فترة طويلة هزم فيها العرب . ولكن الإمام سلطان لم يضيع الوقت لإعداد وتجهيز أسطول آخر ليقوم بالعمليات ضد الأعداء واسترداد مركزه .

ويحدثنا هاملتون أن قوة الإمام البحرية عام ١٧١٥ كانت تتكون من باخرة بها أربعة وسبعون مدفعا ، ومن باخرتين بكل منهما ٦٠ مدفعا ، وباخرة أخرى تحمل خمسين مدفعا ، وثمانى عشر باخرة أخرى بكل منها من اثنى عشر

إلى اثنين وثلاثين مدفعا ، وبعض الزوارق بها من أربعة إلى ثمانية مدافع ، ويقال أن الإمام نشر الرعب على الساحل حتى البحر الأحمر ، ويذكر روس فى« تاريخ عمان » بأن السلطان هاجم البحرين وخاض حربا مع الفرس ، وكان الإمام سيف قد أخذ هذه الجزيرة من الفرس عام ١٧٠٠ ، ويبدو أن الإمام سلطان قد احتلها وجعل منها حامية .. وسقطت تدريجيا كل الجزر فى أيدى عرب مسقط بسبب تمزق الفرس فى تلك الفترة تحت الحكم الضعيف للشاه حسين الذى سمح للعرب بمواصلة نشاطاتهم الحربية .

وفى أوائل عام ١٧١٩ أبحر أسطول من جوا إلى كونج بإيعاز من شاه فارس بمعاونة البحرية البرتغالية ، وذلك للقيام بعملية حربية ضد عرب مسقط ، وعندما سمع الإمام سلطان بن سيف بذلك أعد العدة للمواجهة ، ولكن القدر لم يمهله حيث توفى فى نفس العام ١٧١٩ وإن كان روس فى كتاب « تاريخ عمان » يقول إن وفاته كانت عام ١٧١٨ .. وقد دفن بعد وفاته فى الحصن الذى أتمه بنفسه فى الحزم ، وكان قد اختـــاره مقـــرا لإقامتـــــه .

وبعد وفاة الإمام سلطان بن سيف ، فقدت عمان الشعور بالأمان والسلام إذ بدأت الاضطرابات الأسرية تتوالى ، فقد ترك الإمام سلطان العديد من الأبناء أكبرهم سيف الذى كان عمره اثنى عشر عاما ، وبذلك نجح فى أخذ مكان أبيه لكن صغر سنه لم يمكنه من ممارسة السياسة وشرعية الحكم لذلك أختاروا عمه مهنا بن سلطان أصغر أشقاء الإمام الميت وصيا عليه . وحاول مهنا الاستيلاء على الإمامة ولكنه لم يكن مقبولا عند بعض الناس ، وبعد الاستيلاء سمح بالتكامل التجارى والاستيراد الحر ، ولكن كل ذلك كان بلا جدوى ، وحتى النصر الذى حققه على البرتغاليين لم ينجح فى تغيير المصير الذى انتظره .

ولم يمض كثير من الوقت حتى أتى يعرب بن بلعرب ابن شقيقة مهنا مع بعض من رجاله وفتحت البوابات دون مقاومة . وكان الحاكم وقتها

هو سعود بن محمد الريامى ، والذى سرعان ما حاول الرجوع إلى مسقط للدفاع عنها بعد أن سمع بما فعله يعرب الذى حاصر قلعة الرستاق بقواته وكان مهنا يقيم فى هذه القلعة مع بعض أصدقائه ، وسرعان ما استسلم وأعلن يعرب بن بلعرب نفسه وصيا على ابن عمه الشاب سيف بن سلطان ، وعمل بحذر ، ولكن بقوة لا تعرف الكلل للحصول على ولاء القبائل وللسيطرة على كل الحصون الرئيسية فى المدينة •

وفى مايو ١٧٢٢ شعر يعرب بقوة كافية لكى يلقى جانبا قناع الوصى ، وأعلن نفسه إماما فى الرستاق ، ولكن تصرف يعرب هذا بإعلان نفسه إماما لم يقدم له ما يريده ، بل على العكس عجل بنهايته ، وجعل الأهالى يظلون على ولائهم وتمسكهم بالأمير الشاب سيف بن سلطان • وفى الرستاق وفى خلال أيام قليلة اضطر يعرب للتوجه إلى نزوى حيث وصلها فى يونيه •

وتآمرت مجموعة الرستاق مع بلعرب بن ناصر شقيق الإمام سلطان ابن سيف لخلع الإمام يعرب ، ولكن بلعرب الذى كان يقيم فى نزوى لم يضيع وقتا فى الحصول على تأييد قبيلة بنى هناة القوية فى المنطقة تاركا نزوى فى أغسطس • وسار بلعرب إلى الرستاق تسانده قبيلة بنى هناة القوية فى المنطقة الذين أشعلوا النيران فى القلعة وطردوا نبهان الوالى أو حاكم المدينة الذى كان مواليا للإمام يعرب •

وعندما علم يعرب ببدء بلعرب إعلان العداء تحرك من نزوى بقوة تبلغ أربعمائة رجل لاستعادة الرستاق ولكن هذه القوة لم تستطع التقدم أبعد من العوابى فى وادى بنى خروص ، واضطروا إلى التقهقر •

وعندما وصل الأمر إلى حمير بن منير الريامى والى مسقط بالاستسلام أطاع الأمر وكذلك فعل والى نخل ، وبعد أسابيع قليلة تحركت قوة من الرستاق تحت قيادة مالك بن سيف اليعربى الذى استولى على سمايل ثم

ازكى بالاتحاد مع بنى رواحه ولكن الإمام يعرب تحرك وحاصر مالك بن سيف ولكنه فوجىء بقوة من بنى هناة الذين وصلوا من الرستاق تحت قيادة على بن محمد ووسط رضاء عام من السكان أنتخب الأمير الشاب سيف ابن سلطان كثالث إمام فى نزوى والرستاق ، وأختير بلعرب فى الوقت نفسه وصيا عليه •

وبينما كانت الحوادث تجرى فى الرستاق توفى نائب الإمام يعرب ابن بلعرب فى نزوى فى ١٦ مارس ١٧٢٣ وقد قام محمد بن ناصر بتدعيم جيشه عند وصول القبائل الذين اعتمد عليهم فى مساعدته •

وبدأ ظهور حوالى أربعة آلاف من الرجال بواسطة قبائل الحزم والشعيين من جلفـــار تحت امره خميس بن منير الحولى بينما كان مائة وخمسون يتبعون بنى كعب وبنى كساب وقبائل أخرى •

ورأى محمد بن ناصر أن قوة مسقط وبركا لم تكن على مايرام ، فأمر بلعرب بن ناصر ليتأكد من ذلك ، وكانت هاتان القوتان قد خفتا عن طريق بنى هناة ، وكان والى مسقط يومئذ هو جابر بن مرشد اليعربى الذى انتقل بعد ذلك إلى ينقل • وقد أخذ مكانه خلف بن مبارك الهناوى ، وترك خلف مسقط إلى بركا فى انتظار الوالى على بن محمد الخروصى الذى سرعان ما ثبت أقدامه فى بركا •

واستمر الصراع بين خلف الذى طلب مساعدة القبائل التابعة لبنى هناة بينما ظل محمد يحاصر بركا لمدة أربعة شهور ، ولكنه كان فى حاجة إلى طعام ، لكى يستمر ، وعند عودته إلى الرستاق أصيب بالجدرى مما سبب وفاته ، وقبل ذلك بشهرين خرج من مقنيات فى الظاهرة ، ومعه الإمام الصغير محمد بن ناصر الغافرى للمساعدة •

وتحرك محمد على رأس قوة ضخمة نحو الحزم ، وهاجم خلف بشدة مما سبب تشتت المجموعات الخاصة بخلف •

ثم انتقل محمد ورجاله لإحراز انتصارات على بعض البلاد بينما جمع خلف رجالا من المعاول ومن قبائل أخرى ليقوم بعمليات حربية ضد خصومه فى وادى سمايل ونخل دون احراز نتيجة حاسمة ، إلا أنه صار له وضع بين بنى رواحة والدهمية ــ واستمر يناضل حتى هزم ، وهرب إلى أبرا حيث اتصل بالحرث ، إحدى القبائل الهامة فى الشرقية ، لكنها لم تكن قادرة على مقاومة جيش محمد بن ناصر الذى اتجه نحو الظاهرة ، ومنها تابع سيره إلى وادى الجزى ثم إلى الباطنة ، حيث تغلب على القبائل اليمنية ، وكان خلف بن مبارك فى مسقط عندما سمع بتحركات محمد الجديدة فجمع قوة ، واتجه نحو الشمال لمواجهته إلى أن حدث تصادم عند فلج العرار حيث تمت هزيمة خلف وتبعثر جيشه • وقاد محمد جيشه إلى الرستاق التى استسلمت ، ثم تركها إلى مقنيات حيث وافق على أن يكون محمد بن سعيد بن بدر واليـــا على المدينة •

وبعد عودته إلى أبرا كان يشغل ذهنه تنحية الإمام سيف بن سلطان والاستيلاء على الإمامة ، واستمر لفترة يخطط لمـــا يدور فى ذهنه . فبعث برسل إلى جميع مناطق عمان وقبل اجتماع الشيوخ ، اجتمع هو بالقاضى ابن ناصر والوالى عبد الله بن محمد بن راشد وأبدى رغبته فى أن يكون وليـــا على سيف بن سلطان •

ونجحت الحبكة الرئيسية فى الخطة بأن طلب القاضى بن ناصر أن يكون محمد بن ناصر الغافرى إماما •• وذلك فى ٢ أكتوبر عام ١٧٢٤ •

وكانت الحرب الأهلية علامة من علامات التاريخ العمانى فى تلك الفترة بعد تولى محمد بن ناصر الغافرى الإمامة • وانقسمت عمان إلى قسمين : الهناوية فى جنب ، والغافرية فى الجنب الآخر •• وقد بقيت القبيلتـــان الرئيسيتان فى عمان حتى أيامنا هذه وعن الحرب الأهلية فى عمان يقول الكولونيل السير ادوارد روس فى مذكراته :

« وكما هو مسجل فى « تاريخ عمان » فقد كانت الحرب الأهلية صعبة للغـــاية بين الغافرية والهناوية ، وهذا ما اهتم به الكتاب الأوربيون بين القبيلتين فى عمان ، ومازال الاهتمام به حتى يومنا هذا اذ مازالت القبيلتان فى توازن ، الغافرية فى الغرب ، والهناوية فى الشرق » .

وأصبح محمد بن ناصر هو سيد الموقف بعد انتخابه ، لكن ما كان يزعجه أحيانا هو عدوه خلف بن مبارك الذى كان على استعداد للمواجهة دائما ، وفى بعض الأحيان كان محمد يضطر إلى وقف بعض الاضطرابات التى تحدث فى بركة الوز أو تنوف أو أزكى أو سمائل وأماكن أخرى . وفى الشمال كان هناك الظاهرة ، وهناك ضنك وينقل .. وفى الباطنة كان لابد من تدعيم سلطته حتى يتمكن من وقف خلف بن مبارك الذى كان فى طريقه من مسقط إلى الرستاق ليجمع الفرق .. ولكن الحقيقة هى أنه لم يكن باستطاعة خلف بن مبارك مواجهة محمد ، ولكن ربما كان خلف بن مبارك سببا فى الاضطرابات والمشاغبات التى كانت تسببها قبائل البدو من اليمنيين والتى كانت سببا فى كثير من الإزعاج وعدم الأمان .

وكان الشيخ سيف بن سلطان هو الشخص القريب والمرافق الدائم لمحمد بن ناصر ، حتى انه لم يتركه يسير بمفرده ، وإن كان يسبب له بعض المشاكل ، ولكن تنقله هذا أفاده كثيرا ، ففى نهاية عام ١٧٢٨ جمع الإمام قوة ضخمة من القبائل فى الشمال ــ وقد كان اعتماده دائمـــا على تلك القبائل ــ واتجه إلى صحار (وهى احدى البلاد الثلاث ــ مسقط ــ بركا) المستقلين عنه ، وعندما سمع عدوه خلف بذلك تهيأ للدفاع عن صحار .. وصار كل منهما يضع الخطط لمواجهة الآخر ، إلا أن محمد بن ناصر أصيب فى صدره وتوفاه الله .. ومن المعروف أنه قد أخفى ذلك عن رجاله لمدة ثلاثة أيام ، وفى مارس عام ١٧٢٨ وبعد شهر من وفاة الإمام الشجاع محمد بن ناصر ، فقدت عمان أيضا ممباسا وأسر أحد رجالها المفضلين فقد أخذه البرتغاليون ووضعوه فى السجن لمدة ثلاث سنوات .

وفى عام ١٧٣١ تقريبا بدأت البرتغال فى استفزاز العمانيين ، فأرسل الإمام سيف بن سلطان حملة من ثلاث بواخر تحت قيادة محمد بن سعيد العميرى الذى انتصر بعد مواجهة صعبة للغاية •• ويتحدث بعض الناس عن هذه المعركة حتى الآن • وتم انتخاب سيف بن سلطان إماما للمرة الرابعة عام ١٧٢٨ بأغلبية كبيرة • وفى الوقت ذاته حاول ابنه بلعرب بن حمير اليعربى أن ينافسه فى انتخابات الإمامة وسرعان ما ذهب إلى نزوى لكى يجهز جيشا لذلك الغرض • وذهب سيف إلى نزوى وطلب ممن يحتلون الحصن أن يخلوه ، ولكن ياسر بن عمير بن راشد الحارثى رفض ترك الحصن فاتجه سيف إلى وادى المعاول وطلب ولاء قبيلته ثم أرسل عمر سيف بن ناصر لمفاوضة بنى هناة • وبناء على رغبة الإمام فى المحافظة على المنطقة قدموا له موقعا عسكريا كان خلف بن مبارك قد تخلى عنه فى مسقط •• وذلك كى يكون مقرا لإقامته • ثم أرسل الإمام سيف شقيقه بلعرب بن سلطان على رأس قوة لمساعدة القبيلة ضد خصومها ، وخسر بنو رواحة المعركة ، وتحولوا إلى بلعرب بن حمير •

هنا بدأ بلعرب بن سلطان عمليات حربية أخرى بعد عودته وانتصاره فى نزوى ثم تحول إلى أماكن أخرى • وقد كان لاستمرار الصراع نتيجة سيئة بحيث أضعف السلطة ومزقها •• لكن وضع بلعرب استمر موضع تقدير وإعجاب فأسطول عرب مسقط كان يحظى بالاحترام من الهنود ومن غيرهم وعلى طول الساحل الفارسى وكذلك من الأوربيين •

وقام الإمام سيف بإرسال أخيه بلعرب بن سلطان على رأس حملة ، ولكنه عندما علم بهزيمة أخيه فى معركة الجـــو التى كسبها بلعرب بن حمير بدأ يفكر فى أشياء أخرى كانت تدور فى ذهنه عن أهله ونسله وما يتمنى عمـــله • ولم يبق بلعرب بن حمير كثيرا فى موقفه الدفاعى فى نزوى ، فسرعان ما جمع بعض الرجال من القبائل وتقدم لمواجهة عدوه وذلك فى

فلج السمين ، لكنه عاد إلى نزوى مهزوما ، ولكنه حاول أن يقوم بإعداد معسكره إعدادا قويا كى يجعله مستعدا لمواجهة الأحداث .

وبعد المعركة دفعت القوات من طواح إلى ابرا ، وقاموا بنهب المواطنين فى الظاهرة ، فغضب الإمام من ذلك السلوك وتشاجر مع القائد وأبعد الفرقة .. ثم توجه الإمام سيف أول الأمر إلى بهلا وعسكر فيها وأشار بأن يكون الشيخ سليم بن خميس الغافرى واليا ثم انتقل إلى طيسا ورفض نزوى حيث كان بلعرب بن حمير فى انتظاره لمواجهته .. وجعل طريقه أزكى ثم وادى سمايل ثم مسقط .

وفى عام ١٧٣٩ كان والى ممباسا هو صالح بن سعيد الحضرمى ، والذى أصبح واليا بواسطة محمد بن عثمان المزروعى ، والذى ينحدر أصله ممن حكموا ممباسا منذ حوالى قرن . وقد نصح بعض الأصدقاء بلعرب بن حمير بأن يحاول الحصول على الإمامة وخاصة بعد أن هزم الفرس بنى غافر عام ١٧٣٧ ، وكذلك سيف بن سلطان الذى لم تكن لديه المقدرة على الاستمرار والكفاح ، كذلك فقد استبعدت القبائل ، ومازال هناك أربع قلاع هى مسقط ــ الرستاق ــ بركا ــ صحار ــ لكن سرعان ما أفاق الناس فى أواخر عام ١٧٤١ .. وفى عام ١٧٤٢ اجتمع الشيوخ والقضاة فى نزوى وسمايل ونخل فى فبراير ١٧٤٢ وقاموا بانتخاب سلطان بن مرشد ــ حفيد سيف بن سلطان ــ إماما بدلا من سيف .

وفور توليه اتجه الإمام الجديد إلى الرستاق وبعد فترة من الصراع رأى سيف أنه لابد من مساعدة الفرس وأرسل بعثة استقبلها نادر شاه عام ١٧٤٢ والذى كان قد عاد من الهند عام ١٧٤٠ بعد انتصار سهل .. وكان يفكر فى زيادة الثروة بتشجيع التجارة الخارجية ، وبعد ذلك أعطى نادر شاه أوامره للحاكم العام فى فارس ميرزا محمد تقى خان لإعداد حملة لغزو عمان ، وذلك بالاستيلاء على مسقط ثم البصرة ، وهما المركزان التجاريان

الهامان فى الخليج • وكان هناك سيف بن سلطان وميرزا محمد تقى خان الذى استعد بسرعة لعملية حربية ، فأرسل بعض الفرق تحت قيادة ميرزا على خان إلى صحار بعد أن زوده بتعليماته ، لكنه عند بدء العملية وجد مقاومة شديدة ، وعاد بعد خسارة ضخمة ، وكذلك عندما توجه ميرزا على خان ببواخره الضخمة إلى مسقط حيث رسا فيها وحمل التجار العرب والهنود ممتلكاتهم ورحلوا • وعندما فتح الأسطول الفارسى النيران لم يتحملوا الشراسة وقوة الدفاع فعادوا إلى صحار •

ومرة ثانية فكر ميرزا محمد تقى خان فى غزو مسقط التى فتحت أبوابها ودخلها الجنود الفرس دون أية مقاومة ، لكن قبائل مسقط قامت بالتقتيل فيهم والاستيلاء على بعض ما بقى معهم وذلك تحت قيادة الإمام • لكن ميرزا محمد تقى خان أعد أسطولا ضخما ، وأحكم خطط الهجوم والغزو على مسقط ونجح فى الاستيلاء على مسقط والحصون الأخرى ودارت معركة شرسة انسحب على أثرها الإمام سلطان إلى صحار وقتل هنـــاك وهنا اعتبر سيف بن سلطان أن ماحدث خزى وعار ، وحاول الاتصال لطلب المساعدة ممن كان قد ساعدهم فى الدفاع عنهم ضد الفرس ، وفى نهاية العام ١٧٤٣ وبداية عام ١٧٤٤ بدأ يفقد الأمل فى صحار إلى أن حصل على تصريح نادر شاه بالعودة ، وبناء على المحادثات مع أحمد بن سعيد على أن يضع بركا وصحار تحت إمرته ، لكنه رأى أنها سلطة غير حقيقية مثل بلعرب فى الرستاق ، وعاد ميرزا محمد تقى خان إلى بندر عباس ومعه بواخره ثم إلى شيراز •

ثم دار الصراع بين المتنافسين لبضع سنوات وأصبح بلعرب هو الحاكم الحقيقى ، وهذا يتساوى مع تأثير اليعاربة وقدرتهم المكتسبة عام ١٧٤٧ ، ومضت سنتان قبل أن يفكر الإمام فى أية عمليات حربية جديدة ، بينما جمع أحمد جيشا تحرك به ضد بلعرب بن حمير الذى عسكر فى الجبل الأخضر ، وفى تلك الحملة وقف بلعرب مدافعا •• وكان الصراع الأخير

فى نهاية عام ١٧٤٩ حيث كان هجوم أحمد ناجحا تماما .. وتفـــرق الغافرية .. وتتبع هلال بن أحمد بلعرب بن حمير .. وطبقا لمـا يذكره جويلان فقد كانت المعركة فى وادى المعاول ، ولم يبق من أسرة اليعاربة غير محمد بن سليمان الذى كان يعارض ويحاول إضعاف سلطة أحمد بن سعيد . ولكنه فى النهاية رضى بأن يعيش حياته بلا أية مسئوليات ، لكى يتمتع بها بعيدا عن تلك الأجواء من المغامرات السياسية والحربية .

الفصل الخامس

(أسرة آل بوسعيد)

كانت أسرة اليعاربة من أقوى الأسر التى شهدتها عمـــان ، فقد كان حكام تلك الأسرة من أقوى الأمراء الذين استطاعوا أن يجعلوا البلاد تعيش فى حالة من الرخـــاء والازدهار ، لم تكن قد عاشتها من قبل ، ولكن أسرة اليعاربة سقطت سريعا بسبب مغامرات هؤلاء الأمراء ، الذين رغم أنهم قد جلبوا للبلاد الخير الكثير .. إلا أنهم سببوا لها الاضرار أيضـــا .. وكان ذلك عام ١٧٤٩ .

وبعد انتهاء الحرب الأهلية بآلامها استطاع السيد أحمد بن سعيد أن يلتفت إلى إدارة شئون البلاد ونصب نفسه سيدا للرستاق ، التى كانت عاصمة لعمان على مدى قرن وربع القرن ، وسيطر على جميع القلاع وبيت المال ، ثم قام بنفسه بتعيين حكام للحصون الرئيسية فى نزوى وبهلا وأزكى وسمايل ، وحكم بيد قوية لكى يوقف ذلك الفســـاد الذى عم البلاد ، وغير بعضا من أفراد أسرته بآخرين من العبيد الافريقيين الـــذين رأى فيهم الأمانة والإخلاص .وبعد أن تمكن الســـيد أحمـــد بن سعيد من فرض سيطرته وقوته أراد أن يثبت مركزه فتزوج من ابنة الإمام السابق سيف ابن سلطان .

وهكذا .. وبعد سقوط أسرة اليعاربة ، ظهرت أسرة آل بوسعيد ، وأصبح شعب عمـــان تحت القيادة الحكيمة للسيد أحمـــد بن سعيد ، الذى كانت علاقاته التجارية قوية مع الكثير من الدول ، وبذلك أفاقت عمـــان من الاكتئاب الشـــديد الذى سببه الاحتلال الفارسى .

وبدأ الإمام يفكـــر فى تشجيع التجارة البحرية الخاصـــة بالتجـــار

العمانيين والذين زادت اتصالاتهم بالموانى الأخرى غير موانى الخليج مثل غرب الهند ، وموريشيوس ، والبحر الأحمر وغرب افريقيا .. والتفت الإمام إلى مستعمراته فى إفريقيا ، والاهتمام بهـا وذلك لتعزيز مكانته وكسب احترام الآخرين فأرسل فى عام ١٧٥٠ بعض بواخره إلى موانىء ممباسا وكلوة وزنجبار .

ورغم ذلك لم تتطور التجارة وذلك لاعتبارات هامة ، إذ كانت التجارة الرئيسية هى تجارة العبيد ، والعاج ، والصمغ وأخشـاب السفن ، وقد كان رخـاء عمان الاقتصادى مرتبطا بالأمن الذى يشعر به الملاحـون فى المحيط الهندى وذلك اثر تحطيم الأدميرال ويلسون لسفن القراصنة ، والتى كانت تعوق طرق التجارة لفترة كبيرة .

ففى عام ١٦٤٣ كان الشاطىء الهندى بجـوار راجبور خاضعا لأحـد القراصنة وهو ساهوجى راجا ، وقد قتل معظم طاقمه وقائدهم وكان ضمن ما نجوا سامبو ، وهو نصف عربى ، يتميز بشجاعة نادرة مما ساعده على خوض المغامرات فجعل من نفسـه قرصانا مستقلا ، وقـد قتله المغـول عام ١٦٧٥ ، ولكنه ترك ابنه بورا الذى نجح فى مواصلة أعمال والده ، وتم قتله عام ١٦٨٦ ، وترك بورا ولدا وقحا وجريئا هـو ابنه كانوجا الذى بدأ يزعج الانجليز عام ١٧١٦ ، مما دعاهم إلى إرسال عدد من الحملات ضده من بومباى ، وقد كانت لكانوجا هـذا شهرة ومكانة قوية حتى انه قـاوم شركة الهند الشرقية واستطاع أن يقف أمامها .

وقد توفى كانوجا عـام ١٧٤٠ تاركا ولدين هما سامبوب وبالوجى ، وكان كلاهما يسبب الرعب لجميع التجار . وكانت نهايتهما عام ١٧٥٦ على أيدى الادميرال داتسـون والكولونيل كلايف ، عندما استوليا على جوريه وحطما أسطول القراصنة ، وقد فرح تجار مسقط كثيرا حين علموا بالخبر .

وعندما تولى السيد أحمد بن سعيد الإمامة اتبع سياسة سلالته اليعاربة بعدم السماح للانجليز ببناء مراكز فى مسقط ، وجرت محادثات على فترات متقطعة بهذا الشأن ، وقد كان تعامله مع الهولنديين والفرنسيين بنفس الطريقة •

وقد ظهر الفرنسيون على مسرح التعامل السياسى مع مسقط بعد أن أصبح لهم تعامل تجارى فى الخليج قبل أوائل القرن الثامن عشر بعدما صارت لهم وكالة فى البصرة •

وفى تلك الفترة كانت البواخر الفرنسية تزور مسقط ، وبذلك نشأت علاقات صداقة مع عمان ، وقد تم الاتصال السياسى لأول مرة عام ١٧٤٩ عندما كان السيد أحمد بن سعيد يقيم فى أفى •

وفى الفترة ما بين ١٧٥٨ — ١٧٥٩ ازدادت قوته وسيطرته على القبائل العمانية ، واستطاع القيام بعمليات فى صور حيث كان القواسم الذين كانوا يمثلون الساحل الفارسى من جمبرون إلى رأس بردستان ، وكان الحاكم وقتها هو الشيخ راشد بن مطر الذى كان يقيم فى جلفار أو رأس الخيمة ، وقد سار الإمام إلى خصب حيث استسلم الشيخ حسن بن عبد الله ، وعندما علم الإمام بتمرد اليعاربة فى الشرقية أمر خلفان بن محمد بالاتجاه إلى جلفار بكل بواخره بادئا بجعلان ، وتم قمع التمرد بيد قوية ، وعند عودته أرسل إليه بعض الضباط الأذكياء ، واتصل بعلى ابن سيف ثم أرسله ومعه أربع بواخر وعشرة مراكب إلى صور لمحاصرتها ، وكان هذا هو السبب فى وقف عمليات صيد اللؤلؤ •

وبعد ١٧٦٢ اتجه الشيخ صقر وعمه عبد الله ومحمود بن على إلى الرستاق ليتفاوض مع الإمام لترتيب رحيل الأسطول على أن يكون ميناء

القواسم مستقلا عن سلطة الإمـــام • وفى عام ١٧٦١ وصلت حملـــة فرنسية من ميناء لويس إلى مسقط يقودها الكونت ديستان يصاحبه الكونت لاللى إلى الهند ، وحاصرهم الانجليز فى نوفمبر ١٧٥٨ وأخـــذ الكونت ديستان سجينا ، وتم ارســـاله إلى انجلترا ، ثم أطلق سراحه بعـــد أن قطع على نفســـه عهدا ، ولكن بعد عودته إلى فرنسا لم يحترم ذلك العهد واتجـــه إلى موريشيوس للانتقام من الانجليز عن طريق حملة تفســـد تجارتهم إلى الخليج • وفى مسقط تجاهل الكونت ديستان القوانين بمهاجمته باخرة انجليزية ، لكن الوالى خلفان بن محمد أطلق النـــار على الباخرة بولونى الخاصـــة بالكونت ديستان وأبعدها بعد أن أنقذ الباخرة الانجليزية •

وربما كانت تلك الفترة هى تاريخ أول تعامـــل تجـــارى بين مسقط وموريشيوس حيث وصلت أول باخرة تجارية من الجريزة إلى مسقط فى فترة حكم الإمـــام أحمـــد ، واستمرت التجارة إلى ما يقرب من خمسين عاما • وكانت السلعة الرئيسية المصـــدرة إلى الجريزة هى السكر ، بينما كانت تستور فى المقابل السمك المملح والتمر والبن ، وكان الحـــاكم م • مالرتيك قـــد اعتاد إرسال هدايا من المدافـــع والبارود إلى الإمـــام الذى أرسل إليه بعض الهدايا المناسبة ردا على هداياه •

وفى نهاية عام ١٧٦٩ طلب كريم خان من الإمام أحمـــد باخرة ضخمة كان قـــد اشتراها أخيرا من حاكم هرمز باعتبار أن الباخرة تابعة للفرس ولكن الإمـــام رفض •

وفى حوالى ١٧٧٢ اندلعت نيران الحرب مع فارس ، وكان يعاون الإمام الشيخ راشـــد وخلفان بن محمد حاكم مسقط ، وأثناء الحرب رفض الإمام شروط الفرس وذهبت حملة أرسلها إلى البصرة •

وفى أواخر عام ١٧٧٤ شعر فارس كريم خان بالغيرة لازدياد أهمية

البصرة ، إذ تحولت التجارة من بندر عباس ومن موانىء فارسية أخرى ، لذلك أعلن الشاه الحرب على تركيا كمحاولة للاستيلاء على البصرة ، التى أرسل حاكمها سليمان أغا تقريرا عن ذلك إلى عمر أغا والى بغداد ، الذى كان فى موقف حرج بخصوص تلبية نداء المساعدة ، فأرسل رسالة سريعة يناشد إمام عمان أن يبعث بأسطول قوى لمواجهة الفرس والدفاع عن البصرة ، فوعد بإرسال اسطول لمساعدة الأتراك ، وفى أثناء حصار البصرة أبدى الإمام استعداده لتنفيذ ما وعد به عمر باشا ، فاستكمل معداته الحربية بمسقط ، وفى منتصف أغسطس ١٧٧٥ أصبح كل شىء معدا تحت إشراف الإمام نفسه •

وفى ١١ سبتمبر مر الأسطول فى مياه بوشهر ثم أرسى فى شط العرب ، وكانت تلك الحملة الباهظة التكاليف التى أمر بها الإمام بسبب علاقته المتينة مع الأتراك ، الذين ساعدوه أثناء محاولة تقى خان غزو بلاده ، حيث أنه كان فى حالة حرب مع الفرس ، غير أن هذا لم يمنع شعوره بعدم الارتياح بسبب ضعف الأتراك وقوة الفرس • وبعد أن تحرك الفرس عبر البحر هوجم الأسطول تحت قيادة الشيخ ناصر حاكم بوشهر ، وأغرقت المراكب الفارسية وكانت أمنية سليمان أغا مع من اتحد معهم فى مسقط أن يجبر صادق خان على رفع الحصار والابتعاد • ثم حاول الإمام أن يتوسط للصلح بين القوتين ، بينما أرسل حيدر بك مبعوثا إلى فارس •

وقد فكر الإمام بجدية فى إرسال ابنه سعيد إلى كريم خان ليضمن السلام للأتراك وله أيضا ، ولم يتم تنفيذ ذلك ، وعاد بأسطوله إلى مسقط عام ١٧٧٥ • وكان من المحتمل فى ذلك الوقت أن يرسل الإمام البارجة الرحمانى إلى منجلور ليعرف سبب منع تصدير الأرز ، وأرسل حيدر بك مبعوثه الخاص شارحا سبب عدم شحن الأرز إلى الموانىء الأجنبية • وبعد فترة من الزمن أرسل حيدر بك مبعوثا ببعض البيانات لتوقيع معاهدة مع الإمام على أن يبقى هو كممثل سياسى ، وعلى ذلك بنى بيتا للوكالة

فى مسقط ، وهـو موجود حتى اليوم تحت اسم بيت النواب ، وفى حوالى عام ١٧٧٨ بدأت الحرب بين الإمام والقواسم بسبب بعض البواخر الفارسية التى تم الاستيلاء عليها ، وبسرعة تم الاتصال بالشيخ ناصر فى بوشهر وعادت بواخرهم إلى نشاطها فى الخليج .

ومضت السنون بين حالات حرب ودفاع وصراع ومصالحة حتى جاءت سنة ١٧٨٥ وتحمل الإمام الاعباء والآلام ولكن كان أكثر ما آلمه هى تلك المشاكل التى وقعت بين أبنائه .

وكان هناك عدد من القراصنة من جنسيات متعددة غير أن أحد هؤلاء ربمـا كان من الفرنسيين ذهب ببحارته إلى مسقط للاستجمام ، فأمره الإمام فى الحـال بالابتعاد وأخذ طاقم البحارة كسجناء . وكانت أعمال الفرنسيين قد سببت جرحا عميقا للإمام .. إذ أنه كان يعاملهم باحترام ويشعر نحوهم بالصداقة ، وكم من المساعدات الطبية قدمها لهم ، ولكن تصرفاتهم وسلوكهم كان لها تأثير سيء على العلاقة بين الدولتين .

وأرسـل الإمـام فى الحال رسالـة احتجاج شـديدة اللهجة إلى موريشيوس ، وكذلك إلى الحكومة الفرنسية عن طريق صديقه مسيو . ج . ف . روسـو ، وأيضا إلى القنصل الفرنسى العام فى بغداد .

ونعـود إلى شهر فبراير عام ١٧٨١ حيث أقام السيد سيف والسيد سلطان فى قلعة النعمان الصغيرة بالقرب من بركا ، ثم ذهبا إلى مسقط مع مجموعـة صغيرة ، وطلبوا الدخـول إلى مسقط ، فسمح لهما الحاكم الذى كان يدرك أنهما من أبناء الإمام أحمـد ، ولكنهما سرعان ما سيطرا على قلعتى الميرانى والجلالى ، وعندما توجـه الوالى اليهما وطلب منهمـا اخلاء الحصنين أطلقا النيران عليه ، وعاد الإمام وطلب منهما العودة إلى الطاعة لكنهما أرسـلا خطابات إلى الشيخ صقر القاسمى يطلبان مساعدته ،

وبدلا من أن يذهب اليهما فى مسقط اتجه إلى العاصمة ، وقابل بعض رجال القبائل فى طريقه ، وذلك فى إبريل عام ١٧٨١ ، وهنا وجه الإمام تحذيرا للقواسم حول ذلك الاجراء ، وعقد معاهدة سلام مع أبنائه ، ووافق على أن يكون لكل منهما حصنه •

وعندما توفى الإمام أجتمع القضاه والشيوخ فى الرستاق طبقا لما هو معمول به للتعبير عن الشعور نحو الإمام المرشح ، وتم انتخاب الابن الثانى له — السيد سعيد — دون معارضة أو اعتراض من أعضاء العائلة ، واتخذ من الرستاق عاصمة له لتولى شئون الادارة ، وكذلك كل الحصون التى كانت تحت سيطرة الإمام أحمد ، وأما حصون هرمز ونخل وصحار فقد ظلت فى أيدى محمد بن سليمان وقيس وهما من اليعاربة •

وهنا صارت البلاد فى حالة ضعف ولم تكن إدارتها قوية تحت حكم الإمام سعيد ، وأدرك أخواه سيف وسلطان الخطورة التى تحيط بالبلاد ، فاتصلا بالشيخ صقر القاسمى ليساعدهما فى اقصاء الإمام سعيد عن الإمامة ، وفى عام ١٧٨٤ التحم الشيخ صقر بقبائل الشمال وأحاط بالحمرا ، والشارقة ورمس وخورفكان •

وحدثت بعض الصراعات والتغييرات فى عهد الأخوين سيف وسلطان الذى أبحر إلى جواذر وساحل مكران ومنها إلى كلات للاتصال بناصر خان ، فاستقبله الحاكم البلوشى ولايزال هذا الميناء تابعا لمسقط • ثم وصلت مسقط ثلاث بوارج فرنسية من موريشيوس وغادرتها فى يونية من نفس العام ، وقابل الكونت دى روسلى — قائد أحد البوارج — الوالى محمد خلفان ليحصل من الإمام على مرسوم لبناء مستودع فى مسقط ، بواسطة الشركة الفرنسية غرب الهند ، ولكن الإمام رفض الطلب ، فغادر الكونت مسقط بسفينته مبحرا إلى الخليج وزار البصرة وبوشهر •

وفى نهاية عام ١٧٨٥ اجتمع عدد من القضاة والشيوخ فى المصنعة على ساحل الباطنة وانتخبوا قيس بن أحمد شقيق الإمام خلفا له ، ثم حدثت بعض الصراعات بعد ذلك .

ويقول الكابتن خرانكلين إن العرب لم يسمحوا للأوربيين ببناء أى مركز أو مستودع ، ويضيف المؤرخ ابن رزيق من خلال كتاباته أن الابن الأكبر لسعيد الإمام السابق أصبحت له المدينة وحصن مسقط من محمد ابن خلفان ، ثم صارت له حصون عمان تباعا ، وفى خلال ثلاث سنوات تمركزت القوة فى أيدى ابن الإمام ، فأدار شئون البلاد بحزم ، وفى تلك الفترة كان للقواسم نشاط كبير فى الخليج ، وكانوا فى حرب مع الاطوبيين الذين أخذوا جزيرة البحرين من الفرس ثم استرد الشيخ صقر الجزيرة بمعاونة الفرس .وفى عام ١٧٨٧ اندلعت نيران الحرب بين القواسم والإمام برا وبحرا ، وكان محمد بن خلفان يقود الأسطول ، بينما نجح حمد فى استرداد خورفكان وجزيرة الحمرا ، وضرب حصارا حول رمس ، ثم عاد تاركا الأسطول فى عملياته ضد جلفار .

ونعود إلى سلطان وقبيلته البوسعيد وهى أسرة يمنية أو هناوية ، لقد كان اعتماده عليها ، وها هو ذا قد وصل إلى عمان بترتيبات من بنى جابر وبعض قبائل الغافرية فى الخليج الشمالى وهناك هجموا على الحصن ، وسرعان ما جمع حمد قوة واتجه إلى سمايل حيث كان عمه فى وضع طيب حسن ، وأمر حمد فرقه بالانتشار ثم ذهب إلى الرستاق ليرى والده .

وفى عام ١٧٩١ ، ١٧٩٢ كان كل اهتمام حمد بالحملات الحربية وإعداد أسطول بواخر للنقل ، وفى مسقط واقته المنية عام ١٧٩٣ بسبب اصابته بالجدرى ، وبوفاته تحولت شئون البلاد ليد الإمام سعيد ، غير أن سلطان كان يراقب الأحداث كى ينتهز الفرصة لتحقيق رغباته ، فبعد

وفاة حمد جمع إلى جانبه محمد ناصر الجابرى وبعض الحلفاء حتى أصبح سيد مسقط دون مقاومة .

وقد ولد سلطان حوالى ١٧٥٥ ، ربما فى الرستاق ، وفى طفولته أرسل إلى آدم ، حيث قضى فترة البداوة . ويقال إن له عظمة النبلاء . وآن لديه القدرة على الحكم . ويقال أيضا إنه أثناء الاحتلال الفارسى كانت أهمية عمان وميناؤها كقلعة ضد الخارج والداخل أكثر أهمية من الرستاق ونزوى وصحار ، ولذلك عندما ازدادت قوة سلطان أراد أن يحتل ذلك المكان ويبنى حصنا ، وقد ازدادت نشوة النجاح عند سلطان فأرسل حملة ضد النعيم فى قشم وهرمز ، ونتيجة للحرب مع شيخ النعيم (النعايمة) حاكم بندر عباس كان تقدم السيد سلطان وظلت بندر عباس مستقلة عن مسقط لمدة ٧٥ عاما .

وفى عام ١٧٩٤ كانت فارس وكذلك عمان كليهما فى موقف سىء .. وبعد عودة قيس بن أحمد من إحدى الحملات دب صراع بينه وبين بعض قبائل الشمال .. ولما لم يكن هو مستعدا لذلك فقد استنجد بسلطان الذى أعد العدة وتحالف معه واتجها لملاقاة العدو حيث دارت حرب شرسة فى دبا ، وأصبحت الموقعة المعروفة التى انتصر فيها قيس وسلطان وتفرق العدو . وبعد الهدوء الذى ساد عمان والخليج . لم يتدخل العمانيون فى الخليج ، لكن بدأ التحرش عام ١٧٩٦ حيث بدأت أسرة كاجار وأغا محمد خان فى الاستعداد ، وفى أواخر عام ١٧٩٧ حدث التداخل والصراع بين بعض الانجليز والقواسم ، ولم يتلق الشيخ صقر أى مساعدة من شيخ القواسم الشيخ صالح .

وخلال معظم عام ١٧٩٨ كان كل ما يشغل سلطان هو ادارة الشئون الداخلية فى عمان ولكنه فى ديسمبر أبحر بحملة ضد البصرة لكى يوقف ما يفعله باشا بغداد ، الذى سمع بقدوم حملة من مسقط ، فاتصل

بمستر مانستى القائم بالأعمال لنجدته ، إلا أن تطور التعامل التجارى مع الانجليز جعل مستر مانستى يحاول أن يجعل من نفسه وسيطا بين حاكم البصرة والقواد العرب لأسطول مسقط الذى كان يرابط فى بوشهر ، وفى وقتها فكر سلطان فى الاختيار بين القوتين العظميين انجلترا وفرنسا وربما الهند •

كانت فرنسا ذات تأثير واضح أثناء الثورة الفرنسية حتى منتصف عام ١٧٩٨ عندما ظهر الجيش الفرنسى فجأة فى مصر تحت قيادة ذلك الشاب الذى لفت أنظار الأمم ، حيث فكر متطلعا للتخطيط للسير عبر الصحراء السورية والعراق وفارس ثم إلى الهند وأن يهزم كل هؤلاء من أجل فرنسا أو من أجل نفسه ، وتتبع بونابرت ذلك بإرسال خطابات ورسل إلى كثيرين من بينهم تيبو وسلطان إمام مسقط الذى كان يبحث عن من يتحد معهم أو من يساعدونه ، وأرسل بونابرت خطابا إلى مسقط هذا نصه :

القاهرة فى ٢٥ يناير عام ١٧٩٩ •

إلى إمام مسقط :

أكتب إليك هذا الخطاب لكى أعرفك بوصول الجيش الفرنسى إلى مصر ، وبما أنك صديق لفرنسا فأنت مقتنع بأن رغبتنا هى حماية كل البواخر التجارية التى نرسلها إلى السويس ، وأرجوا أن تخبر تيبو صاحب •

امضاء

نابليون بونابرت

هذا وقد أرسل بونابرت خطابا إلى تيبو صاحب •

وفى ذلك الوقت شعرت حكومة الهند بتأثيرات فرنسا فى عمان والتى قد تمتد إلى الخليج وبعض الأمكان الأخرى بسبب نشاط بونابرت الحربى ، وبعث الحاكم العام فى الهند ماركيز ويلسلى إلى المقيم البريطانى فى الخليج ميرزا مهدى على خان كى يزور مسقط ويدخل فى مباحثات سياسية مع سلطان •

وصل ميرزا مهدى إلى مسقط فى سبتمبر عام ١٧٩٨ ودارت مباحثات الحدود فى ١٢ أكتوبر ، وكان قد تعاقد على أن يكون تحرك الفرنسيين من حدود الإمام ، والبواخر الفرنسية من مينائه فى حالة نشوب حرب مع الانجليز •

وفى عام ١٧٩٩ حاول سلطان تقوية عمان بالتعامل مع بعض القبائل من بينهم قبيلة الدروع فى الشرقية ، والنعيم فى الظاهرة ونجح مع كليهما منبها إلى العدو الأجنبى ، كما ركز قوته ضد هؤلاء فى البحرين الذين رفضوا دفع الضرائب على البواخر المارة من الهند إلى الخليج ، وهى الضرائب البحرية التى كانت تدفع لمسقط لمدة قرن ونصف القرن •

ولم يقبل سلطان ذلك الرفض فأعد بعض بواخره وبدأت حرب قصيرة تم فيها أسر ثلاث من البواخر التى لم يكن لها القدرة على مقاومة عمان ، فأسرعت إلى طلب حماية الفرس ، وقد سمع سلطان بذلك فطلب الدخول فى محادثات مع الفرس أنفسهم • واهتم سلطان بحديث الكابتن جون مالكولم الانجليزى بعد أن وقع تجديدا للاتحاد بينهما ، ثم حدثت صراعات ضخمة وقعا على أثرها معاهدة ذات شقين ، أحدهما خاص بالاتحاد عام ١٧٩٨ ، والآخر بإقامة ممثل دبلوماسى •

وفى عام ١٨٠٠ نشب قتال بين الانجليز والفرنسيين فى المياه العمانية توفى خلاله الكابتن هول وخمسة من رجاله . وفى عام ١٨٠١ كانت البحرين هى محط اهتمام الناس حول شواطىء الخليج . وكذلك أثارت انتباه السيد سلطان الذى غزاها بنجاح بحملة عسكرية بحرية من مسقط ، واستطاع طرد العتوب ، واحتلت الفرق العمانية الجزيرة وأصبح سيف بن على حاكما وقائدا عليها وذلك لما قدمه من خدمات طيبة .

واستطاع السيد سلطان احتلال البحرين ولكن تم استردادها ثانية بعد شهر واحد ، لذلك تم إرسال سيف بن على على راس حملة قوية إلى الجزيرة واحتلها مرة أخرى ولكن من الصعب عليه أن يرد الأعداء . وشعر السيد سلطان بأن قوته غير كافية ، لذلك استنجد بإمدادات من فارس . وكتب السيد سلطان إلى الشيخ ناصر والى بوشهر وطلب منه الوساطة مع الأمير لمساعدته ، ولم ينتظر السيد سلطان ، فأعد أسطولا هائلا وأبحر إلى البحرين ، وهاجمه العتوب بشجاعة ، وحدثت بعض الانتصارات ، وبعد شهرين وصلت إليه نجدة قوامها مائتا رجل بخيولهم وكذلك ألفان من المشاة من شيراز إلى بوشهر ، واتحدوا مع سلطان وتمكن من إبعاد العتوب . وفى يناير عام ١٨٠٣ أراد السيد سلطان أن يحج إلى مكة على ظهر بارجة مع الشيخ مهنا اليعربى وآخرين ، وأبحر إلى نجد ومعه بعض الهدايا من نقود وأشياء أخرى إلى شريف مكة .وأثناء غياب السيد سلطان حاول حفيده بدر بن سيف الاستيلاء على الحكم لكنه لم ينجح . وفى الحرب البحرية التى اندلعت ، تابع السيد سلطان نشاطه ليحمى سواحله ولم يكن انتصاره عظيما ، وتركه الجميع بعد أن قدموا له بعض المساعدة ولكنه كان مهددا بالغزو من البحر ، وحدث تصادم لكن السيد سلطان بدأ فى تجهيز قوة دفاعية تتكون من اثنى عشر ألف رجل وبعد تعدد الاتصالات انتهت المحادثات الناجحة بين سلطان والحارق .

لقد كانت هناك صراعات متعددة متفاوته الدرجة بين الانجليز

والفرنسيين ، كان كل منهم يحاول أن يستقطب المنطقة لصالح بلاده ، ومن بين المنطقة من يحاول الاتجاه إلى كل منهما إلى أن حدث احتكاك بين كل من فرنسا وانجلترا عن طريق ممثليهما والسيد سلطان بعد عودته إلى مسقط عام ١٨٠٣ ، وعندما سمع قائد الباخرة « اتلانتا » الفرنسى بوصول السيد سلطان أرسل إليه ضابطين ليقدما له واجبات التقدير ، وطلب منه المقابلة ، ثم أرسل السيد سلطان باثنين من المسئولين العرب إلى مسيو م• دى • كافناك يرحب بمرور بواخر فرنسا وتحسين العلاقات التجارية بينهما •

غير أن المعاهدة مع مالكولم الانجليزى وتحرك الانجليز فى الهند والفرنسيين فى مصر جعل السلطان يفكر بحذر فى علاقة الانجليز مع العرب ، وكذلك الفرنسيين ولهذا خامر الشك نفس م دى • كافينياك بعد أن تسلم رسالة الأمير ، وانتظر على باخرته ليوم آخر ، وعندما أسدل الليل ستائره تحركت باخرته إتلانتا بعيدا ، وفى الفجر اختفت الباخرة ، وأغلقت البعثة السياسية مع مسقط حتى أرسل سعيد بعثة بعد وفاة بدر عام ١٨٠٧ •

وفى عهد السيد سلطان ١٧٩٣ — ١٨٠٤ خسر الانجليز فى المحيط ما يعادل ثلاثة ملايين جنيه استرلينى ، ورفض باشا بغداد أية معونات ، وعندما تحرك الوهابيون يشقون الطريق فضل باشا بغداد أن ينتظر الحاكم العمانى حتى يستهلك قوته عندما يواجههم ، ثم حاول السيد سلطان أن يجذب الهند إلى جانبه لكنه لم ينجح ، وقد ترك ليتحمل بمفرده أهوال الحرب •

وترك السيد سلطان عمان عام ١٨٠٤ لآخر مرة فى حملة بحرية فى الخليج ، وأبحر إلى البصرة مرة أخرى رغبة فى تأكيد التجهيزات الحربية لدى الباشا التركى على شريطة أن يقوم بعملية ضد الوهابيين ، ولكنه لم يستمر ، وعند عودته حدثت خلافات وصراعات ثم وافته المنية •

وقد عرضت وفاة السيد سلطان المدينة لخطر التهديد من الأعداء ، ولم تؤثر وفاة السيد سلطان على بلاده فحسب ولكنها خلقت حالة من الاهتزاز السياسى فى الخليج كله ، فقد اختفى المحارب الذى كان مثالا للشجاعة والنشاط فى مواجهة الأعداء ، وارتبك الأمن الاجتماعى الذى جعل كل رئيس يفكر فىالدفاع عن نفسه دون أن يعرف أعداءه من أصدقائه .

وكان السيد سلطان قد أشار قبل وفاته على محمد بن ناصر بن محمد الجبرى على أن يكون وصيا على ولديه ، وأن يدير شئونهما وكان أول ما فعله محمد بن ناصر أن أرسل ابن سلطان الأصغر سعيد ومعه أربع بواخر وبعض القوارب إلى جزيرة قشم ليهاجم القواسم انتقاما لموت أبيه .

وقد قام محمد بن ناصر باستدعاء بعض قبائل الغافرية لكى يقفوا إلى جانبه فى حالة دفاع لكنه وجد نفسه غير قادر على مواجهة قيس الذى كانت قوته فى ازدياد .

وجرت محادثات واتصالات بين محمد بن ناصر وأخت سلطان السيدة موزة وبعض أفراد العائلة .. وتقرر فى تلك المحادثات دعوة بدر بن سيف لمعاونة محمد بن ناصر .. ووقتها كان بدر يفكر فيما أراده أثناء سفر عمه سلطان للحج — كما ذكرنا سابقا — وبينما هو فى التفكير وصلته دعوة محمد بن ناصر لكى يذهب إليه فى مسقط وكانت هذه الدعوة وكأنها متوافقة مع خطط بدر التى طالما تمنى تحقيقها ، وشعر بدر فى تلك اللحظة أنه سوف يحصل بالتأكيد على مايريده وسوف تكون له السيطرة على أبناء عمه ، وبالفعل بدأ الرحلة إلى جلفار ومنها إلى مسقط ، وقد وصل فى الوقت الحرج .. فقد كان محمد بن ناصر وأبناء السيد سلطان على استعداد للتنازل إذا وقف بدر بجانبهم فى هذا الموقف .

عرف بدر كل الشئون والظروف المحيطة بهم كما عرف كيف يطلب مساعدة أصدقائه الذين أرسلوا له قوة لتهديد عاصمة قيس — صحار — وقد نجحت الخطة ، فقد وافق قيس على رفع الحصار عن مسقط بشريطة أن يتسلم الخابورة وجزءا من الباطنة ثم أسرع حينئذ إلى بلده وبعد مضى شهر وجد قيس الذريعة فجدد الاعتداء وزحف على مطرح واستولى عليها مرة أخرى .

وصلت الامدادات الكبيرة إلى بدر بطريق البحر .. ويقال أنها كانت حوالى خمس عشر مركبا وأربعة آلاف رجل ، وبهذا وضعت نهاية العداء وأجبر قيس على الرحيل .

وأخيرا توصل قيس وبدر إلى اتفاق سلام على أساس أن يحصل قيس على مطرح .

فى ذلك الوقت اتسم القواسم بالنشاط فى البحر ، وكان القائم بالأعمال البريطانى فى مسقط يحاول الارتباط بالحكومة فى مسقط ضد القراصنة القواسم ، وعلى ذلك أبحر إلى جزيرة قشم وحاصر أسطول القواسم الذين طلبوا السلام ، ومن قشم أبحر فى أوائل يونيه إلى بندر عباس حيث اتصل ببدر بن سيف ، وعند عودة الكابتن « سيتون » حصل من بدر بن سيف على تصريح ببناء مستودع وكذلك حصل على بعض التنازلات الأخرى .

وعندما عاد بدر بن سيف إلى مسقط وجد بعض الصراعات التى تنذر بنشوب حرب بين قيس والقواسم ومولى حسين فى قشم ، فترك صحار للهجوم على العاصمة وجدد بدر نداءه إلى أعوانه ليهددوا صحار ، بينما كان سعيد بن سلطان يهاجم بدر ، ولقد كان أهل عمان غير راضين عما يحدث فى حين كانت مآذن المساجد تتحطم ، وبينما كان بدر مهتما

بشئون الرئاسة وصل كابتن سكنر فى ١١ يوليو إلى مسقط كى يشرف على قيادة السفن فى الخليج ضد القواسم . وفى نهاية أغسطس عام ١٨٠٥ استولت الباخرة الفرنسية بيل بول على السفينة الانجليزية « انديدفور » وكانت تحت قيادة كابتن روبسون ، ثم جاءت بها إلى مسقط ، حيث اتجهت بعد ذلك إلى البصرة ، وفى أكتوبر عام ١٨٠٥ حدثت مناقشات بين مولى حسين والانجليز بخصوص القواسم لتكملة المحادثات مع الانجليز — من أجل السلام — الذين لاحظوا ازدياد أعمال القرصنة التى يقوم بها القواسم ضد السفن الانجليزية ثم إبرام معاهدة بين الأطراف عام ١٨٠٦ ، وقد اشترك سلطان بن صقر فى هذه المعاهدة والتى تضمنت التعامل التجارى بين القواسم والموانى الواقعة تحت سيطرة الانجليز من سورات إلى البنغال .

وفى نفس العام تعاون القواسم مع بدر بن سيف على عمه قيس فى صحار دون نتيجة تذكر . وبعد بعض الاحتكاكات أرسل أعوان بدر حملة من أسطول القواسم قوامها اثنان وعشرون مركبا وبعض البواخر إلى صور للاستيلاء على الحصن لكنهم قوبلوا بمقاومة شديدة وروح قتالية عالية ، وفشل الهجوم ، وتم طرد القواسم بعد أن وقعت لهم خسائر جسيمة .

ونعود إلى عام ١٨٠٦ حيث نجد أن بدر بن سيف بدأ يفكر فى ابنى عمه سالم وسعيد لإبعادهم عن الحكم فى مسقط ، فعين سالما واليا على المصنعة ، وسعيدا على بركا لكى يبعدهم عن طريقه . وتظاهر سالم بالقبول ولكن كان عليه أن ينتظر وهو يفكر فى كيفية استرداد مسقط من ابن عمه ، وطلب سعيد هو الآخر المساعدة من محمد بن ناصر الجبرى لكنه كان يخشى البوسعيد . ولكنه لم يرفض . وتم إعداد الترتيبات التى انتهت بمأساة موت بدر . ولكن القوات المعاونة له فى بركا لم يسرها مقتل بدر ، ولذلك فقد طالبت بمعاقبة الجناة ، ولكن القوات كانوا وقتئذ

فى موقف حرج ، وأبحر سعيد مسرعا إلى مسقط وأرسل إلى أخيه سالم فى المصنعة وتغير موقف سعيد فى تلك الصراعات ، وأصبح على رأس المناصرين ، واتحد الأخوان حتى وفاة سعيد ، وحدثت تغييرات فى تلك الأسرة مما ترك تأثيرا على العلاقات فى المنطقة ، كذلك على العلاقات مع الانجليز والفرنسيين كما أدى ذلك إلى صراعات•أخذت تتكرر على مدى سنوات ، إلى أن أرسل سعيد حملة ضد القواسم عام ١٨٠٩ إلى رأس الخيمة بمعاونة من قوات بوشهر ، ولكنه فشل فى الخليج ، وتفرق الأسطول ، وأصبح سعيد فى موقف حرج ، وعند ذلك سادت الانجليز حالة من القلق الشديد بسبب اتحاد القواسم مع العمانيين إذ كان اهتمامهم بمسقط كميناء تجارى يجب تأمينه ضد الأعداء ، فقد فقد الانجليز فى فترة لا تتجاوز الاثنى عشر شهرا ما لايقل عن ثمان بواخر حربية ، هذا غير العديد من الضحايا ، لهذا فقد كانوا يرون أنه يجب الا يتأخروا فى مهاجمة أعمال القرصنة حتى لايتأثر موقفهم وتضعف ثقتهم بأنفسهم خاصة ان ذلك يعتبر ساحلا هاما يساعدهم على القيام بعملياتهم ، كما أن هناك الكثير من العوائق كالممرات المائية التى تتميز بعدم وصول نيران المدافع اليها ، ومن السهل عليهم الاحتماء بها •

كان وضع الانجليز ملائما بالنسبة لحكومة مسقط وكذلك التجارة فى الخليج العربى ، وقد وصلت العلاقات السياسية إلى مدى بعيد ولابد من مساعدة حكومة مسقط للتصدى لأعمال القرصنة •

وفى ٧ سبتمبر عام ١٩٠٩ تحرك الأسطول تحت قيادة الكولونيل سميث بناء على تعليمات أصدرتها حكومة بومباى •• فتحرك إلى مسقط حيث تناقش مع حكام عمان السيد سالم والسيد سعيد ، ثم تحرك إلى رأس الخيمة حيث وصل فى ١١ نوفمبر ، وتم الاستيلاء عليها ، وتم كذلك تحطيم كل الأسطول الحربى الموجود هناك ، وعند عودته إلى مسقط طلب السيد سالم والسيد سعيد المساعدة من الكولونيل سميث ضد شناص وخورفكان .

بالمعاونة مع الفرق الخاصة بهما ، وتحركت القوتان مجتمعتين ، وفى ٤ يناير عام ١٨١٠ تم الاستيلاء على شناص بعد عدة مقاومات متفرقة .

ولكن حكومة بومباى لم ترسل شيئا إذ أنها رأت أن ذلك بعيد كل البعد عن الاعتبارات السياسية ، فتوجه السيد سعيد إلى فارس ورتب لأخيه سالم لكى يتجه إلى شيراز حيث كان الوعد بإرسال ألف وخمسمائة رجل ، وعاد السيد سالم إلى مسقط وبدأت الحرب وفى نفس الوقت كان نجاح محمد على ضد الوهابيين .

وقد نجحت الحملة إلى حد ما دون نتائج متقدمة وبدأت عملية أخرى عند وصول الفرس تحت قيادة السيد سالم الذى كان على اتصال مع عزان بن قيس وسعيد وقد توجهوا إلى نخل ودفعوهم إلى أزكى وسقطت سمايل أيضا وأغراهم النجاح فتقدموا عند أزكى ، وانسحب سالم ومعه الفرس إلى بركا ، وواصل انتقامه ووصل إلى الشرقية حتى رأس الحد ، وأرسلت بومباى فرقة مكونة من ألفين من الرجال لطردهم واحتلال المدينة والميناء ولكنهم عادوا إلى بومباى على باخرة عمانية فى يونيه عام ١٨١٢ .

وقد كانت هناك بعض الاتصالات مع القائم بالأعمال الانجليزى فى بوشهر حيث وصلت إليه الأوامر بأن يتصل بمسقط وهو فى طريقه إلى الخليج . واستمرت العمليات الحربية .

واصل السيد سعيد نجاحه دون أية عوائق ، وفى أوائل عام ١٨١٤ توفى عزان بن قيس فى مكة فى البحر الأحمر عند عودته من الحج ، وأعطى السيد سعيد تبعية صحار ، وبعد مرور ثلاثة أشهر توفى الأمير سعود ، ولازالت عجلة الحظ تدور . وقام السيد سعيد بحملة إلى رأس الخيمة ولم ينجح فيها تماما لكنه نجح فى إعطاء الشيخ سلطان تبعية الشارقة .

اتجه القواسم إلى البحر الأحمر عام ١٨١٥ وبدأت التجارة بين

الهند ومكة • وبعد فترة قصيرة أخـذ القراصنة باخرة تجـارة انجليزية خارج مسقط ، وذبحوا طاقمها ، وكذلك باخرتين أمريكيتين وارتفعت أسهم القواسم •

وفى بداية عام ١٨١٦ قام السيد سعيد بحملة ضـد رأس الخيمة ، واحتل ذلك الميناء لمـدة أربعة أشهر دون تأثير يذكر ، ونجح الأمير عبد الله فى أن يأخذ مكان أبيه سعود فى الدرعية ، وأشـار إلى أهمية وجـود وكالة فى مسقط وإلى اقامة سـلام دائم ، وكانت هناك محادثات لكن التسـاؤل عن وضـع رأس الخيمة كان هـو العائق ، وعلم فيما بعد أن هناك عصيانا فى نخل ، حيث كان حمير بن سلمان اليعربى وهـو آخر القياديين فى تلك الأسرة وكذلك محمد بن ناصر الجبرى ، وقد تمرد هؤلاء ضـد حكم السيد سعيد الذى واجه حمير ، ولكنه لم ينجح ، ثم حاول اجتذابه إلى جانبـه وتسبب فى قتله •

وعاد السيد سعيد من حملته ضد رأس الخيمة فى إبريل عام ١٨١٦ ثم اتجهت حملة من مسقط نحـو الخليج فى يونيه وبمسـاعدة الفرس اتجهت الحملة إلى جزيرة أراد لكن العتوب هاجموها ، ثم أبحر إلى كايتون حيث وعدوه هناك بأن يعملوا معه ضـد الوهابيين ومن حسن حظه أنه اكتشف فى الوقت المناسب أن الفرس يحاولون وضعه فى المصيدة كى يفشل مشروعه ضـد البحرين فعاد إلى عمـان • فى ذلك الوقت كان محمد على والى مصر قد حطم نهائيا أسطورة الامبراطورية الوهابية •

وبدأت الاتصالات مع الفرنسيين عام ١٨١٧ وبدأ تنظيم التجارة بعد أن وضع السيد سعيد معهم فى ٣٠ مارس ١٨١٧ اتفاقية تجارية استمرت سـارية المفعول حتى بدأت محادثات القاهرة التجارية الفرنسية عام ١٨٤٤ ،

وفى عام ١٨١٧ احتل القواسم مناطق السيد سعيد وكان محمد على باشا قد أرسل ابنه ابراهيم باشا ليتتبعهم ويقمع شراستهم كما أرسل بعض ضباطه لمقابلة السيد سعيد ، وقد قدمت حكومة الأتراك له كل الاحترام عند وصوله جدة فى طريقه إلى مكة والمدينة ، واستقبله الشريف بحفاوة بالغة ، وعند رحيله سلمت إليه الهدايا النفيسة التى أرسلها له محمد على باشا ، وعاد السيد سعيد إلى مسقط .

وفى عام ١٨٢٦ لم تكن حرب السيد سعيد ضد البحرين ناجحة رغم التكاليف الباهظة فى إعدادها .

وفى عام ١٨٢٩ قتل محمد عقيل حاكم ظفار فى مرباط ، فأرسل السيد سعيد قوة للاستيلاء على المنطقة .

الصراعات تتوالى .. فى المنطقة بتتابع مرور السنين وتتكرر حوادث العصيان

كان السيد سعيد قد توجه إلى زنجبار ، وكان ينوى أن يستقر بها ، وبالفعل بدأ فى بناء قصر فى متونى ولكنه لم يحتمل الهدوء . وعند عودة السيد سعيد فى ١٠ سبتمبر عام ١٨٣٢ أمر حمد بن أحمد والى زنجبار بالتوجه إلى مقديشيو بأسطول ممباسا ، ودخل حمد إلى مقديشيو وقتل عبد الله بن سالم . واتجه الوهابيون أعداء السيد سعيد القدامى إلى عمان ، ولم يكن لدى السيد سعيد أى استعداد للمقاومة ، ونصحه الانجليز بأنه من الأفضل إقامة علاقات صداقة معهم ، ووافق على أن يدفع خمسة آلاف دولار سنويا ، وأن يحترم كل طرف بلاد الآخر ويساعده ، وقد اعتبر الإنجليز هذا التعاقد تعاقدا غير سياسى ، وبالتالى فلم يكن مقبولا .

فى ذلك الوقت وصلت بعثة على الباخرة بيكون الحربية من الولايات

المتحدة الأمريكية لإجراء بعض المحادثات بما فيها المحادثات التجارية مع سلطنة عمـــان ، وكان ذلك واحـــدا من الأحـــداث الهامة فى حياة السيد ســـعيد •

وبدأت أهمية كل من مسقط وزنجبار كمراكز تجارية تزداد ، وجذبت أنظار التجار الأجانب وأصبحت بعض التجارة فى أيدى الهنود مما دفـــع الانجليز للتدخل ، أمـــا موقف الأمريكيين فقد كان مختلفا فقد بدأوا التجارة مع زنجبار ما يقرب من اثنى عشر عاما ، وعانوا كثيرا من العوائق التى كانت تظهر أمامهم ، فاتصلوا بحكومتهم ، ودخلوا فى معاهدة مع عمان للتجـــارة معها فى أمان ولتحقيق رغباتهم الأساسية ، وشعر السيد سعيد أن السماح للأمريكيين ببنـــاء المراكز أينما يريدون فى زنجبار أو ساحل إفريقيا الشمالى لن يضره على أن يقدموا لـــه المساعدات الحربية لتحقيق خططه •

وصـــل كابتن هارت إلى زنجبار عام ١٨٣٤ وتمكن من ايقاف ذلك ، وبعد محادثاته مع السيد سعيد توصـــل لعقد معاهدة بين عمان وانجلترا • وفى نوفمبر عام ١٨٣٣ اتفق السيد سعيد مع مطلق المطيرى الحاكم الوهابى لكى يعاونه الأخـــير فى إعادة أخضاع ممباســـا لسيطرته • ترك الســـيد سعيد مسقط بين يدى أحـــد أبنائه وأبحر فى طريقه إلى ممباسا ، ورســـا خـــارج أحـــد حصونها ، وقام بهجوم ولكن ذلك الهجوم فشـــل ، وبعد ثمانية أيام دارت المحادثات حيث عاد السيد سعيد إلى زنجبار منتصرا •

وأرسل السيد سعيد حملة إلى سيوى لكن السيد سالم ساعد السيويين ، وفى باتا وسيوى كان التحرك غير ناجح ، واستقر السيد سعيد فى زنجبار ، ولكن وجود بعض المتاعب فى بلاده جعلته يعـــود إليها ، إذ أن حمـــد بن عزان أثـــار بعض المتـــاعب بسبب حـــادثة قديمـــة ، كمـــا أثار بعض القلاقل الحربية لكن السيد سعيد وضع نهاية لذلك •

وفى عام ١٨٣٥ وصل اللفتنانت ولستد من البحرية الهندية ، وهـــو

من أفضـــل مستكشفى عمـــان ، وبقلمه كتب أحسن وصف للجزيرة العربية • وتنقل ولستد فى مقاطعات عديدة تحت حماية السيد سعيد ، وأشهر تجربة له فى تلك الرحلة الملاحية كانت فى نهر الفرات ، وبدأت بعثة من نهر الفرات فى مارس عام ١٨٣٦ ، ثم وصـــل إلى الخليج فى يونيه ، وواصل الكولونيل كشنزى رحلته إلى بومباى حتى نوفمبر على الباخرة « هوف لندای » •

وأخذت شئون عمان كثيرا من وقت السيد سعيد ، وقد كان يخاف من ترك مسقط والتوجه إلى زنجبار خوفا من أن ينتهز السيد حمـــد فرصة غيابه ويتمرد • وفى عام ١٨٣٦ عقد السيد سعيد اتفاقا مع ابن مطلق لمحاربة صحار والرستاق ، وحاصر ابن مطلق صحار من البر بينمـــا حاصرها أسطول مسقط فى البحر ثم عاد الأسطول إلى مسقط • وبعد وفاة والى ممباســـا سالم بن أحمد دارت مباحثات بين أخويه خميس وناصر ، وبعد مرور عام نجح راشـــد بن سالم فى الحصـــول على الولاية فى ممباسا •

وأعد السيد سعيد حملة للمرة الثالثة إلى ممباســـا ، ولم يستطع راشد ابن سالم مواجهة قـــوة السيد سعيد ، وبدأت محادثات فى فبراير عام ١٨٣٧ نصت على أن يكـــون الحصن لرجـــال السيد سعيد وأن يقيم الوالى فى المدينة ، وعلى ذلك ترك على بن منصـــور فى الحصن ومعه خمسمائة رجل وأبحر السيد سعيد إلى زنجبار •

كانت حروب السيد سعيد فى ممباسا مستمرة حتى انه قتل كل من راشد بن سالم وشركاه وبذلك انتهت أسرة المزروعى بعد قرن كامل •

وأرسلت ملكة انجلترا إلى السيد سعيد دعـــوة ، فبعث على بن ناصر ليقـــدم التحيات للملكة ، ولتقديم بعض الهدايـــا القيمـــة وجرت بعض المحادثات انتهت بتوقيع معاهدة تجارية بين البلدين عام ١٨٣٩ •

وعاد السيد سعيد من شرق إفريقيا فى سبتمبر عام ١٨٣٩ وقد لفت

نظره تقدم القوات المصرية ، وبعد بعض التحركات وبتدخل من الإنجليز تم إبعاد الخطر عن عمان ، وفى عـام ١٨٤٠ عين الكابتن هامرتون كممثل سياسى فى مسقط ، ثم صدرت إليه الأوامر أن يزور البريمى من الشارقة وليسجل ملاحظاته • وفى عام ١٨٤١ أبحر الكابتن هامرتون إلى زنجبار ، ووصلته تعليمات أن يصاحب السيد سعيد إلى عمان •

وفى عام ١٨٤٣ وبعد انتهاء الحرب الأهلية فكر السيد سعيد أن تكون جزيرة البحرين تابعة لـه ، وبدأ فى تجهيز حملة لهـذا الغرض وفى ذلك الوقت كان يتهدد عمان أعداؤها القدامى •

وبعد حروب طاحنة تم توقيع المعاهدة الثالثة فى نوفمبر ١٨٤٤ مع فرنسـا ، وبعدها أرسلت حملة إلى مدغشقر ومياه شرق إفريقيا تحت قيادة الكابتن جوبان بين عام ١٨٤٦ — ١٨٤٧ وقد أعرب الكابتن عن تقديره لشعب زنجبار بالنظر إلى الموقع الاستراتيجى الـذى يحتله الساحل الإفريقى بوباتا • مقابل الوجـود البريطانى فى عـدن ، وفى عام ١٨٤٧ حاول الكابتن جوبان حمل رؤسـاء المنطقة على الموافقة على بيع مينائى لامو وبراوه إلى الحكومة الفرنسية وكان كلا المينائين تابعين للسيد سعيد الذى كان باستطاعته أن يوقف مثل تلك الصفقة • وعند مرض السيد سعيد فى سبتمبر عام ١٨٥١ أحاطت به الأسرة • وبعد العديد من الصراعات والقلاقل ظهرت قوة وهابية كبيرة تحت قيادة الأمير عبد الله بن فيصل الذى أعاد احتلال البريمى وقام بمحاولة ضم عمان إلى امبراطورية النجديين وكنتيجة لذلك تحرك السيد ثوينى إلى صحـار للدفاع ضـد تلك الحملة وفى هـذه الأثناء تدخـل الانجليز وتمكنوا من عقـد معاهدة تدفع حكومـة مسقط بموجبها الزكاة سنويا ومقدارها اثنى عشر ألفا من الريالات إلى عبد الله بن فيصل الذى عـاد إلى نجـد فى نهاية عام ١٨٥٣ تاركا أحمد السديرى على رأس قوة فى منطقة الحدود •

وقد أرسل الفرنسيون الكابتن فريستال للحصـول على موافقة السيد

سعيد لشراء جزر كوريا موريا ، ولكن السلطان السيد سعيد رفض طلبهم ، وتم الاتفاق على تقديمها كهدية بتاريخ ١٤ يوليو ١٨٥٤ • واستمرت الحملات الحربية من الفرس إلى بندر عباس خوفا من تحركات العرب نحو الساحل •

وبعد إبعاد الحاكم القديم سيف بن نبهان تم إرسال حملة إلى بندر عباس تحت قيادة السيد ثوينى حيث احتلها مرة ثانية • وفى هذه الأثناء أعد الفرس حملة جديدة تحت قيادة قائد فارس ، واتجهت إلى شيراز وتم إجبار العرب على الرحيل •

وبدأت المحادثات بين السيد سعيد والشاه فى إبريل عام ١٨٥٦ حول بندر عباس وكان أهم مادار فيها هو وضع بندر عباس تحت مسئولية السيد سعيد وتعيين من يقومون بشئون الأمن • وبعد رحيل السيد سعيد أوقفت الحرب بن انجلترا وفارس (إيران) • ثم أرسل اللورد الوزى حملة كبيرة من بومباى تحت قيادة القائد البحرى الأدميرال سيرليك ، ووصلت مراكب الشركة إلى مسقط ، وفى نفس الشهر توجهت الحملة إلى الخليج وسرعان ما تم احتلال كل من بوشهر والمحمرة من جانب الانجليز •

وفى ١٩ أكتوبر توفى السيد سعيد الذى كان بعظمة أخلاقه رمزا لشجاعة العربى بل ورمزا لحاكم عظيم أحبه أهل بلاده ، وفى ظله تقدمت التجارة فى ساحل إفريقيا الشمالى نتيجة لنشاطه وحمايته للساحل وبعد نظره •

الفصل السادس

قبـائل الخليـج

تم إلحاق البيانات التالية عن قبائل الخليج بشيء من التردد ، والمؤلف وحده هو أدرى الناس بالطريقة التى تمت بها معالجـة تلك البيانات ، ومع ذلك يمكن الاستعانة بها كأساس فى عمل تقرير أو دراسة واعيـة وموثـوق بهـا عن تاريـخ المنطقـة وظروفها ... الخ .

(المـؤلف)

أصـل القبائل :

يبدو أن الكوشيين هم أول من عمر شـبه الجزيرة العربيـة ، وفى الشمـال نجح الاسماعيليون والعـدنانيون وفى الجنـوب القحطانيون ، واستطاعت تلك الأجناس تقسيم الجزيرة العربية إلى مجتمعين سياسيين ، عرفا تحت أسماء مختلفة : الجنس الشمالى والذى أطلق عليه العدنانيون ، معديون ، أو نزار ، والجنس الجنـوبى أو القحطانيـون الجنوبيون أو اليمنيون .

ورغم ذلك فقد اختفى الاسماعيليون كجنس منفصل من شمال الجزيرة العربيـة قبل الإسـلام ، بحوالى مائتى عام ، وقـد كانوا أقل اتصـالا بالعرب منهم بالعبرانيين ، ولكن كيف اختفوا ؟ لا أحـد يعرف ، فربمـا بسبب الحروب وربمـا بوباء الطاعون ، وربما امتزجوا بقبائل أخـرى ، على أية حال فهناك إسماعيليون فى الجزيرة العربية الآن .

ولكن النظام الذى وضعه علماء الأنساب العرب يمكن النظر إليه كنظام موثوق به ككل ، وإن كان يرتبط بتناقض وتضارب مع بعض العلماء الأوربيين وتوافق مع آخرين • ويجب أن نذكر أن العرب بذاكرتهم التاريخية وتفوقهم القديم لديهم إيمان عميق وتبجيل لأصول النسب ، وقد انتقل هذا الإحساس — ربما من الآف السنين — من الآباء للأبناء • وقد حدث بعد عصر سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام أن العرب كانوا مجتهدين وناجحين فى تطوير وتفضيل معظم الأفكار فى عمل صور لأصول النسب العربية فى بحوث النسب الخاصة بهم ، ولم يكن النجاح مقصورا على دراسات علم الأنساب فهم كذلك ناجحون فى دراساتهم الجغرافية ، والتى تعد فخرا للثقافة العربية •

وبينما كانت الهجرة الأولى إلى عمان من أفريقيا ، سواء بطريقة مباشرة أو من اليمن بعد أن جاءت من الجنس القحطانى أو العدنانى ثم الهجرة الثانية من اليمن عن طريق الأزديين بعد تدمير وانهيار سد مأرب • لذلك فيمكن أن تكون القبائل العمانية تابعة للأصل الرئيسى وهم القحطانيون والعدنانيون — أصحاب السيطرة القديمة — وللحق فقد كانت هاتان المجموعتان فى عداء غير معلن سبب للبلاد تمزقا واضطرابا أبديا ، بسبب الضغائن والأحقاد والكراهية ، إلا أن هذا العداء هو مفتاح التاريخ الحقيقى لتلك المنطقة •

ولا شك أنه — بدون شىء من المعلومات عن علم الأعراق والأنساب العربية — فإنه من المستحيل أن نفهم التغير المستمر فى التحالفات والاندماجات السياسية التى تشكل حدثا هاما فى تاريخ شعب منقسم إلى حزبين كبيرين ، لكل جنسه وسياساته ، وإن كان كلاهما يحكمه قانون اجتماعى واحد •

وقد تجمعت قبائل عمان معا فى تحالف غير رسمى طبقا للسياسات

القائمـــة ، وبغرض تأييد كل قبيلة للأخرى عند أى هجوم تتعرض لـــه ، بينمـــا تضطر القبائل الضعيفة إلى إخـــلاء أماكنها للقبائل الأقوى منها ، وقـــد اعتادت القبائل الضعيفة أن تضع لنفسها من ناحية الأنساب حدودا متميزة ، وفى الوقت نفســـه فهى على استعداد لأن تتبع قبيلة أخـــرى ، ولكنها لا تندمج معها •

وقـــد دخلت هذه المجموعـــات من القبائل فى تحالف غـــير رسمى لفترة من الوقت وفى اتحـــاد مع مجموعة متشابهـــة من نفس الاتجـــاه فى مقاطعات أخرى ، إمـــا الهناوية أو الغافرية ، وذلك لحمايتها عن طريق روابط النسب ، وهى الأقـــوى من كل الروابط •

وفى عمان يتم التوزيع الجغرافى للقبائل أولا وقبل كل شىء بناء على نتائج النزاع والحروب المميتة ، ويتم تشكيل تحالفات جديدة بين القبائل من الأنســـاب المختلفة ضـــد التحالفات فى المقاطعات الأخـــرى ، ولكن المجموعات الجديدة تصبح أكثر تعقيدا •

تقســـيم القبـــائل :

تبعا لدراسات الأنســـاب العربية فإن التقسيم الطبقى للقبائل معقد للغاية ، ويمتد إلى أكثر من اثنى عشر أو أكثر من الصفوف والأفرع ، وإن كانت قيمة التقسيمات غـــير مؤكدة كمـــا أن السلطات تختلف حـــول هـــذا الموضوع ، وفى عمـــان تبدو هذه التقسيمات قليلة للغاية ، ويبدو أن دراسات الأنساب تضع تمييزا واضحا ، وإن كان من الواضح أنه لا إختلاف بين الأنواع المختلفة من القبائل إلا من ناحية الأسماء التى تبـــدو أنها نطاق عددى تأتى فيه القبائل ذات العدد الكبير ثم الأقل وهكذا •

والقائمة الآتيـــة لبعض الأفرع الهامة وهى :

جدثام ، جمهور ، وشعب ، قبيلة ، إمـــارة ، بطن ، عشيرة ، فصيلة ، رهط ، فخذ •• الخ •

والأسماء السالفة رغم ذلك نادرة الاستخدام فى عمان ، حيث تسمى القبيلة طائفة ، وتقسم ببساطة إلى فخـوذ ، ثم تقسم مرة أخرى إلى بيوت وبطون ، وفى الرموز القبلية تشمل هـذه الأسماء •• أسماء الحيوانـات والنباتات والآلهة ، وكذلك الأجرام السماوية ، ومازال عدد منها موجودا ، وإن كان استخدامها محتملا فى العصـور القديمة البعيدة أكثر بكثير مـن أسمـاء الإنسـان ، وفى دراسات الأنسـاب كان عدد الأسماء الأنثوية التى تسمى القبيلة باسمها كثيرة • وفى عمان كانت الأسماء الأنثوية تطلق على القبائل النبيلة ، والأقل نبلا وعلى كثير من الرجال •

الشـيوخ :

ينظر للشيخ كوالد لقبيلته ، ولكل فخـذ أو تقسيم شيخه الخاص ، الـذى يعتبر نفسـه مسئولا عن الآخرين ، وان كان منصبة أكبر ، وقوته أكبر من الآخرين ، وبخاصـة فى أوقات الحرب • ويجب أن نذكر أن هناك عددا قليلا من الشيوخ فى عمان يعرفون بالتمائم الذين يمتلكون القـوة الحقيقية على شعوبهم ومن هذه القبائل بنى ريام ، والجنبة ، وبنى على ، وبنى حسن ، وبنى غافر ••• الخ •

والشياخة عادة بالوراثة ، وتعطى للابن الأكبر ، والابن يخلف والده حتى إذا كان شابا صغيرا ، وقـد رأيت بنفسى صبيا فى سن الثانية عشرة أو الرابعة عشرة يعطى الأوامر لأتباعه الذين يطيعونه بلا تردد ، ولكن فى وقت الحرب بلاشـك تكـون المسئولية فى أيـدى آخرين ، ومن ناحية إرساء العدالـة فإن العـادة والقرآن تحكمان قرارات الشيخ ، وكلمـا وضع الشيخ هذه القوانين نصب عينيه كلمـا أطاعه أتباعه بولاء ، وفى وقت السلم يساعده مجلس استشارى من الشيوخ الذين يساعدونه لإقامة معظم الشئون العامة للقبيلة • ومعظم المشاجرات والمشاحنات بين أفراد القبائل المختلفة والتى يكون معظمها بسبب المـال عادة يتم تحويلها إلى أقرب

القضاة ، ويتم تعيين القاضى من قبل الحكومة المركزية التى تدفع له راتبه • أمـا فى وقت الحرب فالشيخ قائد لايقبل النقاش ، ويعتمـد كل شىء على شخصيته ورجاحة عقله وشجاعته ، ولايحصل الشيخ على مساهمات مـن شعبه فحسب ، بل إن له ممتلكاته الخاصـة وجماله وسفنه ، بالإضافة إلى مايرسله السلطان ، ومن وظائف الشيخ التوسط بين القبائل ، ولكن هـذا التوسط غالبا ما يفشل ، فتكون النتيجـة هى الحرب ، فمعظم الأحزاب لا تستريح ولا تقتنع دون إراقة الدماء ، وبعد الحرب يتم ترتيب هدنة لعدة شهور أو لمـدة عام ، وإذا لم يتم إرسـاء دعائم السـلام خلال تلك الفترة فإن العداء يتجدد •

قبائل عمان :

١ ــ قبيلة بنى على :

سنية المذهب تسكن الرستاق ، وعددها ألف نسمة •

٢ ــ قبيلة بنى على :

إباضية المذهب وهى فى اتحاد مع بنى ياس ، ويسكنون وادى أهين تحت جبـل وكبه ، بالقرب من ينقل ، وكذلك وادى غـداً وعددها سبعة آلاف نسمـة •

٣ ــ العمور :

ويسكنون الباطنة وهى قبيلة صغيرة لاتتجاوز الخمسين فردا •

٤ ــ قبيلة بنى عرابة :

إباضية المذهب وهى بطن من قبيلة الأوس ، وهم من أبنـاء مسعود

ابن راشـــد بن عرابه الأوسى وهم على اتحاد مع النذابيين والرحبيين .. وعددها خمسة آلاف نسمة مقسمة إلى خمسة وعشرين فخـــذا .

٥ ــ قبيلة العـــوامر :

بدو إباضيو المذهب ، وهم من المعديين .. وتعود بالنسب إلى عمرو ابن صعصعة وهم الآن هناويين سياسيا ، والبدو من هذه القبيلة يتجولون فى الصحراء حتى ظفار ..ويشغل الجزء المستوطن من القبيلة اثنتى عشر قرية بالقرب من نزوى ، وهى قرى : قريتين ، الحاميدية الأكيل ، الصليبة الحديد ، الحماديين ، شاقعة ، السيا والهبل ، القلاع ، سوق القادرى الحزمة ، عددها حوالى ١٢٠٠ أو ١٤٠٠ نسمة ، يقيم الشيوخ فى قريتين ويقال انهم يتكلمون لهجة خاصة بهم ، ولها ثلاثون فخـــذا .

٦ ــ قبيلة العزيز :

قبيلة صغيرة عددها مائتا نسمة وتسكن ضنك فى الظاهره .

٧ ــ قبيلة بنى عزان :

قبيلة غافرية صغيرة تسكن نخل .

٨ ــ قبيلة بنى بطـــاش :

قبيلة هناوية كبيرة . إباضية المذهب تشغل مقاطعة قريات ، وقراهم الرئيسية المزارع ، الحيل ، وقريات ، وهم فرع من يال ، عددهم عشرة آلاف وهى قبيلة مســـالمة يتميز أهلها بالشجاعة ، واعتادوا فى العصـــور القديمة رعى الخيل للسوق الهندية ، وينقسمون إلى تسعة فخـــوذ ، ويقول البعض إن قبيلة بنى بطاش حميرية .

٩ ــ قبيــلة البوارح :

ســنيو المذهب ــ هناويون ــ عددهم ألف وخمسمائة نســمة ، يسكنون عتيبة فى الباطنة •

١٠ ــ قبيــلة البدية :

سنيو المذهب ــ عددهم ألف نسمة ــ يسكنون وادى حانه فى الباطنة •

١١ ــ قبيــلة يال بريك :

جزء منهم سنيون ، وجزء آخر ينتمون إلى الإباضية ــ هناويون عددهم ألف ومئتا نسمة ، يسكنون الباطنة وشيرز وقصبيات يال بيريك •

١٢ ــ قبيلة بنى بو على :

غافريون ، فــرع من القبيـــلة العدنانيــة الكبرى بنى تميم ، هاجروا من البحرين حيث كان بنو تميم الأقوياء عددهم تسعة آلاف نسمة يشغلون صور ، الاشخره ، ووادى بنى خالــد فى الشرقية ، وهم بــدو دحضر ، كانوا أصحاب جمال وغنم وماعز بينما كان ساكنو الاشخره وصور معظمهم تجــار •

١٣ ــ قبيلة بنى بو حسن :

قبيــلة هنــاوية ــ تسكن جعــلان ــ إباضية المذهب أصلها شمس ، عددهم عشرة آلاف ، مدينتهم الرئيسية هى بــلاد بنى بو حســن حيث يزرعون التمر والــذرة ، والقبيلة مقسمة إلى اثنى عشر فخــذا وأربعــة

قبائل صغيرة هى قانعة ، بنى على الفتا ، واثنتان أخريتان ، وقيادة القبيلة ليست لشيخ واحد ، ولكنها مقسمة بين ثلاثة شيوخ .

١٤ — البـــــداة :

غافريون — تشغل دوت فى الظاهرة — عددها خمسمائة .

١٥ — قبيـــلة الأهمانية :

سنية المذهب — هناوية — تشـــغل وادى القـــور فى الحجـــر عددها ثمانمائة نسمة .

١٦ — قبيـــلة الدهمية :

عددهم ستون فردا — يسكنون يكرا فى ساحل الباطنة — غافريون .

١٧ — قبيـــلة الدرامكة :

هناويون سياسيا — يسكنون أزكى وعددهم مائة نسمة .

١٨ — الدروع :

جـــزء منهم إباضيون — وجزء آخـــر سنيون — متفرقون .. والجزء الأكبـــر منهم فى ثنيان بالظاهرة — وهـــو منقسم إلى أربعـــة وعشرين فخذا — عددهم ستة عشر ألف وجزء صغير منهم مستوطنون والأكثر بدو — وهم أكبر رعاة للجمـــال فى عمـــان — وليس للدروع قانون — وهم غافريون .

١٩ — قبيـــلة الذهـــول :

قبيلة غافرية صغيرة تسكن العوابى — عددها خمسمائة .

٢٠ — قبيلة الظواهر :

ينتمون إلى الجناح الهناوى ، وهم يسكنون الظاهرة كما يسكنون عين البريمى — وعددهم أربعة آلاف ، أو خمسة آلاف •

٢١ — قبيلة بنى عيسى :

إباضيو المذهب — عددها ثلاثة آلاف — غافريون ويسكنون أهين فى مقاطعات الحجر والباطنة •

٢٢ — قبيلة الفزار :

قبية صغيرة — عددها خمسمائة وهم سنيو المذهب — هناويون ويسكنون مكاى فى الباطنة •

٢٣ — قبيلة الغافى :

قبيلة الغافى قبيلة صغيرة عددها مائتان وخمسون — تسكن قرية بو عبالى — إباضيو المذهب ، وهم هناويون •

٢٤ — قبيلة بنى غافر :

أصلهم عدنانيون — هاجروا إلى عمان من نجد — عددهم خمسة آلاف يسكنون الوادى العظيم الذى أخذوا منه اسمهم — ويسكنون بهلا — والظويهر — وخفدى — العينان وجزء منهم سنيون والآخر إباضيون •

وعمان تنقسم إلى حزبين رئيسيين هما اليمن ونزار وقد أصبحت الأخيرة معروفة فى القرنين الأخيرين باسم هذه القبيلة الغافرية ، وقد حدث

هذا التغير بناء على سلالة قائدها محمد بنى ناصر الذى أصبح إماما ، وقد كان محمد بن ناصر اطوابى ، وهى قبيلة أصبحت تابعة لبنى غافر ، والقبيلة الآن ليس لها تأثير فى القبيلة الأصلية يزيد على القبائل الأخرى التى تكونت وشيخ بنى غافر هو تميمة كل القبائل الغافرية ويقيم الشيخ الحـــالى فى بهلا •

٢٥ ــ قبيـــلة الغوارد :

قبيلة صغيرة عددها مائتان وخمسون نسمة ، يسكنون أبو عبالى بالباطنة ، وهم إباضيو المذهب وينتمون إلى الفرع الهناوى وهم من سلالة أو أصـــل يمنى •

٢٦ ــ قبيـــلة بنى هـــلال :

تميزوا بصفة عامة كقبيلة أو طبقة منفصلة أو منعزلة أو مستقلة ، ولكنهـــا ضعيفة للغـــاية وذات نفـــوذ قليل ، وهم غافريون ، وتعدادهم ألف ويقيمون فى بهلا ونزوى •

٢٧ ــ قبيـــلة الهنادس :

إباضيو المذهب ، عددهم ألف ومائتان يسكنون الباطنة ، وينتمون إلى الهنـــاويين •

٢٨ ــ قبيـــلة بنى هناة :

أصلهم أزديون وهم من سلالة فهم بن مالك ، وهى قبيلة كبيرة تعدادها عشرون ألفا ، ولها العديد من الأحلاف ولها نفوذ كبير ، وموزعة بانتشار ، تسكن نزوى ، الغافات ، بلاد سيت فى سمائل ومـــدن فنجا ، وبدبد ، وكلوه ••• الخ ، ولمدة المائتى عام الأخيرة أعطت هذه القبيلة اســـمها لليمنيين ، وهم إباضيو المذهب •

٢٩ ــ قبيــلة الهشــم :

تسكن وادى بنى خالد فى جعلان ، لها هناك ٦ قرى وهى : الكامل ــ سيق ــ حميه ــ طيوى ــ وغيرها وكلهم حضر يزرعون الفواكه والذرة وعددهم أربعة آلاف ، غافريون من الناحية السياسية ، منقسمون بين الإباضية والسنية ، ومنقسمون إلى اثنى عشر فخــذا •

٣٠ ــ قبيــلة الحبــوس :

ربما كانت أكبر قبيلة فى الشرقية بعد الوهابية ــ تسكن المضيبى فى وادى عندام ، تنحدر من سلالة عبس ــ عددها خمسة وعشرون ألفا ــ منقسمة إلى أحد عشر فخذا ، معظمهم بدو ، ولكنهم استوطنوا ، ويزرعون الأرض ويقومون برعى الجمال ــ وهم عادة ينضمون إلى الأحلاف ، ولكنهم لا يأخذون دورا قياديا ، إباضيو المذهب •

٣١ ــ قبيــلة يال حمــد :

إباضيو المذهب ــ هناويون وعددهم ألف نسمة •

٣٢ ــ قبيــلة بنى حماد :

سنيو المذهب وهناويون وعددهم ألفا نسمة ، يسكنون صور حسين فى البــاطنة •

٣٣ ــ قبيــلة الهــادبين :

إباضيو المذهب ، وهناويون ــ عددهم ألفان ويسكنون وادى عندام فى الشرقيــة •

٣٤ ــ قبيــلة بنى حراص :

إباضيو المذهب ، وغافريون ، عددهم خمسة عشر ألفــا يسكنون نخـــل .

٣٥ ــ قبيــلة الحرث :

إباضيو المذهب ، يسكنون أبرا ، الدرير ، القابل وعزوتهم أولاد يحمــد ، وهم فرع من بنى تمــيم ، هناويون ، قبيلتهــم واحــدة من أغنى وأكثر القبائل نفوذا فى الجزء الشرقى من عمان ، وهم يشتغلون بالزراعة والتجارة ، هاجر الكثير منهم إلى زنجبار ، حيث وصلوا إلى مراكز كبيرة ، وهناك خمس عشائر تابعة لقبيلة الحرث ، والقبيلة مقسمة إلى سبعة عشر فخذا ، يقيم التميمة فى قابل ، عددهم نحو عشرة آلاف نسمــة .

٣٦ ــ قبيــلة الحراسيس :

قبيلة عمانية ــ امتدت فى عمان من حضرموت ، وهى فرع من أسرة مهرا الكبيرة ، سنيون ويتبعون الغافرية .

٣٧ ــ قبيــلة بنى حسن :

إباضيو المذهب ــ عددهم سبعة آلاف ، هناويون .

٣٨ ــ قبيــلة الهدادبة :

قبيلة هناوية ــ وعددها خمسة آلاف تسكن فنجا ، وبدبد فى وادى السمائل ، ويسكن بعضها فى شيرز فى الباطنة ، وهم إباضيو المذهب .

٣٩ ـ قبيـــلة الحجريين :

هم أولاد عيسى ، إباضيون ، عـــددهم خمســـة عشر ألفا وفى الشرقية يعدون من القبائل الرئيسية ، ورغم أنهم فى الأســـاس حضر إلا أن عددا كبيرا منهم بدو ، يرعـــون الجمـــال ويتاجرون مـــع بومباى وزنجبار وفى الماضى كانت القبيلة أكثر أهمية ، وهم هناويون •

٤٠ ـ قبيـــلة الحكمان :

سنيو المذهب ـ هناويون ، عددهم خمسة آلاف يسكنون محوت وساحل بحر الحـــدرى •

٤١ ـ قبيـــلة الهـــواجر :

قبيلة صغيرة ، تسكن صور وجفا فى الشرقية عددها ثلاثة آلاف نسمة إباضيون ، وهناويون •

٤٢ ـ قبيـــلة الحواسنة :

هناويون سياسيا ، واباضيو المذهب ، يسكنون وادى حواسنه ، الفابوره عددهم من عشرة آلاف إلى اثنى عشر ألفـــا •

٤٣ ـ قبيـــلة الهيـــود :

يسكنون ريام فى الباطنة عددهم ألف وخمسمائة اباضيون وهناويون •

٤٤ ـ قبيـــلة العبريين :

قبيلة حضرية كبيرة ذات تأثير ، وتسكن بهلا والعوابى والحمرا والعراقى

وأرهل ، وهى قبيلة مسالمة تعدادها ثمانية آلاف ، إباضيو المذهب وغافريون ، يزرعون القمح والتمر •

٤٥ ــ قبيــلة بنى جابر :

وهم أولاد ظبيان ، من كتلة غطفان وينتمون إلى ظبيان واحد من أصل داحس ، وربما هاجروا إلى عمان قبل الإسلام وهم قبيلة كبيرة جــدا ومتفرقة ، تسكن جبل ياسر ووديانه المسماة باسمهم ، والتى تشمل مدن التاو ، سبها ، قلهات ، ضباب ، عددهم ثلاثون ألفا كلهم حضر ، إباضيو المذهب ، غافريون •

٤٦ ــ قبيــلة بنى كعب :

فى العراقى عددهم ثمانية آلاف من كتلة حمدان ، وفى عمان قطاع منهم يبلغ ألفا وهم يسكنون محضة فى الجــو ووادى القور ، سنيون وغافريون •

٤٧ ــ قبيــلة القشــابرة :

قبيلة صغيرة من أصل قحطانى ، عددهم مائتان يسكنون خور الملح فى الباطنة سنيو المذهب ، وهناويون •

٤٨ ــ قبيــلة البو كريم :

إباضيو المذهب ، يسكنون هجيره وظبيان فى الباطنة ، عددهم أربعة آلاف ، هناويون •

٤٩ ــ قبيــلة بنى قتب :

يسكنون ضنك وأفلاج فى الظاهرة ، عددهم ألفان ، وهم سنيو العقيدة ، وغافريون ، وهم قبيلة بدوية مقسمة الآن إلى قسمين : شمالى وجنوبى ،

يطلق على القسم الجنوبى اسم العشوانى ، والباطنة هى أرض الصيد المحببة لهم •

٥٠ ــ قبيــلة بنى كلبــان :

جزء سنيون وجزء إباضيون ، وعددهم خمسة آلاف يسكنون مقنيات بالظاهرة ، غافريون •

٥١ ــ قبيــلة الجهاظم :

أولاد جهظم ، هناويون أو يمنيون ، عددهم ألف وخمسمائة ويسكنون ســمد الشان فى الشرقية ، وهم إباضيون •

٥٢ ــ قبيــلة الجنبــة :

من أصل قحطانى ولكنهم غافريون ، تمتد أراضيهم من ميناء صور عبر الساحل إلى كوريا وموريا وعددهم ثلاثون ألفا ، وهم ينقسمون إلى أربعة أقسام مقسمة إلى العديد من البيوت وتمتلك القبيلة العديد من القوارب ، وتتاجر مع كل الموانى فى المحيط الهندى ، وقد كان ميناء صور هو المحطة الرئيسية للعبيد فى شرق الجزيرة العربية ، والصوريون هو الاسم المعروفة به قبيلة الجنبة ، وكان هذا الاسم يمثل رعبا فى المحيط الهندى فى العصور الماضية ، وسنيو المذهب •

٥٣ ــ قبيــلة الجــراد :

هناويون ، إباضـــيو المذهب ، عددهم ثلاثة آلاف ، يســكنون أبو مارجيكا والجراد فى الباطنة •

٥٤ ــ قبيــلة الجبــور :

عددهم خمسون ويسكنون سمائل ــ غافريون •

٥٥ — قبيلة بنى خالد :

قبيلة سنية تسكن أم الطايفة فى الباطنة ، عددهم ألفان ، وهم هناويون •

٥٦ — قبيلة الخميس :

هناويون يسكنون الخبا وشيبا فى الباطنة ، إباضيو المذهب ، عددهم أربعة آلاف •

٥٧ — قبيلة بنى خروص :

عددهم ١٥٠٠ يسكنون وادى بنى خروص وكذلك نخل والرستاق ، غافريون ، إباضيون •

٥٨ — قبيلة الحضارم :

قبيلة صغيرة عددها ألف نسمة ، وتسكن نخل ، وهم إباضيو المذهب ، غافريون •

٥٩ — قبيلة كندة :

قبيلة غافرية ، تسكن سمد الكند فى نزوى وعددها خمسمائة ، إباضيو المذهب •

٦٠ — قبيلة بنى قتب :

وهم غافريون يسكنون وادى الجزى ، عددهم خمسة آلاف ، سنيو المذهب •

٦١ ــ قبيــلة الكنــود :

غافريون ، عددهم ستة آلاف ، يسكنون نزوى ، وربما كانوا جزءا من قبيلة أخرى •

٦٢ ــ قبيــلة القواســم :

قبيلة قوية تسكن موانى البحر على الساحل وفى رأس الخيمة وخور فكان ، وعملهم الأصلى هو الصيد ، وهم من فرع قبيلة المعاول التى تقطن الساحل الفارسى من برودستان إلى بندر عباس ــ وشهرتهم الجواسم عددهم عشرون ألفــــا ، ســـنيو المذهب ، وغافريون ، أول شـــيوخهم هو الشيخ راشد بن مطر •

٦٣ ــ قبيــلة المعــاول :

هناويون يسكنون وادى المعاول وأفى ، عددهم خمســة عشر ألفــا ، إباضيو المذهب ، ومنذ القرن الخامس إلى العصر الإسلامى كانوا واحدة من القبائل التى تنتمى إليها الأسرة الحاكمة ، وعندما حدث الغزو الأزدى لعمان فى القرن الثانى نجد مالك بن فهم قائدا لها وغير محدد الأصل •

٦٤ ــ قبيــلة بنى محــارب :

عددها خمسمائة وتسكن وادى سمائل ، إباضيون وغافريون •

٦٥ ــ قبيــلة المجانبــة :

سنيو المذهب ، وهناويون ، عددهم ألف ويســكنون ودام فى الباطنة •

٦٦ ــ قبيـــلة المايحة :

جزء من بنى غافر انفصلوا عنهم وانضموا للهناويين ، ينحدر أصلهم عن هاشم عم النبى صلى الله عليه وسلم ، يسكنون وادى الرستاق .

٦٧ ــ قبيـــلة المقابيل :

سنيو المذهب ، عددهم خمسة آلاف ، يسكنون وادى المقابيل بالقرب من صحار بالباطنة ، غافريون .

٦٨ ــ قبيـــلة المحاريق :

إباضيو المذهب وغافريون ، عددهم ثلاثة آلاف يســـــكنون مدينة أدم فى عمان الحديثة .

٦٩ ــ قبيـــلة المشـــــارفة :

هناويون ، عددهم ألف وخمسمائة ، يسكنون الرفصه بالقرب من صور بالشرقية ، إباضيو المذهب .

٧٠ ــ قبيـــلة بنى مجلب :

قبيلة غافرية صغيرة ، تسكن سمائل ، عددها ثلاثمائة ، إباضيون .

٧١ ــ قبيـــلة المنازرة :

إباضيو المذهب ، ورغم ذلك فهم مرتبطون بالهناويين من أصـــل عدنانى ، عددهم ثلاثمائة ، يسكنون السليف فى الباطنة .

٧٢ ــ قبيــلة المنــاذره :

هناويون ، عددهم ألف وخمسمائة يســـكنون مدينـــة الحـــديد فى الباطنة ، إباضيو المذهب •

٧٣ ــ قبيــلة المرازيق :

أصلهم عدنانى ، رغم أنهم ينتمون الآن إلى الهناوية ، هاجروا من نجد إلى عمان ، يسكنون وادى حمام وصور عددهم ثلاثة آلاف ، سنيو المذهب •

٧٤ ــ قبيــلة المســاكرة :

غافريون ، يســـكنون أبرا اليحمـــدى فى الشرقيـــة ، عددهم ثمانية آلاف منقسمون إلى تسعة عشر فخذا ، إباضيو المذهب •

٧٥ ــ قبيــلة بنى مرزون :

غافريون ، يســكنون الرســتاق وسمائل ، عددهم خمسمائة ، إباضيون •

٧٦ ــ قبيــلة الموالك :

عددهم ستمائة ، هناويون •

٧٧ ــ قبيــلة المايحة :

ليست قبيلة محددة ولكنها قسم من بنى غافر ، انفصلوا عنه وهم الآن هناويون ، يسكنون الايريز والرستاق ، عددهم خمسة آلاف إباضيون ينحدرون عن هاشم عم الرسول عليه الصلاة والســلام •

٧٨ — قبيـــلة النعـــيم :

غافريون يسكنون الظاهرة عددهم عشرون ألفا ولديهم الكثير من القبائل التابعة ، ورغم انهم من أصل قحطانى فهم ينتمون إلى الغافريين ، وهم سنيو المذهب يسكنون البريمى ، ضنك ، القابل ، السنينه ، حقيث .

٧٩ — قبيـــلة بنى نبهـــان :

من أصل قحطانى ينتمون إلى الغافريين ، عددهم أربعمائة يسكنون سمائل وبوشر وهم إباضيو المذهب .

٨٠ — قبيـــلة الندابين :

اسمهم مشتق من نداب بن شمس ويعود أصلهم إلى سيف بن سليمان بن سعيد الندابى ، عددهم ألف ، وهم منقسمون إلى ثلاثة فخوذ ، يقطنون وادى إيك ، ورغم أنهم من أصل أزدى فمنهم غافريون وإباضيون .

٨١ — قبيـــلة نزار :

قبيلة عدنانية ، عددهم ستة آلاف ، إباضيو المذهب .

٨٢ — قبيـــلة النوافـــل :

هناويون وإباضيون عددهم ألفان وخمسمائة يسكنون قرى شعبه ودام فى الباطنة .

٨٣ ــ قبيــلة بنى عمــر :

قبيلة غافرية عددها ثلاثة عشر ألفا تسكن وادى الحراسنة فى الباطنة ، إباضيو المذهب •

٨٤ ــ قبيــلة يال عمير :

قبيلة غافرية تسكن فى الظاهرة ، سنيو المذهب •

٨٥ ــ قبيــلة البو راشــد :

عددهم خمسة آلاف تسكن الخورزا فى الباطنة ، إباضيو المذهب ، وهناويون •

٨٦ ــ قبيــلة بنى راسب :

يقال انهم يتبعون عبد الله بن وهب الراسبى وهم أول قبيلة قبلت تعاليم الإباضية ، عددهم ألف ومائتا نسمة يسكنون الوافى من جعلان ، وهم حضر يزرعون الفواكه والعنب والمانجو ، وهناك ثمانون جملا فقط فى القبيــلة •

٨٧ ــ قبيــلة الرحبيين :

عددهم ثمانية آلاف ، إباضيو المذهب ، وغافريون ينقســـمون إلى واحد وعشرين فخذا ، ويعود أصلهم إلى أرحاب بن دوم بن مالك بن معاويه بن كعب بن دومان بن باكيل بن جوشم بن خيمان بن نوف بن حمـــدان •

٨٨ — قبيـــلة بنى رياسه :

غافريون يسكنون الباطنة عددهم ستة آلاف سنيو المذهب .

٨٩ — قبيـــلة بنى ريام :

عشـــيرة هنـــاوية قوية تســـكن الجبـــل الأخضر ، مدنها نزوى وأزكى ... الخ ، ورغم أنها من أصل يمنى ، إلا أنها متصلة بالغافريين الآن وهى فرع من قمر الذى ترك اليمن من فترة بعيدة مع أبنـــاء عمومته المهريين واتجهوا شطر الشرق وواصلوا سيرهم إلى عمان حيث استولوا على سلسلة الجبل العظيم الذى أسموه على اسم بلادهم رضـــوان ، ويقول الهمدانى ان الريام كان منزل حمدان للحج وأن بعضا منه موجود حتى الآن ، وقد كان على قمة تل عطوه وأتى من بلاد حمدان فكان الذى أوجده هو ريام بن نحنان بن توبا بن زيد بن عمرو بن حمدان ، ولقد كان مقرا للحكم ، وقبل بوابته كانت الحديقة التى كان فيها تماثيل للشمس والقمر ، وعندما خرج الملك من منزله وقع نظره أولا على هذه التماثيل ، وعددها أربعة عشر ألفا ، إباضيو المذهب منقسمون إلى قسمين .

٩٠ — قبيـــلة بنى رواحة :

هذه القبيلة من كتلة غطفان ، وعلى ذلك فهى ترتبط برباط الدم مع الظبيان الذين يمثلهم فى عمان اليوم بنو جابر ، وهم هناويون ، اسمهم الحديث بنو عبس ، وهم واحدة من أول القبائل المهاجرة إلى عمـــان ، ودخلوها منذ ألف وأربعمائة عام ، وحرب الداحس واحدة من أكثر الحروب شهرة فى التاريخ العربى واعتزل قيس بن زهـــير شيخ عبس فى عمـــان عام ٦٠٠ قبل الميلاد كراهب مسيحى وتوفى فى صحار .ويقطن بنى رويحة

واديا خصبا سمى باسمهم يمتد من أزكى إلى السمايل ويشمل ثلاثين قرية معظمها بها أبراج وقلاع ، عددهم من ثمانية عشر ألفا إلى عشرين ألفا مقسمين إلى ثلاثين فخذا ولكل منهم شيخه الخاص ، حيث ليس هناك تميم ، وهم إباضيون .

٩١ ـ قبيلة يال سعد :

عددهم ستة آلاف مقسمون إلى ثمانية فخوذ تسكن ساحل الباطنة حوالى ٢٥ ميلا طولا حيث قرى مولودا وترمود والخضرا وتاريف وصور وجيرات ، ودام وصور الهايظ وصور المقنيات وبو عبالى والكارت ، وهناك عدد من القبائل الصغيرة تتبع يال سعد ، وكانوا يزرعون التمر والقمح ، إباضيو المذهب ، وهناويون .

٩٢ ـ قبيلة بنى سعده :

وعددهم خمسمائة يسكنون دوت فى الظاهرة ـ سنيو المذهب غافريون .

٩٣ ـ قبيلة البوسعيد :

قبيلة أزدية تسكن عمان الحديثة فى مدن أدم نزوى ، عز ، ماجور ... الخ ، وهناك قسم منهم فى الباطنة إباضيو المذهب وهناويون وتنتمى الأسرة الحاكمة الحالية إلى هذه القبيلة ، ومؤسسها هو السيد أحمد بن سعيد الذى أصبح إماما بعد وفاة بلعرب اليعربى فى عام ١٧٤٩ بعد الميلاد .

٩٤ ــ قبيــلة عبد الســلام :

قبيلة هناوية صغيرة فى الباطنة ، عددها ثلاثمائة نسمة ــ ســنيو المذهب •

٩٥ ــ قبيــلة السريريون :

قبيلة هناوية عددها أربعمائة تسكن نخل ــ إباضيون •

٩٦ ــ قبيــلة بنى شكيل :

تنتمى إلى عمرو بن صعصعه وهم أبناء عمومة للعوامر ، رغم أنهم فى حزب مختلف منهم غافريون عددهم خمسة آلاف ، يسكنون سيفام ، جابى ، بهلا ، باسية ، إباضيو المذهب •

٩٧ ــ قبيــلة الشرقيين :

قبيلة غافرية عددها ألفان تسكن وادى صم الفجير وهم سنيو المذهب •

٩٨ ــ قبيــلة الشــموش :

عددهــا خمسمائة تســكن خــورصمان فى الباطنة ، ســنيو المذهب وهناويون •

٩٩ ــ قبيــلة الشموح أو الشيهيين :

قبيــلة كبيرة يقال إنها من أصل حميرى ، وعددها ألف وخمسمائة تسكن رأس المسندم ولها عادات وتقاليد مختلفة ، تعيش على السمك ولبن الماعز ، سنيو المذهب ، وهناويون •

١٠٠ ــ قبيــلة الشياديين :

قبيلة صغيرة فى الباطنة تسكن صور الشياديين ، سنيو المذهب ، وهناويون •

١٠١ ــ قبيلة الســعبيين :

هم أولاد موجــاب عددهم ثمانيــة آلاف ، إباضــيو المذهب ، وغافريون •

١٠٢ ــ قبيــلة الصــوالح :

عددها ألفان وخمسمائة تسكن السويق فى الباطنة ، إباضيو المذهب ، وهناويون •

١٠٣ ــ قبيــلة الصــواوفة :

عددهم ثلاثمائة نسمة يقطنون السليف فى الظاهرة ، هناويون •

١٠٤ ــ قبيــلة بنى صبح :

قبيلة صغيرة غافرية ــ عددها ألف وخمسمائة ــ سنيو المذهب •

١٠٥ ــ قبيــلة بنى وهيب :

هناويون ــ إباضيو المذهب ، عددهم ستة آلاف نسمة •

١٠٦ ــ قبيــلة آل وهيبه :

قبيلة رعوية كبيرة فى الشرقية ، عددها ثلاثون ألفــا ، تملك أجمل الجمال فى العالم ، منقسمة إلى ستة فخوذ ، تسكن السديرة ، ويقال إن

بعضا من بنى صليب تحت حمايتها ، وليست عائلة الشيخ من القبيلة وهى قبيلة هناوية .

١٠٧ — قبيلة الوشاحات :

قبيلة هناوية تسكن وادى حتى ، وهم سنيون عددهم ألف ومائتان .

١٠٨ — قبيلة الورود :

هناويون ، إباضيو المذهب ، عددهم ألف وخمسمائة يسكنون وادى عزان فى الشرقية .

١٠٩ — قبيلة اليعاقيب :

قحطانيون ، يشملهم الآن الهناويون عددها ٤ آلاف تسكن عبرى فى الظاهرة ، إباضيو المذهب .

١١٠ — قبيلة اليعاربة :

ينتسبون إلى يعرب بن قحطان الذى أرخ له البعض فى عام ٨٠٠ قبل الميلاد ، والأصل يمنى يشملهم الغافريون ، وانتيت أسرة نبهان عام ٩٦٨ بعد الهجرة ، وبعد ٦٦ عاما أنشأ ناصر بن مرشد أسرة اليعاربة وعددهم خمسمائة وتقطن نخل والرستاق وسيجا .

١١١ — قبيلة اليمن :

قبيلة أزدية تسكن الحجر من أزكى فى عمان عددها خمسة آلاف هناويون إباضيو المذهب .

١١٢ ــ قبيــلة اليحمــد :

قبيلة صغيرة عدها ثلاثمائة تسكن بركا ونخل فى الباطنة ، إباضــيو المذهب وهناويون •

١١٣ ــ قبيــلة بنى يس :

قبيلة كبيرة ، نشأت حديثا فى عمان عددها خمسة آلاف من البــدو والحضر ، ومعظمهم من صيادى اللؤلؤ ، وتكمن قوة القبيلة فى اثنى عشر قبيلة أخــرى تتبعها ، لها مدينتان أساسيتان همــا أبو ظبى ودبى على الساحل وتمتد حتى البريمى •

١١٤ ــ قبيــلة بنى زيد :

تسكن غدافى الظاهرة وعددها خمسمائة ، إباضيو المذهب وجزء منهم سنيون ، غافريون •

١١٥ ــ قبيلة الزكاونة :

قبيلة هناوية ، عددها ألف وستمائة ، يقيمون فى سمد الشــــان بالشرقية ــ إباضيو المذهب •

١١٦ ــ قبيــلة الزعاب :

قبيلة هناوية عددها مائتان تسكن ثلاث قرى فى الباطنة رشاد الزعاب ، الروضة ، القشده ، وهم سنيو المذهب •

ملاحظـــات حول قائمة القبائل فى عمـــان :

أولا : عدد السكان بناء على هذه القائمة يصل إلى ٦٢٢٠٦٠ نسمة أو ما يزيد .

ثانيا : أن عدد القبائل يصل إلى مائة وستة عشر قبيلة ينقسمون من ناحية المذهب بين إباضـــيين وسنيين ، وهم ما بين غافريين وهناويين .

ثالثا : هناك ٦٨ قبيلة مذهبها الإباضية بنسبة مئوية تبلغ حوالى ٦٣٪ تقريبا بينما هناك ٤٤ قبيلة عقيدتها السنية بنسبة مئوية تبلغ حوالى ٤٠٪ تقريبا .

رابعا : هناك ٦٤ قبيلة تحت لواء الهناويين بنسبة مئوية تبلغ حوالى ٦٠٪ تقريبا و ٤٤ قبيلة تحت لواء الغافريين بنسبة تبلغ ٤٠٪ تقريبا من عدد القبائل .

الفصل السابع

تاريخ تجـــــــارة الخليج

مازال تاريخ الاستيطان الأول للمنطقة الشرقية لشبه الجزيرة العربية ومسار التداول التجارى بين سكانها وبين الأقطار الأخرى يحوطه الغموض ، وأقصى ما يمكن أن نكونه من آراء عن هذا الموضوع لابد وأن يعتمد على الاستنتاج والافتراض ، ومنذ عصور بعيدة كانت محاصيل ومنتجات هذه المنطقة تصدر الى مناطق بعيدة فى العالم ، كما أن انتقال تلك المنتجات لم يقتصر على حدود معينة ، فلقد كانت الحركة التجارية فى أوج قوتهـا عندما بدأ الناس يكتبون التاريخ •

ونظرا لقرب عمان من الهند والوضع التجارى فى الخليج الذى قامت على شواطئه أولى الحضارات المعروفة ، ونظرا لموقع الخليج الفريد وموانيه المناسبة وخلجانه التى يمكن للسفن أن تلجأ اليها ، بالإضافة الى وفرة مناطق الصيد فيه ، كل هذه العوامل قد اجتمعت لتجعل من الخليج مهد الملاحة ، وقد هيأ ذلك للعمانيين بأن يصبحوا رواد الملاحة فى التجـارة البحرية للشرق ، ولعل أعظم إنجاز تم فى هذا المضمار لإنشـاء أول صلات تجارية بين الشرق والغرب هو ذلك الإنجاز الذى قام به عرب عمان فى تلك الفـترة •

من هنا يمكن القول بأن الملاحة التجارية فى البحر العربى قد ترامنت على الأرجح مع فجر الحضارة ، وأن السكان الأوائل لجنـوب الجزيرة العربية وشرقها كانوا على الأرجح أول الأمم التى مارست الملاحة فى المحيط الهندى ، وأول من استورد المنتجات الشرقية لحساب الأقطـار الأخرى ، وفى الأيام الأولى من نشاط هؤلاء الملاحين ومغامراتهم كانوا

ينتقلون من منطقة الى أخرى باذلين جهودا نشطة بمراكبهم الصغيرة التى كانوا يبحرون بها عبر الشواطىء الآمنة إذا داهمتهم العواصف أو اضطربت الأحوال الجوية فى طريقهم • وبفضل مراقبة العرب للكواكب والنجـــوم وتتبعهم لمسارها أقلعوا عن الأساليب الملاحية القديمة ، وبدأوا يقومون برحلات بحرية طويلة المدى ، وتمكنوا بفضل الرياح الموسمية من الوصـــول الى مناطق بعيدة من العـــالم •

ولم تنل عمان من الشهرة ما نالته اليمن ، ويعود السبب فى ذلك الى أنه لم تكن هناك اتصالات برية بين عمان والغرب ، ولو أن عمان كانت فى موقع أفضل يتيح لها تسيير القوافل عبر الجزيرة العربية نفسها ، أو باختصار لو أن موقعها على الأرض كان موقعا فريدا كما كان ذلك فى البحر فلاشك أنها كانت ستستطيع فى تلك العصور أن تسيطر على تجارة الشرق كلها ، ولأصبحت دولة غنية وقوية• غير أن الصحراء الكبرى التى تفصلها ظلت عائقا منيعا ضد تدفق الاتصالات البرية منها واليها ، وبحكم تلك العزلة فقد اضطرت الى القيام بدور الدولة التجارية البحرية وباقامة علاقات تجارية مع الدول الأخرى • وعلى أية حال فإن الدور الذى قام به العمانيون فى مجال الملاحة التجارية القديمة لم يحظ بالتقييم وقد طواه النسيان ، على الرغم مما حققه العمانيون فى ذلك المضمار ، بل وأكثر مما حققه الهنود والمصريون والعراقيون فى إطار التجارة العالمية بين الشرق والغرب • ولعل أهم الأدلة التى فى حوزتنا عن هذا التبادل التجارى هى المعلومات التى وردت فى اللوحات المصرية والبابلية والنينوية ، وهى فترة تعود بنـــا الى الوراء ، الى خمسة آلاف عام قبل الميلاد •

ومنذ أن أخذت أقدم حضارتين ، وهما مصر والعراق ، يستقبلان منتجات الهند وبلاد الشرق الأقصى قبل ٥٠٠٠ عام تقريبا عمل العرب كوسطاء لتلك التجارة البحرية ، فكان يتم نقل السلع الهندية عبر الخليج

الى العراق وبابل ، والى غزة أو الكـويت ، ثم منهـا عبر الصحراء إلى فلسطين ومصر •

وكانت كبرى المدن الواقعة على نهرى دجلة والفرات من ناحية وفى مصر من ناحية أخرى هى المناطق التى كانت تستورد تلك السلع ، كما كانت تشجع تلك الخطوط التجارية التى كانت تغذى سكانها المتحضرين والمترفين بأنواع من التوابل والبخور وغيرها من المنتجات وفى نفس الوقت كانت تحقق الثروة والرخاء للعرب •

وكان اللبان من أقدم السلع التى كان العرب يقومون بنقلها على سفنهم ، وكان اللبان يحرق داخل الكنائس والتوابل ، والمر يستخدم فى تحنيط الموتى فى مصر ، وبالإضافة الى ذلك كانت هذه المدن تستورد الأحجار الكريمة والعطور وغيرها من السلع ويحدثنا هيروديتس بأن خبراء التحنيط فى مصر كانوا يستعملون أنقى أنواع الأكسيا والمر وكل أنواع التوابل فى عمليات التحنيط ، ولمـا كانت الجثث قد بدأ تحنيطها منذ عصور تاريخية بعيدة فإنه يمكن القول بأن التجارة بين الهند وشبه الجزيرة العربية يعود تاريخها الى نفس تلك الفـترة •

ويعتبر سيدنا يعقوب من الملمين بتاريخ اليمن ، وقد أشار فى مؤلفاته الى السلع التى كانت تتعامل فيها المنطقة • وكانت تجارة الهند عبر التاريخ مع مصر فى ذروتها خلال رحلات سيدنا ابراهيم ، وانتقال سيدنا يوسف الى مصر ، والقصة الأخيرة تؤيد وجود تجارة بين مصر وبين والهند ، لأن الجزيرة العربية لا تنتج التوابل والمؤرخون القدماء ليست لديهم فكرة واضحة عن البلاد التى كانت تأتى منها تلك السلع ، وكانوا يعرفون أن الجزيرة العربية لم تكن ترسل اليهم اللبان والمر والبلسم فحسب وإنما القرفة والأكاسيا أيضـا •

إن أول قافلة تجارية عرفها التاريخ هى تلك التى خرجت اثناء انتقال سيدنا يوسف الى مصر ، وكانت تلك القافلة قد خرجت من مصر فى طريقها الى جيليد فلقد كانت غزة منذ أقدم عصور التاريخ تقيم روابط تجارية واسعة مع الفينقيين ومع مملكة تبرا وكذلك مع بابل ، وتشمل التوابل والأقطان ، ومع البحرين التى كان يتم استيراد القطن اليها من الهند • أما غزه فقد كانت مركزا نشطا وسوقا قديمة من الأسواق التاريخية على الرغم من أنه لا توجد بقايا أثرية لتلك المملكة التى لم يكتف تجارها بجمع سلع الشرق النفيسة فحسب ، وإنما كانوا ينقلونها الى الهند أيضا • ويستطيع العمانيون أن يقولوا بأنهم أول من مارس الملاحة فى تاريخ المنطقة ، وإن كان لابد من الإشارة الى دور الفينقيين . وهم جنس كوشى نزح من إفريقيا الى الخليج عبر الجزيرة العربية وأقام فترة فى عمان حيث أنشأوا مدينة صور أو طيرة ، وكانت تلك أول مدينة يبنونها كما أنشأوا مدينة شبيهة لها فى البحر الأبيض المتوسط ، والاسمان متشابهان فى اللغة العربية ، وفى تركيب حروفهما ، وموقع كل منهما على أحد الصخور البارزة ، ومن الخليج انتقل الفينيقيون غربا الى البحر الأبيض المتوسط ، وهى المنطقة التى كانوا موجودين فيها منذ فجر التاريخ المعروف ، وبما أن شبه الجزيرة العربية لم تكن المعبر الوحيد الى الهند ، ولا الطريق الوحيد الذى تأتى من خلاله التوابل والأحجار الكريمة والمنسوجات القيمة فحسب وإنما كانت هى أيضا مصدرا لكثير من المنتجات الهامة ، فقد وجد الفينيقيون فيها حقلا تجاريا ومصدرا هاما للثروة • أما السلع التى كان العرب يقومون بتصريفها بين الفينيقيين فانها معروفة لنا تماما على عكس السلع الأخرى التى كان يتم التقايض بها ، فهذه غير معروفة ، وتعتمد على التخمين والافتراض ، وربما تكون من نوع السلع المصنعة والأقطان ومنسوجات اللينو والخزف والأدوات المعدنية والأوانى والحرير والمجوهرات واللعب والحلى • وبما أن عمان قد غدت بحكم ذلك النشاط بلدا غنيا بتجارتها ، فلقد كان منطقيا أن يقتنى أهلها كل صنوف المنتجات الكمالية كالمجوهرات والملابس والأدوات المعدنية وغيرها من المنتجات الفاخرة التى كانت تنتجها طيرة

ويحدثنا المؤرخ بلينى أن الفينيقيين فى الخليج كانوا يتنقلون من جزيرة الى أخرى بالعوامات ، ويذكر هيرودوتيس بأن الفينيقيين كانوا يشحنون سفنهم بمنتجات مصر وآشور ، مما يعنى بأن المنتجات الهندية كانت تنتقل الى مصر وآشور من جانب العرب • وعلى أية حال فلم تكن للفينيقيين سفن أو مستوطنات فى الخليج أو البحر العربى ، ولابد أنهم كانوا يحصلون على حاجاتهم من السلع من عرب عمان ، وكان يتم تسليمها فى غره أو تريدون •

وعلى عهد النبى موسى كانت التجارة مع الهند نشطة ، وكان الفينيقيون يبيعون شحنات التوابل التى يشترونها من عرب مسقط الى مصر •

وكانت مدينة أور الكلدانية ، والتى تسمى الآن مغير على الضفة اليمنى أو الغربية للفرات مدينة كبرى ومتماسكة ، وكانت مركزا لتجميع البضائع والسلع الأجنبية فى أسواقها ، وكانت تربطها علاقة تجارية واسعة بأسواق الخليج ، ولابد أن تكون تجارتها فى مستوى تجارة بابل من حيث الأهمية والوفرة •

أما أريدو بسبب وجودها فى الأسفل فقد كانت فى موقع أفضل وكانت تستهلك أكبر كمية من اللبان الذى كان يأتى به العمانيون فى الوقت الذى كان تجار أور يتلقون رسائل اللؤلؤ من البحرين ، والديورايت من مسقط (أى من عمان) والبخور من ظفار •

ولابد أن يكون عرب مسقط قد استهلوا نشاطهم التجارى البحرى فى فترة مبكرة جدا من التاريخ ، وقد ازدهرت أريدو بفضل نشاطها التجارى وهيمنت على أسواق كلوة وكان أول ملك تولى الحكم فيها ويدعى اربو فى سنة ٢٩٠٠ قبل الميلاد • ففى تلك الفترة كانت البلاد فى رقى حضارى ولابد أن يكون عرب عمان وعرب البحرين هم الذين يزودونها بحاجاتها من السلع

الهندية ، وكان ميناء غره أشهر ميناء فى الخليج ، غير أن مسقط وقيس وصحار كانت أسواقا ذائعة الصيت • وفى عهد الملك بختنصر كان الفينيقيون يحصلون على الجزء الأكبر من تجارتهم الشرقية من اليمن عن طريق البحر الأحمر ، وبالتالى فقد قرر ذلك الملك القيام باجراء مضاد لوقف ذلك النشاط ولتنمية الثروة القومية فى ممتلكاته عن طريق المشروعات العامة والحملات العسكرية ، كما بنى مدينة تريدون وجعلها مستودعا للسلع ، وبعد أن نجح فى تمهيد طريق الخليج المؤدى الى بابل شن هجوما على طيره عام ٥٨٥ ق•م وتمكن من تدميرها وبذلك سد الطريق التجارى الذى يمر من غربى شبه الجزيرة ، فقد كانت غره وجاراتها كمحطات تجارية أفضل من حيث الموقع من الموانى العمانية رغم أن هذه الأخيرة كانت أفضل الموانى كلها ، وذلك نظرا لقرب تلك المحطات من العواصم والأسواق الكبرى لسوريا والعراق ، ولكن وبسبب وعورة الطرق العمانية وخطورتها ، وبالتالى فقد كانت أنسب المواقع الصالحة للتجارة على الساحل العربى ، ومن هنا يمكن أن نضع أيدينا على الأسباب التى أدت الى اختيارها ، كما أنه من الممكن بالمثل أن نحدد الأسباب التى أدت الى شهرة مدينة غره فى الغرب على حساب مسقط أو صحار ، حيث كان يتم تفريغ البضائع المستوردة وشحنها فى أغلب الأحوال • ولم تكن غره قريبة من أرض الشام فحسب ، بل كانت سوقا للتجار الفينيقيين والإغريق الذين ساهموا بالطبع فى تعميم شهرتها ، وفى الوقت الذى بقيت الموانى العربية الأخرى والتى كانت تماثلها فى النشاط والثروة مجهولة •

وقد استمد كل من يعقوب واليشع وحزقيل وغيرهم من الأنبياء رموزهم وتشبيهاتهم واستعاراتهم وأبلغ مقولاتهم من حيوانات ونباتات شبه الجزيرة العربية ، ثم من عادات وأخلاقيات العرب • وتعتبر نظرية حزقيل عن جغرافيا العرب قائمة الى حد كبير ، ولعل أغرب ما فيها هو الخلط بين أسماء الأشياء والمناطق ، فهو لم يذكر شيئا عن ذلك البلد الذى يقع بين ريدان وكينى فيما عدا إشارته الى رامه ، وهى مكان معروف ، كما

أنه أشار الى الذهب كأحد السلع التجارية التى كانت تستورد من جنوب شبه الجزيرة العربية ، وان كان من المقطوع به أن الذهب المشار اليه كان مصدره الأصلى إفريقيا والهند ، رغم أن الهمذانى فى كتابه « الإكليل » يسرد عددا من أسماء مناجم الذهب فى اليمن • وكان اللبان مادة التصدير الرئيسية حيث كان الجانب الأكبر منه يأتى من الصومال لأن الكمية التى ترد من ظفار كانت محدودة • ونقرأ فى « سفر التكوين » روايات وقصصا عن سيدنا ابراهيم وسيدنا يوسف ، يقول بعضها أنه فى نحو العام الألفين قبل الميلاد اعتادت القوافل التجارية ان تخرج الى سوريا ومصر لتزويدها بالسلع والتوابل ، وأن هذا النظام كما يستنتج من ذلك كان معمولا به منذ آلاف السنين ، فالبلاد العربية كما هو معروف لا تنتج التوابل وأن المادة المحلية الوحيدة التى تصدرها والتى كان يتم نقلها على قوافلها التجارية هى البلح واللبان واللألىء • ولاشك أن أول طرق القوافل العربية هو طريق حضرموت • وكان يتم شحن القوافل باللبان والمر فى العاصمة التى يحتمل أن تكون سبأ ، ومنها تتحرك فى اتجاهين : الأول عن طريق مأرب ومكة الى أروم ومصر والثانى عبر طريق اليمامة الى غره أو القطيف حيث يتم اضافة سلع أخرى ، ثم تغادر القوافل الى بابل • وكانت شبه الجزيرة تنتج الذهب والأبنوس والأحجار النفيسة والعاج والحديد المطروق ، أما الأبنوس والعاج فليسا من المنتجات المحلية ، بل كان يستورد من الهند وافريقيا • أما الذهب والفضة والحديد والجواهر فمن المحتمل أنها كانت ترد من اليوم ، أما الفولاذ فقد كان يأتى من الهند لأن كلا من عمان واليمن كانتا مشهورتين بصناعة نصال السيوف والرماح وغيرها من الأسلحة الحديدية • أما مكيتا فقد كان سوقا للقرفة وما شابهها من المواد ، وربما كان مركز بيع وشراء التوابل كما يقول هيرين هو صور ، ويضـــيف بأن وجود سوق تجارية كهذه فى مدخل الخليج يؤيد ما ذهبنا اليه من وجود تجارة وعلاقات تجارية قديمة للهند مع مناطق الساحل العمانى ، وهو يعتقد أن القرفة هنا تعنى أعواد القصب ، وان الاسم مشتق من مدينة كين ، وهو اللفظ الذى يُطلق على قصب السكر فى اللغة الانجليزية ، وذلك على

غرار أحد التوابل الأخرى الذين اشتق اسمه من مدينة مكيتا .

أما الصادرات من بروش الى فارس فقد كان يتم نقلها على سفن كبيرة وكانت تشمل النحاس والأخشاب الثمينة كخشب الصندل والتيك (الساج) والخشب الأسود والأبنوس ، والصبر ، ثم يعود العرب العمانيون من تلك الرحلات محملين باللآلىء والأثواب الأرجوانية والبلح ، وهم يستعملون فى نقل تلك البضائع سفنا صغيرة ، وعلى الرغم من أن طريق الخليج التجارى أقدم بآلاف السنين عن طريق البحر الأحمر ، إلا أن الطريقين قد أخذا فيما بعد يتنافسان فيما بينهما ، وعلى كل فإن موقع العرب الجغرافى الفريد فى منتصف الطريق بين مصر والهند أتاح لهم أن يحتكروا التجارة ، ويصبحوا أول أمة تقوم بنشر الحضارة فى العالم باعتبارهم رواد مهنة الملاحة ، وهذا الاحتكار للتجارة مكنهم من إملاء شروطهم وتحقيق قفزات كبيرة فى مجال التطور والازدهار ، وكان طريق الخليج قد أثبت فعاليته قبل أن يمتد نشاطه التجارى على الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة العربية وصولا الى حضرموت وعدن ، ثم الى الساحل العربى منها ، أى الى مصر وسوريا .

وإن انشاء مدينة تدمر وغيرها من المدن التجارية من جانب الملك سليمان قد أعقبه تطور هائل فى حركة المواصلات المتجهة الى بابل والخليج . وقد بذل الملك سليمان جهودا جبارة لتشجيع استخدام هذا الطريق فى الوقت الذ ىكان يقوم بعمليات استكشاف على ساحل البحر الأحمر . وقد ازدهرت تلك التجارة محققة الرخاء لعرب عمان باعتبارهم أكبر الوسطاء التجاريين وناقلى المنتجات والسلع الشرقية حتى سقوط مدينة نينوى أمام جحافل سيكاريس سنة ٦٢٥ قبل الميلاد ، وسقوط بابل أمام زحف سيروس فى سنة ٥٥٩ . وخلال السبعة قرون التى ازدهرت فيها مدينة تدمر مرت فى سوريا شبكة واسعة من الطرق والفنادق التى أنشئت لصالح رجال القوافل العرب ، ومنذ أن اكتشف سكان المدن التجارية على ضفاف دجلة والفرات طبيعة وأهمية المنتجات الهندية والافريقية واصل عرب جنوب وشرقى

الجزيرة تزويدهم بمنتجات تلك الأقطار وبذلك تم وضع وتطوير حركة تجارية منتظمة بقيت احتكارا فى أيدى العرب ، ربما لآلاف السنين الى أن اكتشف المصريون طريق البحر الأحمر الذى ظهر كمنافس لطريق الهند ، وعلى الرغم من أن جزءا صغيرا من تجارة الهند كان بالطبع يمر عن طريق البحر الأحمر لعدة سنوات سابقة ، إلا أن طريق البحر الأحمر لم يتحول الى منافس خطير لطريق الخليج إلا بعد سنة ٥٠٠ قبل الميلاد نظرا لأن الطريق الذى يستخدمه المصريون والهنود والفينيقيون كان النشـــاط فيه متقطعا وعابرا بسبب الأخطار التى تحف به .

وفى تناولنا للحركة التجارية العظيمة بين الشرق والغرب فى العصور القديمة يجب أن نولى أهمية بالغة لدور طرق القوافل التى كانت تغطى شبه الجزيرة العربية فى كل الاتجاهات ، وتقدم خدمة لا غنى عنها لتجـــارة المنطقة ، لقد كانت شبه الجزيرة العربية بالتأكيد بلد القوافل ، وسواء كان التبادل التجارى يتم عن طريق الخليج أو طريق عدن وكين ، فقـــد كان الجمل ، سفينة الصحراء ، وسيلة النقل الوحيدة للبضائع . ويمكننا أن نسرد طرق القوافل العاملة فى تلك الفترة بشىء من التفصيل : تدمر ، وبطرا ، وعدن ، وموسى ، وكين ، وظفار ، ومأرب ، وسبأ ، وصور ، ومسقط ، وصحار ، وغره ، والكويت ، وبابل ، وكانت كل هذه المدن هى مناطق الترانزيت والتوزيع للتجارة الهندية ، وحيث كان يلتقى عدد غفير من التجار والمتعاملين فى الرقيق والوكلاء والرحالة وغيرهم للحصول والاتجار فى كماليات وتحف الهند . وكانت هذه القوافل تسير تحت قيادة أمير أو قبطان يتولى مع معاونيه توجيه القافلة ونصب الخيام ، وتنظيم تحركات المسافرين ، وتعتبر كلمته بمثابة القانون ، وكان هذا النظام متكاملا بمعنى ان القافلة تصطحب كل متطلبات الرحلة معها ، وباستثناء الطرق التى يتوفر فيها الماء بكثرة ، فقد كان يتم تنظيم القوافل فى مجموعات صغيرة ، واذا كانت حمولة البضائع كبيرة فقد كانت القوافل تسير بسرعة نظرا لخطورة ارسال قوافل فى مجموعات كبيرة فى مناطق يتعذر وجود المـــاء فيها ، غير

أن بعض الخطوط كانت تتألف من آلاف المسافرين والجمال • ولم تكن الحاجة تدعو الى خفراء للقافلة ، ولمعالجة موضوع حماية القافلة ضد الغارات كانت تستخدم طريقتان كما هى الحال الآن • إحداهما عن طريق تقديم الدعم المالى للقبائل المعاونة والأخرى بوضع القافلة تحت سلطة وحماية إحدى القبائل أو مجموعة من القبائل ذات الحول والطول ، وفى وسع هذه القبيلة عادة أن توفر الحماية اللازمة للقافلة نظير استئجار مجموعة جمال القافلة منها • وعلى أية حال فقد كانت وظيفة حامى القافلة خطيرة وشاقة ، ولمثل تلك المسئولية الحساسة كان يتعين اختيار الشخص القادر على أن يتولى المسئولية الكاملة لحماية أرواح وممتلكات العديد من الأفراد • وكان للقوافل استراحات ومراكز ترفيهية عبر الوديان ، وعلى المساعدين للقائد تقع مسئولية اختيار الأماكن أو المحطات التى تعسكر فيها مع ضمان وجود موارد للماء والغذاء والوقود والرعى ••• الخ •

لمحـــة عن التجـــارة العربية

لقد هاجر سيدنا محمد صلى الله عليم وسلم من مكة الى المدينة فى عهد الامبراطور هرقل ، وسرعان ما أدرك العالم بأن العرب قد انتفضوا كشعب فاتح يقوم بنشر العقيدة الجديدة فى البلدان المجاورة ويسعى الى وضع أسس امبراطورية وحضارة جديدتين ، ولقد كان من أولى نتائج تلك الحركة الجديدة هو تغيير مسار التجارة بين الشرق والغرب ليعود الى أقدم قنواته وأكثرها شرعية ، ونعنى بها طريق الخليج ، ولابد أن نضفى على سيدنا محمـــد هالة الحكمة والحصافة فى تشجيعه للتجارة والتبشير بها كواجب دينى فى محكم الكتاب ، وأصبحت دمشق المركز التجارى فى سوريا بينما اتخذت فى العراق والكوفة والواسط والبصرة والموصل ، كما أن همدان واصفهان وشيراز أصبحت مراكز وأسواقا تجارية هامة • وعلى كل فإن التجارة لم تتطور الى ذروتها دفعة واحدة ، فلقد كان العرب مشغولين بالفتوحات وكانت قعقعة السلاح لا تسمح لهم بالالتفات الى هذه المسألة ، غير أنه بعد أن أخذت مراكز الحكم تنتقل من منطقة الى أخرى فمن المدينة الى دمشق ، ومن دمشق الى الكوفة ، ومن الكوفة الى بغداد انبعثت مدن كثيرة فى كل مكان مما جعل أسواقها الزاهرة تساهم فى تشجيع وتوســـيع التجارة التى ازدهرت وتعاظمت بصورة مذهلة •

لقد أسست مدينة بغداد سنة ١٤٤ ب هـ (٧٦١ ب م) على الضفـــة الغربية أيام الخليفة المنصور ، وهو نفس الموقع الذى سبق ان اختاره الملك بختنصر لعاصمته ؛ غير أن الخليفة المهـــدى نجل المنصـــور عاد فأنشـــأ العاصمة على الضفة الشرقية ، بحيث تفوقت بمرور الوقت على العاصمة الأولى ، وقد سميت بمدينة الســـلام ، فقد كانت هناك نبوءة بأنه لن يموت أى خليفة داخل أسوارها ، ومن الغريب أن ثلاثة عشر خليفة كلهم توفوا خارجها • ومنذ عهـــد المنصـــور أخذت العلوم والآداب حظها من التطور والازدهار ، فقد وجه العرب اهتمامهم إلى كل ناحية ، وإن عمليات الترجمة

من الإغريقية التى حققها المـأمون قـد غرست دما جديدا فى عملية البحوث والدراسـات الأكاديمية بحيث أن تلك المرحلـة المجيـدة فى التـاريخ العربى قد ضاهت بل وتفوقت على العصـور الذهبية للحضـارة الإغريقية والرومانية ، وكمـا يقول هامبلوت (Hum Boolt) [1] أن نشـاط العرب الأدبى والذى لم يسبق له نظير قـد فتح مرحلة متميزة فى تاريخ العالم » وهكذا أخذ التجار والوكلاء العرب يبحثون بحرص عن التحف والطرائف والكتب وغيرها لتقديمها هدايا للخلفاء ، كما أن فئة أخرى منهم تجار ورحالة أخذوا يطبقون وصية الرسـول صلى الله عليه وسلم متنقلين من قطر إلى آخـر طلبا للعلم ، وعندمـا كانت أوروبا لاتزال تعتقد بأن الأرض مسطحة وكان أهلها يحرقون أصحاب الأفكار الحرة ، كان العرب يدرسون الجغرافيا باستخدام مجسم الكرة الأرضية • كمـا أن التقـدم الذى حققه العرب فى الفنون الحضارية والانكباب الرائع على العلوم كان سريعا ومذهلا ، بل لا يقل سرعة واذهالا عن فتوحاتهم العسكرية واكتشافاتهم البحرية والتجارية •

ويعود الفضـل إلى العرب فيما أظهروه من شجاعة وأصالة فى اكتشاف كثير من المناطق المجهولة فى العالم ودفع عجلة الاكتشافات البحرية والملاحية حتى آخر حدود الدنيا معرضين أنفسهم لأخطارها وبذلك وسعوا من آفاق التجارة على امتداد القارات الثلاث أوروبا وآسيا وافريقيا •

وإن أقدم إشـارة فى الفكر العربى عن تفوق عرب عمان هو ماورد فى سـورة الكهف فى القرآن الكريم [2] ويرى بعض الكتاب أن الملك الذى جـاء ذكره فى القرآن هـو الجلندى ابن كركر أو منمار ابن الجلندى أحد أفراد أسرة الجلنديين الأزدية الذى كان يحكم عمان ، ولعل ديوى وغيره من الكتاب الملمين بالقصـة الواردة فى القرآن يعلمون أنها وقعت فى عمـان،

---

(١) كاتب وعالم المـانى .

(٢) هذا الرأى هو رأى المؤلف . الآية ٧٩ .

وبالتالى فيلس هناك ما يدعـو إلى الشـك فى أن نسبة القصـة إلى عمان تقـوم على أسـاس سليم ، وهى تدل على أن عرب عمـان كانوا سـادة البحار قبل ظهور الإسـلام ولم يكن لهم منافس فى هـذا المضمار على الاطلاق .

ان اجتياح مصر عام ٦٣٠ بعـد الميـلاد عرض الأسكندرية للنهب والتدمير ، وبذلك جرد الإغريق من تجارة الهند وسدد ضربة ساحقة لخط البحر الأحمر والذى ظل لفترة من الوقت احتكارا تاما للعرب ، وهكـذا تعرض التجار الإغريق والبيزنطيين للخسـارة ، ورغبة من الخليفة عمر بن الخطاب فى الاحتفاظ بطريق الخليج البحرى مفتوحا أمر بانشـاء مدينة البصرة فى شط العرب عام ١٥ بعد الهجرة أى ٦٩٦ م ، وقـد اجتذبت البصرة كثيرا من العرب ، كمـا انشئت مدينة الكوفة فى نفس الفترة أيضا وبنفس الطريقة ، ثم تبع ذلك إرسال الحملات العسـكرية إلى عمان وصحار وسواحل بومباى والمدن الواقعة على نهر الأندس ، على الرغم من أن كل تلك المحاولات لم تكن أعمال مرتزقة بقدر ما كانت خطوات دينية وسياسية .

وبعد أربع سنوات من إنشـاء للبصرة أرسل الخليفة عمر بن الخطاب القائد العربى سعد بن وقاص إلى فارس ، وفى معركة القادسية التى أبيد فيها الساسانيون وملوكهم ، بعد فرض الحصـار على مديا واكتساحها ، وقـد أسفرت تلك الحملات عن منافع مادية كبيرة فتحت عيون العـرب على حجم وتنوع وقيمـة تجارة الخليج مع الهند .

وفى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك أرسـل الحجاج حملة للاستيلاء على السند عام ٧١٢ انتقاما لبعض الحجاج المسلمين ، وقـد شجع ذلك النجاح العرب على المزيد من المحاولات فى مضمار الفتح والتجارة . ومنذ ذلك الوقت قطع عرب عمان والبصرة أشواطا سريعة خاصـة ، وأن عرب عمان لم يتوقفوا عن عملياتهم التجارية مع الهنـد ، وفى توسيع نطـاق نشاطاتهم التجارية ، الأمر الذى تمخض عن قيام المـدن التجارية كمليبار

وسيلان والجـزر الشرقيـة والصين • ويمكن الوقوف على تفاصيل تلك النشاطات التجارية فى المؤلفات العربيـة •

وسرعان ما أدرك الحكام العرب أهمية الهند التجارية فحذوا حـذو الحكام الساسانيين ، وإنمـا بروح أعلى وطاقات أكبر ، فأخذوا يشجعون تجارهم وملاحيهم على الإبحار إلى ما وراء الحدود القديمة ، وجلب منتجات الصين إلى أسـواق الخليج مباشرة ، وهكذا تم تفريغ السلع النادرة والثمينة من السفن العربيـة والصينية فى موانىء صحـار والبصرة بتكاليف أقل من كل ما عرف فى السـابق • وهكـذا أصبح الخليج مركزا هاما للتجـارة البحرية ولمـا كان الخليفة يومئذ يهيمن على كل طرق المواصلات الدولية إلى سـوريا والعراق وفارس وغيرها ، فان التجارة العربية قد بذت ماوصلت إليـه تجارة الأسكندرية أو طيره حتى فى قمة مجدها •

وقبل القرن التاسع عاد عرب عمان إلى التجارة مع كانتون فى الصين ولم يكن قليلا عدد الوكلاء التجاريين وملاك السفن الذين استقروا فى سيام وفى جاوا وسومطره وغيرها من جزر جنوب شرقى آسيا ، وبما أن العرب الذين توجهوا إلى تلك الأنحاء قد تزوجوا من تلك البلاد وأسسوا بيوتا أسرية فإن لغتهم سرعان ما دخلت إلى صلب تلك البلدان ، بل وأصبحت لغة التخاطب أو اللغة المشتركة من المناطق الواقعة فيما بين عمان والصين ، وكانت زعانف السمك أهم مادة سلعية يرسلها العرب إلى الصين فى تلك الأيام كما هى الآن ، كمـا كانوا يصدرون لها اللالىء والسجاجيد والجواهر والأقمشة الصوفية ويستوردون فى مقابلها الخزف والحرير •

وكان لمغامرات العرب وشجاعتهم تأثير فعـال على الصينيين الذين كانوا معزولين عن العالم ، ولكنهم أفاقوا وأخذوا يبنون السفن العابرة للمحيطات ويشحنون منتجاتهم فيها ويلاحقون العرب فى عقر دارهم ، وكان يتم تفريغ البضائع الصينية فى موانى مسقط وسيراف التى أنشأ الصينيون

فيها مرسى أو مرفأ خاصا بهم يسمى مكلاشينى (أى الميناء الصينى) أما قبل ذلك فانهم لم يغامروا بالوصول غربا إلى ابعد من سيلان (سيرالانكا الآن) لكنهم بحكم ذلك أخذوا يبحرون إلى كيب كمبرون بل وإلى ميناء البصرة • وعلى أية حال فإن ثورة ٢٦٤ هـ (٨٧٧ م) وضعت نهاية لرحلات السفن الصينية إلى مسقط ، كما حالت بين عرب عمان والسفر إلى كانتون ، ولكن العرب والصينيين قد أخذوا فيما بعد ولبعض الوقت يلتقون فى سيلان (سيرالانكا) •

وفى عهد الخليفة المعتز ٢٥٢ — ٢٥٦ هـ (٨٦٩ — ٨٦٦ م) عكف العرب على دراسة مشاكلهم التجارية على ضوء العلم ، وألفوا عددا كبيرا من الكتب حول هذا الموضوع ، فقد ألف الجاحظ المتوفى ٢٥٥ هـ (٨٦٨ م) كتابه « النادر فى التجارة » الذى ضاع ، والمدينى ألف كتابا آخر • وقد سارت الرغبة فى الأسفار والرحلات جنبا إلى جنب مع التقدم الحضارى وتطور خلالهما كل من علوم التجارة والجغرافيا ، وبينما كان علماء الدين والأدباء والمؤرخون العرب كالمسعودى يجوبون الآفاق ويجمعون بين التجارة والعلم وبينما كانوا يبادلون منتجات المناخات المتنوعة لامبراطوريتهم الواسعة كانوا أيضا يبادلون عندهم الأفكار والنظريات فى شتى المسائل والموضوعات • وقد أظهر العرب فى رحلاتهم الملاحية قدرا كبيرا من الجرأة والبراعة ومن المحتمل أنهم أول من استخدم الاصطرلاب وهو جهاز تحديد خطوط الطول والعرض ، وكانت خبرتهم بجغرافية الشرق أكثر مما نتصور ، غير أن أعظم بحث علمى أنجزه العرب هو كتابهم « رسم الأرض » الذى يعتقد أنه ضاع •

كذلك قام العرب بتبسيط علوم الكون عن طريق تقسيم المحيط الهندى إلى سبعة بحار ، وأطلقوا على الأول (بحرهم الخاص ، الخليج) والذى تضم شواطؤه خمسة موانى اشتهرت عالميا : البصرة ، والبحرين ، وسيراف ، وصحار ، ومسقط •

أن أول رحلة بحرية بالسفن من البصرة أو من ميناء سيراف قد اتجهت إلى مسقط فى عمان ، ومن هناك أبحرت فى رحلتها التالية فى البحر الثانى (لاريوى) أو البحر الغربى أو الطرف الشمالى للحميط الهندى ، والمرحلة التالية هى كشم مالى ، ومن هـذا الميناء كانت الرحلة تستغرق شهرا واحدا يصلون بعدها إلى جزر نوكابر ، ومن سيلان إلى نوكابر وجزر اندمان يسمى البحر خورقند ، ومن اندمان كانوا يبحرون إلى كلامبار ، وهو ميناء ملقا وسوقها التجارى الهام الذى تحدث عنه أبو الفداء فى سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣١ م) ووصفه بأنه المركز التجارى الرئيسى فيما بين عمان والصين حيث كان يضم كثيرا من التجار ورجال الأعمال الأجانب من العرب والصينيين والفرس والهنود ، وكانت هـذه السوق التجارية تابعة لجاوا التى كانت على جانب كبير من الثراء وكثافة السكان ، أما موقع البحر الرابع (شلاحات) فهو غامض ولايمكن تحديده وبالمثل البحر الخامس كدرون أما البحر السادس (صنيف) وكان موقعه وراء كوشين فى الصين وهو يضم خليج تونكن ، وقد تفرع هـذا من البحر السابع (سيجين) ويفصله عنه خليج هينان مدخل الصين ، ويقع بحر سيجى على الساحل الشرقى للصين ، ويضم موانى كثيرة وبخاصة الميناء الغربى الصينى ويسمى جاميو أو خنجى ، وقد أشاد به المؤلفون العرب وكان يعرف فى العصور الوسطى ببحر خنسا أو كيونسي ويسمى الآن هانشن فو • أما من حيث أن العرب قد توسعوا فى الاتجار فى السلع الهندية والصينية وتفوقوا على كل من عداهم فى هذه التجارة فمسألة لا تحتمل النقاش ، وكانت تلك السلع الشرقية كلها تتدفق على العراق وسوريا وفارس نظرا لأن الأقطار العربية كانت معزولة عن الاشتراك فى تلك التجارة من جانب العرب الذين كانوا يستحوذون على كل تلك المنتجات ولا يسمحون للغربيين بالاتجار فيها •

وقد قام الخلفاء العباسيون الأوائل بإنشاء مدينة بغداد والتى سرعان ما غدت من أغنى وأعظم المدن فى العالم ، وفى هـذه العاصمة الإسلامية المزدهرة كان المنصور يرعى الفكر والأدب ، واستطاع أن يرقى

بالحضارة العربيـــة إلى أعلى الذرى بشكل يفوق أى عاصمة أو قطر آخر • والواقع أن البذخ والترف والأبهة التى كان يعيش فيها بعض الخلفـــاء المسلمين العرب فى بغداد تكشف عن الازدهار والنشـــاط التجارى الـــذى كانت تحفل به المدن العربية ، وعن حجم البضائع الأجنبية التى كانت تتدفق فى سيل لا ينقطع على العاصمـــة الإسلامية ، وإن روعة بغداد وثراءها كان يتمثل فى تلك الأزياء والمجوهرات والحلى الثمينة الفاخرة التى كانت ترتديها النســـاء العربيات وفى ملابسهن الزاهيـــة وشالاتهن المزركشـــة وأرديتهن المطرزة بالذهب والفضة وفساتينهن الحريرية وغيرها من أدوات الأناقة وفى الحلى والجواهر وأوانى الذهب والفضـــة والخزف الصينى ، وأشياء كثيرة من أجمل وأرقى أدوات الزينة والتحف التى كانت نســـاء الطبقات الراقية تقتنيها • ويحدثنا وارسى بأن الكميات الهائلة من العملات والحلى الفضـــة العربية القديمـــة التى تم الكشف عنها مؤخرا على ساحل البلطيق وانجلترا وغيرها من المناطق تكشف عن تجارة واسعـــة بين تلك البلدان وشبه الجزيرة خلال القرنين الثامن والتاســـع من عصرنا • وفى متحف ستوكهلم ما يزيد على ٢٠٠٠٠ عملة صكت فى نحو سبعين منطقة فى شمال وشرق الامبراطورية العربية ، وأكثر من ثلاثـــة أرباعها صكت فى فى القرنين التاسع والعاشر • ويبدو أن مدينة جوتلاند ، بصـــورة خاصة كانت أكبر أســـواق العبيد ومركز تجارة نشطة • وكان الطريق الذى يسلكه التجار العرب بحمولاتهم من السلع والعبيد تمر عبر أنهار زوبيا بعـــد خروجهم من نيبسى ومنها إلى بحر قزوين فبغداد ، وقد أشـــادت الملاحم وكتب الأدب العربية بذلك النشـــاط التجارى غير العادى ، كمـــا أن قراصنة بحر الشمال لم يكونوا محاربين فحسب بل وتجارا ماهرين ، فكانوا يحملون تجارتهم وتجارة العرب فى سفنهم إلى انجلترا •

ولمـــا كان العرب يحتكرون اقتناء الكماليات والسلع الثمينة من صنع الهند لأنفسهم فإن التجـــار الإغريق والرومان كانوا يلاقـــون كثيرا من الصعوبة للحصول على ما يريدون من تلك السلع ، لإرضـــاء ذوق الأوربيين

وتلهفهم على السلع والمرفهات الشرقية كما أدى إلى ارتفاع أسعار الحرير واللآلىء وغيرها من المنتجات ارتفاعا خياليا فى كل من روما والقسطنطينية • وعلى أية حال فإن ارتفاع الأسعار كان فى الوقت نفسه حافزا للتجار الذين ظلوا يبحثون عن طرق جديدة لتجارة الهند •

فى ذلك الوقت كانت الإسكندرية تحت الحكم الإسلامى الذى كان يفرض رسوما جمركية باهظة على التجار الأوربيين • ولهذا فقد تمكن الأوربيون من إيجاد طرق جديدة عبر القسطنطينية إلى بحر قزوين ، ومنه إلى الأوكسس ثم إلى نهر الاندس فى الهند والعودة من نفس الطريق ، وحتى هذا الطريق كان لابد أن يمر من الأراض الإسلامية التى كانت تفرض تعريفة جمركية عالية ، فضلا عما كان يكمن فيه من أخطار الحروب والصراعات الأسرية ، شأنه شأن غيره من الطرق التى كان يستخدمها التجار •

وقد غدت مدينة القسطنطينية بفضل تلك التجارة منافسا خطيرا للاسكندرية الإسلامية وسوقا حرة للتجار الأوربيين الذين يتعاملون فى المنتجات الهندية ، وأخذت تدريجيا تمتص الجانب الأكبر من التجارة التى تمر عبر البحر الأحمر والخليج وعبر الطرق البرية • كما كانت حياة الثراء والترف العربية حافزا كبيرا لتجارة الشعوب الواقعة على الشاطىء الشمالى للبحر الأبيض المتوسط وتطور ذوقها من ناحية أخرى • وبفضل النشاط التجارى أزدهرت مدن عديدة كبلخ ، ونيسابور ، ومرو ، وحيرات ، وسمرقند ، تحت حماية الحكم العربى بشكل لم يسبق له مثيل ، وصاحب ذلك ازدهار الصناعة ، وأخذ التجار يقومون بجمع ما تنتجه المدن الصغيرة لبيعه فى المدن والعواصم الكبرى ، وهكذا تطورت التجارة ، كما أن طريق قوافل الحج إلى مكة قد ساهمت فى تطور التجارة ، وغدت مكة مدينة كبرى وغنية ، كما كانت ملتقى لمسلمى شرق آسيا وإفريقيا ، وفضلا عن ذلك فقد كان للصليبيين دور كبير فى تنمية الحضارة الأوربية وتطورها عن

طريق توثيق الروابط بين الشعوب الشرقية والغربية ، وفى تطوير ونشر الثقافة وفى إزالة العصبيات ، وفى حث كل طرف على احترام الطرف الآخر وفى خلق تعارف وصداقات متبادلة •

وكان يتم تدريب الطفل العربى منذ الصغر على مراقبة النجوم ثم سرعان ما يستخدم هذا فى الاستعانة بها فى سيره والاسترشاد بها سواء فى الصحارى أو فى البحار • وبفضل معرفة العربى بالأفلاك والنجوم يستطيع أن يشق طريقه وسط الظلام • كما أنه تعرف كيف يسترشد بالنجوم فى رحلاته البرية والبحرية • وهو يظل يتذكر الاتجاه الذى كان يسير فيه بالليل ليستعين بها فى رحلاته فى النهار •

ويكاد يكون من الأمور المسلم بها أن الفضل فى اختراع البوصلة الملاحية (الإبرة المغناطيسية) انما يعود إلى العرب الذين كانوا فى الوقت نفسه سادة أوروبا فى العلوم والفنون • وثمة مؤلفان هامان يشهدان للعرب بذلك الفضل ، وقد ظهر هذان الكتابان فى القرن الثانى عشر ، وقد جاء فى أحدهما أن الملاحين العرب كانوا يستخدمون الإبرة التى كانت تحدد لهما وجهة السير • ولو كان الأوربيون هم الذين اخترعوا البوصلة لكنا بالطبع قد سمعنا بذلك الأختراع ، ولكن الأوربيين قد استعاروها من العرب خلال اللقاءات والاحتكاكات التجارية والملاحية بهم ، وقد بقى أصلها عندنا مجهولا ، ولم تكن البوصلة سابقا تستخدم فى الملاحة وإنما فيما هو أهم بالنسبة للمسلمين أى للتعريف بالقبلة التى يتجه اليها المسلمون وقت الصلاة ، ولعل أحد أسمائها فى الفارسية وهو (قبلة نامه) لاعلاقة له بالملاحة اطلاقا • وهكذا فإننا إذ ذكرنا التقدم العلمى المذهل الذى حققه العرب باختراعهم لعلوم الجبر والمثلثات الكروية والمعادلات الرباعية والجغرافيا الرياضية فلا ينبغى أن نستغرب إذا عرفنا أنهم هم الذين اخترعوا الإبرة المغناطيسية •

أما هامبيليوت فإنه يعزو اكتشاف علوم الفيزياء الرياضية إلى

العرب وحدهم ، كما يعـود الفضـل إليهم فى اختراع الورق والبارود ، وبما أن العرب هم الذين أدخلوا استعمال العملة إلى الصين فإنهم هم الذين علموا الشعوب الغربية ثلاثة أو أربعة اختراعات ساهمت إلى حـد بعيد فى نشر الأدب ، وأدخلت ثورة فى فنون الحرب ، كمـا مكنوا الغربيين من اكتشـاف العالم ورسم خرائط لـه كذلك من المحتمل جـدا أن يكـون العرب هم الذين اخترعوا الساعة ، وكان الورق الحريرى يصنع سابقا فى مدينة سمرقند ومدينة بخارى فى العام الثلاثين من الهجرة (٦٥٠ م) أمـا فى أسبانيا فقد كان يصنع الورق من قماشى الليبر والقنب • ويذكر الإدريسى أن الورق كان يصنع فى شتيفا • وفى القرن الثالث عشر من عصرنا وصل الـورق العربى إلى فرنسـا وانجلترا والمـانيا وايطاليا ، وكانت المخطوطات العربية تحظى بالإعجاب فى أوروبا لجمالها الفنى وطريقة كتابتها • ففى تلك الأيام كان العرب يسبقوننا ، وكانوا أساتذة فى الكثير من العلوم • أمـا فيما يختص بعلم الميكانيكا فقد نال العرب شهرة عالمية فى النحت وصناعة السكاكين والأدوات القاطعة والدباغة والنسيج والسباكـة وكانت الدروع والنصال والسجاجيد والمصنوعات الصوفية ، والتى يعتبر الشال الكشميرى الصنع مجرد تقليد ونقل لها ، ولم يكن تضارعها صناعة أخرى فى أوروبـا •

أمـا الفرس فقد اشتهروا بالصناعات اليدوية وبمنتجاتهم التى تعتبر فى غاية الدقة الفنية ، وان دقة وذوق وجمال بعض تلك المصنوعات لا يضارعها فيـه أمـة ، قديمة أو حديثة كالمنسوجـات القطنية والأدوات الفضيـة والذهبية المطلية ومنتجات الخزف والأقمشـة المطرزة بالذهب ، والفضـة والأسلحة والشالات الصوفية والسجاجيد والحلى الذهبية والفضية •

وكانت المقايضة هى الطريقة التى يتعامل فيها العرب مع إفريقيا . وليس بالعملات ، كمـا كان الحال مع الأقطار الأخرى وكانوا يصدرون اليها الأقمشـة القطنية والزنانير والملح والفضـة والنحاس مقابل العاج

وغيره من السلع • وكانت بغداد تدفع بالنقد أثمان السلع التى تستوردها من الخارج (وكان النقد وفيرا) ، كما كان لديها كثير من المنتجات التى كانت تقوم بتصريفها كالأقمشة القطنية والصوفية مع جميع الأصناف من السجاجيد البغدادية والزجاج الذى كان يصنع فى القادسية فى العراق ••• الخ ، والأقمشة المخططة من اليمن واللبان من حضرموت والمطرزات من عمان • وكانت هذه السلع تلقى طلبا كبيرا لها فى إفريقيا • كما كانت تشتهر البحرين بصناعة الأشرعة والخيام ، كما كان إقليم فارس يصدر الأقمشة الصوفية ، بينما كانت مصر تصدر أوراق البردى ، والجدير بالذكر أن قماش الموسلين قد استمد اسمه من الموصل والدمشقى من دمشق والكاليكو (الشيت الخام) من كاليكوت فى الهند •

وقد تم إنشاء الكثير من الفبارك والمصنوعات لإشباع رغبة الطبقات الغنية والمترفة وهذا ما دعم الصناعة العربية ، غير أن تصدير السيوف العربية الأصيلة كان محظورا على التجار كما كانت المطرزات وحدها تشكل تجارة خاصة ، وكان معظمها فى يد الفرس ، وكانت دائما تحمل صورا ونقوشا كالسجاجيد ، وقد قام الأتراك ببيع محتويات قصر المنتصر فى سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) فكان أكبر مزاد عرفه العالم حيث بيع فيه ألف سجادة حريرية تمثل مختلف صور ملوك الأرض • وقد رسمت على إحدى القطع الحريرية الهائلة خرائط جميع أقطار العالم بمجسماتها وأسماء المدن بالذهب والفضة •

لقد كانت بغداد عاصمة الامبراطورية العربية فى القرن التاسع للمركز التجارى والسوق التجارية الدولية للعالم قاطبة • وكان رجال الأعمال والتجار فيها يقيمون صلات تجارية مع كافة أقطار العالم ، وكانت أسواقها الواسعة المكتظة ملتقى لكل الأقوام ، ومجمعا لكل أنواع السلع القادمة من آسيا • وعلى أى حال فلا داعى إلى الاسترسال فى وصف الأسواق الشرقية القديمة ، فتلك حقيقة معروفة ولعل صفحات ألف ليلة

وليلة ترسم لنا أصدق صـــورة لمجتمع بغداد فى ذلك الوقت وتتعمق بنا فى طبيعة الحركة التجارية الهائلة فى عاصمـــة الخلفاء ، كمـــا كانت حوانيت العطارة وباعـــة الروائح تزخر بأصناف العقاقير الطبية والعطور التى كانت تملأ الأجـــواء بشـــذا العنبر واللبان والعود والصبر والمر ومـــاء الورد والمسك وجميع أصناف توابل الأرخبيل كمـــا كان التجـــار يعرضون فى محلاتهم الأنواع المختلفة من حرير الهند والصين وفارس ، ومن موسلين الهند ومنسوجات القطن العمانية والمطرزات وغيرها من أنواع المنسوجات المصنوعة فى فارس ، وأمـــا الصياغ فقد كانت محلاتهم زاخرة بالمعروضات المتنوعة من لآلىء البحرين وأحجار سرنديب (سيرالانكا) والماس جولكوندا ، وخزف الصين وشالات كشمير وغيره من المنتجات الهندية وسجاجيد فارس وعاج إفريقيا وأصماغ أويل .

ويمكننا أن نتصـــور بحـــق أسواق المدن الشرقية فى العهود الأولى للإسلام والتى كانت تشبه فى طبيعتها وفى منظرها أسواقها اليوم ، وهى تعج بجموع الناس والمتجولين من أصحاب الحرف على اختلاف أجناسهم وألوانهم ، السائقون ، والباعة المتجولون والجمالون وكذلك الحمير المحملة بقرب المـــاء والبغال والجنود والقسس والشـــيوخ مزاج غريب من المخلوقات ، وهم يتدافعون بالمناكب ويسرعون فى حركتهم ، فرادى وجماعات وسط الأزقة الضيقة والأســـواق المسقوفة أو المسردبة فى بغداد والبصرة وسيراف وصحـــار والموصـــل ودمشق ، وكل جنس أو قـــوم أو مذهب له زيه ومظهره المميز الخاص ، ولعل الغريب فى تلك الأســـواق قد يندهش من أنواع الروائح المختلفة الغريبـــة التى تملأ الأجـــواء بروائحها العطرة . ولامجال للشك فى أن البائع أو صاحب البضاعة كان يجلس على الأرض ساكنا فى كبرياء مزهوا بعرض بضاعته فى صمت ، ويطلب من المشترى كمـــا يفعل اليوم أعلى سعر يمكن أن يحصل عليه ، وكان يقدم سلعته للمشترى بدون تعليق ، ولايزعجه بالحـــديث عن غيرها من السلع التى كان يعرضها .

وكان هناك اعتقاد يســـود الأوساط العربيـــة فى ذلك الوقت وهـــو

أنه توجـــد فى مكان ما من المحيط الهندى صخرة ضخمة ممغنطة لها جاذبية هائلة لسحب الأجسام الحديدية التى تطفو على سطح المـــاء إلى قاع البحر وأن أية سفينة تدخل المسامير فى بنائها تغرق فورا بفضـــل تلك الجاذبية أو أن المســـامير تنخلع من ألواح السفينة التى تتفتت إلى قطع •

ويقال أن قصـــة الصخرة الممغنطة تعتبر السبب فى استعمال الخيوط بدلا من المسامير فى بناء السفن الشرقية ، وهى قصـــة انتقلت إلى العرب من الصين • إلا أننى أعتقد أن ذلك ليس هـــو السبب ، ولعل السفن العربية والهندية كانت تصنع بتلك الطريقة منذ آلاف السنين وذلك قبل بدء الحركـــة الملاحية مع الصين • ولابد أن السبب فى استعمال الطريقة يرجع إلى الرغبة فى إعطاء السفينة فرصـــة أكبر فى الحركة والمناورة نظرا للحمولات الكثيرة التى كانت تحملها واعتمادها على شراع ضخم واحـــد على عكس المراكب الأوربيـــة •

لقـــد انتقلت أخبار تلك القصـــة إلى أوروبا على لســـان الصليبيين وكمـــا يقول يول (Yule) فإن هـــذه القصة قد وردت فى إحـــدى الكتب اللاتينية • وإذا تصـــورنا أن أصـــل القصة من الصين فمن المحتمل أن يكون موقع تلك الصخرة هو نفس المنطقة البحرية ، ولربمـــا لم يقم العرب ببناء سفن للملاحـــة فى البحر العربى والخليج والمحيط الهنـــدى بتلك الطريقة ، وهى مناطق تبعد آلاف الأميال عن الصين ، وبالتالى فإن القصـــة مجرد اسطورة •

الفصل الثامن

وصف بلدان الخليج وصناعة الأسماك فيها

كتب المؤرخـــون الإغريق القدماء مؤلفين جغرافيين عن شبه الجزيرة العربية ، وقد قسموها إلى منطقتين : منطقة الصحراء والمنطقة الخضراء أو الخصبة ، ثم جاء البطليموس كلوديوس الاسكندرانى وهو آخر وأعظم المؤرخين والفلكيين الإغريق ، فأضاف منطقة ثالثة سماها المنطقة الصخرية أو الجبلية ، وهذه المنطقة تشمل فى نظر الإغريق ، كما يبدو ، كل الجزء من شبه الجزيرة الواقع إلى جنوب الخط الممتد من خليج العقبة إلى خليج شبه الجزيرة • وعلى أية حال فإنه من الواضح أن معلومات الجغرافيين الإغريق عن تكوينات الخط الساحلى والمعالم الطبيعية للمنطقة الداخلية من شبه الجزيرة معقدة وغامضة ، بحيث يصعب القول ما إذا كان الإغريق يعرفون شيئا عن وجود الصحراء الكبرى ، التى يطلق عليها الربع الخالى ، والتى تغطى نصف مساحة شبه الجزيرة العربية تقريبا ، ومن هنا فإن علينا أن نفترض أنهم فى كتاباتهم كانوا يشـــيرون إلى المناطق الملمين بها وهى الحجاز ، وحضرموت ، واليمن ، وعمان ، وبطبيعة الحال فقد كـــان الإغريق أكثر احتكاكا ومعرفة باليمن ، ولعله المنطقة التى ينطبق عليها اسم العربية الخضراء ، أو السعيدة أكثر ، وفى إطار هـــذا المعنى المحدود تعتبر التسمية صحيحة ، بل وبقيت سارية حتى يومنا هذا • ومن الجدير بالملاحظة فى نفس الوقت أن التسمية ليست ترجمة لكلمة اليمنى ، وإنمـــا هى تعنى الاخضرار أو الخصب (وقد تكون مشتقة من لفظة يمن وهو الخير) وهو الاسم الذى يطلقه العرب أحيانا على هذه المنطقة •

ومما لاشك فيه أن التقسيمات الأربع لشبه الجزيرة كانت فى الأصل مستقلة عن بعضها البعض لسببين جغرافى وسياسى ، فحدود التقسيمات

الثلاثة ونعنى بها الحجاز واليمن وحضرموت لاتزال غير مرسومة حتى الآن ، غير أن الذى يعنينا فى هـذا الفصـل هو الأقليم الأخير من تلك التقسيمات ونعنى به عمان ، غير أن هناك حدودا مشتركة وملاصقـة لأطراف هـذا الإقليم الساحلية ، حيث يبدأ ذلك الاتصـال وقد تعرضت هـذه الحدود لتغييرات كثيرة عبر العصـور •

وتجمع أغلبية المؤرخين الكلاسيكيين على تحديد نهاية حدود حضرموت عند رأس سكروس أو رأس فرتك ، ويرون أن منطقة اللبان داخلة فى حدود عمـان ، غـير أن البطليموسى يحدد حدود حضرموت عند جزيرة شيراتيس (نطقا باليونانية) أى جزيرة مصيرة ، وربمـا يعنون بذلك منطقة وادى حلفين ، الذى يصب بالقرب من محوت ، وان كنا نلاحظ أن البطليموسى يضع تلك الحـدود ، وان لم يكن بشكل ثابت ، عند خـور القمر أو غبة القمر •

ومنذ عهـد البطليموسى تظل معرفتنا بهـذا الجزء من شبه الجزيرة محاطة بغلاله سميكة لا تنكشف عنه إلا فى القرون الأولى للإسلام ، عندما بدأ الجغرافيون العرب يسلطون الأضـواء على هـذا الموضـوع ، غير أن معلوماتهم لسـوء الحظ متضاربة وغير دقيقة بحيث يتعذر استنباط أية معلومات صحيحة تسـاعد على التأكد من حدود حضرموت الحقيقية مـع عمـان •

وترى أكثرية علمـاء الجغرافيا العرب أن هذه الحدود تمتد مع امتداد وانتشـار هذه القبائل ومع ذلك فإن هـذا الموضـوع يبقى بغير حسم • فلعدة قرون ظلت قبائل المهرة تجـوب آفاق الصحراء شرق وغرب سلسلة جبال سمحان (أو القمر) ، وربمـا وصـل بعضها فى طوافه إلى عمان ، بل وإلى الشرق حتى رأس الجزينيه أو الشويمية ، إلا أنهم على ما يبدو لم يتجاوزوا منطقة أحمر فى انتشـارهم نحو الشرق •

ولقد كتب الهمدانى المتوفى سنة ٣٤٨ هـ (٩٥٩ م) وصفا قيما لشبه

الجزيرة ، إلا أنه لم يتطرق بإسهاب إلى هذه النقطة ، غير أن المقدسى مؤلف أحسن الكتب الجغرافية عن شبه الجزيرة ، والذى صدر كتابه بعد ذلك بنصف قرن ، يحدد هذه الحدود عند ظفار شأنه شأن أبو الفداء • وهناك البكرى الأسبانى المولد المتوفى عام ١٠٩٤ الذى يعتبر حاسك (أى وادى ريكونت) هى حدود عمان ، ولعل البكرى يحذو حذو المقدسى فى اعتبار مواطن المهرة منفصلة عن عمان ، بينما يذكر ابن مجاور الذى تنقل كثيرا فى جنوب شبه الجزيرة صراحة أن ظفار جزء من عمان ، ثم يأتى المؤرخ ياقوت فيقول بأن ظفار خاضعة للبحرين • وبالتالى يجوز لنا القول بأن إقليم ظفار الصغير الخصب والذى سوف نتحدث عنه بإسهاب كان دائما خاضعا لعمان ، إذا استثنينا بعض فترات قصيرة من الاستقلال ، أو خلال خضوعه لدول أخرى كاليمن وفارس والبحرين • أما الحدود الساحلية لعمان فهى على أية حال محدودة وأكيدة وتمتد إلى رأس شجر ، وربما تشمل جغرافيا ، إن لم يكن سياسيا ، ذلك الجزء من شبه الجزيرة الواقع شرقى أحد الخطوط الوهمية التى تمتد من رأس شجر عبر الصحراء حتى سبخة مطى ، ويحده البحر من كافة الجهات الأخرى •

وعلى ضوء هذا التحديد يتضح لنا أن عمان تشغل ذلك الجزء البارز فى اتجاه الشرق من منطقة شبه الجزيرة والذى يمتد تشكله الرباعى فى تناسق على مساحة من الأرض تقدر بنحو مائة وخمسين ألف ميل مربع ، ويرى البعض بأن عمان إنما تنحصر داخل منطقتها الجبلية فحسب ، غير أنه من أصح القول أن التحديد يشمل الساحل الرملى الهائل الذى يشكل حاجزا طبيعيا فى وجه التبادل السياسى والتجارى ، ويفصل عمان عن العالم كما لو كانت جزيرة ، وإن كان فى الوقت نفسه يضفى عليها موقعا فريدا •

وإن أهم سمات عمان الطبيعية والتى توجب علينا أن نوليها اهتماما خاصا هى سلسلة الجبال التى تخترقها من أولها إلى آخرها ، والتى تشكل

عمودها الفقرى ، وذلك بعكس الصحراء التى تقع فى مؤخرتها • وأن دراسة هـذه السلسلة وتكوين فكرة دقيقة عنها مسألة ضرورية لكى نفهم توزيعات الأقاليم العمانية ومعالمها الطبيعية والطرق العامة التى يستخدمها سكانها فى التبادل مع غيرهم • ان السلسلة تبدأ من رأس مسندم حيث يصل ارتفاع القمـة إلى ما يزيد عن ٦٠٠٠ قـدم ، ثم تنحرف فى الجنوب الشمـالى ارتفاعات منخفضـة حتى الجبل الأخضر ، الذى هو نهاية السلسلة • وعن هـذا المرتفع تتعقد السلسلة إلى حدما ، فالمجموعة الأكبر منها تنتشر على شكل عدد من البروزات فى الوقت الذى تستمر السلسلة فى امتدادها نحو الشمال الشرقى حتى قريات لتقترب من البحر ، ثم منه إلى رأس الحد • وإن هـذه السلسلة كلها ونظرا لطبيعة تشكيلاتها الجيولوجية تتسم بالجفاف والقحولة ، بينمـا يغطى الأجزاء المرتفعة منها بعض النباتات كمـا تشقها وديان وشعب خصبة ومروية ومأهولة ، وتضم ينابيع المـاء والجـداول التى تروى السهول الساحلية •

ومن مخازن الميـاه فى هـذه السلسلة تصب المياه فى ثلاثة أحواض : هى : الخليج : وخليج عمـان والبحر الحدرى أو البحر العربى ، غـير أن موارد المياه هـذه جافة فى أكثر أوقات العام ، ولاتسمح إلا بتجمعات متقطعة للمياه ، وقـد لاتصل إلى البحر إلا فى حالـة هطول الأمطـار الغزيرة • إن بعض هذه الخزانات دائمـة ، وسواء كانت أنهارا أو سيولا فهى تسمى وديان ، وهى فى خصائصها لا تختلف عن مثيلاتهـا فى شـبه الجزيرة ، باعتبارها الوسيلة الوحيدة للاتصالات فى كل أرجاء البـلاد • وبمـا أن القرى والمـدن والحصـون والحاميات كلها تقع على ضفاف هـذه الأودية ، فإنها تضم القسم الأكبر من السكان ، كما أن كل واد من هـذه الأودية يسمى باسم القبيلة التى تستوطنه •

ولقد قسم العمانيون بلادهم إلى ثمانية مناطق أو أقاليم ، وقد تم هذا التقسيم منذ زمن بعيد ، وعلى ضـوء الاعتبارات الجغرافية وفقا لخطوط

جريان الوديان • ومع ذلك فإنه من الصعوبة بمكان تحديد هـذا التقسيم بشكل دقيق •

إن حدود هذا التقسيم كانت ولاتزال موضع خلاف ، وحتى أكثر شيوخ البلاد خبرة ومعرفة لايتفقون حـول هـذه النقطة لأن العقل العربى لم يألف طريقة تحديد الأشياء تحديدا صحيحا ودقيق التفاصيل ، غـير أن الخطوط العريضـة لهـذه التقسيمات معروفة تماما ، وإن النظام البدائى المشيخى المعمول به فى شبه الجزيرة ، والذى بموجبه تتولى كل قبيلة حماية أمنها ومصالحها بنفسها هـو نظام يعانى من التمزق والضعف السياسى ولا يقـوم على أسـاس تقسيم البلاد إلى دوائر لأن نظام الإدارة غير موجود فيها ، وكانت الغاية الوحيدة من تقسيم البلاد إلى مناطق ومشيخات هـو مساعدة القبائل على اختلاف مناطقها على التجمع والاتحاد لمقاومة أى تهديد خارجى قد تتعرض له • وأهم التقسيمات الثمانية لعمان هى التقسيمات الخمس للمناطق الواقعة على المرتفعات الجبلية وهى كما يلى :

١ ـ الشميلية •

٢ ـ الباطنة •

٣ ـ الظاهرة •

٤ ـ المنطقة الداخلية (عمان الأم) •

٥ ـ الشرقية ، ويمكن إضافة منطقة سادسة ، وهى المنطقة الجبلية أو منطقة المرتفعات •

غير أن هـذا التقسيم على ما يبدو غير صحيح ومشوش ولا داعى لـه ، أمـا التقسيمات الثلاث الأخرى فهى الغربية ، الجفور (أو المنطقة الصحراوية) وظفار ، ونظرا لعدم وجـود عمليات مسح علمية فقد يتعذر

رسم حدود هذه الأقاليم العمانية على الإطلاق ، غير أنه من الجدير بنا أن نلخص هنا كل تقسيم فى هذه التقسيمات استنادا إلى الملاحظات الشخصية • الشمال (أو الشميلية) ، وهى كما يدل اسمها ، الإقليم أو المنطقة الشمالية ، وتشمل كل تلك المنطقة الممتدة إلى شمال غرب الخط الممتد من خطمة ملاحة على امتداد سفوح الجبال إلى وادى الجزى والبريمى ، ومنه إلى أبو ظبى ، وعلى الجانب الآخر تقع حدوده على البحر • وعلى الرغم من أن الشميلية تضم مساحة كبيرة من الأرض إلا أنها كثيفة الجبال وقاحلة ، لا تنبض بأى نبات أو زرع ، غير أنها بحكم موقعها الممتاز بالنسبة لمصايد الأسماك واللؤلؤ فهى منطقة مزدهرة وكثيفة السكان ، أما رأس مسندم والمعروف عند العرب بروس الجبال فهو يضم سلسلة من الصخور والامتدادات الجبلية نحو البحر • وهذه المنطقة مطعمة عموما بكثرة بالمداخل والجاويف ، اثنان منها يشكلان ميناءين واسعين ، يسميان خليج النتستون ، وخليج مالكولم •

وأعلى قمتين هما جبل حرين وجبل كيوى اللذين يرتفعان إلى علو ٦ر٧٠٠ قدم و ٥ر٨٠٠ قدم لكل منها • وعلى الناحية الغربية للبروز تبدأ السلسلة فى الانحدار من جهة الساحل قريبا من خصب ، وتشكل السهل الساحلى الذى يطلق عليه الأوربيون « ساحل القرصنة » ويسميه العرب السر أو الشميلية • وتسيطر على هذه المنطقة الشمالية سلطات ثلاث ، حكومة عمان ، وشيخ القواسم ، وشيخ بنى ياس ، غير أن الأخيرين منذ أن انحسر الوجود الوهابى عن المنطقة لايدينان بأى ولاء لعمان • وتسيطر عمان على البروز ابتداء من دبا إلى شعم بما فى ذلك خصب ، ويسيطر شيخ القواسم على الساحل بدءا من رأس الخمية إلى الشارقة كما تتبعه خور فكان ، بينما يسيطر شيخ بنى ياس على المنطقة الممتدة من دبى حتى أبو ظبى ، ويحتل البروز ابتداء من غرب شناص قبيلة واحدة ، وهى قبيلة الشحوح ، والتى يدور جدل كثير حول أصولها التاريخية ، ويقال بأن لها لهجة لغوية خاصة ، كما أنها تختلف من حيث التقاطيع عن العرب ،

بل أن بعض الكتاب قد ارتأى بأنهم من أصل أوربى ، غير أن سكان منطقة قوماز هم من أصل فارسى ، ويتحدثون بلهجة فارسية ركيكة .

منطقـــة الباطنـــة :

المنطقة أو الاقليم الثانى هـــو الباطنة ، وهى سهل ساحلى ملتـــو يقع بين الجبل الأخضر وسلسلة الحجر من الجهة الغربية والبحر من الشرق ، وهذا السهل فى امتداده من خطمه ملاحة فوق المرير من الشمال بقليل حيث يلاصق البحر يبدأ فى الاتســـاع حتى السيب ، حيث يصـــل العرض فى هذه النقطة إلى ٤٠ ميلا تقريبا والامتداد ١٨٠ ميلا ، وأخصب جزء فى هذه المنطقة يقع ضمن حزام ، يصل عرضه من ميلين إلى ثلاثة ، وعلى طول الساحل تمتد عليه سلسلة من الحصـــون والمنازل والأكواخ وأشجار الفاكهة وأنواع أخرى من النباتات من بدايته حتى نهايته ووراء الحزام تأخـــذ الأرض فى الارتفاع تدريجيا حتى قاعدة السلسلة الجبلية ، وعلى الرغم من توفر مياه الرى من خلال المنحدرات ومصـــادر المياه الأخرى التى تشـــق السهل شقا ، وهى تتدفق من مصارفها فى السلسلة ، فإنه بوجـــه عام مغطى بالخضرة وإن كانت فى شكل متقطع إذا استثنينا بعض الواحات القليلة الخصبة وبعض الرقع الصحراوية . وتغطى هـــذا السهل أشجار الأكاسيا والفربيون والصبر والعشب البرى ، والذى يشاهد هذا السهل من البحر فإنه يرى شاطئا يمتد برماله الناعمة البيضـــاء والواحات الخضراء المكسوة بالأشجار وغابات الأكاسيا السمراء وخلفها كتل السلاسل الجبلية بشكلها غير المنسق وذلك كله يضفى على السهل مشهدا جميلا مثيرا .

وأهم وديان المنطقة ثمانية تقريبا وهى : (١) وادى حتى (٢) وادى الجـــزى (٣) وادى احن (٤) وادى البطحاء صحم (٥) وادى الحواسنة (٦) وادى بنى غافر ووادى الرستاق (٧) وادى بنى خروص (٨) وادى همـــام وكل هذه الأودية مأهولة بكثافة مع وفرة المياه فيها ، وعلى الرغم

من أن بعضها قد يصـــل إلى البحر بعد نزول أمطار غزيرة إلا أنها ليست دائمـــة .

إن الزراعة المحلية فى الباطنة قليلة ، غير أن المناطق الخصبة أو المزروعة غنية بأشجار الفاكهة كالبلح والمانجـــو والفراولة والرمان والمـــوز والجوافة والبرتقال والليمون والنارنج والخوخ والمشمش والتين والتمر الهندى واللـــوز والبطيخ والشمام بالإضافة إلى أنواع أخرى كالخس والذرة وقصب الســـكر والشعير والحنطة والقطن والبقول .

أما عن الصناعات فتعتبر الباطنة متقدمة كثيرا على المناطق الأخرى ، وأبرزها صناعة الأسماك وهى تستوعب العدد الأكبر من العاملين ، وأحيانا يشترك القرويون فى صناعة شباك الصيد ، لأن البحر زاخر ومليء بالأسماك ، والكميات الخرافية التى يصطادها الصيادون يكاد لايصدقها عقل ، وهناك صناعات أخـــرى كالخزف والأقمشـــة الشعبية التى تسمى الخضرنـــج ويستعملونها للدشاديش (الجلاليب) ، كما أن هنـــاك صناعة الأشرعة والنسيج وصناعة النيلة وبناء السفن .

ويوجـــد فى الباطنة كثير من الحصـــون المنيعة ، كما أنها تضم اثنتان من العواصم القديمـــة ، وهى صحار والرستاق ، أمـــا الرستاق ونخـــل وينقل فتعتبر من عواصم المنطقة الداخلية ، بينمـــا توجـــد مدن أخـــرى على الساحل ويبلغ عدد المـــدن والقرى الكبيرة والصغيرة نحو ٣٠٠ . وتوجد مجموعتان من الجزر المطلة على ساحل الباطنة وهى صخرة الســـوادى ، وجزر الديمانية إلا أنها غير مأهولة اطلاقا ، ولا توجد ملاجيء أو مرافيء آمنة تحتمى بها السفن على ساحل الباطنة ، وعلى المراكب أن تنتظر فى مسقط أو غيرها من المناطق خلال المونسون ، بينمـــا تعتبر المراكب من طراز البدن سفنا ساحلية صغيرة تسحب إلى الشاطيء أو تنتظر فى أحد الخلجان ، وهى كثيرة على الساحل ، ونظرا لاضطرابات البحر والموج يستخدم نوع

خاص من المراكب يسمى الشاشة مصنوع من سعف النخيل ويبلغ عـدد سكان الباطنة نحـو ٧٠٠ر٠٠٠ نسمة • وأما من الناحية الجيولوجية فيعتبر السهل الساحلى فى تكوينه من نوع السلسلة الجبلية ، أى قشرة أفقية من الأحجار الكلسية المنتمية إلى العصر اليوسينى أى (العصر الفجرى) [١] •

الظاهرة :

وتقع خلف منطقة الباطنة ، ويفصلها عنها سلسلة الحجر التى تشكل قمتها الحدود الشرقية ، كما يفصلها عن عمان الداخلية أو الأم ، قمة جبل الكور أو نجـد المخاريم ، وعن الشميلية وادى البريمى • وهذا الإقليم سهل ضيق مجرد من الخضرة والنبات ، فيما عدا منطقة بها بعض الواحات وتشطرها مجارى مياه ضحلة ، تتلاشى عن طريق جريانها إلى وادى العين أو تجف من خلال تسللها إلى الصحراء الكبرى من الجهة الغربية والتى لا يوجد فاصل مميز لها • ومن ناحية أخرى فإن سطح المنطقة تتناثر عليه بعض السلاسل الجبلية الصغيرة كجبل حفيت وجبل مشت ، كما يضم إقليم الظاهرة منطقة الجـو التى تقع فيها البريمى ، وأهم مدنها عبرى وضنك والعينين ودوت مازت ومقنيات وجابى وأكبر أوديتها وادى العين الذى ينبع من جبل الكور ، ويقال إنه يصـل فى جريانه إلى البحر فى أبو ظبى •

وثمـة مفارقة مميزة وبارزة بين الشكل الإنحدارى الشديد للمنطقة الشرقية من سلسلة الحجر وبين الانحدار التدريجى النسبى لها فى اتجـاه الشرق • وأهم المحاصيل الزراعية لهذه المنطقة الفواكه ، كمـا توجـد فيها بعض الصناعات كالخزف والنسيج والصباغة ، وسكانها قليلون ، ربما لايتجاوز عددهم ٢٠٠ر٠٠٠ نسمة ، غير أن القبائل على أية حال نشطـة ، وأكثر ميلا إلى إثارة الاضطرابات من غيرها من سكان البلاد •

---

(١) المترجم •

عمـــان الأم :

أهم الأقاليم العمانية من الوجهة السياسية ، ومركز الثقل فيهـــا ، ومنه تستمد البلاد كلها اسمها ، وتمتد عبر البلاد وسلاسل الجبال من قرية أدم إلى البحر ويحدها من الشمال والغرب الباطنة والظاهرة كمـــا ذكرنا من قبل ومن الجنوب والشرق الشرقية • وعلى أية حال فإن الحدود بين إقليم الشرقية وبقية عمـــان يصعب تحديدها ، وذلك لجهلنا بالتكوينات الطبيعية ، بل ويختلف العرب أنفسهم عليها (ويعتقد البعض أن خط الحدود لهـــذا الإقليم يمتد من قمة جبل الطايين إلى وادى الطايين حتى دغمر) وعلى الجانب الغربى من السلسلة تبدأ الحدود عموما من سمـــد الشان ومنها إلى الصحراء • وبالتالى فإن عمان الأم تضم الكتلة الرئيسية الضخمة للسلسلة والتى تسمى بالجبل الأخضر ، والوادى الكبير الذى يسمى وادى سمايل ، وفى هـــذا الاقليم تقع العاصمة مسقط ، والعاصمـــة القديمـــة لعمان نزوى ، و ١٤ مدينة أخرى هى سمايل ، وأزكى ، وبهـــلا ، وأدم ، وبركة الموز ، ومنح ، وفرق وسلوت ، وجبرين ، وسرور ، وبدبد ، وقيمـــا ، وبلاد سيت ، وأهم هـــذه المـــدن سمايل وهى الشريان الرئيسى للتجارة بين مسقط والمنطقة الداخلية ، وتتدفق هـــذه الحركة التجارية على امتداد الوادى ، وطوله أكثر من مائة ميل ، وتقوم على ضفافه أكثر من مائة قرية • والطريق لهـــذا الممر الرئيسى من الشرقية هـــو وادى العق ، وهو شعب ضيق منحـــدر يمكن لعدد قليل من الناس الدفاع عنه ، ويعـــد ذا قيمـــة سياسية واستراتيجية فائقة فى حالـــة الطوارىء ، والقبائل التى تعيش فى هـــذا الإقليم تنتمى إلى كلتـــا المجموعتين السياسيتين الهناوية والغافرية ، وهما من حيث القـــوة تكاد أن تكونا متساويتين ، أمـــا عـــدد سكانها فهـــو نحـــو ٤٠٠ر٠٠٠ نسمـــة •

والشرقية كمـــا يفصح عنها اسمها تشكل أقصى الأقاليم الشرقية لعمان ، وهى محاطة من جانبين بالبحر ، ومن الجنوب الغربى بالصحراء ، ويفصلها عن عمـــان الأم سلسلة الجبال كمـــا سبق أن ذكرنا • وهى منطقة

جبلية من الجهة الشمالية الساحلية وأعلى قمتها جبل السعترى الذى يرتفع ٦٠٠٠ قدم ، ولكنه على الناحية الغربية الجنوبية أكبر تسطحا وخصبا وأكثر سكانا • والجانب الشمالى من الشرقية يجرى فيه وادى الطايين الذى يصب فى خليج عمان ، بينما فى الجنوب يلقط التجمع المائى أربعة جداول ، الأثلى ، وعندام ، وحلفين ، وكبوة ، وكلها تتجمع فى مجرى واحد ، ثم تصب منه فى بحيرة واحدة إلى الشرق قليلا من محوت فى البحر الحدرى • وهذا الإقليم يضم ثلاث أو أربع مقاطعات متطورة وغنية بالمياه وهى : وادى الطايين ، وجعلان ، وبدية والبعض يضيف اليها سمد الشان • والأول من هذه الأودية هام ودائم يضم أكثر من ثلاثين قرية ، وبعد أن يقطع الوادى فجوة عميقة فى التلال ، وتعرف بين الملاحين بهوة الشيطان يصل إلى البحر فى دغمر شرقى قريات • أما جعلان فهى المنطقة الساحلية للشرقية وواحدة من أغنى أجزائها ، ويحدها غربًا البدية ، والبحر من الشرق الذى لا يبعد عنها بأكثر من خمسة عشر ميلا ، ويقولون إن اسمها مشتق من اسم احدى القبائل القديمة التى كانت تحتلها واسمها بنى جعلان ، ولعلها فرع من قدعة ولها قمتان شاهقتان هما جبل جعلان وجبل قارون ، والأول يرتفع ٩٠٠ ر٣ قدم وهذه السلسلة قصيرة ، وشكلها كاللسان ، ويقع على ناحيتها الغربية واد خصب كثير المياه والسكان ، تسكنه قبائل عديدة ، أهمها قبيلة بنى بوعلى وبنى بوحسن والهشم وبنى راسب أما القرى التى يقيم فيها القبائل فى جعلان فهى وادى تليفة ، ووادى ساحة ، وجبل منوف ، والكامل ، وجبل ينقل ، ووادى خالد ، ووادى الشمه ، والسكاكره • ويقيم بنو بوعلى فى وادى بنى بوعلى وجندين ، وقرى الهشم هى البرارى ، والحماية ، وسيف ، وشعب ، والكمد ، وثمة قرى أخرى غير التى أوردناها ، ونحو ست أو سبع منها فيها حصون واستحكامات ، أما الانتاج الزراعى فوفير ومتنوع ، وأبرزه الحنطة والشعير والشوفان والخس إلى جانب البلح وأنواع الفواكه •

وبجانب البحيرتين المغلقتين بريا ، وهما خور جرامه وخور الهجيرة يملك إقليم الشرقية فى صور أحسن ميناء فى عمان كلها ، وهذا

الفردوس بمجراه الافعوانى يعتبر مكانا آمنا للمراكب المحلية التى يتم فيها بناء الكثير منها ومن جميع الأحجام • والقبائل التى تقيم فى هذه المنطقة هى الجنبة وبنو بوعلى ، وتعتبر الأولى من أبرز الملاحين وجوابى البحار فى عمـــان ، وكانوا فى الأيام الخوالى يعرفون بالصبوريين بما اكتسبوه من شهرة فى البحر والملاحـــة • وبالإضافة إلى قرى إقليم الشرقية التى ذكرناها بالفعل هناك قريات ، والهنيدة ، وقلهات ، والأشخرة ، ومحوت ، والوافى ، والقابل وسمد وجابى وغبره الطو ، والمضيبى ، والكامل ، وبلاد بنى بو على •

أما السكان فيصل عددهم إلى ٣٠٠ر٠٠٠ وينتمى أغلبهم إلى قبيلة الأزد اليمنية ، غير أنه لا يوجد مستوطنون بلوش أو فرس فى هذا الإقليم ، وأبرز قبائله هم الحرث والدروع والحبوس والمساكرة والحجريين ، وبنى بو على وبنى بو حسن والهشم ويال وهيبه ، والديل ، وأكثرهم قد تورط فى النزاعات الأسرية والثورات فى السنوات الأخيرة فى عمان •

بديـــه :

تقـــع مقاطعة بدية على الناحية الغربية من جعلان ، وتستمد ميـــاه الرى من نحو سبعة مجمعات تجرى فى شكل فروع جدولية إلى الوادى[1] ، وفى كل منها قرية أو قريتان • أمـــا سمد الشـــان فبلدة قديمة فى وادى الأثلى تشق طريقها وسط سهل خصيب وغير المياه وتحيط به صفوف من الخمائل والمزارع وفيه حصن ويقيم فيه الوالى المسئول •

إن التقسيم البيانى لإقليم الغربية يتلخص فى أنه يشكل ذلك الجزء من عمـــان الممتد من أبو ظبى إلى سبخة مطى ، على مساحة طولها مائتا ميل وبالتالى فهو لا يستحق منا الاهتمام • وهـــو منطقة قفراء ليس فيها قرى

---

(١) لقد حذف المؤلف اسم هذا الوادى من النص ولعله يعنى بذلك وادى الطايين .

أو نبات ، ولكنها مأوى للقبائل الرحل من بنى مرة ، وبنى ياس ، والمناصير والحجريين وغيرها •وفى بعض المناطق توجـد جبال لكنها غير عالية ورملية أو صخرية ، ويندر أن يوجـد فيها المـاء • وهناك الكثير من الجزر الصخرية أو الرملية بالقرب من الساحل ، كمـا أن مصايد اللؤلؤ الكبرى غـير بعيدة عنها ، وعلى الرغم من جفاف المنطقة فإن الجزء الغربى منها موضـع نزاع ، إذ على الرغم من أن ذلك الجزء يتبع بنى ياس إلا أن شيخى البدع وقطر يطالبان به •

ولقد تناقشت مع صاحب الجلالة السلطان السيد تركى حـول حدود عمان نظرا لتنوع خبرته وكثرة أسفاره واطلاعه العميق ببلاده وكان لآرائه قيمة كبرى ، ويعـود الفضـل إليه فى تحديد صلاحيات المقيم فى الجنوبية ، وقد ذكر لى بأن الحدود الجغرافية من الغرب هى السبخة ، وان كان جزء من قطر حتى منطقة العديد داخل من الناحية السياسية فى حدود شيخ أبو ظبى •

صحراء العـــرب

لعل الصحراء العربية الكبرى تشكل أكبر رقعة رملية قفراء غير مأهولة فى القارة الآسيوية ، وبلغ طولها ٧٠٠ ميل ، وتقع بين عمان شرقا حيث يوجد أعرض جزء منها ، واليمن على الغرب حيث توجد أضيق مناطقها ، ومن الشمال تحدها نجـــد واليمامة والإحســـاء ، ومن الجنوب حضرموت ، وظفار ، والبحر الجدرى بمتوسط عرض ٣٠٠ ميل ، أمـــا عن المعالم الطبيعية لهذه الصحراء فنحن نكاد نجهل عنها كل شىء ، إذ لم يقم أى من الأوربيين حتى الآن باكتشـــاف أعماقها ، ومعلوماتنا عن سكانها البدو باهتة وغـــير أكيدة ، بحيث لا يمكن أن نعول عليها • وعلى أية حال فالمعلوم أن هناك منطقة الدهناء الواقعة على الشمال الشرقى وهى منطقة منعزلة ترصعها سلسلة من كثبان الرمال الحمراء التى تشبه أمواج المحيط ، حيث لاوجود لأى نبات ، وحيث لا يستطيع حتى البدو الرحل التجول فيها • وهنـــاك جزء من هذه الصحراء يسمى الأحقاف التى يقال إنها تحـــوى أكواما من الرمال تغطى أجزاءها الصخرية الســـوداء •

وان العرب يصفون جزءا كبيرا من الصحراء بأنه سهل مموج تشقه سلسلة من التلال المنخفضة ومجارى المياه الضحلة الجافـــة بالإضافـــة إلى تلال الرمال ويبدو أنه لايوجد شىء بارز فيه أو ملفت للنظر ، وتتشكل البرك من خلال سقوط الأمطار ، وبعد أن تتبخر الميـــاه تبرز طبقات الملح التى تغطى تلك البرك مما يضفى عليها منظرا أبيض اللون •

وتلال الرمل الواقعة على الجزء الشرقى من الصحراء ، والتى هى الآن محـــور موضوعنا تعرف بأسماء متعددة منها كواد ، والأحقاف ، والكثيب • وإذا تناولنا الصحراء عموما فإن البدو يطلقون عليها « اسم الجنـــور أو المنطقة غير المطروقة » كما يسميها البعض بالصحراء • أمـــا فى مؤلفات

الجغرافيين العرب فإن الاسم الذى يطلق على هذه الصحراء هو « الربع الخالى » غير أن البدو لهم اسماؤهم الخاصة لمختلف المناطق ، والواحات التى لها سماتها ومعالمها الخاصة • ولعله لاتوجد منطقة فى العالم كله تضارع الربع الخالى فى جدبه وجفافه ، وحيث إذا استثنينا بعض البدو الرحل والجمال والماعز والحيوانات المتوحشة فلا يوجد أى أثر للحياة فيها ويخيم عليها السكون والوحشة •

ومناخ الربع الخالى يتأثر بفصل المونسون ، ورغم أن المطر قليل فيه نسبيا ، إلا أن الديم كثيرا ما تهطل عليه • ونظرا لفقر التربة وجفافها وقلة هطول الأمطار عليها وشدة الحرارة فلا يوجد فيها إلا نباتات هزيلة أو ضعيفة النمو تتكون من أشجار ناقصة النمو كالحنظل والطرفاء والدفلى والورد ، والنباتات اللبنية والحرمل ، وغيرها من النباتات العشبية التى تعيش عليها الجمال • والمعتقد أن الصحراء تخص القبائل العديدة التى تحيط بها وتحتل أجزاءها ويتجول البدو فى مجموعات فى هذه الصحراء فى كل الاتجاهات ، وتربى أعدادا كبيرة من الجمال من أجود السلالات • أما من الناحية الشمالية فإن عرب المناصير وأبو واس ومرة وغيرها من قبائل نجد والإحساء هى التى تجوب آفاق الصحراء ، وفى الشرق توجد القبائل العمانية مثل العوامر ، ويال وهيبة ، والدروع ، والحبوس ، والوايل ، بينما المنطقة الجنوبية هى من اختصاص فروع قبائل المهرة والمناحيل والحراسيس والبومانى وغيرهم • والمعروف أن الجمال التى تقوم قبائل عمان والمهرة بتربيتها مشهورة بسرعة الجرى وجمال الشكل وقوة التحمل ، وكان شريف مكة يتلقى هدية سنوية من هذه الجمال من سلطان عمان لاستعماله الخاص •

ويقال بأن بدو العوامر والدواسر ومرة تجوب الصحراء ، ولايوجد ثمة مكان فيها لا يصلون اليه باستثناء الدهناء ، غير أنه فى الوقت نفسه فمن المشكوك فيه ما إذا كان بدو الدواسر سكان الشمال يحتكون بالمهرة

سكان الجنوب ، ولكنى على الأقل لم أستطع أن أعرف شيئا عن ذلك منهم • وقسم من قبيلة العوامر تستقر فى المنطقة الداخلية من عمان ، ويزاولون الزراعة ، ولعل العناصر البدوية من العوامر هم أكثر قبائل عمان توزعا وتنقلا ، وقد يصل أفرادها إلى حضرموت حيث يعيشون فى حالة شبه بدائية أو متوحشة ، ولعله لايوجد عنصر فى شبه الجزيرة أكثر همجية وحبا للسلب منهم •

وفى عام ١٨٧٤ وبناء على أمر السلطان عبرت مجموعة من العوامر الصحراء من وادى ريكوت ووصلت إلى مسقط بعد أن قطعت مسافة ٤٠٠ ميل ، ثم عادت من نفس الطريق ، وقد أكدوا لى أنهم لايعانون من أية متاعب فى قطع الصحراء فى أى اتجاه • ولقد قام الدكتور سبرنجر بالبحث فى الطرق التى كانت تسلكها القوافل فى الأزمان القديمة وتحدث عنها فى كتابين ، أما الآن فلا يبدو أن هذه القبائل مستمرة فى تنقلاتها واصطحاب أفراد عائلاتها وقطعانها من الإبل والماشية بحثا عن المرعى ، وهى تنتقل فى مجموعات صغيرة وتظل تراقب جمالها وهى ترعى الكلأ •

ولا يحصل البدو على الخبز من أى نوع إلا عندما يأتون إلى المدن لمقايضة جمالهم بالضروريات وغذاؤها الوحيد على مدى الشهور هو لبن الإبل والماعز • إن التربة جافة وحارة وقاحلة ، والمطر نادر فيها مما يجعل حياة النبات مستحيلة ، لولا سقوط الندى بوفرة الذى ينعش النبات كما أن هناك بعض الآبار المالحة ، والبدو يعرفون بعض الجذور والفواكهة القابلة للأكل غير أن هذه نادرة جدا • أما الحيوانات المتوحشة التى تعيش فى هذه الصحراء فقليلة ، وهى صغيرة أيضا فى نوعها ونشأتها ، فمنها الغزلان والحمير الوحشية والذئاب ، والضباع ، والقنفذ ، والأرانب ، وفئران الحقل ، أما الطيور فهناك الأوز البرى والنسور ، والصقور ، والقطا الذى كثيرا ما تغنى به الشعراء العرب • أما النعامة فهى توجد فى المناطق الشمالية والغربية ، غير أنها قد انقرضت فى المناطق الشرقية ، وعلى حد قول بارسنس فأنه رأى ريش النعام يباع فى أسواق مسقط •

ملاحظات عن حيوانات المنطقة

يسمى العرب العمانيون الحمار الوحشى حمارا ، واللفظة مشتقة من الاحمرار ، وهو رمادى اللون أو أحمر — بنى غامق • وحمير عمان لها شهرة كبيرة فى الشرق لسلالتها ونشأتها ، ويصدر منها الكثير إلى الخارج • وتعود إصالة الحمير العمانية إلى مزاج دمها الصحراوى مما يزيد فى قوتها وتحملها للمشاق ، ولهذا فالحمير الهجين عنيدة ومراوغة ومتوحشة ، وقد رأيت بعضها يجرى مغلول القدمين ، ولها حركة مشى سريعة ، ويمكنها أن تواصل تلك السرعة لساعات طويلة ، وهى تصلح لتسلق الجبال وعبور ممراتها الانحدارية ، نظرا لحافرها المقعر ، مما يسمح لها بالصعود للطرق المنحدرة بسهولة • وعلى الرغم من أن هذه الحمير قد ألفت وتكيفت مع المناطق الجبلية إلا أنها لاتوجد إلا فى السهول وثمن الواحد منها يصل إلى ٣٠ أو ٤٠ ريالا ، غير أن الحمير الأليفة تكلف أكثر من هذا الثمن ، ولذلك فيصدر منها الكثير • وعلى الرغم من قصر أرجلها أو قلة سرعتها فان الحمير المتوحشة نادرا ما يستطيع خيّال أن يلحق بها أو يسبقها فى الجرى ، ولذلك فإن العرب يهتمون بالأنواع الجيدة منها ويقدرون مزاياها •

القرد : يذكر أوتر أن عمان قد اجتاحتها القردة فى الأزمنة القديمة ، ويسمى القرد فى عمان سبال ، وهو أيضا اسم أحد الأصنام الآلهة التى كان يعبدها عرب الجاهلية قبل الإسلام • وكانت القردة تشكل تهديدا مدمرا مما اضطر العمانيون إلى إبادتها ، وقد تمت هذه العملية بطريقة فعالة حتى لم يعد للقردة وجود فى عمان •

الجمل : يلاحظ أن هناك تشابها غريبا فى الصفات بين العربى والجمل ، ولعل أبرز سمات ذلك التشابه هى مقاومة كل منهما للظلم ، ونزعته الى الانتقام ، والسهولة التى يتم فيها تهدئتهما ، وقليلا ما يصادف الانسان

عربيا ليست له تجربة أو قصة عن مثل هذه الحوادث • وفى شبه الجزيرة العربية كما هو الحال فى الهند أو افرقيا يوجد نوعان من الجمال ، جمال الركوب ، وجمال النقل أو الحمل ، (والجمل ذو السنامين غير موجود فى هذه البلدان) أما الناقة فهى المخصصة للركوب نظرا لدقة ولين مشيتها ، وهذه الجمال سريعة وخفيفة الحركة ، وهى أفضل من الخيل لقطع المسافات الطويلة • وجمال الحمل سميكة الأرجل وفاترة وغير رشيقة ، كما أنها أكبر وأقوى وأكثر فائدة ، وخطواتها ثقيلة وبطيئة وموزونة ، وتتحرك فجائيا ، كما أن صفاتها تتلائم مع خصائصها الجسمانية • وفيما عدا الأرض الطينية أو الزلقة والتى تغطيها المياه كالمستنقعات ، فإنه لا توجد تربة أيا كانت رملية أو حصبائية لا يمكن للجمل أن يسير عليها فى سهولة وخفة وسرعة وأمان ، بالرغم من أنه يسير أفضل على الأراضى الرملية • والجمل بما يتمتع به من صلابة وقوة وفطنة يتفوق على الخيل ، وهو يتساوى مع الحمار فى الخفة والصبر ، ومن ثم فإنه أعظم الحيوانات الأليفة قاطعة فى العالم كله ، وإذا كان الهندوس يعبدون البقرة لأسباب اقتصادية فإن هناك مبررات أقوى للعرب بأن يرفع الجمل الى مصاف الآلهة ، وأن يعتبر حيوانا مقدسا • وتختلف سروج الجمل من بلد عربى الى آخر • ففى عمان على سبيل المثال يصنع السرج والجواد من نفس الشكل ويتكونان من خشبتين مربوطتين فى طرفيهما وتوضعان فوق السنام ثم تغطيان بمفرش أو سجادة أو قطعة من قماش الصوف ، والجزء المقوس من السرج عبارة عن قطعة من الخشب مستديرة الرأس ، وعليها نقوش محفورة وتسمى هذه الشداد ويتم صنعها فى نزوى وغيرها من المدن العمانية ، وفى عمان يجلس راكب الجمل وراء السنام بينما فى اليمن يجلس أمام السنام ، ومن جانبى السرج يتدلى جراب كبير من قماش الصوف ، وذلك لحفظ الملابس والطعام فيه وبالإضافة الى استعمال الجمال فى شئون النقل ، فإنها تزود أهلها بالألبان وخيوط الشعر للحياكة والجلود واللحوم •

إن السرعة وغيرها من الصفات التى يتمتع بها الجمل العمانى يجعله

فى مستوى جمل المهرة المشهور والذى يكاد يشبهه ولا يفوقه أى جمل آخر فى عرف العرب • والدروع ، ويال وهيبة ، والعوامر هما القبائل العمانية المتخصصة فى تربية الجمال ولكل منها قطعان كبيرة منها •

ملاحظـــات عن طيـــور عمـــان

الصـــقور والنســـور

إن أقصى ما توصلت الىّ معرفته من خلال مقارنة أقوال عدد من مربى الصقور أن هناك نحو ثلاث عشر فصيلة • واحدى هذه الفصائل هى المعروفة لدى العرب بلفيف ، ونوع آخر يسمى حجازى ، وهو كما يدل اسمه ينتمى الى أرض الحجاز ، ويتم صيده فى المناطق القريبة من المدينة ، وهذا النوع هو من أفضل الأنواع ، وله نفس الأهمية التى للباز الجوال ، إلا أنه لا يحلق فى أسراب ، بينما يقبض على فريسته من الطيور بضربة واحدة • ونوع آخر هو اثرناجل ، ويقول البعض ان له عينين صفراوين بينما يقول آخرون بأن عينيه سوداوان ، لكن من الصعب أن نؤكد ما اذا كان هذا النوع هو من الصقور أو النســـور • وأكثر أنواع الصقور استخداما هو ما يسمى شرخ أو لفيف كما يطلق عليه العرب ، أو وشرى عندما يكون صغيرا كما يسمى بالصقر ، وهو يشبه الشروج الهندى ، بينما الفريسة التى ينقض عليها بعد اطلاقه هى من نفس النوع من الغزلان ، وأوكار هذه النسور توجد عموما فى جبل شحل بالقرب من تكريت • ويأتى هذا النوع من العراق عن طريق قبائل عزّه • أما الكستريل فلا يستخدم فى القنص ، ويســـمى فى شبه الجزيرة بشاج ، ويسميه أهل العراق عجير الفـــار وصغاره تسمى فروكه • أما ذو العيون الصفر فيسمى باز • ومن جبال كردستان ولارستان وبختيارى يأتى نوع آخر من الصقور يسمى جوشهوك ويأتى به الأكراد ، ويجرى تدريبه على البط والقط والأرانب • وهناك نوع آخر يسمى ترلان أصفر العينين • والعرب ليســـوا قناصين متحمسين ، كما لايبدو أنهم يستخدمون الصقور كهواية رياضية ، وهى من الهوايات الصعبة •

الحشـــــــرات :

يبدو أن شبه الجزيرة العربية تزخر بأنواع مختلفة من الحشرات ، وبالأخص الحشرات البيضاء المؤذية جدا ، والناموس والذباب والعنكبوت ، ولكن ربما كان الجراد هو أكثرها شرا وتدميرا ، وتعتبر الجرادة الخضراء اللون هى أكبر أنواع الجراد على الاطلاق فى عمان ويسمونها خفان وعلى الرغم من أن الجراد يسبب الكوارث المهلكة بالنسبة لسكان الحضر فى شبه الجزيرة العربية ، إلا أنها ليست كذلك بالنسبة للبدوى الذى يعتبرها غذاء قيما • وهذه الحشرات تطير فى أسراب لا تعد ولا تحصى بحيث تقضى على الأخضر واليابس ، وللجراد فك واسع وأسنان فتاكة كالمنشار ، وهى مركبة بطريقة تسمح لها بقضم وفرم أى شىء وبطريقة فعالة جدا •

أشجار ونباتات عمـــان

إن أهم عاملين يؤثران على النبات فى أى بلد هما المناخ والتركيب الجغرافى ، وبالتالى فتبعا للظروف السائدة فيه من هذه الناحية يظهر لنا أن عمان تعد فقيرة نسبيا فيما يختص بالنباتات والخضار ، ولكن رغم أنها ليست غنية فى نباتاتها ، إلا أن التناقضات الهائلة فى ارتفاعاتها بالإضافة الى تنوع مناخها من قمم الجبل الأخضر الشامخة حيث يقال إن الثلوج تتساقط عليها بالإضافة الى الحرارة الشديدة للصحراء ، والوديان السفلى قد أدت الى تنوع الثمار والنباتات فيها ، وهكذا نجد أن هناك أنواعا من نباتات المناطق المعتدلة تختلط بنباتات المناطق الحارة • ان النباتات المحلية التى تكسو الجبال والبطاح قد طعمت بادخال العديد من النباتات والأشجار الهامة من خارج عمان كالجوز والمانجو وغيرها ، وهذه حقيقة ينبغى أن توضع موضع الاعتبار عندما نحاول تكوين انطباعاتنا عن عمان ، والتى أهم أصنافها أشجار الأكلسيا والصبار • والواقع أن النباتات المحلية تأخذ طابع الهند وافريقيا وتشاركان فيهما ، غير أن عمان تمتاز بالعديد من الأشجار والنباتات الخاصة بها وحدها • ففى أعلى مرتفعات سلاسل الجبال يوجد البلوط وشجر الجميز والعرعر والسرو وغيرها ، غير أنه لا توجد فيها كثافة للأشجار نظرا لأن التربة رقيقة بحيث لا تسمح بنمو الأشجار العالية • ففى المناطق الدافئة من عمان توجد الأشجار الشوكية والخفيضة بكثرة ، وهى ذات أهمية بالنسبة للوقود ولعلف المواشى •

ولقد تم إجراء مسح زراعى جزئى لعمان سنة ١٨٣٦ عندما جاء ام • أوشر • ألوى الى عمان وزار الجبل الأخضر • وقد ذكر فى كتابه ، أنه شاهد أنواعا جديدة من النباتات تصلح جدا لتصديرها الى أوربا • وفى نخل شاهد أنواعا جديدة من النباتات لم ير لها مثيلا من قبل ، وقـــد أرسل بذورا منها إلى باريس وسماها « فوجيليا ليروسا » كما وجد أنواعا

أخرى • وفى الحاجر وجد نوعا جديدا من البورهافيا ومن البنفسج • كما اكتشف فى تنوف أصنافا جديدة من اليسوس ، وقد جمع ألوى نحو ٢٥٠ عينة من الأزهار والنباتات ، وقدر وجود نحو خمسمائة صنف فى عمان •

واذا أردنا أن نقوم بسرد أنواع النباتات والأشجار الأكثر أهمية والتى يحق لعمان أن تفخر بها فاننا نلاحظ أن معظمها من أصل غير عمانى • وهناك أنواع من أشجار الأكاسيا تزدهر فى المناطق الصخرية ويمكن أن نذكر ثلاثة منها : (١) أكاسيا فيرا ، السمر وهى شجر الصمغ العربية الحقيقية • (٢) أكاسيا ارابيكا الغاف والبابول الهندى • (٣) والأكاسيا ينلوتيكا واسمها العربى سايل •

اللوز : ويزرع فى عدد من مناطق عمان •

الصبر : ينمو بكميات قليلة فى عمان ، وهو يستعمل بصورة أخص فى صناعة الأدوية ، ولأهل عمان معتقدات كثيرة عن هذا النبات تعتبر خرافيـــة •

المشمش : ينمو بكميات قليلة فى عمان ، وهو يستعمل بصورة أخص انه ينمو فى الباطنة •

المـــوز : وينمو بكثرة •

المقـــل : هذا النبات ذو الرائحة اكتشف فى ظفار من جانب الدكتور كارى •

التنبـــول : ينمو فى المناطق القريبة من مسقط والباطنة •

اللبـــان : وكلمة لبان هى من أصل الكلمة الأوربية أو ليبانم ويصف بردوود ثلاثة أنواع من هذا النبات « بوسوليا كارتيرى » و « بوسويليا فريرينا » ولوسويليا بوداجيانا ، ويوجد فى مرتفعات ظفار ، ومنه يصدر الى بومباى ، وفى الأزمنة القديمة كان اللبان يشكل سلعة هامة ، فى التجارة الدولية ، ولا يزال يستعمل على نطاق واسع •

عشـــور : أو شجرة الحرير ينمو فى كل منطقة من عمان فى الأجزاء الصحراوية ، وله استعمالات كثيرة ، كدواء ، وله سائل حليبى •

الغظـــف : نبات صحراوى ، ويقال بأن له فوائد طبية •

الفراولة : قال عنها أوشر ألوى انها تزرع فى الجبل الأخضر •

زروع : لقد اكتشفها أوشر ألوى أيضا ويقال انه علاج للروماتيزم •

الموالح : يقال انها تزرع على نطاق محدود •

الحنظل : ينمو كنبات قصير ، وهو يوجد بكثرة فى الأماكن الرملية الجـــافة •

جوز الهند أو النارجيل : أدخلت زراعته الى الباطنة ، ولكنه لا يزدهر هناك ولا يخرج ثمره •

القطـــن : نوعان أبيض وبنى ، والبنى يسمى خضرنح ، ويفضله أهل البلاد ، ويستعمل فى النسيج بكثرة •

الاستغفل : أو فاكهة القشطة •

شجرة النخل : أهم أشجار عمان وأكثرها شهرة وزراعة ، ويعتبر من المواد الأساسية لمعيشة السكان •

دم الاخوان : يقال انه ينمو فى ظفـــار •

الشرقة : من عدة أصناف ، وله عصير يستعمل كعلاج عند أهل عمان •

التـــين : الحناء يستعمل كصبغة للشعر والأظافر •

النيل : ينمو بكثرة ويستخدم لصبغ الأقمشة •

الحسن : تنتشر زراعته بكثرة فى عمـــان ويستخدم كعلف للمواشى والحيـــوانات •

الليمون والليمون الحلو : كان يصـــدر سابقا الى كلكتا بكميات كبـــيرة •

الورس : يستعمل أحيانا كمادة للصبغ والتلوين ، والمانجو من الفواكه التى توجد بكثرة فى عمان وعلى الأخص فى منطقة السهول الساحلية •

المنغروف : ينمو فى كثير من مناطق عمان على الشواطىء إلا أنه يستعمل كخشب للوقود ، وقد سبق لثيوفراستوس أن تحدث عنه منذ ٣٠٠ عام قبل الميلاد وكان قد رآه فى الخليج •

البطيخ والشمام : يوجد الاثنان بكثرة فى عمان •

الفجـــل : ويوجـــد بكثرة •

بالاضافة الى الفراولة والبرتقال والخوخ واليابايا والرمان والسفرجل من الفواكه التى تزرعها عمان •

زهرة الإكليل : وله رائحة عطرة جميلة وتنمو فى كل مناطق الوديان تقريبـــا •

نيوريا : أطلق هذا الاسم على نوع من الزهر تيمنا باسم الرحالة نيبهور وقد عثر ألوى على أصناف أخرى منه •

السـدر : شجر صحراوى ينمو بكثرة فى كل مكان من عمان •

الخروع : وهو منتشر فى عدة أماكن •

الياس : تستعمله النساء كأداة من أدوات الزينة •

سنامكى : نبات طبى هام ينمو فى المناطق الرملية الجافة •

ستروس ديكومانا : ينمو فى منطقة الباطنة •

السمسم : يستخرج منه الزيت التجارى المعروف ويزرع فى نواحى البـــاطنة •

قصب السكر : يزرع فى كثير من مناطق عمان وأما فى بركة الموز فإنه ينمو على ارتفاعات تصل الى ٢٠٠٠ قدم •

الطـرفاء : يزرع بكثرة فى عمان ويندر أن تخلو الوديان من هـذا النبـــات •

التبـغ : ينمو فى الباطنة والظاهرة الى حد ما ويستعمله البلوش والفرس ، وعرب عمان عموما لا يدخنون •

العنب : يزرع فى الباطنة وفى كثير من الأودية •

الجوز : ينمو بصورة خاصة فى الجبل الأخضر •

وإلى جانب تلك النباتات والأشجار التى أوردناها توجد نباتات أخرى لها أسماؤها العربية ، ولكن لم يتم التعرف عليها • ولقد كان تطور الزراعة

فى عمان تطورا محدودا لأن أهل عمان لا يولونها كثيرا من الاهتمام والجهد • ويعتمد المحصول الى حد ما على مياه الأمطار على الرغم من أن الرى يعتمد فى أغلبه على مياه الأفلاج والآبار • أما الحبوب فهى الذرة والشـــعير والحنطة ، وهى طعام الطبقات المعسرة ، غير أن الموسرين يؤثرون عليها الأرز الذى لابد من استيراده من الهند لعدم وجود أراضى منخفضة فى عمان تصلح لانتاج الأرز •

ويستهلك البلح بصورة رئيسية ، ويمكن أن نعتبره غذاء الشعب بالإضافة الى الأرز والسمك • وجميع أصناف الخضروات الهندية تنمو فى عمان ولكن بكميات قليلة اذا استثنينا المدن الكبرى ، لأن العرب لا يميلون الى الأعشاب غير أن زراعة الحبوب بجميع أنواعها موجودة بكثرة • أما الأثرياء العمانيون فإنهم فخورون بحدائقهم التى يزرعون فيها الورد والخضروات والأشجار •

جيـولوجية عمـــان

تشكل جيولوجية عمان حقلا مثيرا للمختصين الجيولوجيين ، وان الأمر ينتظر ظهور أستاذ خبير فى هذا الحقل للقيام باكتشافات شاملة للبلاد وتقديم نتائج أبحاثه • وقد حصلنا على فكرة عامة مفيدة عن التكوينات الصخرية لعمان من تقرير وملاحظات الدكتور ا ج • ص • كارتر الذى كان ملحقا بسفينة المسح البحرية التابعة لشركة الهند الشرقية ، والذى زار الساحل العربى فى سنة ١٨٣٦ و سنة ١٨٤٤ ابتداء من مسقط حتى ظفار ، وقد نشر معلومات قيمة عن تلك العمليات •

إن سلسلة الجبال الضخمة تمتد كما عرفنا عبر البلاد من أحـد طرفيها الى طرفها الثانى ، وهى مكونة من رواسب صخرية مع بروزات صخرية نشأت عن الضغط والحرارة فى مسقط ، وحيس ومدركة والفيزانية فى مسندم الى الجبل الأخضر ، فإن طبيعة هذه التشكيلات الجبلية كلسية بيضـاء فى معظمها مع حجر رملى يغطى الكتل ، والطبقة الأرضية فى منطقة مسندم أفقية ، غير أنها فى المناطق الداخلية أكثر تعقيدا وتتخذ فى أغلب الأحوال وضعا يشبه الزاوية • ويتغير لون الكلس من منطقة وأخرى ، ولكنه يظل أبيض وأصفر فى معظم الأحوال • وفى مسندم وقريات لونها رمادى غامق أو أسود ، وبالقرب من مسقط تظهر الصخور البركانية بشكل أوضح لأنها تتكون من الديورايث على امتداد الساحل لمسافة عشرة أو اثنى عشر ميلا من دارسيت الى يتى •

ويلاحظ كارتر أن الطبقة الأرضية من الناحية الجنوبية لمسقط مشوهة وترتفع طبقة بعد أخرى لمسافة ثلاثين ميلا حتى تصل الى أقصى علوها على ارتفاع ٦٠٠٠ قدم على امتداد ٤٠ ميلا الى الداخل • ثم تأخذ السلسلة فى الاقتراب من الساحل حتى رأس الشيطان حيث يطلق على السلسلة فى هذه البقعة جبل السعترى أو جبل قريات ، الذى يرتفع ٦٢٢٨ قدما وتعرف

السلسلة وراء الهوة بجبل جابر ، وبعدها بجبل قلهات عند وصولها الى صور ، مع احتفاظ الثلاثة جبال بتشكيلها الكلسى ، ثم تعـود التشكيلة فتظهر جنوب رأس الحد فى مناطق عديدة عبر الساحل ، وفى ظفار حيث توجد صخور الجرنايت وغيرها ، غير أن التشكيلة فى عمومها على الساحل الجنوبى حتى ظفار هى كلسية وكذلك على الجبهتين الشرقية والشمالية •

واذا نظرنا الى رأس مسندم من البحر ، فإن الاستنتاج الذى يخرج به المشـاهد عن هذا الرأس هو احتمال أن يكون متصلا فى سابق الأزمان بالسلسلة الواقعة على الخليج ، ثم كنتيجة لترسب الأرض فى فترة جيولوجية بعيدة ، اندفع البحر لكى يشكل الخليج مكونا بذلك الوديان والنهيرات والخلجان كما هى الآن •

ومن بين المعادن التى وجدها الدكتور كارتر من واقع دراساته للصخور هى الهوربلند والعشب الأخضر ، الصـخر الكلوارترى الحبيبى وسليكات الألومنيوم ، والديالاح والبازلت وغيرها ، غير أن طبيعة الجبال ليست صالحة للزراعة والنبات • وأن الخضرة باستثناء الوديان قليلة جدا • أما من حيث المعادن فيحتمل وجود أربعة منها فى عمان ، فمنجم النحاس فى الخضرا قريبا من سمد الشان كان له نشاط كبير سابق ، أما الآن فقد قل ذلك ، كما يوجد هذا المعدن بالقرب من قريات ، وفى جزيرة مصيرة حيث يقال بأن معدن الرصاص موجود أيضا • أما الفضة فكانت تستخرج سابقا فى الجبل الأخضر ، غير أن المنجم قد توقف عن العمل منذ وقت طويل • أما الجبال القريبة من مسقط فيحتمل وجود الحديد فيها ، غير أن خام هذا المعـدن لم يكن صالحا للاستخراج • ان الكابتن نيوبولد هو أحد المساهمين العظام فى التعرف على جيولوجية مسقط وقد زارها فى عام ١٨٤٩ •

صـــيد الأســـماك

ان العرب وهم أوائل الملاحين فى العالم كان لهم ولع دائم بالبحر ، وقد برهنوا فى هذا المضمار عن صلابة وشجاعة وروح مغامرة فائقة • وسكان الجزء الشرقى من شبه الجزيرة على الأخص كانوا منذ عصور تاريخية غابرة من المشاهير البارزين فى هذا الميدان •

وبالنظر الى روح الاستقلال والمثابرة التى عرفوا بها فإن بلادهم لم تحظ بوجود ثروة زراعية كبيرة ، غير أنها تملك شواطىء طويلة ومتنوعة زاخرة بالحيوانات البحرية ، وبالتالى فقد اعتادوا أن يعتمدوا على البحر كمصدر لغذائهم • ولهذه الاعتبارات فقد أصبح صيد الأسماك من أهم الصناعات التى تشتهر بها عمان ، وهى تمس قطاعا كبيرا من سكانها •

إن الأسماك فى عمان من الوفرة بحيث أن السواحل العمانية كلها بمثابة أحواض زاخرة بالأسماك • وحيث أسواق البلاد تغمرها الأسماك الطازجة والمملحة على مدار العام ، والصيادون يمارسون الصيد بمنتهى الحذق والخبرة ، وهم يصطادون كل أنواعه حتى سمك القرش ، وهم أقوياء وأشداء فى ممارستهم لهذه المهنة ، أما فقراء الصيادين الذين لا يملكون قوارب صيد خاصة بهم فإنهم يستخدمون الشباك •

ان العرب وحدهم هم الذين يقومون بأعمال الصيد ، إذ على الرغم من وجود أعداد قليلة من الزنوج فى قوارب الصيد إلا أن عملهم يقتصر على المساعدة فى جر المجاديف ، ولا يمكن الاعتماد عليهم فى إدارة الشباك التى هى من الأعمال المضنية الشاقة • وعلى الرغم من أن الزنوج أقوى عضليا من العرب إلا أن الشجاعة والذكاء والمهارة تنقصهم بحيث يعدون لا قيمة لهم على الاطلاق • وخلال موسم الحصاد فى شهرى أغسطس وسبتمبر يغـــادر عدد كبير من الصيادين للعمل فى داخلية عمان ، وبذلك يتركون

أعمال البحر فى ذروة المونسون ، وبالتالى يطرأ نقص فى الأسماك المعروضة ، فلا يخرج الى الصيد إلا المراكب الكبيرة فقط • أما فى غير تلك الأوقات فإن الصيادين جميعهم يتواجدون فى البحر ويقومون بممارسة أعمالهم ، وأن أفضل مواسم الصيد هى فصلا الربيع والخريف •

أســـــاليب وطــرق الصـــيد :

يمكن تقسيم أساليب الصيد فى عمان الى أربعة أشكال : الأول مناطق البحر المفتوحة ، والثانى المناطق القريبة من السواحل ، والثالث المناطق السطحية ، والرابع أسماك العمق ، كما أن جميع هذه الأشكال تختلف عن بعضها باختلاف الفصول وتحركات الأسماك • وبعض قوارب الصيد تخرج فى الصباح الباكر وتعود فى المساء بصيدها ، وفى أحيان أخرى تخرج القوارب فى المســاء وتبقى فى عمليات الصيد طوال الليل ثم تعود فى الصباح • وفى كل الحالات تعرض الأسماك للبيع فى الأسواق العامة ، أو تباع للزبائن المنتظمين بعد أن يحتفظ الصيادون بحصتهم من الصـــيد لاستهلاكهم الخاص ، وعلى كل حال فأساليب الصيد تختلف قليلا من منطقة الى أخرى تبعا لنوعيات الأسماك التى يطلبها الصيادون ، أى على أساس هذا الاعتبار وعلى طبيعة المنطقة الساحلية ، وعمق المياه تتحدد أساليب الصيد • وثمة أنواع عديدة من شباك الصيد يستعملها الصيادون على السواحل العمانية • وتسمى الشبكة « ليخ » غير أن لكل صنف اسمه الخاص به ، وفى بعض شباك الصيد وعلى الأخص الشباك التى يلقى بها فى الليل تشتبك فيها الأسماك من لغدها ، وفى حالة أخرى تلتف حبال الشبك عليه ويتم سحبه الى داخل القوارب أو الى الشواطىء •

وإن أنواع الشباك التى تستخدم على ساحل الباطنة وغيرها من الشـــواطىء الرملية طويلة وضيقة الفتحات ، ويقوم القرويون بدمج وتشبيك الشباك القيام بعملية صيد واسعة ، ثم يقوم شيخ البلدة بتوزيع

الأسماك التى يتم صيدها أمام الجمهور • ويتم الصيد بطريقة نصف دائرية حيث يقوم الصيادون بشد الشبكة من طرف جناحيها • وثمة أنواع من الشباك فى الخليج يعتمد على تيار الماء وتسمى قارون • وهو مؤلف من عدة قطع ، ويقوم أصحابه بتجميعها ووصلها وبعد الصيد مباشرة يتم توزيع المحصول بالتساوى • أما النوع الآخر الذى يسمى الأشعرى أو الغبوط وهو من نفس النوع ولكنه أطول ويتم إغراقها فى أعماق البحر ، وتستعمل لصيد الأسماك الكبيرة ، ويتحرك الشباك فى البحر طوال الليل ، ونوع ثالث يسمى فرد ميلز ، وله فتحات كبيرة • والعوامات أو العلامات الفارقة لهذه الشباك هى جذوع النخل أو قطع الخشب الخفيف الوزن ، بينما تتألف الغطاسات من كتل الرصاص أو الأحجار ولعل أكثر الشباك فائدة لعرب عمان هى الشبكة المخروطية « الترول » ولها فتحات صغيرة وجيوب كبيرة ، ويستعمل هذا النوع لصيد أسماك السردين (القاشع) وغيرها من صغار الأسماك ، ونوع آخر يسمى المنصب • أما الشبكة الترامبل فغير معروفة فى الخليج ، ويستعمل الطعم الحى فى صيد الأسماك ، أما بالقاء نوع من الشباك يسمى ريليا أو الدقيق على سرب من الأسماك ، أو تستعمل الطريقة الخاصة بأهل مسقط •

وتحتفظ قوارب الصيد بسلال معلقة على أحد جانبى القارب للاحتفاظ فيها بالطعم حيا ، غير أن العمانيين بارعون فى استخدام الطعم الميت فهم يربطون رأس السمكة بالطعم بحيث يستمر فى الالتفاف تحت الماء لجذب الأسماك اليه • كذلك فان السنارة التى يستعملونها هى من نوع خاص ، فهى مدورة وبدون أشواك ومصنوعة من الحديد وتسمى المجدار • ونهاية السنارة المواجهة لطرفها مثنية الى الداخل لتشكل حلقة صغيرة يربط بها الخيط • وعلى أية حال فإن الخطاف الأوربى بدأ استعماله تدريجيا ليحل محل الصناعات العربية البدائية ، واذا أخذنا فى اعتبارنا قوارب الصيد وأجهزته البدائية لدى العمانيين فإنهم يعتبرون مهرة بصورة مذهلة فى صيد كميات كبيرة من الأسماك وفى استعمال تلك الشباك •

والمناطق التى يتم فيها الصيد قد لايزيد عمق المـاء فيها عن ٣٠ الى ٤٠ ذراعا ، والعرب لا يستعملون للصيد سلكا طويلا خوفا من سمك القرش الذى يكثر فى هذه المناطق ، وقد يقضى على جميع الأسماك التى اصطادوها • والسمكة التى يربطها الصيادون فى خلف القارب تكفى لاستدراج سمك القرش وسحبه الى الشاطىء

أما الطرق الأخرى المستعملة فى صيد الأسماك فهى الجرجور وهى شبكة كبيرة مستديرة كالسلة يبلغ قطرها من عشرة الى عشرين قدما • ويتم إغراق هذا النوع من السلال فى قاع البحر لمدة يوم أو يومين ثم يتم جذبها • أما الشبكة الأخرى فهى الحدرة مصنوعة من سعف النخيل الذى يتم ربطه فى بعضه البعض ويسحب الى الرمل بحيث يشكل سياجا على شكل هيئة حافر الخيل ، كما تستعمل أحيانا الحربة ، وهى بطول نحـو ٩ أقدام وشوكة فى أطرافها وتسمى القوار •

منتجـــات الأســـماك :

إن محصول البحر فى شرق شبه الجزيرة هام جدا ، وهو لا يزود أغلبية السكان بالغذاء فحسب ، ولكنه مصدر عمل لعدد كبير من الناس يشمل عمليات الصيد وصناعة الشباك وبناء القوارب وصناعة التمليح • إن وفرة الأسماك فى البحر العربى مذهلة جدا ، ولمـا كان الملح رخيصا فى ساحل عمان فإن كميات وفيرة من الأسماك يتم صيدها وتمليحها للتصدير والاستهلاك المحلى • ويتم استيراد الملح من جزيرتى قشم وهرمز فى إيران لوجود جبال الملح فيها ، وبما أنه يتم الحصول على الملح بسهولة فان التمليح أصبح صناعة قائمة بذاتها فى عمان ، غير أنه نظرا للأساليب البدائية المتبعة فى هذه الصناعة فإن كمية الأسماك المملحة ونوعيتها ليستا فى مستوى الطلب ، والنوع الذى تصنع منه الأسماك المالحة هو السَّهوه أو السمك الأحمر • وطول هذه السمكة نحو ثلاثة أقدام ولها سلسلة مقعرة

بالقرب من الذيل ويتم تصدير هذا السمك الى جزر موريشيوس وناتال وباربون • ونوع آخر من السمك اسمه السدر يتم استهلاكه محليا كما يصدر أيضا الى الخارج • أما سمك البورى — أبو ذقن — ويسميه العمانيون بياح فيتم تمليح كميات كبيرة منه ويصدر الى الهند ، وأما سمك سياف البحر أو أبو سيف ويسميه العمانيون سنسول فيتم صيده بكميات هائلة ، وهو طعام الطبقة الفقيرة فى عمان ويتم تمليحه قليلا أو يرسل طازجا الى مناطق عمان الداخلية • ويتم إرسال حمولات هذا النوع من السمك بعد عودة القوارب مباشرة الى الشاطىء ويتم شحنه على ظهور الحمير • ومما لاشك فيه أن حرارة الشمس تؤدى الى تجميد السمك ويمكن أن يشم الانسان رائحة هذا السمك من بعيد ، وهو على ظهور الحمير التى تتوجه به فى قوافل • ويسمى سمك السردين الذى هو النوع الوحيد من عائلة الرنكة فى مياه هذا البحر بالصيحة ، ويتم صيده بكميات هائلة على الشاطىء كما يستعمل طعما وسمادا أيضا ، كذلك يستخرج منه الزيت ، ومن أجل ذلك يتم تعريض السمك لحرارة الشمس مما يؤدى الى انضاح الزيت منه ثم يجمع فى جرار ، غير أنه يعتبر من حيث النوعية أقل من زيت كبد القرش • كما يوجد نوع آخر من سمك السردين المسمى القاشع ، ويتم صيده بالقرب من منطقة رأس مسندم ، ثم يتم تجميعه فى الشمس ، ثم يعبأ فى أكياس •

ومن بين الأسماك يعتبر سمك القرش أكثرها قيمة وأهمية من الناحية الاقتصادية ويتم مطاردة هذا النوع من السمك ليس فى البحر العربى وإنما من جانب سكان جنوب وشرق آسيا أيضا الذين يعتزون به كغذاء يعتقدون أن لحمه يحوى مواد مغذية ومنشطة ، حتى إن كل قطعة من جسم هذا الحيوان البحرى يستفيد منها العرب بشكل وآخر • ويعرض لحم هذا السمك فى أسواق المدن الساحلية طازجا ومملحا ومجففا ، كما يتم تقطيعه الى شرائح ويرسل الى داخلية عمان ، وهو يشكل العنصر الغذائى الرئيسى

للسكان الآن والموسرون من الناس لايتناولونه اطلاقا ، ويتم تصدير زعانف هذا السمك الى بومباى حيث يرسل الى الصين فى سيل لا ينقطع • وهذا السمك نوعان أســود وأبيض ، وبعد أن يتم فرك الجذور بالليمون تعبأ الزعانف فى جوالات • ويعطى سمك القرش زيوتا بكميات هائلة • وفى فصل الشتاء يزداد الانتاج وفرة وغزارة ، ونظرا لندرة زيت النبات فى شبه الجزيرة فإن زيت الأسماك يستعمل فى أغراض عديدة ، فهو يستعمل لدهن قيعان المراكب وغيرها من السفن الشراعية ويخلط مع الكلس ثم تدهن به ألواح السفينة لحمايتها من العتة والحيوانات القشرية البحرية • ويتم استخراج الزيت بوضع كبد السمك فى حوض ثم سحقه بالأقدام أن كبد سمك القرش ضخم وينتج برميلين من الزيت ، وبينما تنتج أكباد الأسماك الأخرى كميات أقل • ويستخدم جلد هذا السمك لتلميع العاج وفى أمور أخرى ، غير أن الجلود المحببة والتى توجد فى الأسواق يقال إنها جلود البعير والحمير والجمال •

وهناك أيضا قشر السمك والذى يعرف فى الاصطلاح التجــارى بالحوصلة وهى للأسماك التى تتحرك على مستوى سطح المــاء ، ولا تمت بصلة الى الأسماك التى تعيش فى القعر • وهذا النوع له غشــاء دقيق شفاف ولون فاتح كلون العنبر • وكان هذا النوع سابقا يرسل الى أسواق الصين حيث يباع بأسعار رخيصة ، ثم تبين فى سنة ١٨٣٩ أن هذا النوع يصلح لصنع الغراء ، ولذلك بدأ إرساله الى أوربا رأسا •

كما توجد فى البحر العربى وبكثرة السلاحف ويستخرج منها العظام والحراشف للتصدير التجــارى •

والعرب فى عمان يصيدون السلاحف بالشباك أو بقلب السلحفاة على ظهرها عند خروجها الى الشواطىء فى الليل لوضع البيض ، ويتم جمع الحراشف من كل المناطق ليؤتى به الى مسقط حيث يتم تصــديره الى

بومباى •• وهناك نوع ليس له هذه الحراشف • والعرب عادة يقتلون السلحفاة قبل استخراج الحراشف ، غير أن سكان الأرخبيل الهندى كما يقـــال يستخدمون طريقة قاسية وذلك بنزع الحراشف بالنار بينما لاتزال السلحفاة حية • وهناك أربعة حراشف للسلحفاة على كل من جانبها وخمسة فى الوسط ومجموعها ثلاث عشر حرشفة • ولعل الشىء الغريب فى السلحفاة أن هيكلها خارج اللحم ومشدود الى الدرع ، ويستخرج قدر كبير من الزيت من السلاحف ومن لحمها ، وهذا الزيت يتناوله الصيادون ، غير أن أهل الشحر لا يأكلون سمك القرش ولا يلمسونه اطلاقا •

ونأتى إلى العنبر وهو أشبه بكتلة صلبة ، وكثيرا ما يلفظ بها البحر فى عمان الى الشواطىء ، وفى البداية يخرج العنبر رائحة كريهة ، ثم بعد ذلك تتحسن الرائحة ، ويستعمله العرب كعطر ، ويعتقد بأنه ناتج عن علة أو مرض يصاب به الحوت فيلفظه •

المحـــــار : يستعمل للزينة ويوجد فى عدد من مناطق الساحل العربى بين البحر الأحمر وبحر الخليج • ويغوص العرب لاستخراج المحـــار من قاع البحر الى أعماق تمتد الى عدد من الأقدام ويجلبون شحناته من السفن الى مسقط لإعادة تصـــديره •

الحيـــوانات الثـــديية البحـــرية :

إن هذه الحيوانات أو حيوانات العائلة الحوتية تتواجد فى بحر الخليج وبحر عمان وكذلك حوت العنبر وعدد من أسماك الدلفين بما فى ذلك خنزير البحر • وحوت العنبر اجتماعى ويتغذى على لسان البحر ، ويمكن أن يشاهد فى بعض الأحيان ، وهو يخرج رأسه من البحر لينضح الماء بعد وجبة يأخذها • ولعل هذا المشهد هو الذى أفزع القائد ثيارشوس وبحارته

قبل ٢٢٠٠ عام ، وسكان المنطقة يسمونه نحم [١] ، ولكنهم لا يصطادونه الآن بهدف تجارى ، وان كان يقال انه منذ سنوات عديدة كانت توجد قرية فى جزيرة مصيرة متخصصة فى صيد الحيتان وأما العمانيين فيستخرجون المـادة العنبرية منه ، كما يستفيدون من أسنانه لصنع مقابض النصال العمانية • وفى عام ١٨٨٥ تم احضار هيكل أحد الحيتان الذى جرفه البحر على ساحل الباطنة إلا أن الأهالى نزعوا أسنانه قبل إحضاره •

أما الهركول وهو الحوت الهائل الجسم اذ يبلغ طوله مائة قدم ، ويوجد فى مياه المحيط الهندى ، ولكنه يبدو من المستحيل أن هذا الحيوان يصل فى طوافه حتى مرابع الخليج • وعائلة الدلفين أو الثدييات البحرية تشمل الجرامبوس أو الحوت الذى رأسه يشبه عنق الزجاجة ، فيوجد منه ثلاثة أنواع ، ولعل لفظه جرامبوس هى تحريف لكلمة جرام العمانية ، ومنذ سنوات عديدة كان يرتاد سواحل مدينة مسقط حوت من هذا النوع ، وكان يعرف فى أوساط البحرية الهندية « تبوم الكبير » غير أن ذلك الحوت لم يعـد يشاهد فى السنوات الأخيرة •

الأســـماك :

إن الساحل العمانى يتميز بوجود أنواع فريدة من الأسماك والثروة البحرية ، فخلجانه المرجانية وشواطئه الرملية ، وسواحله الصخرية كلها تمثل أشكالا فريدة من الحياة على امتداد الشاطىء فخلال شهور الصيف فإن سطح البحر لمساحة أميال عديدة يغطى بالأسماك العائمة فى أسراب ضخمة بألوان متعددة ، وتطلق رائحة كريهة ، ولكنها فى نهاية الأمر تتبخر بمفعول حرارة الشمس • وتتوالد هذه الأسماك فى ثنايا الكهوف والخلجان

---

(١) الاسم البلدى هو جرام وليس نحم او نهم كما كتبه المؤلف .
(المترجم)

والمداخل وداخل تعرجات الساحل حيث يمكن رؤية صغار تلك الأسماك تتحرك فى أعداد وبكميات لا يصدقها عقل • وعند بلوغ الأسماك سن الرشد فإنها تستمر فى الهجرة من بيئة الى أخرى تاركة مكانها لمجموعة جديدة من الأجيال ، ولا ريب فى أن الدافع الرئيسى لتلك الهجرات هو البحث عن الطعام • وبدلا من أنواع الأسماك المألوفة التى نجدها فى المياه المحيطة بانجلترا فإن هناك ثلاث عائلات سمكية كبرى نعتبرها هامة جدا بالنسبة للانسان ، ونعنى بها الأسماك الزيتية وسمك السالمون ، وان كان هذان النوعان لا يعيشان إطلاقا فى المحيط الهندى ، أما عائلة أسماك الهرنجز فيمثلهـا فى عمان السردين ، أما سمك الماكريل فهو يوجد بوفرة كبيرة ومن أصناف متنوعة ، ويتم تمليحه للاستهلاك على أوسع نطاق •

ومن بين جميع أنواع الأسماك التى تعيش فى البحر العربى ، ربما كان أهمها لا بالنسبة كغذاء وإنما للعديد من الأغراض ، هو القرش ، الذى يطارده العمانيون بإصرار وبلا خـوف لصيده • ويبلغ المحصـول السنوى مـن هـذا السمك نحـو ١٠٠ر٠٠٠ سمكة • ان هذه السمكة الغضروفية تشبه الثعبان فى حركاتها الملتوية ويتكون جسمها المستطيل من ثنيتين فى وقت واحد وهى تسير فى البحر بسرعة فائقة بحيث تفوق كل حيوان من سكان الأعماق • وخرطومها الحاد يساعدها على زيادة سرعتها غير أن فمها يقع إلى الخلف كثيرا بحيث يضطرها إلى أن تدير وجهها للقبض على فريستها •

ويقسم علماء الطبيعة سمك القرش إلى عشر عائلات ، تنقسم هى الأخرى إلى ١٤٠ فصيلة بعضها بيوضية وبعضها ولودية ، ولعل أكبر أسر هـذا السمك هو القرش الحقيقى • أمـا الكبير من سمك القرش فهـو أوقيانوس ، ولايقرب من الشواطىء ، وإنمـا يبقى بعيدا فى أعالى البحر ويعيش على أسراب الأسماك التى تنزح من منطقة إلى أخرى بحثا عن الغذاء فى أوقات معينة • أما سمك القرش الأصغر فإنه يعيش فى القاع ، ويسمى العمانيون هـذا النوع وغيره من أنواعه سلطان البحر أو ملك البحر ، غير

أن له أسماء عديدة فى أجزاء عديدة من الساحل أما الاسم العام فهو الجربور أو كلب البحر ، أما القرش المرقط فيسمى النمرانى ونوع آخر يسمى الشطيفى • أما القرش الشيطانى المراوغ والذى له رأس يشبه المطرقة ، وتوجد منه خمسة أجناس ، فإنه بالرغم من أن طوله لايزيد على ١٢ قدما إلا أنه مخيف جدا ، ويسمونه فى مسقط أبو قارون وفى عدن بخيت • ويقوم العرب بمطاردة أسماك القرش التى تعيش فى أعماق المحيط بسفنهم ، والكميات التى يصطادها الجنبة وبنو بو على من أسماك القرش الأصغر كميات خرافية •وفى صور وحدها يصل عدد كل صيدة إلى ٦٠ طول كل منها من ٦ إلى ١٢ قدم ، غير أن الطريقة القديمة لاصطياد سمك القرش قد تم التخلى عنها نظرا لكثرة الحوادث التى نتجت عنها •

أما سمك الشعنين والذى يوجد منه أنواع كثيرة بعضها كبير جدا فكثير فى البحر العربى ويتم صيده لأجل زعانفه التى يتم إرسالها إلى الصين ، كما هو الحال بالنسبة لسمك القرش ، ويستعمل هذا السمك أيضا فى الطعام ، كما يستخرج منه الزيت أيضا • وأقوى أنواعه هو سمك السيف التى تحمل فوقها سلاحها الثقيل ، وهو عبارة عن خرطوم حاد مخيف طوله نحو ٥ أو ٦ أقدام وبهذا السلاح تهاجم الحيتان والأسماك الكبيرة بحيث تقطع أوساطها وكروشها وتأكل من أمعائها التى تبرز بعد تلك الطعنة النجلاء •

أما غواصو الخليج الذين لاشأن لهم بالقرش ، فإنهم يخافون هذا الوحش لأن هجمته تعنى الموت المحقق • ويقال ان سمك السيف أو السمكة المنشارية لها عينان غريبتان لا مثيل لها بين الأسماك الأخرى • والعرب لايستفيدون من خرطوم هذه السمكة إلا فى عمل الطلاسم لإبعاد العين الشريرة وجلب الحظ • أما سمكة الشفنين اللاسعة فهى غير منتشرة فى المنطقة ولابد من استعمال الحذر فى الإمساك بها لأن ذيلها كالمنشار ، كما يوجد أيضا السمكة الطويلة الذيل من عائلة الشفنين ، ولها جلد خشن ويستخدم فى صنع مقابض الأسياف والدروع •

ومن بين الأسماك المأكولة بالإضافة إلى التى سردناها يوجد الدلفين ، وهو مشهور بجمال ألوانه التى تتلاشى بعد موته • وهذا النوع من الأسماك كثير فى البحر العربى ، وهو لذيذ الطعم ، كذلك يطلق الدلفين على سمكة القرش مما أدخل تشويشا على الاسم أما السمكة الطائرة والتى يسميها العرب جرادة البحر فيتم صيدها وأكلها أيضا ، وهذا النوع لا يبحر إلى السواحل وإنما يبقى بعيدا عنها • أما السمك الشريطى فجسمه الرقيق الضيق ولونه الفضى الفاتح يفخر به أهل الخليج كطعام ، غير أنه مكروه نظرا لما يشكله من خطر مدمر على الأسماك الصغيرة ، وهو سمك هش يتفتت بمجرد اخراجه ، وهناك السمك ذو المنقار الذى يسميه العرب انفلوس وله شكل واحد ، وهو سمك مألوف ويؤكل ، ثم هناك السمك الصخرى الذى له ألوان كثيرة • أما السمكة الببغاوية أو المنقارية فهى من إحدى تلك العائلات ، وقد استمد هذا الاسم من فمها الذى يشبه منقار الببغاء ، وهو طعام لذيذ ويعيش على الأعشاب المرجانية • أما سمك الزامور فهو مخطط وصغير الحجم ، والمعروف عن هذه السمكة أنها تسابق السفن لترشد أسماك القرش إلى فريستها • والعرب يأكلونه ولهم عنه نظريات كثيرة • وفى ميناء مسقط تكثر الأسماك الصغيرة التى تعربد أمام الشاطىء ، وتقفز وتعكر الماء بحيث تجعل الماء يبدو وكأنه فائر • وسبب هذا المشهد هو أسراب السردين التى تحتمى بالشواطىء هربا من مطاردة الأسماك الكبيرة لها كالبينيت — الاسقمرى • أما الأسماك المفرطحة فلا تعيش بكثرة فى هذه المنطقة كالأسماك الأخرى ، والعرب لا يهتمون بها وقد شاهد الدكتور داى ستة أنواع من سمك موسى فى سواحل جواذر ومكران ، ومن غرائب الأسماك التى تعيش على هذه الشواطىء هى سمك القنفذ ، ويقال انه يقلص جسمه أو ينفخه بحيث يصبح ضعف حجمه وانه ينق كالدجاجة • والسكان يتشاءمون منه ، ولكنهم لايقتلونه ويسمونه أبوشوك ، وهناك السمكة الراضعة أو المصاصة ويسمونها روميرا ويقولون أن فوق رأسها مصاصات على شكل ٢٣ صفيحة أو طبق وأنها تمتص غذائها من جسم سمك القرش عندما تلتصق بجسم تلك السمكة • وهنا حكايات خرافية

عن هذه السمكة وكيف أنها تستخدم لصيد السلاحف عن طريق سلك مربوط فى ذيلها وقد أشار اليها المؤرخ المسعودى ، والصيادون لايزالون يطلقون عليها نفس الاسم أى السمكة اللزاقة أو اللازقة • وإلى جانب ذلك توجد سمكة غريبة الشكل فى مياه هذه المنطقة ، وتسمى الصندوق ، أو السمكة السلحفاة ، ولها حراشف وجلد ليفى ، وهذا الجسم ينفرطح حتى يتشكل على شكل رباعى أو مثلث • وبعض أنواع هذه السمكة لها قرون بارزة أمامها ، وذلك لمزيد من الحماية ويسميها صيادو المنطقة السمكة البقرة ، وهى صغيرة الحجم وتتحرك فى بطء شديد فى الماء ، وصبيان السواحل يستطيعون الامساك بها بأيديهم فى سهولة ، ولها ألوان براقة جميلة • وهناك سمكة غريبة أخرى هى سمكة القادوح المفلطحة ، وهى تعيش فى الموانى ، وتتغذى على الأعشاب المرجانية والمحار ، ولها شوكة خشنة حادة على ظهرها ، وتحتها شوكة أخرى تبرز بعد سقوط الأولى وهناك سمك المورينا الذى يعيش داخل شقوق الصخور ويصل طوله إلى خمس أو ست أقدام ، وله فك قوى وأسنان قاطعة ، ويمكنه أن يجرح من يصيبه • أما سمك الطوربيد أو الشعنين الكهربائى فهو يشبه سمك الورنك — الطباق ، وطوله ثلاث أقدام وهو يحدث صدمة عنيفة عند مهاجمته لفريسته ، ويتم صيد أعداد كبيرة منه بالشباك ولكن يلقى بها إلى الشاطىء • وهناك بعض أسماء غريبة يطلقها العرب على الأسماك كبنت النوخذا أى بنت الربان وبن عماره وأبو الريش •

وربما أضفت إلى ذلك ملاحظة لى عن الحيوانات البحرية لمنطقة شرق الجزيرة العربية فهناك سبعة فصائل من أسماك الماء الحلو فى وديان عمان وأنهارها ، وتسمى هذه الأسماك عموما صد غير أنه لكل نوع اسم خاص به • وتوجد هذه الأسماك بوفرة حتى فى الينابيع والنهيرات الحارة والتى يوجد منها الكثير فى البلاد العمانية وتتراوح درجة حرارة المياه فيها من ١٠٢° إلى ١١٢° فهرنهايت •

ومن بين الفصائل الأدنى للحيوانات البحرية يعتبر الجعار أو اللسان

هـو أكثرها ، وهو يمثل الغذاء الرئيسى لأسماك القرش من فصيلة حـوت العنبر • ويؤكد العرب أن هذه الفصيلة من العنبر تبلغ رقما قياسيا وهـو من الأسماك المأكولة ويعتبر من ألذها • أما السرطان أو السلطعون فيوجد فى المناطق القريبة من مسقط غير أن العرب لا يميلون كثيرا إلى أكلـه • ولايوجد منظر أجمل وأبهى للذين يستكشفون أعماق البحر فى هـذه المنطقة من الكميات الهائلة من المواد الشبيهة بالأزهار ذات الجمال الأخاذ ، وهى تستلقى داخل مخابئها ، كشقائق النعمان والمرجان والزئبق ، وذلك على عكس النباتات التى توجـد على التربة فوق سطح الأرض • إن السواحل العربية فى هـذه المنطقة زاخرة بهذه الأحيـاء الجميلة بألوانها وأشكالها الساحرة ، ويمكن مشاهدتها بوضـوح فى مياهها الشفافة • كذلك فإن الأسماك الملونة كثيرة فى مياه المنطقة وهذه فى وسعها أن تحـدث ألمـا حادا إذا لم يحذرها الإنسـان ، وهى تعيش على الأسـماك وتقتلها بمجاسها أو خراطيمها • وفى إحـدى المرات تعرض وكيل إحدى السفن التجارية فى مرفأ مسقط لحادثة أفقدته الوعى لعدة ساعات حين احتك جسمه بإحـدى هذه الحيوانات أثناء سباحته فى المرفأ •

وفى سنة ١٨٨٦ استخدمت سفينة صيد صغيرة لمسح قعر مياه البحر فى مسقط ، واستطاعت أن تستخرج منها كميات من سمك نجم البحر وحلوى البحر وغيرها من الأسماك •

صفاء مياه الخليج

إن صفاء أو تفسفر مياه البحر فى هـذه المناطق يعتبر منظرا مبهرا ويمكن أن يتمعن الإنسـان فيه بشكل أفضـل خلال هبوب عاصفة • ويحدث ذلك بسبب بعض أنواع حيوانات البروتوزوا (الحيواناتذات الخلية الواحدة) وهـو يضفى مشهدا فى غاية الروعة والبهاء ، فكل موجة عند تكسرها على

الصخور تسطع وتبدو كأنها صفحة من الفضة المتوهجة بحيث تشكل منظرا فى غاية السحر والروعة ، وإذا مر الإنسان بالقرب من صخور البحر فى الليل فى أحد القوارب فإن هذه الظاهرة يمكن مشاهدتها فى أروع مناظرها • فالألوان الفوسفورية التى تنتج عن تكسر المياه على الصخور ونغماتها بينما تطلق مجاديف القارب موجات من الأشعة ، وأحيانا تبدو الصخور وكأنها شعلة من قوس قزح عند هبوب أى عاصفة • إنه لمنظر رائع يأخذ بالألباب •

بناء المراكب والسفن

يتم بناء السفن والمراكب فى العديد من الموانىء العمانية ، وإنما يكون بصورة رئيسية فى مينائى مطرح وصور ، وأغلب النجارين الذين يعملون فى بناء السفن من الهنود الذين يحترفون هذه الصناعة ، أما الأخشاب على اختلاف أنواعها فتستورد من ملنبار ، ويتكلف بناء مركب من طراز « البدن » أربعة ريالات للمتر المكعب • وفى إمكان ثلاثة نجارين بناء سفينة كبيرة خلال ثلاثة أشهر • أما الأسلاك المستعملة فهى المصنوعة من الحبال ويتم صنعها محليا فى مطرح وفى غيرها من موانى عمان • وأحسن قماش للأشرعة يجلب من البحرين ، غير أن صحار ومجيس ومدنا أخرى فى عمان تنتج منه كميات كبيرة •

وإن السفن على ساحل عمان يمكن بوجه عام تقسيمها إلى طبقتين ، كل طبقة تختلف عن الأخرى • فطراز البدن وغيره مخصصة للتجارة مع الموانىء الأجنبية ، بينما تستخدم الأنواع الصغيرة فى التجارة الداخلية •

أما طراز البغلة الذى هو أكبر المراكب العمانية وأهمها فيستخدم فى التجارة مع بومباى وخليج البنغال وإفريقيا الشرقية والبحر الأحمر • ومن بين المراكب الساحلية الأصغر يعتبر أكبرها « البتيل » « والزيما » وتتراوح حمولة الأول بين مائة وبين مائتى طن ، غير أن البدن هو أهم المراكب الساحلية وأكثرها عددا واستعمالا ، لأنها بحكم تصميمها البديع تحقق المطالب المحلية ، وبالتالى فهى الجديرة باهتمامنا • ويبلغ طول البدن من ٢٠ إلى ٢٥ قدما ، وحمولتها من عشرة إلى عشرين طنا وهى مصنوعة من ألواح خشب التيك ، ولها عارضة مزدوجة تجعل لها قعرا ضيقا مسطحا مما يساعد على إيقافه فى وضع انتصابى عند شده إلى الشاطىء • والعارضة مثنية من كل من طرفيها بحيث أنه عندما يطفو المركب لا تكاد

المقدمة والمؤخرة تلمسان الماء • أما سطح البدن فخفيف متحرك من خشب البامبو أوسعف النخيل ، وهذا النوع من المراكب يسير بالشراع وله سارية واحدة عالية تحمل طية كبيرة من الشراع مما يساعده على الاندفاع فى الماء بسرعة مذهلة • وعلى أية حال فبما أن البدن لا عمق لها ودقيقة فى وسطها فإنها لا تستقر تماما على سطح الماء ويمكن أن تدفع بها هبة ريح أو عاصفة فجائية • وبما أن البدن مزودة بالمجاديف فإن البحارة يقومون بتجديفها فى الأحوال الجوية السيئة ، ومع ذلك فإن البدن كثيرا ما تتعرض للحوادث • ويغطى هيكل البدن طبقة من دهان زيت السمك حتى يبدو وكأنه قد اجريت له عملية دهان بالورنيش اللماع أما الآن فقد بدأ فى استعمال المسامير فى صناعة المراكب بدلا من الخيوط التى كانت تستعمل فى السابق ، ويوجد قارب من الطراز الأوربى يسمى شوعى وهى لفظة هندية محرفة لاسم أحد قوارب الصيد الهندية ،ويوجد فى كل سفينة من طراز « البغلة » قارب من هذا النوع مرفوع فوق سطحها • أما فى مسقط فإن الأهالى يستخدمون القارب المسمى « الهورى » وهو قارب منحوت من جذوع الاشجار ويستورد من ساحل مليبار فى الهند •

وفى ساحل الباطنة حيث يتعذر وجود مأوى أو ملجأ للمراكب الصغيرة ، وحيث لايخلو البحر من الموج فيوجد نوع آخر من القوارب ضد الأمواج ، وأسمه الشاشة ، والشاشة دليل على قدرة الإنسان العربى على تطويع المواد لمطالبه واحتياجاته • وهو مصنوع من سعف النخيل بشكل كامل وذلك بتجميعها كلها وتركيب القارب عن طريق الصانع الخبير • وهذا النوع يصل طوله اثنى عشر قدما ولايتسع لأكثر من شخص أو اثنين على الأكثر يجلسان داخله ونصفه داخل الماء ، وعلى الرغم من أن هذا النوع من القوارب هش إلا أنه مطاط ، وفى وسعه أن يتحمل أشد الأمواج عنفا ويستعمل فى الصيد وفى الاتصال بالسفن الراسية بعيدا عن الشاطىء •

أما سكان جزيرة سقطرة فيستعملون نوعا آخر من الزوارق أثناء

موسم الصيد فى مسقط ، وهذا النوع يسمى « الرمس » وهو مصنوع من ثلاثة سيقان وطوله ست أقدام تقريبا •

وفى الأزمان السابقة كان يستخدم أكبر السفن الشراعية الذى يشبه « الداو » « وكلبا » غير أن هذين الطرازين قد انقرضا الآن ، وطراز كلبا كان طرازا قديما وله تصميم غريب ، ثم حل محله الداو • وللداو مؤخرة عالية وسطحها مرتفع وبارز جدا فوق الدفة وهو نوع كبير بوجه عام • أما السفينة الحربية أو سفينة القرصنة للقرن التاسع عشر فقد كانت تحمل كما يقال من ٤٠٠ رجل ومن ٤٠ إلى ٥٠ مدفعا وآخر سفينة شاهدتها كانت تابعة للبحرين •

إن حوض اللؤلؤ الشهير الذى يمتد فى حدوده من الكويت حتى الشارقة وهى مسافة تقدر بثلاثمائة وثلاثين ميلا ، كان مجالا لنشاط صيد اللؤلؤ منذ فجر التاريخ • وهو على مايبدو حوض واسع وهام ووفير الانتاج كما كان دائما ، كما أن حق الغوص حق يتمتع به كل سكان ساحل الخليج ، غير أن الجمارك فى هذه البلدان قد فرضت بعض القيود على هذه العمليات وبالتالى فإن عرب المنطقة الذين يتمتعون بحقوق أكثر فى هذا المجال هم سكان البحرين وسكان الساحل ويمتد مجال سكان البحرين حتى القطيف وسكان الشارقة من الشارقة حتى حلول • ويصح القول أن صناعة اللؤلؤ هذه تشكل المورد الأساسى لسكان الساحل الغربى للخليج ، أما عدد المراكب التى تشترك فى عمليات اللؤلؤ فتقدر من ٣٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ وعدد أفرادها من ٢٧٫٠٠٠ إلى ٤٠٫٠٠٠ ألفا • وإن جفاف المنطقة المجاورة لساحل اللؤلؤ ، باستثناء المناطق التى تتوفر فيها سبل الزراعة كوسيلة للإعاشة ، قد وجد سكانها العمل فى البحر • وبالتالى فإن صيد اللؤلؤ والأسماك والتجارة مع الموانىء الأخرى هى وسائل الحياة لهم • والبيانات التالية عن صناعة اللؤلؤ تم جمعها شخصيا ومن وثائق ويلسون وولستد وانيكوك ويلى وديوارتد :

إن أغنى أحواض صيد اللؤلؤ هى التى تقع بالقرب من جزر البحرين

التى تعبىء سنويا ٢٥٠٠ مركبا لهذه العمليات • ويأتى ساحل عمان فى المرتبة الثانية ويجمع أصحابها ١٥٠٠ مركبا • وسكان الساحل من القطيف إلى الكويت وموانىء الخليج يحتلون الأحواض الأخرى • ويرجع الفضل فى وقف الحروب المستمرة بين سكان سواحل الخليج إلى معاهدات عام ١٨٢٠ و ١٨٥٣ وقد تم التقيد بنصوص تلك المعاهدات مما أدى إلى استتباب السلم والأمن فى المنطقة •

وفى الربيع والخريف تتم عمليات صيد محدودة ، غير أن الموسم الرئيسى للصيد هو الفترة الواقعة بين شهرى يونيو وسبتمبر من كل عام ، وخلال الأشهر الثلاثة هذه تمتلىء مناطق الصيد بآلاف المراكب ، وتمثل مشهدا حيا مثيرا • أما فى شهور الشتاء فإن البحر بارد جدا والجو عاصف وغير ملائم سواء بالنسبة لصيد اللؤلؤ أو للصيد العادى ، إلا أن البحر فى الصيف يتحول إلى الدفء والهدوء والغواصون لا يواجهون فيه أية متاعب ، على أن إدارة وأرباح تجارة اللؤلؤ يحتكرها التجار الهندوك والخوجا الذين يقيمون فى البحرين وساحل عمان ولنجه ومسقط • وهؤلاء التجار الأذكياء لايملكون معظم قوارب الصيد فحسب ، وانما يقدمون سلفا للبحارة والعمال على هيئة مواد غذائية وأقمشة وغيرها من ضروريات المعيشة ، ولكن بفوائد فاحشة ومقابل ذلك يحصلون على كل إنتاج هذه الصناعة ويحركونها كلها لمصلحتهم •

إن الطريقة التى يتبعها عرب الخليج فى استخراج اللؤلؤ بسيطة جدا وبدائية فى نفس الوقت • يتم اقتلاع المحار من أرضية البحر باليد ، ثم يجلب إلى السواحل فى القوارب واستخدام الشباك غير معروف إطلاقا •

أما عمق المياه التى يمارس فيها الغواصون الصيد فيتراوح بين ٢٥ إلى ٥٠ قدما ، غير أنه نظرا لأن بعض أحواض اللؤلؤ الغنية أعمق من ذلك بكثير فإن الغواصين يضطرون إلى النزول إلى عمق مائة قدم •

أما طبيعة الأرض التى يستلقى فيها المحار فتختلف من مكان إلى آخر اختلافا كبيرا ، فهى إما أن تكون مناطق صخرية أو مرجانية • والمركب الواحد يعمل فيه من ٥ إلى ١٥ غواصا بمعدل تسعة يتألفون من الربان وأربعة غواصين وأربعة شدادين للحبل • وعند الوصول إلى منطقة الغوص ينزل الغواصون بربط الحبل فى أحد الصخور ، وبمجرد وصول الغواص إلى القاع يبادر إلى جمع المحار فى كيس معلق فى عنقه أو وسطه • وفى استطاعة الغواص الواحد أن يجمع ما بين ٨ إلى ١٥ محارة • وعند هز الغواص للحبل يقوم الشدادون برفعه فورا • إن مدة بقاء الغواص تحت الماء تتراوح بين نصف دقيقة ودقيقتين ، ثم يأخذ فترة راحة قبل أن يعيد الكرة ، ويلبس الغواص فى إصبعه وقاءا من الجلد لحمايته ، كما تكون أنفه مسدودة أيضا بملقط من العظام أو الخشب •

وبعد أن يمتلىء المركب بالمحار يقلع الربان به إلى جزيرة رملية حيث يتم نشر المحار فى الشمس حتى يصدأ ثم يتم استخراج اللآلىء منه • واللؤلؤ ثلاثة أصناف يعرفها العرب ، وأجود أصنافه يسمى المها ، والغواصون لايخشون أسماك القرش ولايشكل أى خطر عليهم لأنه لا يتعرض لهم ، وكذلك سمك السيف ، غير انهم يرهبون السمكة المنشارية لأن ضربة واحدة من هذه السمكة كفيلة بقطع جسم الغواص إلى نصفين •

بعد جمع المحار يتوجه بها ربان المركب إلى التاجر الهندى الذى يشتريه منهم بالسعر الذى يحدده هو ، والذى يكون دائما أقل بكثير من سعر السوق ، وبعد خصم قيمة المواد التى استهلكها الغواصون يتم دفع الباقى إلى الربان والبحارة • وبما أن هؤلاء لايستطيعون تقدير أسعار اللؤلؤ ونظرا لمديونيتهم له فإنهم يعجزون عن عمل أى شىء ، وبالتالى فإنهم يقبلون التعويض الزهيد الذى يدفعه لهم نظير جهدهم وشقائهم • أما صيادو الأسماك فإنهم لايستفيدون بشىء فى هذا الموسم نظرا لبرودة الطقس والبحر • ولاتدفع أجور للبحارة ، غير أن العادة قد جرت على تقسيم الأرباح على النحو التالى :

يتقاضى ربان المركب خمس الأرباح والغواصون ثلاثة أعشارها ، والشدادون عشرها والباقى عشران يخصصان لتموين المركب خلال الموسم • وأن الدخل الذى يحصل عليه زعماء المنطقة من صيد اللؤلؤ كبير ، فهم يفرضون ضرائب على الأشخاص العاملين فى الغوص وعلى المراكب نفسها ، واحدى هذه الضرائب يسمى النوب والثانى يسمى تراس • وبعد أن يتسلم تاجر اللؤلؤ حصته من اللؤلؤ من زبائنه فى نهاية الموسم ينبرى لفرز اللآلىء عن طريق مناخل نحاسية ، وبذلك يتم تقسيمها إلى ستة أحجام ، ثم يعاد تقسيمها وفقا للون والوزن الخ • وأن كرات اللؤلؤ تتكون داخل جسم الحيوان ، بينما يعتقد أهل المنطقة بأن اللؤلؤ يتكون عن طريق طبقات من الصدف واحدة فوق الأخرى وبعضها يتكون من خمس أو ست لفات بينما البعض الآخر يتكون من ثمان لفات •

وأن حصيلة اللؤلؤ تخضع لتقلبات واسعة فى الأسعار من سنة إلى أخرى ، وبالتالى فمن الصعب تحديد قيمة تقريبية دقيقة لمعدلات أسعاره ، غير أنه بالرجوع إلى كشوفات جمارك المنطقة يمكننا أن نستنتج مجمل مبيعات اللؤلؤ التى قد تتراوح من ٥٠٠ر٠٠٠ استرلينى إلى ٧٥٠ر٠٠٠ كل عام • وإذا عدنا إلى مذكرات بارسونز سنة ١٧٧٥ فإننا نلاحظ أن عمليات صيد اللؤلؤ فى الماضى كانت تتم بطرق أقل نظاما وبرمجة منها الآن • كما أن العاملين فيها كانوا يعملون بالأجر ولم يكونوا مستقلين •

الفصل التاسع

جزر كوريا موريا والمناطق الشرقية والجنوبية

الشرقية لشبه الجزيرة العربية

إن سبخة مطى ، وهى ذلك الحزام أو المستنقع العريض الواقع على عرض ٢٤° درجة شمالا وأقصى جزء جنوبى فى الخليج ، تشكل حسب المراجع العربية الحدود الجغرافية بين عمان والأحساء وهذه المنطقة السبخية كما يدل عليها اسمها يزيد عرضها على ثلاثين ميلا ، وكما يقال فإنها متصلة فى جزئها الأعلى بوادى ييرين الذى ينبع من اليمامة .

أما المنطقة الممتدة من رأس بركة ، ورأس حاسك على الضفة الجنوبية للسبخة إلى أبو ظبى ، وهى مسافة مائة وخمسين ميلا ، فإنها تشكل إقليم الغربية ، وهى تقريبا صحراء مقفرة جرداء باستثناء بعض التلال المنخفضة ، وليس فيها أية قرى ، ويرتادها بعض البدو الرحل من عشيرة المناصير ، وبنى ياس ، ومرة ،وبنى حجر ، والدواسر . والتربة فى هذه المنطقة صخرية أو رملية ، ويتناثر فوقها العشب البرى ، والحيوانات الوحيدة التى تسكنها هى الأرانب والظباء وبقر الوحش ، وبغض الطرف عن طبيعة هذه المنطقة القاحلة الجافة فإن حاكم أبو ظبى يطالب بالجزء الواقع على الشمال من السبخة امتداد إلى خـــور العديد حيث توجد مستوطنات لبنى ياس . وعلى أية حال فكما يذكر شيزنى فإن حدود سلطنة عمان حاليا تنتهى عند ساحل القرصنة بدلا من الإحساء التى كانت حدود عمان القديمة .

ويمر أحـــد المناطق أو بالأحرى الطريق من البريمى إلى الإحساء عبر منطقة السبخة قريبا من البحر ، ثم يتجه شمالا . والرحلة من البريمى

إلى الإحساء كما يذكرون تستغرق من عشرين إلى خمسة وعشرين يوما • ولكن بما أنه لم يقم أى مكتشف أوربى حتى الآن بعبور أى جزء من هـذا الإقليم فإنه لابد لنا أن نعتمد على ما يذكره العرب فى هذا الموضوع •

ومن بركة إلى أبو ظبى فإن الشريط الساحلى مجهول نظرا لأنه لم يجر مسح له حتى الآن ، وتمتد عليه سلسلة من الخيران والخلجان والشعب •

وتقع شمالى رأس بركة جزيرة دلمـا ، وطولها ثلاثة أميال وقد عثر فيها على عروق الحديد والكرستال ، ولقد أصبحت هـذه الجزيرة ملتقى لصيادى اللؤلؤ وتجاره خلال موسم الصيد ، كمـا أن هـذه الجزيرة يوجد بها سـوق ، وإلى الشرق تقع قرية سر بنى ياس وطولها ستة أميال • وابتداء من رأس بركة يتجه الساحل شرقا شمالا ، وعلى بعد خمسة وأربعين ميلا من هذا المكان نأتى إلى خور البزيم ، وهو قناة ممتازة عرضها خمسة أميال ، ويمتد على شاطىء البحر إلى مسافة خمسين ميلا ، وهذه القناة كانت تلجأ إليها مراكب قبيلة القواسم للاحتماء والاختفاء فيها خلال حملة سنة ١٨١٩ •

وبعد خور البزيم ينحنى الساحل على مدار رأس قنطور حيث تقع قناة أخرى ، والساحل هنا ملىء بالخلجان • ومن قنطور إلى أبو ظبى يتجه الساحل نحـو الشمال الشرقى لمسافة تقدر بخمسة وعشرين ميلا • وقد تم مسح هـذا الساحل عام ١٨٢٤ تحت اشراف القبطان بروكس على متن السفينة سيش وقد تمت عملية المسح بواسطة القوارب ، واستمر العمل ستة أسابيع • وقد أرسل حاكم أبو ظبى حرسا تحت إشراف ابن أخيـه لمساعدة رجال السفينة لتقوم بمهمتها •

ونأتى الآن إلى أبو ظبى البلدة الأولى على الساحل التابع لبنى ياس • وعلى الرغم من اقتران اسم هذا الساحل بأعمال القرصنة عموما إلا أنه لم يعد كذلك الآن بل تقطنه مجموعات من التجار والصيادين المسالمين ، ولم

تعد له تلك الشهرة السيئة ، ولازال هذا الساحل يحتفظ باستقلاله ، كما أن المنطقة مقسمة إلى ست مشيخات ، غير أن السلطة فى مجملها تتركز فى أقوى قبيلتين هما بنى ياس والقواسم • أما السكان فيطلقون على الساحل اسم سر عمان • أما الفرس فيسمونه جلفار وهذه التسمية كثيرا ماوردت فى مؤلفات الرحالة القدماء ، وهى تطلق على منطقة رأس الخيمة التى يسميها العرب السر •

ويبلغ تعداد سكان أبو ظبى نحو عشرة آلاف وهى محمية ومؤمنة ضد هجمات القبائل ، إذ أنها مبنية على جزيرة مكونة من خورين ، هما جزر أبو ظبى وخور لفان ، ويفصلها منطقة طولها ثلاثة أميال وهى متصلة من الخلف ببحيرة مستطيلة •

وعند زيارة الرحالة رويمر لأبو ظبى عبر هذه البحيرة بعبارة من المقطع ، وهو مكان يبعد عشرة أميال من أبو ظبى وتمتد البلدة على الساحل إلى مسافة ميلين تقريبا ، وتضم حامية حصينة غير أن المساكن المبنية بالحجر قليلة ، والأرض صخرية ورملية • والنخيل هنا صغير جدا ولاتوجد فيها زراعات نظرا لندرة الماء ، والكمية التى تستخرج من الآبار محدودة وماؤها مالح ، والسكان يعتمدون فى ذلك على دبى التى تقوم بشحن سفن بكاملها بالماء لبيعه فى أبو ظبى • وتملك أبو ظبى ثلاث سفن من طراز البغلة الكبير وطراز الباثيل ، ونحو أربعمائة قارب صيد منها ٢٥٠ مخصصة لصيد اللؤلؤ • ويعيش فى أبو ظبى عدد من التجار الهنود ويقبضون على معظم تجارة الميناء •

ويدعى حاكم أبو ظبى بالسيادة على منطقة واسعة تصل إلى نقطة قريبة من دبى ، بل وإلى خور العديد حيث توجد مستوطنة لبنى ياس • وضمن تلك المنطقة تقطن قبائل أخرى كالمناصير الذين يبلغ عددهم نحو خمسة آلاف نفس ، وبنى قتب وبنى هاجر ، ومرة ، والدواسر ، وغيرها من القبائل •

ومن أبو ظبى يمتد الساحل فى خط مستقيم حتى دبى وإلى نحو ثمانين ميلا فإن المنطقة جرداء ومسطحة تمتلىء بالخيران والمستنقعات ، وخالية من النبات فيما عدا الأعشاب البرية ، وليس لهذه المنطقة سكان دائمون بل يزورها بعض البدو من حين إلى آخر • وعلى بعد اثنى عشر ميلا من أبو ظبى يوجد كما يقال أحسن خور على هذا الساحل يسمى خور حراب ، غير أنه ضحل عند مدخله • وعلى بعد من هذا الساحل يوجد شعب مستطيل بمحاذاة الشاطىء الذى ارتطم فيه مركب الشركة « الفنستون » فى سنة ١٨٣٧ • ثم بعد عشرين ميلا أخرى يوجد خلجان ، أكبرها خور غرابى ، وخور غفاثه ، واللذين يمتدان إلى الشاطىء ويتصلان بغيرهما من خلجان المنطقة • وعلى بعد ٦٠ ميلا من أبو ظبى يقع أحد التلال وارتفاعه ٢٢٠ قدما ، وقد سمى بجبل على ، نظرا لموقعه العالى البارز فى المنطقة • وبعد مسيرة ٢٥٠ ميلا من أبو ظبى نصل دبى ، ولعلها أهم بلدة على هذا الساحل ، وعلى الرغم من أن دبى تابعة لقبيلة بنى ياس إلا أنها مستقلة عنها ، وفيها الكثير من البيوت المبنية بالحجر ، كما أن تجارتها مع لنجة وغيرها من موانىء الخليج مزدهرة ، فضلا عن أن لها حصة من صيد اللؤلؤ وترسل سنويا ٥٠٠ مركب للاشتراك فى صيد اللؤلؤ وقد يصل عدد سكانها من ١٢٠٠٠ إلى ١٤٠٠٠ نسمة ، وينتمى حاكمها إلى فرع أبوفلاسه من قبلية بنى ياس ، وتمتد البحيرة إلى مسافة طويلة إلى الجنوب الشرقى ويوجد عند المدخل حاجز صخرى ضحل • والتجارة تكاد تكون برمتها فى أيدى الهنود المقيمين ، وذلك يرجع إلى الكفاءة التجارية التى يتمتعون بها •

وبين دبى والشارقة — وهى مسافة تسعة أميال • توجد قريتان أبوحيل وخان ، وفى الشارقة نجتاز أرض القواسم ، والشارقة كانت مستقلة عن رأس الخيمة ، غير أنها الآن تخضع لكبير شيوخها • وتعداد سكان الشارقة عشرة آلاف نسمة ، مؤلفة من خليط من القبائل وهى قبائل آل بو على والشحيحيين كما توجد فيها صناعة بناء القوارب والمراكب التجارية بنوعيها الصغير والكبير ، ويستعمل فى هذه الصناعة خشب الصنوبر بنوع خاص

ويستورد من مليبار فى الهند • كمـا ترسل الشارقة ٣٥٠ مركب صيد إلى أحواض اللؤلؤ بالإضافة إلى نحو ١٠٠ مركب من المراكب العادية • والمـاء فى الشارقة ردىء ومالح كما هو الحال فى أكثرية مناطق الساحل • أما أشجار النخيل فى دبى فهى كثيرة بحيث تنتج ما يكفى الاستهلاك المحلى ، الأمـر الذى يعتبر من الحالات النادرة فى هذه البقاع ، وأما الخور فيقع بين البحـر والمدينة على امتداد ثلاثة أميال ، وله مدخل يقع على بعد ميل من البلدة •

وقد تحطمت سفينة المسـح ديسـكافرى بالقـرب من السـاحل فى شـهر فبراير سنة ١٨٢٤ وفقدت كل مراسيها ، وفى منطقـة غير بعيدة من هذه البلدة تقع أحواض أو مغاصات اللؤلؤ فى الخليج وقد أشرنا إلى صناعة صيد اللؤلؤ فى موضـع آخر من هـذا الكتاب • وتمتد هـذه المغاصات على طول الجزء الأكبر من الساحل العربى حتى الكويت بمساحة ٣٩٠ ميلا ، وهى كلها مغاصات منتجة وهامة وتزخر باللآلىء • وبعد اجتيازنا قريتين من قرى هـذا الساحل ، وهما قشط وحيرة اللتين تزخران بمزارع النخيل نأتى إلى عجمان التابعة لقبيلة النعيم ، وفى هذه البلدة خور يتسع لرسو السفن من طراز البغلة ، وتعداد سكان عجمان نحو ١٥٠٠ نسمة وتمتلك نحو مائة قارب غوص بالإضافة إلى ثلاثين قاربا عاديا لصيد الأسماك، وعلى بعد ٦ أميال من عجمان تقع الحمرية التابعة لقبيلة النعيم ، وفيهـا ميناء له خمسة أبراج ، ويقطنها نحو ٦٠٠ نسمة وعلى بعد سبعة أميال إلى الشمال الشرقى من الحمرية تقع أم القوين وقد انشأت هذه المشيخة فوق شبه جزيرة تكونت من إحدى البحيرات العريضة وتتفرع إلى الداخل ، غير أن أم القوين القديمة قد هجرها أهلها ، وأم القـوين الجـديدة تقع مكان قرية « لبينه » وهذه البلدة تضم عددا من الأبراج كما يوجد سور أقيم عند البرزخ ، ورغم المزايا التى تتمتع بها أم القوين إلا أنها فى حالة تدهور ، ويبلغ عدد سكانها نحـو ألف نسمة يتبعون قبيلة يال على ، وعدد المراكب التى تساهم بها أم القوين فى صيد اللؤلؤ نحو ١٠٠ مركب •

ثم إذا نحن مضينا فسنصل إلى جزيرة الحمرا ، والتى هى فى الواقع

شبه جزيرة تكونت بفعل الخور . وفى هذه القرية حصن صغير يقع على بعد خمسة عشر ميلا من أم القوين وسكانها من قبيلة كعب ، ويخضعون من حيث السلطة لرأس الخيمة ، ويرسل هؤلاء بضع قوارب إلى مناطق صيد اللؤلؤ .

وتعتبر رأس الخيمة وهى البلدة الأخيرة التى وصلنا إليها بلدة مستقلة ، وكانت تعرف قبل قرن أو نحو ذلك باسم جلفار الذى أطلقه عليها الفرس الذين كانوا يسيطرون عليها ، أما العرب فيسمونها السر ، وفى أعقاب طرد الفرس بقليل سنة ١٧٤٤ أطلق عليها اسم رأس الخيمة الذى هو اسمها الآن غير أن أصل هذه التسمية مجهول .

إن هذا الساحل يتميز بخصائص غريبة ، إذ أنه يضم على امتداده سلسلة من الخيران والبحيرات ، والمناطق الخلفية تتصل مع بعضها البعض فى معظمها عند البحر ، أو تتفرع وتتشقق فى اتجاهات عديدة داخل الأراضى ، ورغم أن هذه الخيران أو الخلجان ضحلة عند مداخلها إلا أنها عميقة فى الداخل ، وتشكل ملاجىء ممتازة للسفن من كافة الأحجام ، ولولا هذه الخلجان لتعذرت المعيشة على هذا الساحل .

وتعداد سكان رأس الخيمة يبلغ ٥٠٠٠ نسمة وهى تابعة للقواسم وهى مركز هذه القبيلة ، كما تضم عددا من قبائل بنى كعب **والمطارة** وغيرهم . ويقع الحصن أو الحامية فى طرف المدينة ويوجد فيها أيضا برج كبير وخلفه بحيرة واسعة يبلغ طول مدخلها نحو ميل واحد على الجانب الشمالى الشرقى للمنطقة السكنية ، وفيها العديد من القوارب ، ولكن لاتوجد سفن كبيرة لأن عمق الماء لا يزيد على عشرة أقدام فى فترة المد ، ومن بين ١٥٠ قاربا التابعة لهذا الميناء ١١٠ منها قوارب صيد عادية ، والباقية مراكب لصيد اللؤلؤ . وهناك ما يبرر الاعتقاد بأن رأس الخيمة كانت فى القرن الثامن عشر تحت زعامة قبيلة الهولة ، وكانت بؤرة المقاومة ضد

نادر شاه • وفى مستهل القرن التاسع عشر بلغ نشاط القواسم وممارستهم القرصنة ضـد السفن البريطانية ذروته مما اضطر حكومـة بومباى فى سنة ١٨٠٦ إلى تسيير حملة ضدهم ، غير أن الحملة برهنت عن فشلها فى الاضطلاع بتلك المهمة • وفى سنة ١٨٠٩ أرسلت حملة أخرى وتمكنت من قصف رأس الخيمة وتدميرها غير أن نشاط القواسم عاد على بعض المراكب الهندية وقتل بحارتها وقد تم إيفاد قوة من الأسطول لمعاقبة الجناة ، غير أن الشيخ حسن بن رحمة رفض رفضا باتا تسليم الجناة أو دفع التعويض المطلوب وقدره ٢٠٫٠٠٠ جنيه استرلينى ، مما دعا الحكومة البريطانية إلى تكليف الطراد جالينجر وغيره بقصف البلدة ، غير أن القذائف لم تصـل إلى أهدافها وعادت الحملة تجر أذيال الفشل •

وكغيرها من بحيرات هذا الساحل فإن هذه البحيرة تعج بالأسماك ، وبالتالى فإن السكان يجدون حاجتهم من الأسماك على مدار العام •

وتعتبر رأس الخيمة أهم وأبرز مشيخة على الساحل الذى يمتد ١٥٠ ميلا وذلك بسبب توافر المياه العذبة فيها ، بينما يندر وجود المـاء العذب فى غيرها من المشيخات •

والقرية التى تلى رأس الخيمة والتى تقع شمالها هى رمس ، وبهـا ميناء صغير ومزارع نخيل تخص القواسم ، بينما توجد قرية صغيرة أخرى فى الداخل على بعد ميلين هى حنيا •

وعلى بعد ١٢ ميلا من رمس نأتى إلى شعم حيث تنتهى حدود المشيخات الساحلية • وتقع هذه القرية داخل ممر ضيق منخفض على بعد أكثر من ميل من ساحل البحر ، والتى يمكن رؤية أكواخها وهى تتعاقد على جانبى التلال وكأنها خليات نحل ، كمـا يوجد بقربها إلى الجنوب واد صغـير مزروع بأشجار النخيل ، وفيها ستة عشر بئرا مستديرة ومربعة ، وهى تدل على

مايبدو إلى أن الوادى يشكل قناة مـاء (خلج) تتصل بتل مخروطى الشكل على الساحل يرتفع ستين قدما ويسمى جبل السنينة ، مما يوحى بأن هـذا التل ربمـا كان مكانا للعبادة فى عصر الجاهلية ، وبجانبه ضريح الشـيخ زهير أحـد الأولياء المسلمين ، والضريح مبنى بالحجر والمرجان وتظهـر عليه علامات الطابع الفارسى • وفى شعم كمـا فى غيره من هـذا الرأس يصطاد الصيادون كميات هائلة من سمك صغير يسمونه مطوط ويصدرونه فى جوالات طول كل منها ثمانية أقدام مصنوعة من سعف النخيل المعقود • وهذه البلدة تشكل أقصى نقطة للحدود العمانية وحدود شيخ القواسم حاكم رأس الخيمة وسكان القرية يخضعون لسلطة والى شعم وعددهم نحو ٢٠٠٠ نسمة من الطينجيين وهم فرع من قبيلة الشحيين •

بين رأس شعم الذى يبلغ ارتفاعه ٣٥٠٠ قدم ورأس شيخ مسعود يقع عدد من القرى والألسنة تسمى رأس جادى والتى تنتصب قريبا من أحد المرتفعات الذى يصـل علوه إلى ٤٤٧٠ قدما • وعلى الجانب الشرقى من رأس شيخ مسـعود يقع خـور خصب عمقه ميلان وعرضـه أربعـة أميال ، وبلدة خصب نفسها تقع بين جبلين تحت الوادى • والمرفأ محصن تحصينا قويا ويعتبر موقعا استراتيجيا ممتازا للتحكم فى مدخل الخليج ، بينمـا بنى الحصن فى القرن السابع عشر من جانب البرتغاليين الذين أطلقوا عليه اسم جوسابو وقد استعمله الأدميرال روى فرير اندرادا كقاعدة لعملياته فى صراعه الطويل لاستعادة هرمز من الفرس ، ويقع الحصن فى مكان غير بعيد من الشاطىء ، ويتألف من أربع قلاع مربعة ، تربطها الحوائط بعضها البعض ، ويحيط بها خندق ، ويبلغ عدد سكان البلدة نحـو ألف مواطن ، وهم ينتمون إلى قبيلتين رئيسيتين هما قبيلة الكنيرة (التى تحتل الجـزء الأعلى من الوادى) وقبيلة الحتيرة وهى فرع من الشحيين ، وأغلبية السكان من أصل فارسى ويزاولون صناعة النسيج • ويتم تعيين الوالى من جانب

حكومـــة مسقط ، غير أن الدخل لا يغطى مصاريفه • وفى دائرة هذا الوالى عدد من القرى ، بينما يبلغ عدد السكان الذين تحت سلطته نحو ستة آلاف نسمة • وسكان البلدة فى خصام دائم مع بعضهم البعض ، بحيث يستغرق الوالى كل وقته لتسوية تلك المنازعات • وهناك أربعة جداول تنساب من بعض الينابيع فى الجبال ، اثنان منها دائمان ، وبالتالى فإن المـــاء العذب متوفر بكثرة ، وخصب هى المكان الذى يستمد الرأس اسمه منه على حـــد رأى البطليموسى الذى يسميه جبل اسابو •

وإلى الشرق من خصب يقع وادى **قضيبة** على الجانب الغربى مـــن المدخل الذى تقع فيه قرية تسمى القطرى ، وقد أقيمت على كتل من الصخر ، أمـــا الرأس الهائل المعروف برأس مسندم عند الأوربيين وبروس الجبال عند العرب فيتألف من صخور عالية قاحلة ذات انحدار نحـــو البحر ومرصعة بالخيران والمداخل والممـــرات ، يشـــكل بعض منها مرافىء كبيرة متســـترة ، والسكان من قبيلة الشحوح وتعدادهم ١٦٫٠٠٠ إلى ١٨٫٠٠٠ تقريبا موزعون على التلال كرعاة أو صيادين • وإن حدود السلطان (ونعنى طبعا سلطان مسقط) والتى تبدأ من شعم تشمل خصب ، كمزار ، ودبا ، بينما خورفكان وغيرها من القرى تخص القواسم •

وعلى بعد ثلاثة أميال من خصب واثنى عشر ميلا من مسندم يقع مدخل خـــور الشـــوام والذى أطلق عليه خبراء المسح « خليج الفنستون » • إن هـــذا المرفأ أو الخليج الممتاز طوله ثمانية أميال وله جوانب صخرية مائلة ، ويشترك فى طبيعته مع خصائص الرأس المتعرجة والمثلمة والمليئة بالممرات والمداخل ، إنه بالأحرى واد مغمور بالمـــاء وفى داخل الخليج على الجهـــة الشمالية تقع قرية شعم ، ثم على بعد مسافة قليلة توجـــد جزيرة بنفس الاسم • وفى جزيرة أخرى توجد محطة التلغراف ، وهو نفس المكان الذى نقل إليه الخط التلغرافى للخليج بموجب اتفاق أبرمه السيد ثوينى بن سعيد سلطان مسقط • ومدخـــل هذه الجزيرة لايزيد عرضـــه على نصف ميل ،

ومن الصعب اكتشافه من الجهة البحرية نظرا لأنه محجوب بجرف منحدر مظلم ، وكان هـذا المدخل يستعمل سابقا من جانب ملاحى المنطقة فرارا من السفن الحربية التابعة لشركة الهند الشرقية ، وكان الفرس يجهلون ذلك المكان ، وكانوا يصابون بالدهشة عندما كانت سفن القرصنة تختفى فجأة وبطريقة سحرية ، وبعد دخـول المراكب إلى ذلك الخـور فإنها سرعان ما تتسلل داخل الممرات الضيقة وتختفى هناك • وإلى الشـمال من خـور الشعم فإن تركيب الأرض فى غاية الغرابة فهو يشكل شـبه جزيرة مثلثة الشكل لها عنق طويل جـدا ، بينما يوجد على الناحية الجنوبية منهـا جبل يسمى جبل شعم ، له جرف انحدارى ويرتفع إلى علو ٣٠٠٠ قدم وكأنه حارس منتصب يقف لحراسة الجون • وإلى الشـمال من شبه الجزيرة هذه يقع خليج كولفيل ويسميه عرب المنطقة خـور غروب على ، وهـو مدخل عميق يقع غير بعيد من جزيرة الغنم ، ويفصـل بينه وبين اليابسة خليج ديسكاوين ويعرف فى أوساط العرب بخـور كيوى ، وطول جزيرة الغنم ميلان وتقع على بعد ميلين من أحد الصخور ، ويستخدم الكمزاريون هذه الجزيرة لرعى مواشيهم وعلى بعد خمسة أميال من جزيرة الغنم يوجد رأس شـيرات وهو بروز أو لسـان غريب الشكل ضيق ويمتد مسافة ميل ونصف • وقرية كمزار هى أقصى الحدود الشمالية لعمان ، وهى فريدة من حيث أنها المنطقة الفارسية الوحيدة على الساحل العربى ، وتقع على شق ضيق داخل جبل انحدارى ضيق وعال بحيث يضفى عليه منظرا مثيرا ، وليس بهذه القرية مزارع نخيل والأرض الخضراء الوحيدة فيها تتكون من بعض أشجار ليثوميَّة تنمو من جوف الصخور ، وفيها بئر واحـد فقط بعمق ثمانين قدما ، والعيون متلاصقة جـدا مع بعضها البعض ومبنية من الحجر والطين ولها سقوف مسطحة والطرق ضيقة جـدا ، وتوجـد القبور بين صفوف البيوت لعدم وجـود مكان آخر لها •

ومـن رأس مخيليف إلى البلدة تبلغ النقطة الشمالية ميلا واحـدا وعرضها ثلاثة أرباع الميل ويقطنها نحـو ألف نسمة والرجال كلهم صيادون

ويمتلكون نحـــو مائة من قوارب الصيد ، بنى معظمها فى البلدة نفسها ، وسكانها بيض البشرة بحكم كونهم من أصل فارسى ، وهو أمر لا جدال فيه ، كما أنهم يتحدثون بلهجة فارسية ركيكة ، وهى خليط من العربية • ولديهم بعض المواشى من الغنم والمـــاعز ويتكون علف المـــاشية من الأسمـــاك نظرا لانعدام الخضار ، كما يتم تمليح الأسماك بنوع من المـــاء شـــديد الملوحة ويعبأ فى جرار للاستهلاك • وتتعرض بلدة كمراز من وقت إلى آخر لكثير من العواصف وهى حارة جـــدا فى الصيف •

وإلى الشمال الشرقى من هذا الخليج فإن الساحل معقد وموحش وهائل وجميل المنظر ، وإن الجزء الشمالى الأقصى للرأس الذى وصلنا إليه والـــذى يبعد عن كمراز أربعة أميال يسمى رأس الباب ، وموقعه أمام جزيرة رأس مسندم • ورأس الباب قمـــة عالية وعارية وترتفع عند مدخل الممر ، وعرضها أقل من نصف ميل بين رأس الباب والجزيرة نفسها ، وعرب المنطقة يسمون هـــذا المكان فك الأســـد ، وذلك بحكم ما فيه من تيارات جارفة خطيرة أو لعل الاسم مشتق من التشابه الغريب للصخور بفك الأسد •

إن جزيرة مسندم والتى يعرف هـــذا الرأس باسمها بين الأوربيين طولها ميلان وعرضها على الناحية الجنوبية نصف ميل ، وهو أعرض جزء فيها وارتفاعها فى أعلى أجزائها ٩٠٠ قدم • ويخبرنا كونستابل أنه يمكن مشاهدة بقايا قلعة قديمة على الجزيرة ، وهى بمنظرها المبنى بالقـــوالب الحجرية المربعة تبدو وكأنها تنتمى إلى العصـــور الحديثة • وهو يعتقد بأنها قد تكون بقايا لمبنى كان يستخدم فى المـــاضى كحامية أو برج للمراقبة • والجزيرة فى امتدادها نحـــو الطرف الشمالى تنتهى عند جرف يرتفع نحو مائة قدم يسمى رأس مسندم • والملاحون العرب الذين يرتادون هـــذا الممر فى ذهابهم وإيابهم يخافون منه بسبب التيارات القوية والأعاصير التى تجتاحه فى أكثر الأوقات • ولكى يسترضى الملاحون الأرواح التى تسكن تلك الأعماق فقد اعتادوا منذ زمن بعيد بأن يطلقوا مراكب تجارب أو حتى

قشرة جـوز هند تحوى مجموعة من الأطعمة والحلويات ، ثم يراقبونها بحرص شديد فإذا وصل القارب اللعبة إلى الشـاطىء بسـلام فانهم يتوخون مرورا سليما ، أمـا إذا انقلبت فإن المخاوف تتملكهم ، وهـذه القوارب النموذج كثيرا ما تراها السفن المبحرة فى المنطقة فى الأحـوال الجوية الملائمة • ويمكن للمرء أن يتخيل كم من هذه السفن الاختبارية قد أطلقها السندباد البحرى ثم رآها تتمزق إربا بفعل الأمواج عند مروره من الخليج خلال رحلاته البحرية من البصرة إلى المحيط الهندى •

ومن هذا المنطلق نفسه قام جهاز المسح البحرى الذى دشنه مرنستورت الفنستون حاكم بومباى بهدف رسم المناطق الساحلية والكشف عن أوكار القراصنة ومخابئهم فى سنة ١٨٢٠ بعملياته • أما قبل أن يتم القيام بهذا العمل الهام فقد كانت سواحل الخليج وجزره مجهولة تقريبا ، وكان البحارة الأوربيون يجدون خطورة وصعوبة فى الملاحة فيه • ويعود الفضل فى وضع أول خريطة للبحر الداخلى للخليج إلى الاستاذ والرحالة كارستون نبهور فى مؤلفه « وصف لشبه الجزيرة » الصادر فى سنة ١٧٦٤ وقد أعقب ذلك تقرير البعثة التى شكلت فى بومباى سنة ١٧٧٤ تحت إشراف كل من الكابتن روبنسون على الطراد فوكس والكابتن بورتر على الطراد دولفن وبمساعدة كل من اللفتنانت مارفيل واللفتنانت بلير وقد قام هؤلاء الضباط بمسح دقيق للخليج وساحل عمان ابتداء من مسقط حتى رأس مسندم • وقد اكتسبا معلومات إضافية عززت فيما بعد من جانب المستر دالريميل خبير علم المياه التابع للشركة ، وقد اعتمد هـذا الخبير فى مهمته على معلومات القبطان ماكليور وغيره من الملاحين وقد ظهرت أعمال ملبرن الأولى فى سنة ١٨١٣ بينما بقيت خرائط ودليل هورسبرج مجهولة تماما عندما بدأت أعمـال مسح لهذا السـاحل على الأسس العلمية •

أمـا مدخل الخليج فى أضيق أجزائه ابتداء من مسندم حتى لاريك

فطوله ٣٢ ميلا بحريا ، ويعرف لدى الفرس بباب الأسكندر وذلك إشارة إلى رحلة نيور شيس اليونانى الذى قاد اسطول الأسكندر الكبير •

وعلى بعد تسعة أميال من رأس مسندم إلى الشمال تقع جزر القوين وهى ثلاث جزر اسفينية الشكل وارتفاع أعلاها ٥٤٠ قدما ويسميها العرب « سلامة وبناتها » وكان القراصنة يحبذون الاحتماء بها تربصا بالتجار والملاحين الذين يمرون بها فى ذهابهم وإيابهم •

وإلى الجنوب الشرقى بمسافة ثلاثة أميال يقع الرأس المعروف فى أوساط الكتاب الكلاسيكيين باسم « انكوبريس » وهو تحريف للاسم العربى « رأس قبر الهندى » أما أصل التسمية فغير معروفة إطلاقا أو أنها نسيت • وهو أقصى جزء شرقى للرأس ويرتفع ١٢٠٠ قدم •

وتحت رأس قبر الهندى مباشرة يوجد جوف يسمى دوحة الشصّه ، ويفصله عن خليج الفنستون قمة صخرية ، وعمق هذا الجوف سبعة أميال ، وفيه قرية صغيرة تستمد اسمها منه • ويفصل دوحه الشصة من الخليج الآخر غبة شبوص ، وهى شبه جزيرة صخرية طولها يزيد على أربعة أميال تعلوها قمة ، تسمى جبل صبز ، وترتفع إلى ٣٠٠٠ قدم •

ولكى تستكمل عملية التثليم لهذا الرأس غير العادى ، فإننا نصل الآن إلى ما يمكن اعتباره آخر الخلجان وأكبرها جميعا وأعنى به خليج مالكولم والمعروف بين عرب المنطقة بخور جزيرة أو غبة جزيرة ، والذى يمتد تسعة أميال إلى الداخل ، ويحيط به من ناحية خليج الفنستون سلسلة صخرية بكثافة ميل واحد ، وهذا الخليج العظيم كثير التثلم والتعرج ويضم عددا من الجزر الصغيرة والقرى والخيران والجروف ، والطرف الجنوبى لمدخل هذا الخليج ، ويبلغ عرضه ثلاثة أميال يشكله رأس سركيم ، وهو عبارة عن قمة عمودية ترتفع مئات الأقدام • وقد أطلق على هذا الخليج اسم خليج مالكولم ، وكان حاكما لبومباى فى سنة ١٨٢٦ •

أما دوحة كيال وهى الرأس الذى يلى ذلك فيمتد إلى مسافة ثلاثة أميال إلى الجنوب الغربى حيث يصل علوه إلى ٤٠٠٠ قدم ، وفى هذا الوادى توجد آثار مدينة قديمة بنيت منازلها من أحجار كبيرة مربعة يصل طول بعضها إلى ثمانى وتسع أقدام . وعلى بعد عشرة أميال من خليج مالكولم يقع خور وقرية وجزيرة ليمه ، وعلى بعد اثنى عشر ميلا يصل الجبل إلى أعلى نقطة فيه وتسمى جبل حرين ، وارتفاعه ٦٧٥٠ قدما ، وتبعد القمة خمسة عشر ميلا من أعلى القمة العالية التالية ، والتى تسمى جبل كيوى ، وتقع أمام دوحة الحفا ، واتجاه الساحل هنا عموما نحو الجنوب ، وهنا نأتى إلى بلدة وخور دبا الشهيرين .

إن هذا الخور المحمى تماما عرضه ستة أميال وكان فيما مضى سوقا تجارية هامة ومشهورة ، وربما كان نفس السوق التى أشار إليها القبطان نيارشوس ، غير أن الفضل فى ذيوع صيته يعود إلى موقعه الذى شهد المعركة التى حددت دخول عمان إلى دين الإسلام . فى العام الثانى عشر بعد الهجرة (٦٣٣ م) فى عهد الخليفة أبو بكر الصديق ، وهزم فيها القائد العمانى المرتد لقيط على يد القائدين الاسلاميين كما فصلنا ذلك فى موضع آخر من الكتاب ، ويحتمل أن تكون قبيلتا دبا ونزار هما اللتان انشأتا هذه المدينة ، وكانت القبيلتان قد نزحتا إلى هذه المنطقة من اليمامة ولكنهما أبيدتا خلال تلك الحرب .

إن الانطباع الذى يخرج به المرء عن هذا الرأس هو احتمال أن تكون سلسلته الجبلية متصلة بسلاسل الجبال فى فارس فى الماضى ، ثم نتيجة لانخفاضات أرضية حدثت فى تلك المنطقة فى مرحلة جيولوجية بعيدة مما أدى إلى اندفاع البحر وتشكيل الخليج ، وتدفق المياه إلى الوديان الوهاد والخلجان بالصورة التى عليها اليوم ، أما فيما يختص بالتكوينات الجيولوجية لسلاسل الجبال فإن المعلومات الوحيدة عن ذلك هى التى وردت فى تقرير الدكتور كارتر والذى ننقله هنا بالحرف الواحد :

« من النظرة الأولى تبدو هذه الجبال وكأنها مكونة من حجر البازلت بسبب لونها الأسود وقد وصفها الكابتن ويلستد وويتلوك بهذه الأوصاف ، وعلى مر السنين كانت تعتبر صخور هذه الجبال صخورا بركانية ، أما بلينى فقد سماها الجبال الابلاتينية ولعل هذه اللفظة تحريف لكلمة ابليس العربية • وقد قام اللفتنانت كونستابل من ضباط الأسطول الهندى بفحص هذا الرأس والجزر المحيطة به ، وتفضل فأرانى نموذجا من صخورها ، وقد تبين لنا أن صخور هذه البلاد ليست من حجر البازلت الأسود حسب ما كان الاعتقاد سابقا ، بل هى خليط من الحجر الكلس الرمادى الداكن ، والحجر الأسود الفاحم ، تتخلله طبقات وعروق من مادة جيرية لامعة باللونين الأبيض والقرمزى الفاتح ، والحجر الكلسى الأسود من تركيبة نقية ، ويتكسر إلى قطع ناعمة بعكس الألوان الفاتحة التى هى أكثر خشونة وتتكسر إلى فتات خشنة ، وتبلغ كثافة طبقة النوع الجيرى من ٨ إلى ١٠ أقدام وهى عمودية الشكل فى تبلورها وتتخللها أفقيا خطوط متعرجة كتلك التى شوهدت فى جبل طارق ، وبعض تلك الطبقات شديد البياض أشبه بالبللور ، وقد ذكر لى الفتنانت كونستابل إن هذه الجبال هى من تركيبة واحدة ، وأن طبقتها أفقية الشكل وإن كان بعضها أكثر دقة واسودادا من غيره » •

والمكان الثانى الذى يستحق منا الاهتمام هو خور فكان ، وقد كان لخور فكان أهمية عظيمة فى الماضى ، غير أنها لم تستعد تلك الأهمية بعد ما أمر البكويرك بتدميرها فى سنة ١٥٠٧ ، وأرغم الجالية التجارية الهندية على مغادرتها • وهذه البلدة تشكل مجموعة من الأكواخ المتواضعة كما يحيط بها سور وتعداد سكانها ٦٠٠ نسمة ، وتطل على خور صغير عند فتحة واد ضيق • وتنتشر فيها مزارع النخيل ، وتوجد فيها جزيرة صغيرة تسمى سريت على بعد قليل من الطرف الشمالى الشرقى • وفى أعلى الوادى بقايا قلعة شيدها القائد الفارسى محمد تقى خان عام ١٧٤٢ ، وفى عام ١٨٦٤ عبر الرأس من خور فكان كل من الكولونيل داسبراو والكابتن باول لمد الكابل التلغرافى للخليج • وصخور هذه المنطقة كما يقال

صخـــور بركانية والديورايت الموجود فيها شبيه بالديورايت الموجود فى عمـــان .

وخـــور فكان خاضعة الآن للقواسم الذين يسيطرون على الســـاحل من دبا إلى المرير ، وليس لسلطان مسقط سيادة على هذه المنطقة . وبعـــد أن نعبر خور كلبا وهو خليج صغير ويبعد ١٣ ميلا عن خور فكان نصـــل إلى رأس ملاحة أو خطمة ملاحة ، بعد أن نقطع ستة أميال وهو لا يمثل الطرف الجنوبى الشرقى للرأس فحسب بل أيضا حدود إقليم الشميلية ، وفى أعلى المرير تبدأ سلسلة الجبال فى التضاؤل من الساحل حيث يبدأ اقليم الباطنة .

إن هذا السهل الطويل المنبسط ينحنى قليلا ابتداء من المرير فى اتجاه غربى عموما ، ثم يأخذ فى الاتساع تدريجيا عند السيب ونخل حيث ينتهى فى هذه المنطقة ، وإقليم الباطنة هـــو أكثر الأقاليم العمانية سكانا ويضم ثلاثة أرباع المليون نسمة تمثل مجموعة واسعة من القبائل العمانية المختلفة . وقبيلة يال سعد تحتـــل مساحة قدرها خمســـة وعشرين ميـــلا من الساحل ، وتؤلف ستين ألف نسمة وهى أكبر القبائل العمانية ، وتمتلك عددا من المدن منها المدّة ، والثرمد ، والخضرا والطريف ... الخ .

وهذه القبيلة غنية بمحاصيل البلح وبقوارب الصيد وبالزراعة ، غير أنها ليست من القبائل المحاربة أو ذات النزعة الحربية . وقد أثارت هـــذه القبيلة سنة ١٨٧٤ بعض المشاكل بقتل أحـــد التجار الهنود المقيمين فيها ونهب ممتلكات الرعايا البريطانيين ، غير أنهم عوقبوا على ذلك فى حينه . وسكان هذه المنطقة عموما موسرين ، وحالتهم مزدهرة بشكل يفوق سكان الأقاليم العمانية الأخرى ، ولمـــا كان يال سعد لا يميلون إلى شن الحروب ويتركز اهتمامهم فى ممارسة الحرف الصناعية فإنهم يتعرضون من حين إلى آخـــر لمغامرات مدمرة من قبائل الظاهرة العاجزين عن مقاومتهـــا .

والقطاع الهناوى من هذه القبيلة بنوع خاص أقوى بكثير من القطاع الغافرى ، غير أنه يوجد طوائف أخرى قليلة العدد من الفرس والبلوش والزنوج الذين لايتمتعون بأى نفوذ سياسى •

وفى الأوساط التجارية فى الباطنة يعيش عدد من التجار الهنود الذين وفدوا من منطقة كتش فى الهند ، وبما أن هؤلاء الهنود يتمتعون بالحماية البريطانية ، وبالإعفاء من الضرائب وبما أنهم يتعرضون لسوء المعاملة من جانب زعماء المنطقة ونظرا لتفوقهم وتعليمهم فقد أتاح لهم ذلك نفوذا فى الأعمال التجارية ومكنهم من جمع ثروات طائلة من خلال العمليات المصرفية والسمسرة التجارية وتقديم القروض لمواطنى الاقليم وهم بذلك يقدمون خدمات لا غنى عنها للسكان العرب من كافة الطبقات •

وبعد أن نترك المرير نصل إلى أبو بقره والخضراوين فى وادى التيور على بعد ستة أميال من قرية الأسود التابعة للوشاحات • وبين هذه القرية وشناص تقع قرية العقر التى أشار إليها الرحالة ابن المجاور • أما شناص وهى أول مدينة فى الباطنة والتى تبعد خمسة عشر ميلا عن خطمة ملاحة فإنها تقع فى وادى حتا الذى يشكل الطريق الطبيعى العام إلى أبو ظبى • ويتبع هذا الوادى قبيلتا الوشاحات والبدوات ويضم عدة قرى على ضفتيه • ويبلغ عدد سكان شناص ألف نسمة يتألفون من قبائل الدهامنة والوشاحات مع وجود أقليات من البلوش والفرس • وتطل البلدة على بحيرة طولها ثلاثة أميال ونصف وعمقها يستوعب سفن الصيد الكبيرة وهى تمتد بمحاذاة البحر وهذه المنطقة تتمتع بالامكانيات الزراعية الوفيرة ويزرع فيها التبغ ويوجد فيها حصن مهيب خماسى الشكل يضم ثلاث حاميات ، كما أن الأسوار التى تحيط به يبلغ علوها عشرين قدما مليئة بالثقوب نتيجة القصف الذى وقع سنة ١٨٠٦ ؛ ففى ذلك العام أنزل السير ليونيل سميث قائد الحملة جزءا من قواته فى هذه البلدة لإخلاء القلعة وإعادتها إلى السلطان •

وسكان شناص يمتهنون صيد الأسماك والزراعة ولاتوجد فيها أية صناعات ، غير أن التجارة مزدهرة ، وفيها ما لا يقل عن سبعة تجار من الهنود وثلاثة من طائفة الخوجا .

ومن شناص يمتد الساحل حتى صحار وهى مسافة ثلاثة وثلاثين ميلا ، وهذه المساحة تشغلها تسعة قرى كبيرة ونحو اثنتى عشر قرية صغيرة ، منها قريتان هما أسرار وحصفان اللتين زارهما الرحالة ابن المجاور ثم بناولوا ، وبقرب هاتين القريتين توجد بلدة صغيرة تسمى فيض ، ثم غضفان ومجيس اللتين تتبعان قبائل الغوافل ووهيبه والحمريين ، ثم عمق النسيقة وجعلان ، وسكان هذه القرى هم خليط من القبائل الفرعية ، غير أن الأكثرية من السكان هم من المستوطنين الفرس والبلوش ، وبالقرب من صحار يقع وادى ماوه وفيه قرية بنفس الاسم .

وصحار البلدة الرئيسية على ساحل الباطنة تقع على بعد ١٥٠ ميلا من مسقط ، وكان اسمها فى السابق عمان وكانت عاصمة للبلاد كلها . وفى الأيام الأولى للإسلام كانت سفن الصين تزور صحار ، ويقول الأصطخرى الذى كتب فى القرن العاشر من عصرنا « العاصمة هى صحار وتطل على البحر ويقيم فيها كثير من تجار البحر الذين يتبادلون التجارة مع الأقطار الأخرى ، وهى أغنى مدينة فى عمان وأكثرها سكانا ، ويكاد يستحيل أن نرى على ساحل الخليج بل وفى أقطار الإسلام مدينة تفوق صحار فى الثروة وفى الفن المعمارى الجميل ، وفى السلع الأجنبية التى تمتلىء بها أسواقها » فهى تشكل واحدة من الإقطاعيات العديدة لأبناء الإمام أحمد بن سعيد الذى كان آخرهم السيد تركى الذى كان يحكم البلاد أثناء زيارة الرحالة بلجريف سنة ١٨٦١ ، ويحيط بالمدينة سور ليست فيه استحكامات ، وقطره نحو ميل واحد ، وكان البرتغاليون هم الذين أنشأوه ، وبقى تحت احتلالهم فترة قرن واحد . وإن المقاومة العنيفة لهذه المدينة بقيادة الإمام أحمد بن سعيد سنة ١٧٤٣ ضد جيش نادر شاه الذى غزا البلاد

أدى إلى فشـــل ذلك الغزو وأرغم القوات الفارسية على الانسحاب والجلاء عن البـــلاد •

وتوجد فى صحار قلعة جميلة يقيم فيها الإمام ويمارس مهامه وهى عبارة عن مبنى مربع عال ، لـــه مدخـــل حصين وفيه عدد من المدافـــع • وصادرات صحار هى البلح والسمك المملح ، غير أن صحار قد تدهورت كثيرا خلال السنوات الأخيرة • وسكان صحار خليط ويبلغ تعـــدادهم ٥٠٠٠ نسمة ، ولكن التجارة فى انخفاض مستمر بعد أن تحولت إلى الموانى المنافسة لها • وتكاد صحـــار الآن أن تصبح فى مستوى موانى الباطنـــة الأخرى • وعلى بعد بضعة أميال من صحار تقع العوهى وهى بقعة خصبة كثيفة الأشجار وكانت المنتجع المفضل للأئمة اليعاربة •

وعلى بعد أربعة أميال من صحـــار على الساحل تقع الصويحره والتى تقع بموازاتها بخمسة عشر ميلا نحو التلال حورة برجـــا ، وهى قرية هرمية وحيدة ، ترتفع ١٥٥٠ قدما ، وتسمى قمة صحار ، وهى تشـــكل علامـــة بارزة للمكان ، وبالقرب من هذه الذروة وليس بعيدا جـــدا عن المقابيل توجـــد آثار لمدينة قديمة تسمى لعبيلة ، ومن هذا المكان يقـــوم الأهالى باستخراج أحجار البناء •

والمدينـــة الثانية على هذا الســـاحل هى صحم ، وتبعد سبعة عشر ميلا عن صحار ، وفى المنطقة الفاصلة بين البلدتين توجـــد ست قرى أخرى بمـــا فيها الصوارة ، اثنتان منها هما الخشـــدة وســـور الشيادى ويحيط ببلدة صحم حزام كثيف من مزارع النخيل والأشجار ويسكنها ألفا نسمة من قبائل بنى على وماجـــد وبنى شموس ، ويقيم فيها سبعة من التجـــار الهنود ويزاولون تجارة واسعة مع إقليم الظاهرة عن طريق وادى العين وبطحه صحم ، والبلدة الئيسية فى هذا الوادى هى حبى التى كانت سابقا خاضعة لينقل ثم قام السيد عزان بن قيس بفصلها سنة ١٨٧٠ وأصبحت

تابعة لصحار ، أما الحرف الصناعية فى صحم فهى الصيد وتمليح الأسماك وحياكة الأقمشة وصناعة الخزف • وإلى الشرق من السوق توجد آثار القلعة التى أمر بهدمها السيد ثوينى سنة ١٨٦١ •

وفى طريقنا إلى الخابورة التى تبعد ثمانية عشر ميلا نمر على أربعة قرى كبرى وسبعة قرى صغيرة ، والقرية الأولى بعد مغادرتنا صحم هى الرويسة وتتبع قبيلتى الحمادين والزغابين ، ثم قرية مخيليف وتتبع الحمادين والكرارة ، بينما أم الجعاريف تتبع آل بوقرين ، وديل تتبع أولاد عبد السلام ، وتقع الخابورة عند مصب وادى الحواسنة ، ويوجد بها حصن ، كما أن الكميات التموينية متوافرة بما فيه الكفاية • والتجارة فى أيدى خمسة وعشرين تاجرا من طائفة الخوجا ، ويتمتعون بالرخاء واليسر • وعدد السكان ٦٠٠٠ نسمة ويعملون فى النسيج والأسلاك والحبال وبناء السفن •

ومن وادى الحواسنة تقع الطريق المباشرة والمفتوحة إلى الشحيرة • وقد تميزت الخابورة بتركيزها للقسم الأكبر من التبادل التجارى فيما بين الإقليمين • والبلدة الرئيسية فى هذا الوادى ومقر الشيخ هى غرريم ، غير أن الجزء الأعلى من الوادى يتبع بنى عمر ، بينما تمتد سلطة شيخ الحواسنة على طول الساحل من القصبية إلى الفجيرة •

وعلى امتداد الساحل من الخابورة إلى السويق وهى البلدة الثانية من حيث التحصينات ، وتبعد عن الخابورة بنحو عشرين ميلا توجد اثنتا عشرة قرية صغيرة وكبيرة تستوطنها عدد من القبائل الصغيرة • والقرية الأولى هى إباصه ، وتخص قبيلة قطيف ، والثانية هى الفجيرة ، ثم الخويرات ، وكذلك تتبع قبيلة قطيف • ثم تأتى الغليل والهجيرة ، ثم الخضرا وهى أكبرها جميعا ، وتتبع يال سعد وآل بوراشد ، وبالقرب من السويق مباشرة يقع خور ولاد غويف •

وتعتبر السويق بعد كل من صحار وبركا الحامية الرئيسية على ساحل الباطنة ، وتطل على ساحل البحر حيث ترتفع بارزة وتضم ثلاثة قلاع مزودة بعدد كاف من المدافع وفيها سوق جميل وتحيط به الأسوار ، وفيها ثلاثة تجار هنود يتحكمون فى تجارتها ، وهى تنتج القطن والمنسوجات ونوع خاص من القماش القطنى يسمى خضرنج ، ويتم انتاجه فيها على نطاق واسع ، وعدد سكانها أربعة آلاف من قبائل الصوالح والفضول وغيرها من القبائل الفرعية • والزراعة فى السويق وفيرة وتتألف من البلح والموز والليمون والمانجو والبرتقال والبابايا وغيرها من الفواكه بالإضافة إلى الذرة والسكر والقطن والنيلة •

والوديان على قمم الجبال تساهم فى توفير مياه الرى من خلال الجداول التى تتفرع منها ، بالإضافة إلى وجود واديين كبيرين هما وادى بنى غافر والوادى الكبير • وكانت السويق سابقا ولاية للسيد هلال بن محمد الذى اغتاله السيد عزان ، ففى سنة ١٨٧٤ قام ابراهيم بن قيس بفرض حصار على السويق بعد أن زحف عليها من الرستاق غير أنه سرعان ما أرغم على فك الحصار والانسحاب ، ولعله من الممتع أن نلاحظ أن السويق ترتبط بقصة السندباد البحرى الغربية •

بعد أن نقطع ثلاثة عشر ميلا من السويق نصل إلى المصنعة وعلى امتداد الرقعة الفاصلة تقوم القرى فى صفوف متراصة منها الربيعة وصور وودام والشرص وست قرى أخرى على هذا النمط ، وإلى الداخل وعلى بعد خمسة أميال من الشرص تقع قريتا الملدة والثرمد وهما متقابلتان ويفصل بينهما وادى بنى غافر ومجموع السكان قد يصل إلى ٧٠٠٠ نسمة وتشكل هذه المنطقة أكبر المناطق السكنية فى الباطنة وتزخر بمزارع النخيل وغيرها من النباتات وكذلك الحرف الصناعية وفيها تجارة مزدهرة ، ويقيم فيها أربعة تجار هنود وعدد آخر من الخوجا ، غير أن الماء شديد الملوحة مما يجبر أهالى القرية على إحضار الماء من وادى الحرادى وهو أحد

فروع وادى همام الذى يبعد نحو ميل واحد ، وقلعة المصنعة قديمة ومبنية بطريقة جديدة بعد أن قام الأئمة اليعاربة بتجديدها ، وتضم نحو ستين قطعة من المعدات الحربية ومدافع عيار ١٢و ٢٤ بعضها على قوائم وبعضها بغير قوائم ، وعدد السكان ١٥٠٠٠ نسمة من قبيلة الموالك وغيرها ، مع خليط من البلوش الذين يعمل عدد كبير منهم فى صناعة صيد الأسماك الموجودة بكثرة بحيث يزيد العرض على الطلب • وعلى بعد بضعة أميال إلى الداخل تقع بلدة النعمان وهى بيت ريفى قديم يقيم فيه الإمام وحيث اغتيل فى سنة ١٨٠٧ السيد بدر الذى اغتصب الحكم من أنجال السيد سلطان الصغار •

وأمام الساحل وعلى بعد ٩ أميال من بركا والسيب تقع مجموعة من الجزر وعددها سبع ، ويطلق عليها جزر الديمانية ، وكلها جزر قاحلة لا ماء فيها وغير مأهولة ، واثنتان منها لها اسمان مختلفان عن بقية الجزر ، وهما جون والحزارابة • أما الصيادون فيسمونها الجزر السبع ، وقد اكتسبت اسم الديمانية من اسم قبيلة بذلك الاسم ، والتى لايزال لها بقايا فى عمان ، وقد ظل اسمها كما هو منذ عهد بلينى •

وبعد بركا نصل إلى الحراكى ، وهو حصن صغير تابع لقبيلة الشيخ سعيد ، وفى هذا المكان يوجد فرع لوادى همام الذى تستمد بركا ماءها منه • وبعدها يأتى حى عاصم الذى يخص الزغابيين ، ولهم حصن صغير أشار إليه إبن المجاور ، وبالقرب من هذه القرية توجد بقايا الرميس التى تتبع الآن يال أحمد والمخاريف • وطبقا لما ورد فى القاموس فإن هذه البقايا تعادل مساحة بركا أربعة أضعاف •

ثم بعد ذلك تأتى الشخلوخات التابعة للموالك • وبعد هذه نصل إلى البيلة وهى قرية تخص يال وهيبة ، وبعدها صور ولاد حديد ، وهى قرية مسورة بها قلعة واحدة تخص تلك القبيلة • وبعد وادى العرا يوجد واد شديد الانحدار مزروع بشجر الخروع ، وهو منطقة ظليلة خضراء يأوى

اليها الناس فى القيظ ، كما تقع بين هذا الوادى والسيب حلة بن حية وهى قرية تسكنها قبيلة بن حية ، وفيها قلعة وبرج •

وعلى بعد سبعة عشر ميلا من بركا و ٢٧ ميلا من مسقط تقع بلدة السيب وهى كبيرة وغير مسورة ويقطنها ١٥٠٠ نسمة ، وتتم زراعة مساحات كبيرة بالفواكه والحبوب بالقرب منها ، وفيها ٦ تجار هنود ، ويزاولون تجارة مربحة مع نخل وسمايل • ويتم تعيين الشيخ من مسقط ، ويلقب بالوالى ، ولكنه من حيث السلطة يخضع لبركا • وفى عام ١٨٧٥ بنى فيها برج وحامية صغيرة لحماية سوقها الذى كان يتعرض سابقا لغارات البدو • وعلى بعد ميلين من السيب تقوم بقايا المقر الريفى للسيد ثوينى بن سعيد ، وقد زاره بلجريف بعد تحطيم سفينته عام ١٨٦١ ، غير أن الإمام عزان بن قيس أمر بتدمير القصر فى سنة ١٨٨٩ نظرا لأن نفسيته لم تكن لتتحمل رؤية ذلك القصر الذى كان خصمه يقيم فيه • وتقع بقايا القصر فى مكان مقفر موحش يسمى وادى القرش ، ويحيط به سور من الطين ، أما بلجريف فيسميه بطحة فنجا ، وفى السيب تكاد تنتهى حدود الباطنة والساحل شرقا ، ولبعد المسافة يتبع عمان الداخل أو الأم •

وبعد أن نغادر السيب فإننا لا يمكن أن نعثر على شىء ذى أهمية إلى أن نصل إلى قاع الوادى الرملى العريض ، الذى هو وادى سمايل ، والذى ليس له ما يميزه ، وقاع الوادى ضحل وعار ، وليس فيه سوى قطرات من الماء بوجه عام ، نظرا لامتصاص التربة له من ناحية وسحب كميات كبيرة منه لأغراض الرى ، وعلى أية حال ففى أوقات الفيضان كما حدث على سبيل المثال أثناء الإعصار العنيف فى سنة ١٨٨٥ الذى سبب دمارا هائلا ، فإن مياه الوادى تتدفق إلى البحر • ويمتد وادى سمايل نحو مائة ميل وتقوم على ضفافه قلاع كثيرة ، وتقطنه قبائل عديدة ، ويعتبر الشريان الرئيسى للمواصلات من المناطق الساحلية إلى المنطقة الداخلية ، كما أنه

أطول الوديان الدائمـــة فى عمان • والقرية الأولى فى هذا الوادى تسمى خث ، وتبعد عن البحر بنحو ميل ونصف ميل •

وبعد أن نجتاز قرية صغيرة تسمى حلّة ولاد يوسف نصل بطحة فنجا ، أو وادى البحايص ، والذى يستمد سكان السيب مياه الشرب منه ، وهذا المجرى بالإضافة إلى المجرى الـــذى سبق أن أشرنا إليه يشكلان دلتـــا وادى سمايل •

وبعد عبور قريتين تابعتين لقبيلتى الهواشل والمباسيل نأتى إلى خور الفراد ، أو وادى اللواص ثم إلى الخريس ، وهى قرية صغيرة تابعـــة للحبوس • والقرية التى نصل اليها بعد تلك هى الحيل ، وهى تخص العوامر ، وعنهم أخذت بلدة الحيل إسمها ، وهنا ينحنى الساحل على مدار الشمال •

بعد أن نجتاز خـــور بكرة وقرية المصباح نصل إلى الخليل ، وهى قرية صغيرة للشواوى • ثم يأتى بعد ذلك خور العذيبة ، وهو مثل الخور الأخير ينبع من سلسلة جبال الطايين ، أمـــا الغبرة فهى القرية الأخـــيرة فى غبّة الجبل ، وتبعد عن جبل الطايين نحو عشرين ميلا (وترتفع ٥٢٥٠ قدما) عن سطح البحر •

وعلى بعد أربعة أميال من الغبرة تقع قريتا بوشر وغلا ، حيث توجد المياه المعدنية ، وهى مشهورة بهـــذا المـــاء الذى يستعمل كعلاج من بعض الأمراض ، ويحج إليه الناس من كل أرجاء البلاد • وهذه الينابيع كثيرة وهناك عدد منها للاستحمام وهى تحـــوى بعض عنصر سلفات المنجنيز وتتراوح حرارة المياه من ١٠٣ إلى ١١٤ فهرنهايت ، وبعض أحواض هذه المياه تعج بالأسماك ، وتسمى أسماك الصد ، رغم أن لكل صنف منهـــا اسمه الخاص •

وعلى بعد تسعة أميال شمالا من الغبرة يقع الجزء البارز من رأس

الأحمر ، حيث ينحرف الساحل بحدة نحو الشرق ، بينما يوجد بين الغبرة ورأس الأحمر خور القرم ، وقريبا منه تقع الوطية . وهو مقر قديم للسلطان السيد ثوينى ، ولكنه الآن فى طور الاندثار ، وفى هذا الخور تنتهى حدود الساحل الرملى ، غير أن بعض الجهات تقدر امتداد حدود الباطنة إلى هذه النقطة ، وامام رأس الأحمر وعلى بعد ميلين إلى البحر تقع جزيرة الفحل ، وهى صخرة ارتفاعها ٢٥٠ قدما وشديدة الانحدار • وهى مكان لتوالد الصقور والطيور الجارحة •

وبعد أن نجتاز رأس المالح نصل إلى دارسيت ، وهى قرية صغيرة داخل وادى دارسيت ، الصغير الخصب ، وهو امتداد لسيح الحرمل • وإن التركيب الجيولوجى لوادى دارسيت تركيب فريد ، وفيه تضارب واضح بين التكوين البركانى على الجانب الشرقى والصخور الترسبية على جانبه الغربى والأحجار رملية فى هذا المكان ، ويعتبر محمرا ، ويتم نقل أحجاره إلى مسقط ، لاستعماله فى البناء • وبعد دارسيت تأتى عينت ، ثم نصل إلى رأس شطيفى على زاوية خليج مطرح ، ويبعد أربعة أميال عن رأس الأحمر وحيث يوجد جون وقرية ، ومن هنا يبدأ الساحل فى الانحدار مرة أخرى فى اتجاه الجنوب ، حتى أربتى وهى الضاحية الغربية لمطرح •

إن مطرح محصنة تحصينا قويا بسور قوى له مدخلان (باب الكبير) وباب المثاعيب ، بالإضافة إلى أربع قلاع ، وعلى الجانب الشرقى تحتل القلعة موقعا بارزا ، وفى وسط المدينة حى مسور يسمى سور اللواتيا تقيم فيه جالية الخوجا ، والذى لا يسمح لغير أفرادها بدخوله • والمدينة تحيط بها سلسلة من الصخور العالية تمتد نحو ميل واحد ، وتضم منازل جميلة ، أما السوق فأكبر من سوق مسقط ، ويكتظ بالمعروضات والسلع • أما سكان مطرح فهم خليط ، يعيشون داخل المنطقة المسورة تفاديا للغارات التى تقوم بها القبائل المعادية فى الداخل ، وتمنع الأهالى من الإقامة خارج المدينة • والميناء واسع ويضم رأسا جيدة للمراكب

الشراعية ، والممر الوحيد بين مطرح ومسقط هو واد صخرى لا يمكن أن تسير عليه الحيوانات • أما المواصلات التى تقوم بنقل المواطنين من منطقة إلى أخرى على الساحل • فإنها تمر فى طريقها من وإلى مسقط على القرى الساحلية ، وهى مطرح وريام وكلبوة •

إن الخروج من مسقط عن طريق البر يكاد يكون مستحيلا ، ومطرح التى تبعد عن مسقط نصف ميل برا وميلا ونصف الميل بحرا تحتل مكانها كنقطة انطلاق ومحطة للقوافل والمسافرين من وإلى داخلية عمان ، وحركة المرور عبر هذا الطريق نشطة جدا • أما مسقط فتقع فى طرف الجون أسفل سلسلة شامخة من القمم الجبلية ، بعضها تقوم عليه أبراج ، وهى بموقعها هذا بين قلعتين عاليتين بارزتين تمثل مشهدا جميلا ومهيبا • أما الميناء أو الجون فهو بمثابة جزيرة صخرية عارية وانحدارية يبلغ ارتفاعها ٣٥٠ قدما وطولها ثلاثة أميال ونصف ويقع خارجها ، وهذه الجزيرة يفصلها عن المدينة قناة ضحلة ضيقة ومدخلها من الجهة الشمالية ، حيث تحميها قلعة على كل من الجانبين ، وتسمى التى على الجزيرة الصغيرة الشرقية والأخرى الغربية ، ولايمكن للسفن القادمة إلى مسقط أن تشاهد الميناء حتى تدخل ، لأن الجزيرة تحجبه عن الأنظار ، وبعد الدخول يبرز مشهد المدينة والسفن وقد أطلق عليه الإغريق القدماء اسم « الميناء المخفى » وهو اسم ينطبق عليه • وعلى الرغم من أن هذه الجزيرة تشكل حاجزا فعالا ضد الأمواج من الشرق والغرب إلا أنها تترك الميناء تحت رحمة الرياح الشمالية الغربية ، ولهذا فعندما تهب العواصف على المدخل فى فصل الشتاء فإنه يتعرض لأمواج شديدة تستمر يومين أو ثلاثة •

وعلى الجانب الغربى من الميناء يوجد خليج صغير يسمى خور مكلا ، وهو محمى من الرياح على اختلاف اتجاهاتها ، وتستخدمه السفن الشراعية التى تلجأ إليه • وخلال القرن السادس عشر كان هذا الجوف يسمى « مكلا شينى » أى الخليج الصينى • وقد ورد تحت هذا الاسم فى مذكرات باروس ، وكوتا ولعله المكان الذى كانت ترسو فيه السفن الصينية •

وإن أهم ما يلحظه الداخلون إلى مسقط هو القلعتان البارزتان اللتان تحرسان البلدة • الأولى هى القلعة الشرقية ، وقد شيدها البرتغاليون عام ١٥٨٩ وأسموها سان جوا ، أو سانت جون . ويسميها العرب الآن قلعة الجلالى ، وتتألف من برجين عاليين يربط بينهما سور • ولا يمكن الوصول إليها نظرا لأنهما قد أقيمتا على صخرتين منعزلتين ويتم الوصول إليهما عن طريق سلم صخرى • وقد سمى البرتغاليون القلعة الشرقية قلعة كابيتان وتعرف بين عرب البلاد بقلعة الميرانى ، وقد أطلق هذا الاسم تيمنا باسم قائد البلوش وبنى فى سنة ١٥٨٨ كما تدل الكتابة التى على المدخل ، وهذه القلعة كبيرة وغير منظمة ، وقد تم تصميمها بقدر كبير من المهارة والاجتهاد • وفى الجزء الأعلى من القلعة كنيسة مستديرة بنقوش للعذراء ، وفيها كوب للماء المقدس خارج الكنيسة ، ولهذا فقد سميت من جانب العرب بقلعة الطاسة إشارة إلى ذاك الكوب ، وبعض المدافع الحديدية الموجودة فى القلعة صدئة ومثقبة ، وقد تنفجر لو أطلقت ، غير أن هذا العيب فى نظر العرب لا يقلل من أهميتها • وعلى أحد المدافع الملقى به على أرضية القلعة شعار ولقب ، دون فيليب ، بينما يحمل المدفع الآخر اسم دون جوان دى كنها ومؤرخ عام ١٦٠٦ •

وتتألف استحكامات المدينة من سور وخندق عريض شيدهما البرتغاليون ، والبرج الواقع على الجهة الشرقية يسمى بومة صالح ، والسور له بابان أو مدخلان ، أحدهما كبير والآخر صغير ، والثانى ملاصق للسوق المليء بالمؤن والسلع • والمدينة مكتظة بالمبانى والدور الجميلة ، غير أن طرقها ضيقة وقصيرة وغير منظمة ومقسمة إلى عشرين حارة وحى • وأمام المدينة على الساحل يقع قصر الحاكم ومبنى الجمارك • وقد بنيت الجمارك سنة ١٦٢٤ طبقا للتاريخ الموجود على بوابة المبنى ، أى بعد طرد البرتغاليين مباشرة من هرمز ونقل مركز تجارتهم إلى مسقط • وقد مضى نحو نصف قرن على إنشاء قصر السلطان ، وقد تم وضع أساس مبناه داخل حائط بحرى يسمى سكة المدفع ، وكان قد أقامه البرتغاليون ، وهو يمتد على طول

الواجهة ومسلح بستين مدفعا من الحجم الكبير • وفى منطقة قريبة من قصر السلطان تقع الجزيرة القديمة أو الكاتدرائية التى شيدها البرتغاليون سنة ١٦٣٠ وهو مبنى منفصل من ثلاثة طوابق يضم الكنيسة والثكنات والمستودعات الخ • وفى أعقاب تحرير العرب لمدينة مسقط سنة ١٦٥٠ تحول المبنى إلى مقر لأئمة عمان على مدى سنوات إلى أن تم إنشاء القصر الجديد ، وهناك جناح للحريم ملاصق للقصر ، وله شرفه خشبية عريضة تطل على الميناء ، وقد بنى لإقامة سيدات البيت الحاكم فى عهد السلطان السيد سعيد •

إن تعداد سكان مسقط قد يصل إلى ٣٠ ألفا أو ٤٠ ألفا غير أن نسبة قليلة من هذا العدد هى التى تسكن داخل المدينة نفسها ، أما الأغلبية فتسكن الضواحى خارج السور فى منازل من الأكواخ الضيقة •

وإذا خرجنا من المدينة بطريق الباب الصغير فإننا نصل إلى ضاحية تسمى سداب حيث يوجد جون صغير مقفول تقريبا • ويمر الطريق خلال ممر منخفض تحميه قلعة ومدخل ، حيث يبدو المنظر من هنا مثيرا • أما الطريق من الباب الكبير فإنها تؤدى إلى سبعة طرق فرعية ، إحداها إلى كلبوة ، وأخرى إلى ريام ، والثالثة عميقة ووعرة إلى مطرح ، وهناك طريق رابعة تؤدى عن الطوبان إلى الوادى الكبير الذى يعلوه ممر يمكن من خلاله النزول إلى ساحل الحرمل وقرية روى • وأثناء الحصار الذى تعرضت له مسقط عام ١٨٧٧ وقع حادث لجراتان جيرى نترك له أن يرويه لنا فى مؤلفه « رحلة عبر تركيا الآسيوية » •

« لم يمض وقت طويل منذ أن قامت السفينة المسلحة تيزر التابعة لصاحبة الجلالة ، وكانت ترسو فى ميناء مسقط بتوجيه النيران من فوق المدينة على حشد من البدو كانوا قد تجمعوا وراء سلسلة الجبال جنوبا ، بأمل الدخول الى مسقط واحتلالها ، غير أن القذائف تركت أثرا معنويا بين

أولئك البدو لأنهم لم يروا مثلها من قبل ، واعتقدوا بأن القذائف لها عيون ، وترى أين تسقط ، والا فكيف يمكن للقذائف أن تسقط فوقهم مباشرة ، خصوصا وان السفينة بعيدة عن مرآهم لأن الجبال تفصل بينها وبينهم • والواقع أن القصف كان يوجه بواسطة إشارات تصدر من أحد الحصون البرتغالية الواقعة على أحد التلال ، ولقد سقطت قذيفة فى إحدى الساحات ولكنها لم تنفجر ، وقد التف حولها على الفور جمع من البدو والمذعورين ، وقرروا خلع فتيل النحاس الذى يتحكم فى تفجيرها ، فخبطوا فوق العين بأطراف نصالهم فانفجرت القذيفة ولقى ١١ بدويا مصرعهم على التو ، ثم انسحب البـــاقون » •

وفى مسقط بل وفى جميع الموانى التجارية الكبرى على ساحل الباطنة يوجد عدد صغير من رجال التجارة الهندوك الذين نزحوا من ولاية كيتش من الهند ، واستقروا هناك • ان هؤلاء الهنود الدهاة المغامرين يتحكمون فى المعاملات التجارية بحكم خبرتهم وتفوقهم ، وهم لا يجمعون ثروات طائلة فحسب وإنما يقدمون خدمات لا غنى عنها فى عمليات السمسرة والإقراض والأعمال المصرفية لكافة الطبقات من سكان البلاد • ويتركز نشاطهم فى استيراد السلع البريطانية والأمريكية والهندية كالمنسوجات والأرز والأدوات المعدنية وغيرها مما تتطلبه حياة العرب •

ولفظة مسقط تعنى الرســـو ، وإذا ترجمت حرفيا فهى تعنى موقع سقوط المرساة ، ولا مجال للشك فى أن التسمية هذه تعود إلى عصور قديمة جدا • وبالنظر الى موقعها المحكم والمناسب كمنطقة حرة على طريق الملاحة التجارية للمحيط الهندى فيما بين الشرق والغرب فهى تنفرد بمميزات تجارية واستراتيجية • كذلك فإن مرفأها الآمن واتصاله بالبر وإمكانياتها الطبيعية تجعلها موقعا ذا أهمية وقيمة بالغتين ، لا كمفتاح للخليج فحسب ، بل وكمركز تجارى للخليج والهند وافريقيا الشرقية والعراق • وفى الأيام الذهبية لملكة بابل كانت مسقط أو بالأحرى عمان تحتكر وتتحكم فى التجارة

البحرية بين الهند والعراق ، وان إريان رغم جهله بمركزها الحقيقى يشير الى أنها كانت قاعدة دولية للتجارة فى تلك الحقبة ، بينما ارتفعت عمان فى عهد اليعاربة الى ذروة مجدها ومركزها فى الشرق ، لأنها كانت فى يد دولة قوية •

والصخور البركانية التى تحيط بمدينة مسقط ، ربما تغطى مساحة تقدر بنحو ثلاثين ميلا مربعا بدءا من دار سيت فى الغرب حتى رأس الحصّة فى الشرق حيث تلتقى هنا بتشكيلات الصخور الجيرية التى تسود البلاد عموما • ويقدم لنا الدكتور أ • ح • جى كارتر شرحا مسهبا وممتعا عن هذه التشكيلات فيقول « بأن هذه المجموعة تتكون من صخور خضراء أفعوانية الشكل ، ومن حجر البازلت ، وبالتالى فضمن هذه التكوينات الثلاثة نتعرف على كافة أنواع الكتل البركانية المنتشرة فى المنطقة الجنوبية الشرقية من شبه الجزيرة » والنوع الغالب والأبرز فى هذه الصخور هو النوع الأسود الهادىء المتعرج الشبيه « برأس ليزارد » فى منطقة كورنوول إلا أن المجموعة تضم كذلك الديورايت ، وسليكات الألومنيوم ، والكوارتز ، والأمفيبول والحجر الصابونى ، وعلى المنطقة الساحلية من مسقط ومطرح يظهر خليط متعاصر من الكائنات المائية كالمرجان والمحار وغيرها • وخارج المنطقة البركانية يوجد حجر رملى ، لونه كلون صدأ الحديد ، إلى جانب أنواع جيرية صفراء اللون من الرمال الحجرية والصخور ، وعلاوة على المعلومات القيمة عن جيولوجية مسقط التى أعدها الدكتور كارتر الذى سبق أن أشرنا إليه لدينا ملاحظات الكابتن نيوبولت والمستر ديلبوتى ، بلانفورد حول هذا الموضوع •

وبعد أن نعبر على التوالى السواحل الرملية وقرى الصيادين الصغيرة ، كحرامل ، والروضة ، والبستان وقنتب ، التابعة لقبيلتى بنى وهيب وبنى حسن نصل إلى الجصة ، وهى قرية فى حصن وادى على بعد ستة أميال من مسقط مع جون صغيرة تحميه جزيرة ، ونظرا لصعوبة الوصول اليها

من الداخل ولكونها مرفأ فقد استولى عليها القواسم فى عهد تفوقهم البحرى فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر ، واتخذوها قاعدة لعملياتهم • وفى الجصة فإن الصخـــور البركانية تحدها وتلفها صخور جيرية ، ويلاحظ كارتر :

« ان هـــذه التشكيلة من الصخـــور الجيرية تتواصل حتى مسافة ثلاثين ميلا بشكل منكسر ، ترتفع بجروفها الواحـــد تلو الآخر » بعد هذا الحـــد تفقد السلسلة تكسراتها ، وتتحول إلى تلال مستديرة متقطعة ، حيث تنتهى عند الجرف الداخلى العظيم القريب من البحر لتشكل البعـــد الرابع لفجوة الشيطان أو رأس إبليس » •

وبعد الجصـــة تأتى قرية يتى ، وهى قرية الصيد الصغيرة الواقعة عند فم وادى الميح ، الذى هـــو امتداد لوادى حطاط ، وهو واد وفير المياه والزراعة ، ويشكل أحـــد الأسواق الزراعية لمسقط ، ويبلغ عدد الســـكان فى هـــذا الوادى ألف نسمة يحتلون أربعة قرى ، هى المزارع العلاية والمزارع السفالة (وتخص قبيلة المعاشرة) وزرعه ويتى وتخصان بنى وهيب ، وتقع المساكن على ضفة الوادى ، وهو واد مستمر وأغلب المزارع هنا معلقة ، كما يوجد فيها نبات الدفلى بكثرة •

أمـــا حطاط فهى سهل صغير تحيط به التلال ، وله نحـــو ثلاثة أو أربعة أسماء ، والقبائل التى تسكنه هى بنى بطاش ، وبنى وهيب ، وبنى جابر ، وبنى حسن ، والمعاشرة ، وصخـــور هـــذا السهل غريبة جـــدا وبألوان وأشكال عديدة ، وآثار البراكين أو النيران لاتزال ظاهرة ، كما أن طبقات أرضيته معقدة وملتوية ، وتستلقى داخل أقواس من قطع الأحجار الجيرية مما يشـــير إلى أنها فى فترة ما من التاريخ كانت منطقة بركانية مشـــتعلة •

وعلى الضفة اليمنى من وادى الميح ، وعلى بعد ميل واحـــد من يتى

توجـد آثار حصن صغير ، ومن هذه النقطـة وحتى أبو داوود يمتـد السـاحل بغير انتظام مع وجود كهوف منخفضـة تارة وسواحل رملية ، تارة أخـرى .

وعلى بعد ٧ أميال من يتى يأتى بندر الخيران ، وهو جون بحرى من جزيرتين صغيرتين يستخدم أحيانا كملجأ للسفن فى الأحوال العاصفة كمـا يأوى إليه الصيادون من مدينـة مسقط غير أنه لا يوجـد فيه سكنى دائمـة لملوحة مائه ، ويوجـد فى أعماق بعيدة من التربة . ويمكن مشاهدة بقايا حصن قديم بالقرب من الشاطىء ، وبنو وهيب يدعون بملكيتهم له بسبب وجودهم على المنطقة الساحلية الممتدة من يتى وأبو داوود . وفى عام ١٨٧٢ ألقت السلطات المحلية القبض على سفينة كبيرة لجأت إلى هذه البقعة وعليها شحنة كبيرة من الرقيق واقتيدت إلى مسقط لتقديم أصحابها للقضـاء .

ويأتى بعد الخيران جون صغير عمقه نصف ميل تشكل بفعل شـبه جزيرة ، تعرف باسم قزيا قيجان ، ثم بعد ذلك ثلاثة خيران صغيرة ، الوسطى منها تسمى خيشة الشيخ ثم بعدها خـور كبير يسمى غبة السيفة ، فيه قرية بنفس الاسم ، وبرج وأشجار النخيل العادية ، وفى نفس الخـور يوجد مصب وادى السرايا .

وبعد أن نجتاز ظهر البيدر نصل إلى رأس أبو داوود على بعد ١٢ ميلا من السيفة ، ورأس أبو داوود هو أكثر الرؤوس الجبلية بروزا فى المنطقة الواقعة بين رأس مسندم ورأس الحد ، وهو ينتصب بارتفاع ٤٠٠٠ قدم ، والجرف يبدأ بعد مسافة قدرها أربعة أميال شمـال شرق أبو داوود ، وفواصل على هذا المنوال إلى أن نصل إلى نقطة قريبة من قريات . وبعد عبور وادى مجلاص الذى يرتفع داخل التلال فوق السواقم ويشكل جونا صغيرا نصـل إلى قريات الكبيرة وهى بلدة قديمة فيها حصن صغير ، ولعل

الفضل فى أهميته ورفاهيته القديمة يعود إلى قربه من وادى ضيقة ثم الحركة التجارية مع المنطقة الداخلية ، ورغم أنه مجرد من أية وسيلة للجوء السفن إليه إلا أن فيه عددا من السفن الملاحية الكبيرة من طراز « البغلة » ، كما أنه يتاجر مع الهند مباشرة • ويصل عدد سكان الإقليم كله إلى نحو ٣٠٠٠ إلى ٤ آلاف نسمة من قبائل بنى سنان وبنى بطاش وغيرها من القبائل ، وفى الاقليم مزارع نخيل كثيرة ومزارع للمانجو • وفى العصور القديمة كان السهل الواقع أعلى قريات مزرعة لتربية الخيول التى كما يذكر المؤرخ ماركو بولو ، كانت تصدر من قلهات إلى الهند بأعداد كبيرة ، غير أن هذه التجارة قد توقفت على ما يبدو فى القرن السادس عشر خلال الاحتلال البرتغالى لعمان • إن الكتلة الضخمة من الجبال الواقعة على الناحية الشمالية من وادى يثقب أو هوة الشيطان ، يسمى جبل نحل أو جبل السنارى وتنتهى السلسلة عند قمة يصل ارتفاعها ٦٤٠٠ قدم ، وتبعد ١٨ ميلا عن شاطىء البحر ، وعند هذه القمة كما يقول الرحالة الشاب الحصيف ابن المجاور تستقر مرساة سفينة نوح •

وعلى بعد سبعة أميال من قريات الكبيرة تقع قريات الصغيرة التى ترقد على المنطقة الجنوبية ، ثم بعد ستة أميال تقع مستوطنة الحيل ، وإلى جانبها يسيل أحد الوديان الذى يحمل نفس الاسم • أى وادى الحيل • وقد شيد هذه البلدة السيد خلفان والى مسقط عند زيارة فرانكلين لها سنة ١٧٨٧ •

نحن الآن عند الوادى الهائل الذى يسميه العرب وادى ضيقه او حيل الغاف ، ويعرف عند الأوربيين بهوة الشيطان ، وهو مجرى يمر من خلال الجبال قادما من وادى الطايين والجرف الواقع على الجانب الشمالى يسمى نوى ، بينما يسمى الجرف الواقع على الجنوب بغاف •

والمكان الأول على الساحل بعد قريات هو رأس لويز ، ثم بعد

ذلك نصـــل إلى حاجر بنى بطاش ، بينما يستوطن قرية ضباب التى تلى الحاجر بنو جابر • أمـــا سكان قرية الغضانه وهى القبيلة التى تستوطن دغمر والسيفة أيضا فيسكنها فرع من قبيلة بنى جابر ، ولكن بما أن أفراد هذه القبيلة أنفسهم عاجزين عن حمايتهم فقد اتحدوا مع بنى بطاش •

وإلى الجنوب من وادى هوة الشيطان تقع الكتلة الجبلية التى تسمى جبل جابر ، ويستمد الجبل اسمه من اسم القبيلة التى تقيم فيه ، وهى قبيلة بنى جابر من سلالة ذبيان ، وفيما يلى ما كتبه الدكتور كارتر فى وصف هذه السلسلة :

« هنا تنقطع السلسلة ، فلا يوجد جرف لمسافة بضعة أميال لحـــد بدء القمة التى تشكل الجهة العكسية أو الحد الجنوبى لفتحة الوادى ، وهذه القمة التى يبلغ ارتفاعها ٤٤٠٠ قدم ولاتبعد عن البحر بأكثر من ٨ أميال تمثل كمـــا نتصـــور ، مسطحا كبيرا فى هذا الاتجاه •

ومن قمة الجبل ، أى جبل جابر ، تأخذ الأرض فى الانحـــدار نحو البحر على شكل جرفين هائلين ، وهكذا تشق الطريق كلها حتى بلدة صور » •

وعلى بعد ثمانية وثلاثين ميلا من قريات يقع رأس شجر ، وهو رقعة منخفضة ، إلا أنه أهم الرؤوس فيما بين مسقط ورأس الحد •والوادى هنا يسمى سيل الأسود ويوجد واد آخر قريب منه يسمى وادى الغويصة يقع مباشرة أمام الخور الضحل الـــذى تحطمت عليه السفينة الشراعية ماريون مور عام ١٨٧٩ •

وعند أقصى الرأس تقع قرية لبنى جابر ، تسمى اللقوط ، كما يقع فيما بين رأس شجر وغيل الشعب قرية وبرج ونحو عشرة مراكب ، وخور ترسو فيه سفن الصيد فى أمان •

ومن هذه البقعة من الساحل يمكن مشاهدة قمة سلسلة جبل جابر العالية بوضوح تام • أما قرية الشعب فتقع على الضفة اليمنى لخور خلفى وطوله ميل ونصف ، ويؤدى إلى شعب صخرى انحدارى يشكل ممرا يؤدى إلى الداخلية • وعلى بعد ثلاثة أميال إلى الجهة العليا يصب الوادى فى سلسلة من الشلالات الصغيرة ، وهناك العديد من القرى التى تضم حدائق معلقة ، والمنظر هنا جميل ورومانتيكى • وتدفق الماء من الجبال دائم وغزير ، غير أن الخليج متواز وفيه حاجز رملى عند فتحته حيث تتسرب مياه البحر إليه فى فترة المد • ولفظة شعب تعنى مجرى ماء من الصخور ، والبحيرة التى تتكون من هذا الوادى عالية وعمودية •

وعلى بعد ميلين من شعب تقع طيوى على مدخل واد عميق بجوانب عميقة تمتد إلى عدة أميال والجزء الأعلى يسمى وادى بير ، الذى يقال إنه وفير المياه وفيه سكان كثيرون ويضم تسعة قرى هى طيوى ، وحسن ، وحيلة بنى عيسى وحيلة بدعة والعقر وسما وسرى وميبام وعمق الكبير •

وطيوى بلدة فيها خليج جميل وبحيرة عذبة المياه ، وإلى جانبها تقع مزارع النخيل والحدائق ، وفى منطقة غير بعيدة من الساحل توجد مقبرة ترك كرمان الذين غزوا البلاد وسقط كثيرون منهم صرعى فى معركة دارت بالقرب من هذا المكان • كما أنها الميناء الرئيسى لبنى جابر ، وتمارس تجارة واسعة ، وسكانها يملكون ١٤ مركبا أو زورقا ساحليا • ويعتقد كثير من شيوخ المنطقة أن طيوى تشكل الحدود بين عمان وإقليم الشرقية ، غير أن الحدود المتفق عليها تقع عند فجوة الشيطان كما سبق أن أشرنا •

وإلى الجنوب من وادى طيوى ويفصله عنه جرف ضيق يقع وادى الفك ، والذى يبدو وكأنه فجوة أو شق ، ورغم أنه أقصر من خور طيوى إلا أن المياه فيه متوفرة أكثر • وبالقرب من طيوى توجد آثار بلدة قديمة تسمى جريت ، لم يبق من معالمها غير برج واحد لايزال قائما • وبعد

أربعة أميال من هـذا المكان نأتى إلى وادى سيوى وهو واد صغير يقع عند مفترقات الساحل حيث التلال تتكون من طبقات جيرية صفراء فاتحة ولكنها صافية ، ويتم تصدير هذه الأحجار إلى بومباى لتحول هناك إلى كلس • وتوجد فى هـذا الوادى قريتان هما حريم وتاب وزعيم القرية الثانية يسيطر على الساحل حتى ضباب •

بعد عبورنا لغبة الحيدى ورأس بو مغيره نصل بعد مسيرة ثمانية أميال عند مدينة قلهات الأثرية الواقعة بين خليجين صغيرين عند فتحة فى سلسلة جبلية ترتفع مباشرة من البحر • وهذه المدينة المشهورة هى الآن مدينة مهجورة مقفرة وكانت فى فترة من التاريخ أهم ميناء بحرى فى عمان ، والسوق التجارى الرئيسى • ولقد زارها ماركو بولو فى القرن الثالث عشر ويقدم المعلومات التالية عن حالتها وتجارتها فى ذلك الوقت :

« كلاتو بلدة عظيمة داخل خليج يحمل اسمها • إنها مدينة فخمة ، وتقع على بعد ٦٠٠ ميل من ظفار إلى الشمال الغربى على البحر • وسكانها عرب مسلمون وتابعون لهرمز • وإذا اشتبك ملك هرمز فى حرب ضد أى أمير أقوى منه فإنه يهرع إلى مدينة كلاتو هذه لأنها مدينة قوية التحصين سواء من حيث موقعها أو من حيث استحكاماتها وتحصيناتها • وكلاتو لاتزرع الذرة وإنما تجلبه من الخارج ، وكل سفينة تجارية تأتى اليها تحضر كمية منه • والمرفأ كبير جدا وممتاز ، وترتاده عشرات السفن تحمل السلع من الهند ، ومن هذه المدينة يجرى توزيع التوابل وغيرها من السلع على المدن والمناطق الداخلية ، كما أنها تصدر كثيرا من الخيول العربية الأصيلة إلى الهند • وكما ذكرت لكم أنفا أن عدد الخيول التى تصدر من هذه المدينة وغيرها من المدن إلى الهند سنويا يصل إلى أرقام مذهلة •

ويعود الدمار الذى أصاب قلهات ، كما يذكر الناس ، إلى وقوع زلازل قبل أربعمائة عام • ومنذ ذلك الوقت مضت قلهات فى طريق التدهور

التام بسرعة ، على الرغم من أن القائد البرتغالى البكويرك قد وجدها فى سنة ١٥٠٧ وهى لاتزال تخضع لهرمز وفيها وال من قبل حكومتها • وتقع الآثار على التعرجات الساحلية لسلسلة جبل قلهات ، غير أن هذه المدينة كانت فى الأزمنة السابقة زاخرة لأن كل بقعة فيها مطعمة بأنقاض المنازل والمبانى • ويمكن ملاحظة خطوط الاستحكامات التى كانت تحمى المدينة على الناحية الجنوبية بكل سهولة حيث توجد ثلاث حاميات تمتد إلى البحر حتى الأجزاء الانحدارية من التلال وراء المدينة وتنتهى عندها • بينما يوجد برجان على الناحية الشمالية للبلدة فوق أحد المرتفعات ، ويسمى برج الشيخ وأسفل هذا التل توجـد قرية قلهات التى يستوطنها الزغابيون ، وهى قبيلة يبلغ عدد أفرادها ثلاثمائة نسمة ، وهم الذين ورثوا كل أمجاد هذه المدينة التاريخية العريقة •

ويشق البلدة مبتدئا من التلال واد عميق يسمى وادى عيسى ، وله فتحة واسعة ، وقبل وقوع الزلزال كان هذا الموقع يشكل الميناء الذى كانت السفن تدخله إلى مسافة نصف ميل لكى ترسـو جنب البلدة فى أمـان ، غير أنه قد ردم الآن ، بحيث لا يمكن لأصغر سفينة أن تدخله • وكان وادى عيسى فى ذلك العهد يمثل الطريق الطبيعى العام إلى الداخلية ، غير أن هذا الوادى قد تعطل الآن لوجود جنادل من الصخور سقطت فيه من الجبال المحيطة به • وعلى بعد نصف ميل إلى الجهة العليا تقع بركة عميقة أسفل جرف عمودى ، ثم على بعد ميل تقع ساخرز حيث يلتقى وادى عيسى بواذى كبدى عند الضفة اليسرى للوادى • ومن هنا تنبع القناة التى كانت تزود المدينة العريقة بالمياه ، كما أن الوعاء المربع الذى كان يستقبل مياه النبع لايزال موجودا حتى الآن •

وبعد قلهات تنحرف السلسلة الجبلية ، كمـا يلاحظ كارتر ، إلى جرفين أو ثلاثة جروف هائلة تكاد تكون فى مستوى سطح البحر حتى بلدة صـور التى تبعد اثنى عشر ميلا عنه • وقريب جـدا إلى قلهات رأس

الحفر وفيه قرية تسكنها قبيلة الفزاسبحه ثم يليه رأس خور الخبة وقرية الهوجريين ، ثم بعده نصل إلى رأس صغير هو رأس الحد صـــور ، وقد اكتنفت هذه التسمية الالتباس على مايبدو فى مؤلفات الكتاب القدماء ، الذين يطلقون دائمـــا لفظة رأس الخيط على رأس الحد ، وبذلك يخلطون بين الاسمين .

أمـــا صور التى تعتبر أهم مرفأ للسفن الشراعية فى عمان فهى تأتى فى الترتيب بعد ميناء مسقط ، وكانت سابقا تضم بلدتين تقع إحداهما على بعد نحـــو ميلين إلى الداخل ، وتسمى البلاد ، والأخرى على الساحل ، غير أن البلدة الحالية يشطرها إلى قسمين خـــور ، وتستوطنها قبائل مختلفة . والجزء الشرقى وهو الأكبر يقع على جرف منخفض يسمى الغيمـــة وتخص بنى بو على الذين ينتمون إلى قبيلة بنى تميم المشهورة ، ويبلغ تعدادهم نحـــو ست آلاف نسمة ويوجد فى هذه المنطقة أربعة أبراج لحماية البلدة . أما الجزء الغربى فيضم أربعة أحياء هى **أم الخريمتين والروالة ومخـــا ومصانى ،** وأكبرها هى الأولى التى تضم ألفا وخمسمائة مسكنا من الأكواخ الحصيرية ، كما يوجد فيها قريتان صغيرتان هما الشيرة والسنيسلة وفيهما بعض الأبراج . وهذا الجزء يستوطنه الجنبه الذين يبلغ عددهم خمسة آلاف رجل ، غير أن هناك قبائل أخرى ممثلة أيضا . وتزرع هنا الفواكه وأشجار النخيل على نطاق واســـع ، كما توجد فيها مزروعات كثيرة . والميناء تكون بفعل خـــور يمتد متعرجا إلى مسافة ما ، ويحيط بالبلدة فى شكل نصف دائرة ، وعمقه يكفى لرســـو السفن الكبيرة طراز البغلة التى يمكن بناؤها وتدشينها فى فصول المونســـون الشتوية . وسكانها ينشئون نحـــو اثنتى عشر سفينة متنوعة الأحجام كل عام ، والنجارون خليط من الهنود والعرب ، ويستعملون خشب التيك فى صناعتها عموما ، وتستورد من مليبار . وفى عام ١٨٧٤ كان مجموع السفن الكبيرة التى تملكها صـــور

ستا وخمسين سفينة طراز البغلة فخلا عن الطراز الآخر ، كالباتيل والزينا ، ونحو مائة وخمسين مركبا طراز « الجن » .

والجزء الداخلى من عمان يتلقى طلباته من البضائع الأجنبية عن طريق صـــور عموما ، بينما المناطق الأخرى تتلقى طلباتها عن طريق مسقط التى تربطها خطوط سفن بخارية مع الهند . ويتم تعيين الوالى من جانب حكومة مسقط ، غير أن صلاحياته محدودة ، لأن زعيم قبيلتى بنى بو على وبنى بوحسن هو الذى يمارس السلطة الفعلية على أتباعه ، وهو المسئول عن المحافظة على النظام داخلها . ومصلحة الجمارك فى صـــور مؤجرة للتجار الهنود نظير ألفى ريال ، غير أن هـــذا المبلغ كان يمكن أن يضاعف لو أن السلطان حاول أن يفرض ذلك بالقـــوة . ومناخ صـــور جاف وصحى غير أن المـــاء ردىء ويؤتى به فى قرب من مناطق بعيدة .

وكلمة صـــور تعنى الصخرة والتسمية تشبه تسمية المدينة الفينيقية الواقعة على الساحل الفلسطينى والتى يطلق عليها الإغريق طيره ولعـــل التسمية لها علاقة بالجرف الذى تقع فيه بلدة العيجة ، وربما كانت أقدم من ميناء البحر الأبيض المتوسط ، أو من المحتمل أن يكون الفينقيون قد مرورا بعمان فى طريقهم إلى الخليج . ولقد نزل الرحالة ابن بطوطة فى صور وهو فى طريقه من ظفار إلى فارس ، وبما أن جولته فى داخلية عمان ممتعة فإننا نقتبس عنه ما قال فيها :

إذ أنه فى عام ٧٣١ هـ (١٣٣٠ م) وصـــل أشهر الرحالة الشرقيين أبو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بابن بطوطة إلى عمـــان قادما من ظفار فى طريقه إلى فارس وتركيا ، وماكتبه عن هذه البلاد وجيز ، ولكنه فى غاية الامتاع والأهمية نظرا لأنه كتب فى فترة تاريخية لم يتناولها أحـــد من المؤرخين الوطنيين ، كما يعتبر ابن بطوطة من أقرب المؤلفين العـــرب الأجانب عن عمان ، وهذا ما قاله عن زيارته لعمان :

« وسرنا من مرسى حاسك أربعة أيام ووصلنا إلى جبل لمعان [١] وهو فى وسط البحر ، وبأعلاه رابطة مبنية بالحجارة وسقفها من عظام السمك ، وبخارجها غدير مـاء يتجمع من المطر • ولمـا نزلنا تحت هذا الجبل صعدنا إلى هذه الرابطة فوجدنا بها شيخا نائما ، فسلمنا عليه ، فاستيقظ وأشـار برد السلام ، فكلمناه ، فلم يكلمنا وكان يحرك رأسه • فأتاه أهل المركب بطعام فأبى أن يقبله ، فطلبنا منه الدعاء فكان يحرك شفتيه ولانعلم مايقول ، وعليه مرقعة وقلنسوه لبد ، وليس معه ركوة ولا ابريق ولاعكاز ولا نعل • وقال أهل المركب إنهم ما رأوه قط بهذا الجبل ، وأقمنا تلك الليلة بساحة الجبل ، وصلينا معه العصر والمغرب ، وجئناه بطعام فرده ، وأقام يصلى إلى العشـاء ، ثم اذن وصلينا معه • وكان حسن الصوت بالقراءة مجيدا لها ، ولمـا فرغ من صلاة العشـاء أومأ الينا بالانصراف ، فودعناه ونحن نعجب من أمره • ثم أردت الرجـوع إليه عند انصرافنا ، فلما دنوت منه انتابنى الخـوف • ورجعت إلى أصحابى وانصرفت معهم •

وركبنا البحر ووصلنا بعد يومين إلى جزيرة الطير [٢] ، وليست بها عمارة ، فأرسيت وصعدنا إليها ، فوجدناها مليئـة بالطيور التى تشـبه الشقاشق إلا أنها أعظم منها • وجاء الناس ببيض تلك الطيور فطبخوه وأكلوه ، واصطادوا جملة من تلك الطيور فطبخوها وأكلوها • وكان يجالسنى تاجر من أهل جزيرة مصيرة ، ساكن بظفار واسمه مسلم ، ورأيته يأكل معهم تلك الطيور فأنكرت عليه ذلك ، فاشتد خجله ، وقال لى « ظننت أنهم ذبحوها » وانقطع عنى بعد ذلك فكان لايقربنى حتى أدعوه ، وكان طعامى فى تلك الأيام بذلك المركب يتكون من التمر والسمك • وكانوا يصطادون بالغدو والعشى سمكا يسمى بالفارسية «شيرماهى» ومعناه « أسد السمك » ، لأن « شير » هو الأسـد و « ماهى » السمك ، وهو يشبه الحوت المسمى

---

(١) ربما هى جزيرة الجلانية احدى الجزر فى ارخبيل كوريا موريا .
(٢) تسمى اليوم حمر النفور .

عندنا « بتارزت » وهم يقطعونه قطعا ويشوونه ، ويعطون كل من فى المركب قطعة ، ولا يفضلون أحدا على أحـد . ولا صاحب المركب ولا سـواه ، ويأكلونه بالتمر • وكان عندى خبز وكعك استصحبتها من ظفار ، فلما نفدا كنت أقتات من ذلك السمك • وعيدنا عيد الأضحى على ظهر البحر ، وهبت علينا فى يومه ريح عاصف بعد طلوع الفجر ، ودامت إلى طلوع الشمس ، وكادت تغرقنا ، وكان معنا فى المركب حاج من أهل الهند يدعى خضر ، كما أنه يدعى بمولانا لأنه يحفظ القرآن ويحسن الكتابة • فلما رأى هـول البحر لف رأسـه بعباءة ، فلمـا فرج الله مانزل بنا قلت لـه « يا مولانا خضر كيف رأيت ؟ » قال : كنت عند الهول ، افتح عينى أنظر هل أرى الملائكة الذين يقبضون الأرواح جاءوا ؟ فلا أراهم ، فأقول ، الحمـد لله ، لو كان الغرق لأتوا لقبض الأرواح ، ثم أغلق عينى ، ثم أفتحها ، فأنظر كذلك إلى أن فرج الله عنا » وكان قد تقدمنا مركب لبعض التجار فغرق ، ولم ينج منه إلا رجل واحد خرج عوما بعد جهد شديد • وتناولت فى ذلك المركب نوعا من الطعام لم أذقه من قبل ، وكان قد جهزه بعض تجار عمان ، وهو من الذرة ، طبخها من غير طحن وصب عليه عسل التمر وأكلناه •

ثم وصلنا إلى جزيرة مصيرة التى ينتمى إليها صاحب المركب الذى كنا فيه ، وهى جزيرة كبيرة يعيش أهلها على السمك ، ولم ننزل إليها لبعد مرساها عن الساحل ، ومكثنا بها يوما على ظهر المركب حيث توجه صاحب المركب إلى داره وعاد إلينا •

ثم سرنا يوما وليلة ووصلنا إلى مرسى قرية كبيرة على ساحل البحر تعرف بصـور ، ورأينا مدينـة قلهات فى سفح جبـل فخيـل إلينا أنها قريبة [1] • وكان وصولنا إلى المرسى وقت الزوال أو قبله فلما ظهرت لنا المدينـة أحببت المشى اليها والمبيت بها ، وكنت قد كرهت صحبة أهـل

---

(١) المسافة بينهما على خط مستقيم تعادل ١٣ ميلا •

المركب وسألت عن الطريق اليها ، فأخبرت بوصولى اليها فى العصر ، وصحبنى خضر الهندى ، وتركت أصحابى بالمركب ليلحقوا بى فى غد ذلك اليوم . وأخذت أثوابا كانت لى فدفعتها للدليل ، وحملت فى يدى رمحا ، خوفا من استيلاء الدليل على الأثواب ، وصحت تنبؤاتى عن نيـة هذا الدليل فى الاستيلاء على الأثواب ، وانه أراد أن يغرقنا فى البحر ، ولكننا كشفنا لعبته ، وأظهرت له الحزم ، وكنت أهز الرمح للتخويف ، فهابنى ذلك الدليل ، ثم خرجنا إلى صحراء لا مـاء فيها واشتد بنا الأمر ، فبعث الله لنا فارسا مع جماعة من أصحابه ، وبيد أحدهم ركوة مـاء فسقانى وسقى صاحبى ، ولم نزل كذلك حتى الصبح ، ثم خرجنا إلى الطريق ، فوجدنا الناس ذاهبين بالمرافق إلى المدينـة ، فبعثت بالدليل ليأتينا بمـاء .

ووصلنا بعد ذلك مدينة قلهات ونحن فى تعب شديد ، وكنت قد ضاقت نعلى على رجلى حتى كاد الدم يخرج من تحت أظفارها ، فلمـا وصلنا باب المدينة كان ختام المشقة أن قال لنا الموكل بالباب : لابد أن تذهب معى إلى أمير المدينـة ليعرف قضيتك ومن أين أتيت ، فذهبت معه ، فرأيت الأمير رجـلا فاضلا حسن الخلق ، فسألنى عن حالى ، وأكرم وفادتى .

ومدينة قلهات على الساحل ، وبها سـوق كبيرة . وبها مسجد حيطانه بالقيشانى ، وهو مرتفع ينظر منه إلى البحر والمرسى . وهو من عمارة الصالحة بيبى مريم ، ومعنى بيبى عندهم الحرة . وأكلت بهذه المدينـة سمكا لم آكل مثله فى إقليم من الأقاليم ، وكنت أفضله على جميع اللحـوم وهم يشوونه على ورق الشجر ويجعلونه على الأرز ، والأرز يجلب إليهم من الهند ، وهم أهل تجارة ومعيشتهم مما يأتى إليهم من تجارتهم فى البحـر الهندى .

وبمقربة من قلهات قرية طيبى (تسمى الآن طيوى) واسمها على نحو اسم الطيب إذا أضافه المتكلم لنفسه ، وهى من أجمل القرى وأبدعها حسنا

ذات أنهار جارية وأشجار ناضرة وبساتين كثيرة ، ومنها تجلب الفواكه إلى قلهات ، وبها الموز المعروف (بالمروارى) وتعنى بالفارسية در الجوهر ، وهو كثير ، وبها أيضا التنبول لكن ورقته صغيرة ، والتمر يجلب إلى هذه المناطق من عمان •

قصدنا بلاد عمان ، فسرنا ستة أيام فى صحراء ، ثم وصلنا عمان فى اليوم السابع ، وهى خصيبة ذات أنهار وأشجار وبساتين وحدائق ونخل وفاكهة كثيرة مختلفة الأجناس ، ووصلنا إلى قاعدة هذه البلاد (العاصمة) وهى مدينة نزوى ، وهى مدينة فى سفح جبل تحف بها البساتين والأنهار ، وعند تناولهم الطعام يأتى كل فرد بما عنده من طعـــام ويجتمعون لتناول الطعام فى صحن المسجد ويأكل معهم الحاضر والقادم ، ولهم نجدة وشجاعة ، والحرب قائمـــة فيما بينهم ، وهم إباضيو المذهب •

وسلطان عمان عربى من قبيلة الأزد بن الغوث ، ويسمى بأبى محمد بن نبهان ، وأبو محمد عندهم اسم لكل سلطان يحكم عمان ، وعادته أن يجلس خارج باب قصره فى مجلس هنالك ، ولا صاحب ولا وزير ، ولايمنع أحـــد من الدخول إليه ، ويكرم الضيف على عادة العرب ، وله أخلاق حسنة ومن مدن عمان مدينة أزكى ، لم أدخلها ، وهى على ماذكر لى مدينة عظيمة ، ومنها القريات وشبا وكلبا وخور فكان وصحار ، وكلها ذات أنهار وحدائق وأشجار ونخل وأكثر مواطنى هذه البلاد فى عمالة هرمز •

وإلى الجهة الشرقية من صـــور توجد سلسلة من التلال المنخفضة ، فيها جرف سمى رأس خرابة بينما يقع على بعد ستة أميال قدما رأس شيعة عند فتحة واد يجرى إلى مسافة بعيدة مكونا عدة غدران ، وهو واد غير مأهول بصورة دائمة ، وانما يرتاده أو يأوى اليه الرعاة ليطلقوا خرافهم ونعاجهم ترعى •

ثم بعد مسيرة خمسة أميال نأتى خور جراما ، وهو خـــور كبير وعميق له مدخل طويل ضيق ومتعرج بعرض مائة وخمسين ياردة ، حيث ينفتح على

حوض واسع • وطول القناة قرابة ميل واحد ، ولكن التيارات الهوائية التى تهب عليه تجعل دخول السفن إليه صعبا إلا فى أوقات الرخاء ، وبمجرد أن تدخله السفينة فإنها تجد نفسها فى مياه هادئة ، وترتاد هذا الخور السفن الشراعية الكبيرة من طراز « البغلة » حيث تنتظر هناك بعض الوقت قبل أن تقلع فى رحلاتها إلى الهند أو زنجبار • وفى الطرف الجنوبى من الوادى توجد بقايا قرية تسمى لبيد ، كانت تستوطنها سابقا قبيلة الموالك ، وعلى الناحية الغربية بعض الأكواخ وخمائل المانجو وخور جراما هذا هو كورودامون البطليموسى ، وقد عرفه الإغريق وجابوه قبل ألفى سنة عندما كانوا يلجأون إليه قبل أن يستأنفوا رحلاتهم إلى الساحل المواجه • وهذا الخور يتبع الموالك الذين يعتبرون وادى شيعة الحدود القبلية بينهم وبين قبائل بنى بوعلى • وقريبا منه جدا خور حجره ، وهو خور محمى صغير بمدخل ضيق يقع بين ضفاف عالية ، ويمتد نحو ميلين ، إلا أنه جاف فى الجزء الضحل ولا يستخدم فيه إلا مراكب « البدن » لأنه لايوجد فيه عمق مائى يصلح لرسو السفن الكبيرة •

نصل الآن إلى رأس الحد ويسميه الأوربيون رأس فينيستير حيث يتجه الساحل جنوبا • وهو منخفض جدا لأنه منطقة رملية ، وطوله ثلاثمائة ياردة ، وفيه قرية تسمى بلد رأس الحد ، وفيه حديقة نخيل وقلعة بها ثلاثة بروج ، ويسمى سكانها بنى وينى لأنهم من قبائل شتى لايقلون عن ثلاثة هى بنى مالك ، وبنى غزال ، وبنى مهرة ، والأخيرة تمت بالصلة لقبائل المهرة المشهورة ، وخلف القرية سهل مربع قطره ميلان أو ثلاثة أميال • وابتداء من رأس الحد ينحرف الساحل عموما فى اتجاه جنوبى غربى حتى رأس شجر الذى هو نهاية حدود السلطان ، وهى مسافة ستة آلاف ميل ويشكل سلسلة من الخيران الرملية ، وهى خالية من أى ميناء أو مرفأ ، ولما كانت الصحراء الكبرى يحدها البحر ، فتوجد فيها بعض معالم الحياة • وجنوب رأس الحد تقع منطقة القطنة التى تستوطنها قبيلة الموالك ، وأسفل هذه المنطقة وعلى بعد سبعة أميال من الرأس يقع

رأس الخنيز ، وهو جرف منخفض ويشكل الطرف الشرقى الأقصى لشبه الجزيرة • وبالقرب من هـذا الرأس وعلى بعد عشرة أميال من رأس الحد يقع جبـلان لهما أهميتهما ، وهما متلاصقان تقريبا ، ولكنهما منفصلان وبارتفاع واحـد (٨٥٠ قدما) ويشكلان علامة حدود مميزة • وهما على شكل زاوية ، ويسميان جبل صفان ولعلهما كمـا يرى كارتر مـن طبقة بركانية •

ووراء رأس الخيتر تقع رأس الخبّة وخيسة الجيرة ورأس الدفع وهذه المناطق تتبع ولاد حربى ، وحتى رأس الخبة التى تقع على بعد عشرين ميلا من رأس الحـد يمتد الساحل شمالا وجنوبا وهو صلب وصخرى •

النقطة التالية هى رأس الرويس الذى يعتبر من الناحية الجيولوجية هاما ، والجروف الصغرى منه تتكون من الجير الأصفـر وترتفع نحـو ١٠٠ قدم مع طبقات أفقية • ورأس الرويس شأنه شـأن رأس الجنبة يتبع قبائل الجنبة الذين لهم قرية كبيرة فى الرأس الأخـير • بعـد رأس الروميس ، تأتى أم الروميس التابعة لبنى بو على ثم سويح بنى بو على ، وتميزه صخرة ضخمة تؤدى إلى منطقـة داخلية منخفضة ، وكان المـاء يغمرها سابقا •

وبين رأس الروميس ورأس قميلة ، وهى مسافة تمتد اثنى عشر ميلا الى الجنوب الغربى يقع الرأس الصغير الذى يسمى رأس الصليب وقد أخذ هذا الاسم من الصليب الصخرى الموجـود على أحد المقابر البرتغالية • ورأس قميلة رأس رملى منخفض على جبل عمودى يقع خلفه ويسمى بنفس الاسم ، بالإضافة إلى قرية كبيرة تقع على بعد ميل إلى الشمال وتخص الجنبة • ويقال إنه توجد فى هذا المـكان خزانات مـاء كان البرتغاليون أنشأوها على الساحل وغير بعيد من هذه البقعة •

بعد أن نجتاز قرية عجيصة التابعة للجنبة نأتى بعد مسيرة عشرة

أميال إلى الأشخرة وهى بلدة سكانها نحو ألف نسمة ، وتخص الجعافرة المتفرعة من بنى بو على • وتقع الأشخرة بالقرب من البحر ، وبعض مبانيها من الحجر ولكنها متفرقة عن بعضها البعض ، وفيها برجان ، ويملك أهلها ثلاثين مركبا من طراز البدن ، بين أحد الشعاب البحرية المنخفضة • وفى سنة ١٨٢٠ اغتيل مترجم السفينة ميركرى التابعة لشركة الهند الشرقية فى هذا المكان ، وقد نتج عن هذا الحادث تسيير حملتين عسكريتين ضد هذه القبيلة تأديبا لها • كما أنه فى عام ١٨٦٤ تحطم مركب كان قادما من الهند بالقرب من هذا المكان ، وقام سكانه العرب بنهب محتوياته والاستيلاء عليه • وعلى أية حال فقد عومل ركابه الأوربيون معاملة حسنة وأرسلوا إلى مسقط • والطعام الذى قدم لهم أثناء الطريق هو البلح ولبن الإبل ، مما لم يوافق معدتهم وتمت معالجتهم بالكى وهو العلاج البلدى المعمول به هناك ، وبالتالى فقد وصل البحارة إلى مسقط وكان جسمهم مرقطا كجسم الفهد • وفى عام ١٨٧٤ قام الجعافرة بالاعتداء على إحدى السفن الهولندية فى جزر كوريا موريا ، ولكن المعتمد السياسى توجه على الطراد فيلو ميل للحصول على تعويض من رجال القبيلة وقد رفضوا فى البداية تسليم الجناة ففرضت عليهم غرامة لم يدفعوها إلا بعد أخذ ثمانية رهائن من رجالها •

من هنا حتى اثل الطين فإن الساحل مقفر وغير مستو ويتبع قبيلة الجنبة • وأول بروز نصل إليه رأس جفان ثم رأسين آخريين هما رأس سارق ورأس مسقلة ، ثم بعد ذاك نصل إلى رأس جبش أو قرون على بعد ثلاثين ميلا من الأشخرة • وهذا رأس أسود ارتفاعه مائة قدم تقريبا من تكوين بركانى يضم الديورايت والهوربليد واليوفوتايد وعليه برج قديم على قمته وقرية صغيرة على الناحية الجنوبية الغربية ، وعلى الجهة الشمالية من رأس جبش يوجد خور صغير كان فى الماضى موصولا بخور مربع قطره ميلين ولكنه جف الآن ويرتفع اثنى عشر قدما عن سطح البحر • ومن هذه النقطة يمكن أن نلقى النظرة الأخيرة على جبل جعلان فى أقصى الطريق

الغربى لسلسلة الجبال العمانية الكبرى ، والذى يبلغ ارتفاعه فى طرفه الغربى ألفى قدم بعيدا عنه بخمسين ميلا • وكثير من المناطق على الساحل تحمل أكثر من اسم واحد يستخدم بعضها البحارة والبعض الآخر لسكان البدو المقيمين على السواحل مثل جبل رأس عشرين الذى يعرفه الملاحون برأس شبيلة •

ومن رأس جبش إلى رأس عشرين أو رأس شبيلة توجد رقعة أرض مساحتها خمسة وأربعون ميلا رملية وصخرية ، مع وجود أعشاب أو أكمات برية ، وما عدا ذلك فهى منطقة جدباء ، بينما المناطق الواقعة عبرها هى رأس هانو أو قرون واثل الطين أو شرخ ، وتقع فى منتصف الطريق بينما تعرف بين الملاحين عموما باسم البطين • وهذا المكان المسمى شرخ والذى يبعد ٢٢ ميلا عن رأس عشرين كان يستخدم قديما فى تفريغ شحنات الرقيق لنقلها من هناك إلى جعلان •

وإلى الغرب من شرخ باثنى عشر ميلا تقع احدى قرى الصيادين من بدو يال وهيبة • ورأس عشرين أو رأس الشبيلة وهو بمثابة صخرة منخفضة وتضم قرية صغيرة ليال وهيبة تبعد قليلا عن الساحل •

ومن هنا يبدأ شكل الساحل يتغير إذ تغوص الأرض حتى سطح البحر ، وتقع ابتداء من هذا الرأس غربا سلسلة من كثبان الرمال البيضاء ارتفاعها مائة قدم ممتدة نحو الداخل • وعلى بعد خمسة عشر ميلا إلى الجنوب الغربى يقع رأس كليت وشيحه البحار ثم يليه رأس محمد بن ماجد •

ويشكل رأس كليت المدخل الشمالى لقناة مصيرة الخطرة ، والتى تعزل الجزيرة عن الأرض الأم ، بينما يقع المدخل الجنوبى عند رأس أم الشيوع أو مسيسيح على بعد أربعة وثلاثين ميلا ، بينما يقع على بعد ثلاثة أميال من رأس كليت جزيرة صغيرة تسمى جزيرة معاول • وأمام جزيرة

مصيرة تنخفض الأرض الأم إلى حد لا تكاد ترتفع عن سطح البحر وتغطيها تلال من الرمال • بحيث أن الرمال فى بعض الأجزاء دقيقة لدرجة يتعذر إدراكها • وللقناة معدل عمق قدره عشرة أميال وهى شديدة الضحولة ويصعب على السفن الكبيرة أن تمر فيها •

إن مصيرة هى أكبر الجزر العمانية ، غير أن هناك جزيرة أخرى اسمها (سقطرة) تقع فى البحر العربى ويبلغ طولها ثمانية وثلاثين ميلا ونصف ، بمعدل عرض ستة أميال غير أن العرض الأقصى هى تسعة أميال ، والعرض الأدنى هو أربعة أميال ، والسلسلة الجبلية لهذه الجزيرة والتى تشكل عمودها الفقرى يبلغ ارتفاعها ٦٢٩ قدما من جبل مغرب الواقع على طرفها الشمالى ، ثم يتناقص هذا الارتفاع تدريجيا من طرفها الجنوبى حيث لايزيد على نصف الحد الأقصى للارتفاع ، ومظهر هذه السلسلة ليس أكثر من كتلة عارية من الصخر تقطعها من حيز واحد رقع رملية خاوية من أى نبت ، وتمثل مشهدا جافا مقفرا • وطبيعة هذه السلسلة بركانية ، وتتألف من حجر الحية والديورايت شبيه بتلك الأنواع الموجودة فى جبش ومسقط ، غير أنه يوجد فيها الكثير من الجير الأصفورى [1] • ولاتزال توجد بقايا أفران صهر الرصاص والنحاس التى كانت تعمل فى العصور القديمة وتم اكتشافها •

ويبلغ سكان مصيرة ألف نسمة ، وينتمون إلى قبيلة الجنبة ، ويشغلون أربعة قرى كبيرة ، وثلاث أو أربع قرى صغيرة ، هى أم رصاص ، وصافيز اللتين يوجد فيهما برج مراقبة ، وحكيم والدوا ، وهما أكبر القرى ، وتضم بعض المزارع ، وبعضها مزارع نخيل وسكانها خمسمائة نسمة • وفى هذه القرية يقيم شيخ الجزيرة ، ويعمل سكان الجزيرة فى صيد الأسماك وفى تربية بعض الحمير شبه المتوحشة التى تباع فى صور وغيرها من

---

(١) الأصفور هو : بقايا الحيوانات المتحجرة تحت الأرض .

المناطق ، ورغم أن هـذا النوع من الحمير ليس كبيرا ، غير أنها قوية وتتحمل العمل الشاق غير أنها متوحشة •

ويشير هاملتون إلى أن أهالى هذا الساحل سحرة ، والدليل على ذلك أنهم فى عام ١٦٨٤ توجهت سفينة إسمها مرشنت ديلايت من لندن تحت إمرة القبطان ادوارد سى إلى شاطىء جزيرة مصيرة ولكنها ارتطمت على بعض صخـور الساحل ، وفى الصباح شاهـد بحارتها تجمعا لعرب الساحـل بالقرب منهم ، وقد سبح العرب إلى السفينة وجلبوا معهم حبلا لشـد السفينة وطلبوا من البحارة التفاهم ، ونتيجة لذلك تم الاتفاق على تقسيم حمولة السفينة والأمـوال التى فيها بين العرب والانجليز بالتساوى وعلى أن يتم نقل البحارة الانجليز مع حصتهم سالمين إلى مسقط • وقد عومـل الانجليز معاملة حسنة كريمة ، وتم تنفيذ الاتفاق من جانب العرب بمنتهى الأمانة • والسبب كمـا رواه العرب للمترجم هو كما يلى :

« انه قبل ثمانية أيام من تحطم السفينة تنبأ أحـد الزهاد أو الأولياء بأن سفينة سوف يجرفها البحر إلى الشاطىء وطلب الولى من الأهالى أن يتجمعوا على السـاحل لمساعدة البحارة والتنازل لهم عن نصف الحمولة • وهكذا تحققت نبوءة الولى ونفذت توصيته بمنتهى الأمانة » •

وجنوب الجزيرة يقع خليج مصيرة الذى يسميه عرب عمان « البحر الجدرى » وإلى الجهة العليا من الخليج تقع غبة حشيس ، وهو خـور ضحل صغير يضم ثلاثة جزر صغيرة أو مداخل هى محوث ورج وابانا • وقد اكتسب هذا الخور اسمه من العشب الذى ينبت عليه فى المناطق القريبة منه وبكثرة • وعلى بعد ميلين إلى الشمال الشرقى من محوت يوجد خليج صغير تصب فيه الأودية التى تنبع من مرتفعات الجبل الأخضر ، وهذه الأودية هى كلبوة عندام والأثلى وحلفين وكلها تتجمع لتصب مياهها فى هذه البحيرة فى فصـل الفيضان •

وبين غبة حتش وقناة مصيرة تقع شبه جزيرة بحر الحكمان والذى يعتبر رأس زوينى طرفه الجنوبى الغربى وأم الشيرع طرفه الجنوبى الشرقى ، وبالقرب من الأخير يقع خور الملح ، وهو بحيرة تستخرج منها كميات كبيرة من الملح تصدر إلى زنجبار .

وتعتبر جزيرة محوت المركز التجارى الرئيسى فى هذا الجزء من الساحل وهى منطقة رملية منخفضة لا أثر لأى نبات أو يابس فيها عدا مزارع المانجو التى تغطى ثلثيها ، ومنطقة النزول تقع على الجانب الشمالى الشرقى ، غير أن غابات المانجو تحجبها عن الأنظار . ولايوجد فيها بيوت من حجر ، وأكواخها التى يبلغ عددها مائة وخمسون كوخا هى عموما بيضاوية أو مستديرة الشكل ، وهى من عيدان المانجو والقصب ، ويبلغ مجموع الذين يقيمون فى هذه الأكواخ من أربعمائة إلى خمسمائة ساكن . وماء هذه الجزيرة مالح جدا ، ويتم جلب مياه الشرب من آبار تقع على بعد أربعة أميال منها . ويقوم فى هذه المهمة الجوارى ويقمن بجلب الماء فى قرب أو جرار . ويتم تخزين هذه المياه فى براميل من الخشب ، يتم وضعها فى مناطق ظليلة .

وإن حركة المد والجزر فى محوت واسعة ويصل مداها إلى ثمانى أو تسع أقدام . ويستوطن الجزيرة بالمشاركة أفراد من قبيلة الجنبة والحكمان ، غير أنه يوجد بالاضافة إلى تلك القبيلة بعض العوامر ويال وهيبة . وإلى الشرق تمتد مناطق الحكمان حتى موطن يعيش فيه محمد بن ماجد فى يوجه حيث يجوب أفراد هذه القبيلة الصحراء بجمالهم وماشيتهم ، ويصل عددهم إلى ٣٥٠٠ فرد وهم فقراء ، بينما يقيم يال وهيبه إلى الغرب من غبة حتش وتمتد مواطنهم حتى حمراء النفور .

ومع أن مظهر محوت لا يوحى لأحد بالأهمية إلا أنها ميناء تجارى نشط ومزدهر ، وسكانها موسرون . حتى أن نساءها يرتدين الحلى الفضية

بكثرة ، وتتميز محوت بكونها الميناء التجارى الوحيد بين رأس الحد وظفار ، فضلا عن أنها أقرب ميناء إلى زنجبار ، ثم أنها منطقة حرة . والبلدة التى تتبادل معها محوت تجارتها عموما هى أدم وتبعد ١٢٨ ميلا عنها وتستغرق رحلة القوافل إليها خمسة أيام ، وأثناء الطريق التى تقطعها القافلة يوجد ثلاثون مكانا أو أكثر للتزود بالماء والعلف للحيوانات . كذلك فإن محوت لها علاقات تجارية إلى حد أقل مع أزكى وجعلان . بينما تجارة الرقيق فى هذه المنطقة تكاد أن تكون قد توقفت نهائيا .

وخلال الأيام الذهبية لتجارة الرقيق كانت محوت أكثر ازدهارا وأكثر سكانا منها الآن ، نظرا لأنها كانت ميناء أكثر أمانا وملائمة لإنزال شحنات الرقيق من حيث كان يتم إرسالهم إلى أدم .

وواردات محوت هى الحنطة والأرز والأقمشة والخزف وغيرها من مستلزمات الحياة العربية ، أما صادراتها فهى البلح وزعانف القرش (وكان هذا يشحن إلى بومباى ، ثم منها إلى الصين) ، وحواصل الأسماك وعظام السلاحف والقديد والملح والاسقمرى .

فى يوم ٢١ سبتمبر ارتطم الطراد الأمريكى (بيكوك) وكان يقل المستر روبرت المبعوث الأمريكى الخاص إلى مسقط بشعب مرجانى بالقرب من محوت غير أنه أمكن انتشال الطراد بعد أن أسقط نصف مدافعه فى البحر (وكان الطراد يقوم بعمليات سبر للأعماق امتدت مسافة تزيد على أربعين ميلا قبل أن يرتطم) وقد خيب ذلك أمل العرب الذين كانوا قد تجمعوا على الشاطىء انتظارا لارتطام السفينة للاستيلاء عليها وعلى حمولتها . وفى نوفمبر ١٨٨٣ قام الطراد الملكى البريطانى وكان فى طريقه إلى ظفار بزيارة محوت وبقى راسيا فيها يومين .

وإذا واصلنا السير عبر الساحل من غبة حشيش الذى يعتبر بمثابة طرفه الغربى فإننا نصل إلى غبة ورأس بن ثرت ، الذى يقع جبل

شربتات على بعد تسعة أميال منه إلى الداخل ، وارتفاعه ٤٨٠ قدما ، بينما يوجد خلف رأس بن ثرت غبة بنى سراب ، وتبعد الأخيرة ٢٨ ميلا عن رأس عبابه • ويقول كارتر عن رأس سراب أن صخوره الحدية بارزة من ثنايا تلال الرمال وبعضها مغناطيسى وسميك ولونه رمادى •

ثم على بعد عشرة أميال غربا يقع رأس صغير يسمى رأس أركيت ، وعلى بعد أربعة أميال أخرى من هذا يقع رأس نحريز ، وهو رأس شديد التحدر ، ارتفاعه ٤٦٥ قدما ، والجرف هنا وإلى مسافة ما شديد الانحدار ، وأخيرا نصل إلى رأس سديره ، ثم بعده إلى السويد ، وهى قوية صغيرة تابعة ليال وهيبة •

وأمام هذا الرأس وعلى بعد أربعة أميال نحو البحر تقع جزيرة حمراء الغفور وترتفع ٣٢٠ قدما وطولها ١٢٠٠ قدما ، وترتادها جميع طيور النورس والأطيشن ، وتغطى أرضها طبقة من السماد الطبيعى من ذرف الطيور •

ويتحدث كارتر عن هذه الجزيرة فيقول بأن العينات التى أخذها منها هامة ومثيرة ، ورغم أن أرض الجزيرة مسطحة إلا أنها مقسمة إلى عدة اتجاهات وتتكون من جير بركانى أبيض ، ومن الحجر الصوان الذى يصل عمقه إلى ١٥٠ قدما وتحته رواسب جيرية متحجرة ، ثم تحت هذه الرواسب طبقة من الصلصال الأبيض الضارب إلى الخضرة •

وبين رأس السديرة ورأس قريات ، وهى مسافة خمسة عشر ميلا ، تقع غبة قريات ، ثم بعد هذه الغبة توجد سلسلة من الجروف العالية تمتد حتى رأس مدركة ، الذى تتجمع عند نقطة التقائه بهذا الرأس عدد من الرؤوس ، وهى رأس منح ، ورأس خيسة اليرخ ، ورأس العينى ، والعرق ، ورأس مرقاص ، ورأس الدلة •

والسكان الذين يحتلون هذا الجزء من الساحل من شبه الجزيرة هم على خلاف مع قطاع عريض من البدو الرحل الذين يشتغلون بتربية الجمال ، ولكنهم جماعة مسالمة وفقيرة ، وعددها ليس قليلا وحسب ، وإنما يعانى أهلها من سوء التغذية وقلة الكساء والسلاح • ويمكن أن يعثر الإنسان على عدد من القرى الصغيرة ، غير أن سكان هذه القرى يقطنون فى العراء غالبا لايظللهم غير خيام من الشعر يقيمونها تحت أشجار الأكاسيا أو الأعشاب الطويلة • ويقال أن هذه الجماعات لاتمارس أى نوع من الزراعة ، وتعتمد فى حياتها على صيد الأسماك وتربية الماشية ، وطعامهم يتكون من السمك واللبن والبلح والأرز ، ويندر أن يحصلوا على الرغيف •

ونظرا لقلة القوارب عندهم فإنهم عموما يستعملون القرب المنفوخة فى تنقلاتهم ، كما أنهم يزاولون صيد أسماك القرش • ولعل سمك القرش هو أكثر الأسماك قيمة لديهم ، ويستفيدون من كل عضو من أعضاء جسمها وأطرافها •

وعند رأس مدركة الذى يبعد أربعين ميلا عن قريات ومائة ميل عن غبة حشيش ويشكل أقصى الطرف الغربى لخليج مصيره ، ينحرف الساحل بحدة فى اتجاه الغرب • ويسمى العرب بصورة خاصة رأس مدركة رأس جزيرة وهو ترجمة لفظة كيب ايسوليتا التى كان يطلقها عليه البرتغاليون سابقا • وهو بروز داكن اللون وتوجد جزيرة صغيرة بالقرب منه ارتفاعها ٤٨٠ قدما ، ويعتبره جميع الملاحين علامة ملاحية لرواد البحر • وعلى الجانب الشمالى منه يوجد نبع ماء عذب ، كما يوجد نبع آخر فى الشق الواقع بين رأس مدركة ورأس ذلة ، ويبعد ستة أميال • ورأس مدركة هو الطرف الشرقى لرأس ثلاثى غريب الشكل طوله ٩ أميال ، بينما يبلغ ارتفاع الطرفين الأخرين ، وهما طاقة أبوك ٣٣٣ قدما ، ويعتقد السكان العرب أن هذين الطرفين صناعيان ، وكان قد زارهما أبو المكارم الجنابى وأقام فى كهف قريب منهما •

وعلى أية حال فإن هذه التكوينات أمر طبيعى وأسبابها انفجارات بركانية ولها نفس الخصائص المماثلة سواء فى لونها الأبيض أو فى وجودها فوق أرضية واسعة وعند مشاهدتها من الجانب الشمالى فإن صورتهما تبدو وكأنها صورة لجامع تعلوه قبة بيضاء ، وإن التركيب الجيولوجى لهذا البروز تركيب غير عادى ، ويذكر كارتر تعليلا لذلك أنه يعود إلى انفجار بركانى وقع بين الصخور ، وبالتالى فإن شكل هذا الرأس يؤيد الفكرة التى تذهب إلى حدوث مثل ذلك الانفجار ، وعملية الامتداد لهذا الجرف ، والتى تتميز بالتناسق والشكل الأفقى بين كلا الجانبين تنقطع هنا بسبب وجود الصخور البركانية وانفصال طبقاته وتناثرها فى عدة أجزاء ، وتحولها إلى تركيبات وأشكال متعددة .

وبين رأس خشم وهو جرف عال شديد الانحدار ، ويشكل الطرف الغربى لكل من هذا الرأس ورأس طاقه أبوك ، يوجد خور صغير له ساحل رملى يسمى بندر جزيرة ، حيث يقيم بعض الصيادين الذين يركزون على صيد أسماك القرش .

وإلى الغرب من رأس خشم تقع غبة صوقرة وهى أكبر خور على هذا الساحل وطوله ٦٤ ميلا ، وهنا تتكرر التشكيلات الجيرية الموجودة فى حمراء التفور وغيرها من المناطق ، وتوجد فى الخور موارد مياه قليلة وأكواخ الصيادين الذين يقومون فيها بتمليح الأسماك ، واثنان من أحياء هذا الخور يسميان جديسة وعضيب والحى الأخير ، والذى يقع عند فتحة وادى العنينة هو الموقع الذى نزل فيه بحارة السفينة نايت أوف باث من قاربهم وهاجمهم العوامر الرحل ، وجردوهم من ملابسهم ، غير أن صيادا عربيا يدعى سليمان هو الذى أسعفهم وقدم لهم الطعام وقد وقع هذا الحادث سنة ١٨٨٤ . ويرتفع وادى العنينة عبر التلال إلى الشمال الشرقى من سويتره ، وهو واد بالطبع خاو من المياه إلا فى أوقات الفيضان . ويمكن بالحفر فقط العثور على الماء فيه . وقد وضع الدكتور كارتر علامة

مميزة عليه فى الخريطة التى أعدها • وأحدى قمم هذا الوادى والذى يقع خلف الخـــور تسمى جبل حرزيت ، والقبائل التى تسكنه هى العوامر ، والجنبة ، ويال وهيبة •

وفى خـــور صوقرة يوجـــد شعب مرجانى طوله عشرون ميلا ، وعرضه خمسة عشر ميلا ، ويسمى رج الجزيرة ، وهى إحـــدى العلامات المميزة للذين يرتادون الســـاحل ، وقد أطلق العرب اسمه على الخور كله • ويعتقد الملاحون أن هذا الشعب خطر على الملاحة إلى حد كبير وهم يتفادون دخوله بقدر الإمكان ، وخلال فصل الرياح الموسمية الجنوبية الغربية لا تقترب منه أية سفينة على الإطلاق لأن الأمواج تتكسر عليه بشـــدة فائقة • ويقول هينز الـــذى كان يشرف على عمليات المسح بأنه عانى من صعوبات بالغة فى عمليات المسح التى كان يقوم بها لذلك الجـــزء التعس من الساحل الواقع بين صوقرة وقشين ، إذ أنه خلال فصل الرياح الموسمية الشمالية الشرقية واجه باستمرار تيارات عنيفة ، وكانت سفينته تتأرجح ، ورغم ســـوء الأحـــوال الجوية فقد استطاعت السفينة بإصرار ضباطها ودأبهم على انجاز ذلك الجزء من المسح واجراء عمليات سبر الأعماق بلغت ٥٠٠ ميل فى أقل من شهرين • أما رأس صوقرة الذى يبلغ ارتفاعه ٦٢٢ قدما فهو بروز صخرى يتكون من طبقات جيرية أفقية وبمزاج من المواد الطباشيرية وأحجار الصـــوان • وقد ورد اسم هـــذا الرأس الذى يطالب به الجنبة فى « دليل ملبورن » وسماه برأس شانسلى • تفصل بين رأس صوقرة ورأس شربيتات مسافة ١٥ ميلا ، والساحل هنا عبارة عن جرف شديد الانحدار بمعدل ارتفاع قدره ستمائة قـــدم على الساحل • ويشكل رأس شربيتات مع رأس قرواو ورأس عيجة بروزا مثلثا غير متناسق بسعة ميلين فى طرفه الشرقى من خور كوريا موريا ، وله مقدمة شديدة الانحدار ، وهو كرأس قرواو ملىء بالكهوف والمغارات ، وبعضها كبير جـــدا ، وقد حفرها البحر تماما كتلك الكهوف الموجودة فى بيل بيورثلاند ، والبدو يرتادون هذه الكهوف

بين حين وآخر ، والارتفاع هنا هو ٨٠٠ قدم ، والساحل هنا يأخذ فى الارتفاع التدريجى أبتداء من [illegible] حشيش ، وفى أعلى القمة رأس عيجة ، وهو الاسم الذى يعرف به الطرف الغربى لرأس قرواو ، أقام السكان العرب متراسا من الأحجار الخشنة يراقبون منه الأفق انتظارا للسفن ، وبالقرب منه يقع وادى غزالة الذى لا يصب فى البحر وإنما يصب داخل بحيرة ضيقة متعرجة ، تقع داخل شق بين الصخور يسمى لقوق • وماء هذه البحيرة مالح قليلا عند طرف البحيرة الأسفل غير أنه زاخر بالأسماك وتؤمه أسراب طيور المـاء كالبط ومالك الحزين • وفى فصل الشتاء تزور قبائل الجنبة هـذا المكان مع عائلتهم غـير أنهم لا يجرأون على التوغل إلى الداخل ، بينمـا تلجأ السفن العربية إلى المنطقة الغربية من رأس قرواو ويسمى المرفأ بندر شربتيات ويقع على بعد ميلين شرقا •

وفى بعض القوائم بأسماء المناطق التى قدمها الشيوخ يتبين أن اسمى شربتيات وقرواو قد تغيرا ، فأصبح الاسم الثانى يطلق على الطرف الشرقى مما يبرر الاعتقاد بأن هذين الاسمين قد تغيرا فى العصر الحديث •

وإن الجزء الداخلى الواقع خلف الساحل الشمالى لخور كوريا موريا يقال عنه إنه سهل متعرج أو يعج بالنباتات الصحراوية وأنه غير خـاو من المياه ، ويشكل حدودا صحراوية غير مرسومة حيث تلتقى عنده جمـوع القبائل العمانية من الشرق والمهرة من الغرب ، وتختلط مع بعضها البعض • إن هذا الجزء من الربع الخالى كما هو معروف تماما ، هـو موطن سلالات الجمال الأصيلة التى تربى فيه • ولايوجد فيه سكان مستقرون وإنما ترتاده جماعات البدو الرحل التى تنتقل وفقا لتوافر المراعى وموارد المياه • أمـا فصائل الحيوانات التى تستوطنه فهى الحمير الوحشية والأرانب ونوعان من الظباء وبقر الوحش •

وعلى بعد ثلاثة عشر ميلا من عيجه تقع منجى ، وترتفع عن سطح

البحر بمقدار ٧٠٠ قدم ، وتضم بحيرة صغيرة ماؤها عذب ، ولكن الجروف فيما بين هذه الرؤوس تأخذ فى الانحدار من الجهة البحرية إلى حد ما .

بعد أن نمر على خـــور آخر طوله اثنى عشر ميلا تسنده من الخلف جروف عالية ، نأتى إلى رأس الشوماقية ، وهو الرأس الذى يشكل الطرف الشرقى لأحـــد البروزات الهامة ، وتمتد اثنى عشر ميلا ، ويعتبر رأس الجزينية طرفه الغربى وإن هذا الرأس العريض البارز والذى يبلغ معدل ارتفاعه خمسمائة قدم يسمى عموما جبل الشراميره ، وقد تكون بتجمع انفجارات صخرية بركانية ، وهو على نقيض صارخ للرواسب الفاتحة الألوان لطبقات الرؤوس الواقعة شرقا . ويرى كارتر أن هذا الحد الشرقى للمنطقة المرتفعة من جنوب شبه الجزيرة العربية ، والحد الغربى للمنطقة المنخفضة المعروفة بصحراء الأحقاف . ولا تقتصر أهمية رأس الجنبيزة على تكويناته أو تركيباته الجيولوجية فحسب بل هـــو المنطقة الفاصلة التى لايتجاوز حدودها قبائل الجنبة فى تحركاتهم نحو الغرب . وابتداء من رأس جنبيزة يمتد خور رملى منخفض نحو الغرب حتى مسافة خمسة وعشرين ميلا فى اتجاه رأس منتحب ، وهو قمة وعرة ويوجـــد سهل يقع خلفه ، كما يقع هذا الرأس أيضا عند مصب وادى ريكوت وشمالى غبة دوم على الزاوية الشمالية الغربية لخور كوريا موريا .

جزر كوريـــا موريـــا

تمتد هذه الجزر التى تتكون من مجموعة قمم عمودية منفصلة عن بعضها البعض لمسافة خمسة وثلاثين ميلا فى خط متواز مع وإلى الشرق من حاسكى ، وهى قمم لسلسلة جبلية يغطيها المـــاء ، وعلى الناحية الجنوبية من حاجز خور كوريا موريا والتى تبعد عن ساحله الشمالى أكثر من خمسة وعشرين ميلا .

والحاكسية هى أقصى جزيرة غربية بين المجموعة وترتفع خمسمائة

قدم عن سطح البحر ، وطولها يزيد على ميل ، وكانت سابقا مغطاة بطبقة كثيفة ، من السماد الطبيعى ، والذى زيل منذ ذلك الوقت .

أما السودة فهى الجزيرة الكبرى الثانية وطولها ثلاثة أميال وارتفاعها ١٣١٠ قدما ، وكانت مأهولة فى السابق ثم هجرها السكان .

أما الجزيرة الثالثة فهى الحلانية وهى أكبر جزر المجموعة ، والمأهولة الوحيدة فيها ، وطولها ثمانية أميال وقطرها ثلاثة وعشرون ميلا ، وكانت تضم فى سنة ١٨٨٤ ثلاثا وأربعين نسمة من السكان كلهم من المهرة . وهى جزر قاحلة ، وتتكون مثل حاسكى والسودا من صخور بركانية بوجه عام من الجرانيت الممزوج بالكوارتز والهربلند وغيره . أما تركيبة الطرف الشمالى الشرقى لهذه الجزيرة فإنه عبارة عن مسطح ضخم من كتل الصخور الجيرية والرواسب الحجرية التى ترتفع إلى علو ١٦٤٥ قدم ، والماء متوفر فى كل مكان من هذه الجزيرة ولكنه مالح .

وإن المخزون الكبير من السماد الطبيعى الموجود فى اثنتين من هذه الجزر حاسكى وقبيله ، تم اكتشافه أثناء عمليات المسح البحرى لهذا الساحل فى سنة ١٨٣٥ ثم فى السنوات التالية فوض الكابتن فريمانتل قائد السفينة الملكية البريطانية جونو بالتفاوض مع سلطان مسقط لشراء هذه الجزر ، ولكن السلطان السيد سعيد بن سلطان الذى رفض بيع هذه الجزر ، قدمها كهدية للحكومة البريطانية وقد عقدت معاهدة تنص على ذلك فى ١٤ يوليو ١٨٥٤ ، وقد اشتركت مؤسسة أورد هندسن أندهيز مع القبطان فريمانتل فى هذه الصفقة ، ثم بعد ذلك حصلت على عقد ايجار لتلك الجزيرة مدته خمس سنوات . وكان سمك السماد فى جزيرة قبليه ست أقدام وبمعدل عمق مقداره قدمان ، وقد قدر المجموع الكلى للسماد الموجود فى كلتا الجزيرتين بـ ٢٠٠ ألف طن .وفيما بين عام ١٨٥٥ و ١٨٦٠ وهو التاريخ الذى تم فيه نزح كل كمية السماد كانت جزر كوريا موريا مسرحا لنشاط

كبير ، فقد زاد عدد السفن التى كانت ترســو فيها على خمسين سفينة •

وفى عام ١٨٦١ تم إنزال كابل شركة البحر الأحمر وكراتشى فى جزيرة الهلانية ، وقيمت محطــة فيها ، غــير أنــه صرف النظر عن تلك المحطة سنة ١٨٦٢ بسبب فشل الكابل • وقد حال عدم وجود المياه فى الجزيرة دون قيام القراصنة الأوربيين الذين كان يعج بهم المحيط الهندى فى السنوات الأولى من القرن الثامن عشر من احتلالهم لهذه الجزيرة ، وإلا لاختاروها كأحسن قاعدة لمراقبة واقتحــام الملاحة التجارية القائمة بين الهنــد والبحر الأحمر •

والعرب يسمون هذه الجزر « جزر بنى خلفان » أما بين الأوربيين فانها تعرف بالاسم الذى أطلقه عليها الجغرافيون العرب ونعنى به جــزر كوريا موريا أو كمــا يسميه البعض جزر « فرتان مرتان » • أما بالنسبة لبنى خلفان فيذكر هلتون بأن زعيم أسرة بنى خلفان ويدعى الشيخ سعيد ابن عمر بن خلفان قد حاول جمع ثروة هائلة واتباعا كثيرين للاستيلاء على حكومة مرباط ، غير أنه اضطر بعد فشله إلى الانسحاب إلى جزيرة الحلانته وبعد فترة عاد الشيخ إلى الظهور فى الحوية القريبة من مرباط ، واحتفظ بسيطرته على كافة الجزر ، ولايزال خلفاؤه يزورون الجزر من وقت إلى آخر لجمع الزكاة ، ويبدو أن هذا الحق أصبح معترفا به من كافة القبائل فى هذه المنطقة • وقد انخفض عدد السكان إلى درجة كبيرة عن ذى قبل عندما زارها فى سنة ١٨١٨ رهط من سفن القراصنة التابع لرأس الخيمة •

أما الجزيرة الرابعة وهى قبليّه فتبعد اثنى عشر ميلا عن جزيرة الحلانبة ، وهى رأس جيرى ارتفاعه خمسمائة وخمسون قدما وطوله ميلان وعرضه ميلا واحدا • وفى هذه الجزيرة توجــد كهوف عديدة وتغطى أرضها طبقة كثيفة من السماد الطبيعى ، وأثناء عمليات نقل هذا السماد كان يقيم

فيها وكيل الشركة مستر ماكالمونت وكانت تقوم بحراسته احـدى السفن التابعة للأسطول الهندى •

أمـا أصغر جـزر كوريا موريا فتسمى جـرزوت وهى جزيرة من الجرانيت الأحمر وارتفاعها ٢٣٠ قدمـا ويسميها الملاحـون البرتغاليون رودوندو وتقع على بعد نحـو نصف ميل بين جزيرة الهلانية وجزيرة قبليـة •

الفصل العاشر

تاريخ ظفار وجغرافيتها

وصف لظفار والبريمى

لأسباب عديدة تستأثر منطقة ظفار رغم صغرها باهتمام الباحثين ، وعلى الرغم من أن أهميتها التاريخية قد عفى عليها الزمن ، إلا أنها تحتفظ ببعض الأهمية من خلال ما ورد عنها فى اللوحات القديمة ، باعتبارها تشكل الحدود الشرقية لأسرة القحطانيين ، ومن الشهرة التى اكتسبتها من كونها أحـد مصادر اللبان فى العالم ، وهو الذى كان يصدر منذ العهود الغابرة إلى كثير من الأقطار النائية فى العالم المعروف .

ففى الفصل العاشر من سفر التكـوين نقف على تقسيمات الجنس العربى من خلال أسماء أولاد سام ، فقد استولى أحد أحفاد هؤلاء الأبناء وهو قحطان على الجزء الجنوبى الغربى لشبه الجزيرة العربية ، ومن بين هؤلاء الأحفاد الثلاثة عشر الذين انحدروا من ذلك الجد المؤسس يمكننا التعرف على عدد كبير منهم بطريقة مرضية ، وموطن هذه الأسر كما جاء فى الفقرة الثلاثين هو ميشا ، وهو المكان الذى يقع فى اتجاه سفار ، وهو جبل يقع فى الشرق

وبالتالى فان اسم وأوصاف ظفار وهى التى تقع إلى الشرق مـن حضرموت تتطابق مع أوصاف سفار ، كما ورد ذكرها فى الإنجيل ، وقد جاءت الأوصاف متطابقة ودقيقة بحيث لا تترك أى مجال للشك أو التساؤل .

أما المخطوط السكندرى فى المتحف البريطانى فإنه يحدد بدقة أكثر

الاسم ، وهو سوفار ، مما يعنى أنه اسم أكثر شبها بالاسم العربى وهو ظفـــار .

وقبل الفترة التى تناولها الإنجيل بوقت طويل ، ورد فى السجـــلات المصرية القديمة اسم المـــادة الرئيسية التى تنتجها ظفار ، مما يعنى أن ظفار كانت ميناء مزدهرة وسوقا رائجا فى فترة مبكرة من التاريخ ، وأنها كما يذكر سبرنجر كان إنتاجها من اللبان محورا للتبادل التجارى .

ويعطينا الكتاب الجغرافيون الإغريق والرومان أمثال هيروديتس ، وسترابو ، وبلينى ، وديو دورس ، وبوليمى ، وغيرهم معلومات عن أرض اللبان ، ويحكون قصصا غريبة عن الأقوام الضخام الذين يحرسون مزارع اللبان فى تلك المنطقة ، فقد كان اللبان واحـــدا من أثمن وأغلى المنتجات . والواقع أن ظفار بلدا كانت تحوطها هالات من القصص الخرافية والروايات الغامضة ، فقد كان اللبان فى ذلك الزمان من المواد العطرية التى تستخدم فى المعابد ، وكان الطلب عليها كبيرا ، وكان يتم نقله بالبحر إلى جميع أركان العالم شرقا وغربا وشمالا .

ولقد عاصر المؤلفون الكلاسيكيون فترة نشـــوء مملكة حمير فى جنوب الجزيرة ، والتى لم تتورع بعد أن استولت على مقاليد السلطة من ضم ظفار اليها ، وبذلك الإجراء تمكنت من احتكار تجارة اللبان الرابحة ، وعلى أية حال فقد كانت ظفار بعيدا جـــدا عن المراكز الحميرية بحيث تعذر اتخاذها عاصمة للمملكة كما يعتقد البعض . أمـــا ظفار التى ألمح اليها المؤرخون العرب بوصفها مركز الحكم ومقر للحكام فقد كانت تقع بالقرب من صنعاء ، وهى إحـــدى المناطق الأثرية التى نوه عنها المؤرخ ينبهور .

وقد حاول عدد من الجغرافيين العرب أن يخلطوا بين ظفار وأخرى ، وأدلوا بمعلومات غير دقيقة عنها ، إلا أننا نعلم علم اليقين أن ثمة مدينتين بنفس

الاسم تعرف إحداهما بظفار آل زيد والأخرى بظفار الساحل ، والتى هى الآن محور حديثنا ، فقد سقطت الأولى بنهاية الأسرة الحميرية فى القرن السادس من عصرنا أى قبل وقت قريب من ظهور النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن عمرها يتعدى أكثر من ستة قرون على وجه التقريب ، بينما ظفار الساحل من ناحية أخرى استمرت فى التوسع والازدهار ، وبقيت لآلاف السنين ميناء مزدهرا كثيف السكان ، غير أن تاريخها القديم قد تلاشى من الذاكرة ، ولم تسلط عليها الأضواء إلا بعد انتشار الإسلام فى الجزيرة العربية ، وحتى بعد ذلك فإن الأضواء التى سلطت عليها كانت باهتة وعابرة بحيث لانستطيع أن نرسم صورة مستفيضة عن أحداثها التاريخية •

وبعد عامين من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وقيام القوات التى أوفدها الخليفة أبو بكر إلى عمان بقيادة عكرمة لإعادة تثبيت الدعوة التى قام بها بعض الخوارج فى بعض الأقاليم العمانية •

وصل عكرمة إلى ظفار قادما من عمان بعد أن تمكن من إخماد نار الفتنة الدفينة فى المعركة المشهورة التى دارت رحاها فى دبا ، وكان عكرمة قد ترك حذيفة فى عمان لإخضاع القبائل وتهدئتها ، وقد عبر الصحراء التى تفصل بين المنطقتين ، وسرعان ما نجح فى إعادة تثبيت العقيدة الاسلامية فيما بين المهرة وقبائل الأزد فى تلك المنطقة ، ثم زحف منها إلى حضرموت لفرض الطاعة والانضباط هناك ، وبعد أن تحقق له ذلك عين سعيد بن لبيد حاكما على الإقليم •

وخلال القرنين التاليين ترسخت جذور الدين الإسلامى ووسع الخلفاء المسلمون من رقعة امبراطوريتهم • وقد خلف عباس بن سعيد بن العاص كوال على اليمن جليه بن على عمير الذى فصله الخليفة فى سنة ٣٥ بعد الهجرة (٦٥٥ م) وعين بدلا منه واليا جديدا هو عبد الله بن عباس •

وبانتهاء حكم أسرة الأمويين فى سنة ١٣٢ هـ (٧٤٩ م) عين القائد العباسى الذى فتح اليمن ويدعى محمد أبو محمد ، محمد بن زيد واليا على الإقليم ويحتمل أن تكون سلطة ذلك الوالى قد شملت ظفار وحضرموت .

وفى بداية القرن الثالث الهجرى تم تعيين محمد بن زياد الذى اقترن اسمه بالثورة التى نشبت ضد الخليفة المأمون بعد توليه السلطة مباشرة سنة ١٩٨ هـ (٨١٣ م) والذى عفى عنه الخليفة وعينه أميرا على اليمن سنة ٢٠٤ هـ (٨١٩ م) وبعد استيلائه على تهامة بنى مدينة زبيد ، وجعل منها عاصمة لحكمه . واستطاع هذا بسياسته الشديدة أن يوسع من آفاق سلطته لتشمل حضرموت وظفار وغيرها من المناطق وعين عليها ولاة من اختياره .

وبعد استيلاء محمد بن زياد على ظفار مباشرة وصل إليها الأمير الهندى أمير كرانجانور شاريمان يارعل .

أما أسرة بنى زياد فإنها لم يكن مقدرا لها أن تدوم طويلا فى الحكم وكما يتضح فإنه فى عهد أبو جريش حفيد محمد بن زياد ثارت مناطق عديدة بما فيها ظفار على سلطته حتى إنه فى عام ٢٩٧ هـ (٩٠٠ م) مد القرامطة حكام اليمن فتوحاتهم إلى تلك البلاد .

وقد نلاحظ مما أشار إليه الاصطخرى الذى زار المنطقة فى الفترة المبكرة من القرن الرابع الهجرى بأن ظفار كانت تابعة لعمان . كما ورد فى « صفات جزيرة العرب » لأحمد بن يوسف الهمدانى المتوفى عام ٣٣٤ هو (٩٤٥ م) بعض الملاحظات عن قبائل هذه المنطقة كما نقلها الدكتور سبرنجر والتى يمكن أن نورد بعضا منها هنا :

« إن الأقوام الذين يقطنون المنطقة السفلى من جبال القمر هم من

بنى خنزريت ، وكان هؤلاء قد طردوا سكان ريسوت منها ، ثم انسحبوا إلى منطقة الغيث التابعة للمهرة ، واحتلوا بلدة حاسك ومرباط لفترة من الوقت ، إلا أن قبيلة ثفارة شجعتهم فيما بعد على استرداد ريسوت وطرد سكانها الخنزريت منها • أما زعيم الخنزريت محمد بن خالد فقد توجه بمعية قبيلته إلى الرضا التابعة لبنى ريام ، وهى فرع من قبيلة القمر استقرت هناك • أما السكان الأوائل لريسوت فهم البياسرة والتى كانت قبيلة حديد الأزدية تسكن بجوارهم • إلا أن قبيلة حديد قد اقصيت من جانب إحدى القبائل العربية التى كانت قد تزاوجت مع المهرة ، وإن الرجل الذى حكم المنطقة فيما بعد هو موسى بن ربيعة بن عبد الدار » •

وفى منتصف القرن الرابع من الهجرة ولفترة سبقت ذلك بعدة قرون وتحت حكم أسر حاكمة متتابعة عديدة لا نعرف شيئا عنها ، فإنه من المحتمل أن تكون هناك مدينة باسم مرباط ، وكانت عاصمة لإقليم ظفار • وكانت تقع على الطرف الشرقى للسهل الذى تقع عليه الآن قرية طاقة ، حيث لاتزال توجد آثار مدينة كبيرة كثيرة السكان • أما مرباط نفسها والتى تمثل المرفأ الرئيسى لرسو السفن ، والتى تحدث عنها كل الجغرافيين العرب الأوائل تقريبا فإنها تقع على بعد نحو عشرين ميلا شمال قرية مرباط الحالية ، والتى كانت على مايبدو مرسى خارجيا للسفن خلال مرحلة المونسون الشمالية الشرقية •

والمدينة القديمة تتوافر فيها مصادر وفيرة للمياه العذبة التى تنحدر من المرتفعات الجبلية وكان فيها ثلاثة خلجان كانت كلها مرافىء ومراسى للسفن العربية ، وقد أشار اليها كل من هينز وكارتر وبنت • وكان أكبر تلك المرافىء يسمى رورى ، ويمتد إلى مسافة ميلين تقريبا •

إلا أن مدينة مرباط القديمة والتى تميزت لقرون كثيرة بوصفها الميناء والسوق الرئيسية لتجارة اللبان ، فقد انتهت فجأة فى منتصف أو نهاية

القرن الهجرى الرابع عندما ظهر على المسرح مؤسسو حكم أسرة المنجوى ، واستولت على مرباط ، واستمر احتلالهم لها بعض الوقت ، ثم قاموا بعد ذلك بتدميرها ونقل العاصمة إلى ضفة أحد الخلجان الواقع على بعد عشرين ميلا تقريبا الى الغرب ، كما أنهم على ما يبدو أنشأوا فى موقع إحدى المدن القديمة مدينة أخرى فى نفس الموقع الذى يضم الآن الآثار والبقايا ، ويسمى البلاد ، وهى نفس المنطقة التى أفاض كارتر فى وصف معالمها .

أما ابن مجاور فيذكر لنا بأن الذين بنوا مرباط هم الفرس ، وأن آخر أسرة من الفرس حكمت المنطقة هى المنجويين ، وفى إطار هذا القول فإنه يشير بالطبع إلى البلاد التى ينطبق تصميمها وفنها المعمارى بالطابع الفارسى بشكل لا يسمح بالشك ، كما يدل ذلك إلى أن المنجويين قد نقلوا اسم وموقع عاصمتهم وأطلقوا على البلدة الجديدة اسم مرباط .

أما عن أصل المنجويين والأحداث التى اتسم بها حكمهم . ومتى ظهروا ، وإلى أين اتجهوا فإنها كلها أمور افتراضية نظرا لأن المؤرخين العرب لم يتطرقوا اليهم (ويقول كارتر بأن هذه الأسرة جاءت من بلخ) ويلاحظ أيضا أن تلك الأسرة الهامة قد تركت مؤثراتها العميقة على عقول ووجدان سكان المنطقة وذلك على خلاف أغلب الغزاة ، وبالتالى فإن مجموعات الأنقاض المبعثرة على الساحل كدليل على المدن القديمة التى أنشأوها إنما تعزى إليهم ، وإنه ليبدو شيئا غريبا حقا أن الاشارة إلى تلك الأسرة ضئيلة فيما بين المؤرخين ، فربما جاءوا من سيراف أو البصرة أو قلهات ، أما الاعتقاد بأنهم نزحوا عن مواطنهم الأصلية بسبب أعمال اضطهاد سياسية أو دينية الأمر الذى كان يقع كثيرا فإننا لم نتأكد منه .

ومن كتاب الكامل لابن الأثير نقف على معلومات أوسع عن ظفار من أى مؤرخ آخر ، فهو يذكر أنه فى عام ٤٩٠ هـ (١٠٩٦) توفى فى ظفار راشد بن

أحمـــد بن عبده الذى يمكن أن نأخذه كملك فى ذلك الوقت ، وبأن قبيلة القمر قد اتصلت فى عام ٥١٠ هـ (١١١٦ م) بعبد الله بن راشـــد تطلب مساعدة من أهل ظفار وقد قدمت لهم تلك المساعدة .

ويخبرنا الإدريسى بأن حاكم ظفار فى سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م) كان أحمـــد المنجوى ، وبأن ظفار فى ذلك الوقت كانت تابعة لعمان ، ويبدو أن مدينة مرباط التى كانت محمية عمانية فى ذلك الوقت قد تعرضت لعملية نهب وسلب من سكان جزيرة قيس ، وكان هؤلاء القراصنة يقصدون عدن . وفى ســـنة ٥٩٧ هـ (١٢٠٠ م) قام جنـــود من حضرموت بالزحف على ظفار ومحاصرتها لمـــدة خمسين يوما ولكنهم ردوا على أعقابهم .

فى سنة ٥٩٩ هـ (١٢٠٢ م) اغتيل هيبوب فى ظفار ، وكان واليا على ظفار فى ذلك الوقت ، على حـــد قول كارتر ، شخص يدعى محمد بن محمد . يعتقد أنه ابن المنجوى الذى اغتيل عام ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م) ، وربما كان هيبوب هو الأمير المنجوى الذى عقد معاهدة صداقة مع الحبوضى ، وكان هـــذا الأخير تاجرا ولكن الحبوضى الذى اغتصب الحكم فى سنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م) كما ذكرنا قام بإعدامه .

وهـــذا المغامر الذى أسس الأسرة الثانية كان يسمى أحمد بن محمد الحميرى الحبوضى وكان من أصل حضرمى ، وقد بدأ حياته كبائع ، ثم أصبح تاجرا وصاحب سفن . ويقال أيضا إنه كان رجل علم ومن سلالة مظهر ، كمـــا وصلتنا معلومات عن مغامراته ، وكيف أن أمير ظفار المنجوى قـــد منحه سفينة بعد أن فقد سفينته التى تحطمت ، كما حصـــل على سفينة أخرى من سيف بن اســـلام حاكم عـــدن . ويتحـــدث عنه ابن خلدون وابن الأثير وابن المجاور بأسلوب ممتع وقد أشاد هؤلاء بمواهبه التى هيأته ليتقلد منصب الوزير ، ثم اغتصابه الحكم فى نهاية الأمر عندما تم له خلع آخر حاكم من أسرة المنجوى .

ويؤكد العديد من المؤرخين العرب بأن الحبوضى قد أنشأ عاصمة أخرى ، بدأ العمل فيها سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) واستغرق بناؤها ثلاث سنوات وقد سماها باسمه ، وكان الدافع الواضح من عمله هذا هو أن العاصمة القديمة تبعد كثيرا عن الساحل ، وبالتالى فإن موقعها بعيد عن مرافىء السفن حيث يجعلها غير مفيدة ، وهذه القصة رغم أنها ترتبط بالظروف فإنها غير صحيحة • ورغم أن الحبوضى قد أقام تلك العاصمة إلا أنها بالتأكيد لم تكن مرباط الجديدة ، التى أنشأها المنجويون قبل ذلك بمائتى عام ، وكانت قريبة من البحر مع وجود خليج أو مرفأ عميق تحتمى به السفن • وكعربى لم يكن فى وسع الحبوضى إنشاء مدينة كمرباط أو كما كانت تسمى البلاد ، فالزخرفة والنقوش فى مبانيها والتصميمات الرائعة وطريقة بنائها والذوق الرفيع لأعمال الحفر والنحت كل ذلك لايوحى بأن له نظيرا فى شبه الجزيرة مما يدل على أن الذين أنشأوا تلك المدينة كانوا متفوقين حضاريا •

أما عن أحداث تلك الفترة من الحكم فلسنا نعلم شيئا عنها ، غير أن ابن مجاور يحكى لنا انه فى عام ٦١٦ هـ (١٢١٩ م) وصل بعض رجال البدو من اليمامة عبر الصحراء لبيع بعض الخيول ، وقد استقبلهم الحبوضى بالحفاوة والترحيب ، وعاد أولئك البدو من نفس الطريق التى جاءوا منها ، غير أنه لا يبدو أنهم عادوا مرة أخرى لزيارة البلاد ، فأسرة الحبوضى بقيت لأسباب لم تعرف منسية بعد وفاته من سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٧ م) وانتقل زمام السلطة الى غيره من الحكام ، غير أن ورثته حضروا فيما بعد مطالبين بتركته •

وقد أعقبه فى الحكم محمد بن على بن الحسن القلى الذى استمد لقبه من قلعه جلب ، وقد توفى هذا الرجل عام ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ م) ودفن فى رويات ويبدو أن رجلا من المنجوى قد خلفه على الحكم يدعى أبو بكر محمد ابن عمر الهزاز الذى قتل هو الآخر فى سنة ٦٥٢ هـ (١٢٥٤ م) ، وقد خلف أبو بكر ولدين هما محمد وعبد الرحمن وقد أختير وصيا عليهما أحمد بن على الظفارى •

وفى عام ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) استولى الأتراك على بغداد وسقطت الامبراطورية العربية التى كان يطلق عليها الخلافة الشرقية ، غير أن هذه البقعة النائية من شبه الجزيرة العربية لم تحس أو تتأثر بها ، سيما وأنه لم يكن من عادة الحكومة المركزية أن تتدخل فى شئون ممتلكاتها .

وفى العام التالى ٦٥٧ هـ (١٢٥٨ م) وعلى حد قول روس فى سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١ م) قاد سيد هرمز ركن الدين محمد بن أحمد الكاشى الذى كانت له أطماع عسكرية حملة الى قلهات ، ومنها زحف على ظفـــار . غير أن محمد أبو بكر تمكن من رده على أعقابه إلا أنه قام بعمليات سلب ونهب فى المناطق الساحلية ، وقد ورد هذا القول فى كتاب تاريخى عثر عليه فى ظفار . أما الحملة العسكرية نفسها فقد تعرضت على ما يبدو لكارثة فى طريق عودتها بسبب العطش والجوع اللذين فتكا بأفرادها حتى تقلص عددها الى ٥٠٠٠ فرد فقط .

وبعد بضع سنوات تمت استعادة مرباط أو الأحمدية عندما تمكن من احتلالها سالم بن ادريس الحبوضى الذى جاء من حضرموت بقوة واستولى عليها . وهذه الحادثة ربما وقعت فى عام ٦٧٠ هـ (١٢٧١ م) وكانت أسرة الرسولى هى التى تحكم فى اليمن وكان ملكها الملك المظفر يحاول توسيع مملكته عبر الأقاليم المجاورة وثبت سلطانه فيها .

ويخبرنا الخرزجى مؤرخ أسرة الرسوليين الذى ترجمت أعماله منذ وقت قريب وقام بها ردهاوس ، بأن الحجة التى اعتمدت عليها الحملة للاستيلاء على ظفار كانت على النحو التالى :

« لقد حدثت مجاعة رهيبة فى حضرموت مما حدا بحاكمها الى الاتصال بسالم بن ادريس ومقابل مساعدته تنحى له عن حصن شبام وغيره من الحصون مما جعل ادريس يتصور أنه باستيلائه على تلك المواقع قد أصبح

حاكم البلاد • غير أن أهل حضرموت تمكنوا من اعادة الاستيلاء على شبام ، وبذلك جردوا سالم بن ادريس مما كان يعتقد أنه أصبح ملكا له • وصادف أن الملك المظفر الحاكم الثانى لأسرة الرسوليين قد بعث برسول الى فارس ، غير أن السفينة التى سافر بها المبعوث تحطمت على مقربة من ظفار ، فرأى سالم الحبوضى فى تلك العملية الفاشلة مخرجا له ، فقام بالاستيلاء على كافة الهدايا الثمينة التى كان يحملها المبعوث لشاه فارس كتعويض له عما خسره فى حضرموت ، وعقابا عن هذه العملية تعرض سالم الحبوضى للتوبيخ من جانب الأمير الرسولى ، غير أنه تعذر تحصيل أى تعويض منه ، وبالتالى فقد صدرت الأوامر الى حاكم عدن ، شهاب الدين غزال بارسال قوة بحرية للهجوم على ظفار لاسترجاع أموال المبعوث بالقوة ، غير أن قائد القوة البحرية هزم خلال المعركة ، وجرت مطاردة أسطوله حتى مياه عدن • وأمام هذا الفشل جهز ملك اليمن الرسولى حملة أخـرى تحركت الى ظفار على ثلاثة أقسام ، اثنان عن طريق البر والثالث عن طريق البحر ، وقد دارت معركة كبرى بين الطرفين على السهل الواقع بالقرب من قرية عوقد القريبة من ريسوت قتل فيها سالم بن ادريس مع نحو ٣٠٠ من رجاله وتم أسر ٨٠٠ آخرين •

وفى يوم ٢٨ من شهر رجب عام ٦٧٧ هـ (١٢٧٨ م) وهو اليوم التالى للمعركة تم احتلال مدينة مرباط أو الأحمدية من جانب قوات اليمن ، وذلك باسم الملك المظفر • كما قام الأمير شمس الدين قائد الحملة بترحيل من بقى من أسرة الحبوضى الى زيد وعين نائبا وحاكما على المنطقة • وعند انتشار نبأ ذلك الانتصار فى الخارج بعث كثير من الأمراء بتهانيهم وهداياهم إلى الأمير ، وكان من بينهم ملك عمان قحطان بن عمر النبهانى الذى بعث بجوادين ونسرين ذهبيين •

أما المؤرخ الحلى فانه يقدم صيغة مغايرة لذلك الغزو فيقول ، بأن المجاعة التى أصابت حضرموت وهى السبب البعيد للحرب وقعت فى

سنة ٦٧٣ هـ (١٢٧٤ م) وأن الملك المظفر يوسف بن على قد بعث بالجيش فى سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م) بقيادة ابن الحابك ، بينما أرسل جيشا آخر بقيادة نجل الملك الثالث بطريق البحر وبأن القوتين التقيتا تحت أسوار المنصورة أو مرباط ، حيث نشبت معركة قتل أثناءها سالم بن أدريس ، ودخل الجيش المنتصر المدينة ، وعاث فيها سلبا ونهبا .. وعلى أية حال فقد صمد حمد بن ادريس بشجاعة فائقة مما أرغم الواثق بن يوسف على رفع الحصار عن البلدة والانسحاب الى زبيد مصطحبا معه غنائمه وأسراه . وفى العام التالى ٦٧٩ هـ (١٢٨٠ م) أرسل الملك المظفر قوة عسكرية أكبر لتحقيق هدفه ونشبت معركة دموية مكنت المهاجمين من اكتساح القلعة ووقوع موسى بن إدريس أسيرا فى أيديهم . وقد عين ملك اليمن نجله الواثق بالله كحاكم على ظفار ، وبذلك استمرت أسرة الرسوليين والتى بدأت منذ ذلك الوقت قرابة مائة وخمسين عاما .

وقد حدث فى أعقاب استيلاء الرسوليين على ظفار وربما سنة ٦٨٤ هـ (١٢٨٥ م) وصول المؤرخ الشهير ماركو بولو الى مرباط التى وصفها على النحو التالى :

« ظفار بلد عريق وجميل ، ويقع على منطقة تبعد مسافة ٥٠٠ ميل الى الشمال الشرقى من الشحر ، وسكانها عرب ، وهم يحترمون زعيمهم الذى يخضع لسلطان عدن لأن هذه البلدة لاتزال تابعة لعدن ، وهى تطل على البحر ولها ميناء جميل يتيح لحركة نشطة بين السفن ، ويقوم التجار بنقل أعداد كبيرة من الخيول العربية الى الأسواق ، ويربحون من ورائها أرباحا طائلة . وللبلدة قرى ومناطق كثيرة تابعة لسلطتها ، وهى تنتج كميات هائلة من اللبان ، وسوف أقص عليكم كيف يتم انتاج هذه المادة ، فأشجار اللبان تشبه أشجار التنوب الصغيرة ويتم شق شقوق فى مواضع عديدة فيها بالسكين ، ومن تلك الشقوق ينبثق اللبان ، وأحيانا يسيل اللبان من شجرته من تلقاء نفسه عند اشتداد حرارة الشمس » .

ومعلومات ماركوبولو توضح بجلاء كبير أن ظفار فى تلك الفترة كانت مركزا تجاريا مزدهرا كثيف السكان ، وأن محصولاتها من اللبان وهو المحصول الرئيسى كان أغلبه يصدر الى الخارج • وفى أيامنا هذه لا تصدر خيول من جنوب شبه الجزيرة كما أن عدد الخيول فى المنطقة الجنوبية منها قليل جـــدا •

وفى عام ٦٨٥ اجتاح ظفار اعصار مدمر وأحدث دمارا كبيرا فيها ، فأصاب مزارعها بالتلف ومات كثير من أهلها وأصيبوا بخسائر فادحة •

إن تسلسل الملوك اليمنيين فى ظفار خلال هيمنة الرسوليين عليها متناقضة وغير وافية حتى أن مؤرخى المنطقة أنفسهم لا يدلون بمعلومات يعتد بها عن هذه الفترة ، وجل ما يقولونه أن السلطان ابراهيم بن يوسف نجل الملك المظفر دخل مدينة ظفار فى يوم الاثنين من آخر يوم من أيام ذى الحجة ٦٩١ هـ (١٢٩١ م) وحكمها خمسة عشر عاما ، والاحتمال الأكبر أن السلطان ابراهيم بن يوسف الذى هو نجل الملك مظفر هو الواثق نفسه وأن والده هو الذى منحه حكم ظفار بعد احتلالها عام ٦٧٩ هـ (١٢٨٠ م) وهو نفس الشخص الذى تناوله الخرزجى وسماه الواثق ابراهيم وقد نستنتج من هذا القول أن الواثق ابراهيم حكم فترة امتدت خمسة وعشرين عاما وأنه توفى عام ٧٠٧ هـ (١٣٠٧ م) • ويبدو أن الواثق قد خلفه على حكم ظفار نجله أشرف ، إلا أنه بعد أن وصل خبر توليه الحكم الى أخيه مؤيد الدين النجل الثانى للملك مظفر أعد الأخير جيشا فى منطقة الشحر لشن هجوم على أخيه أشرف والاستيلاء على ظفار ، غير أن أخبار تلك الحملة لم يتكلم عنهـــا المؤرخون •

وفى سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٥ م) اجتاح ظفار اعصار آخر وأحدث دمارا واسعا فيها ، غير أن المؤرخ ابن بطوطة الذى كان فى زيارة ظفار فى نفس العام لم يشر اليها ، وهو يخبرنا بأن حاكم ظفار فى ذلك الوقت هو ناصر بن

الملك المغيث • وقد عاد ابن بطوطة الى ظفار فى عام ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ م) ووجد السلطان نفسه لايزال فى الحكم ومعلومات ابن بطوطه عن زيارته لظفار هامة جدا ، وقد ألحقت تلك المعلومات فى الطبعة الفرنسية المترجمة لرحلاته • وغير واضح ما اذا كان السلطان ناصر هو من أسرة الرسوليين أو انه حاكما عينه الملك ، ويبـــدو أن الأخـــير قـــد قضى معظم أوقاته فى العاصمة اليمنية وعين واليا لادارة السلطة فى ظفار ، وكان يزورها من وقت الى آخر لمجرد الحصول على الدخل •

وفى ختـــام القرن الهجرى الثامن أصبح الكثيريون ، وهم من القبائل الحضرمية البارزة أقوياء مما دفعهم الى شن غزو لظفار بقيادة أحـــد محاربيهم المشهورين الشيخ بدر بن الحبرلى واستطاعوا طرد حاكمها وتجريد أسرة الرسوليين من السلطة والاستيلاء على ذلك السهل الخصب ــ والملاحظات التالية مأخوذة من أحد الكتب التاريخية المحلية :

« فى منتصف شهر رجب ٧٩٦ هـ / ١٣٩٣ م تولى الأمير محمد بن أحمد القرا منصب والى الشحر خلفا لسعيد بن شماسه ، وفى شهر ذى الحجة من نفس العام اغتيل شهاب الدين أحمد بن عمر الجيرلى فى ظفار •

وفى العام التالى توفى الأمير ناصر الدين محمد بن عمر التریاقى الظفـــارى فى ظفـــار ، وفى عام ٧٩٨ هـ (١٣٩٥ م) دمرت منطقة السواقى والمحاليف كما أغتيل الشيخ الحبشى وابنه ، وتم الاستيلاء على الحصن المعروف باسم الإحســـاء • ومن ناحية أخـــرى خرج بدر الشهـــاب الجيرلى الذى عرف فيما بعد بالظفارى بجيش من حضرموت الى ظفار واستولى عليها بعد معركة مع التریاقى • وقـــد عاد الى البلاد فى شهر ربيع الأولى • وفى العام التالى ٧٩٩ هـ (١٣٩٦ م) شن بدر هجومـــا آخر على التریاقى فى ظفار وحاصرا البلاد ليوم واحـــد ، ثم توجه الى رويات متعقبا فلول قوات الرسولى فى انسحابها من المنطقة •

وبعـــد تسعة شهور وفى شهر رمضان من نفس العام جدد الوالى الرسولى شهاب أحمد بن الترياقى بالاشتراك مع ابن جدوان ضربهم فى محاولة لاسترداد المنطقة من بدر بن الجبرلى الذى كان يهمن عليها • وقد دارت المعركة على الطريق ، وهزم فيها الرسولى متكبدا خسائر فادحة بينما انسحب ابن جدوان مع رجاله البدو غورا الى المنطقة •

وفى العام التالى ٨٠٠ هـ (١٣٩٧ م) حضر العالم الدينى محمد بن حكم أبو كشير والى ظفار قادما من حضرموت وحقق السلام فيها ، ويضيف هذا المؤرخ أنه بعد مضى فترة من الوقت هاجم سعيد بن على العبد الشيخ محمد بن أبى بكر فى رويات وقضى على أفراد أسرته •

ويبدو أن الرسوليين قد عادوا فى شهر شوال فقاموا بمحاولة أخرى أنجح لاسترداد ظفار ، ونعلم أن سلطان المجاهد الواثق الظفارى قد دخل الشحر ، ومنها توجه الى اليمن لجمع جيش زحف به على ظفـــار واحتلها • غير أن المؤرخ لا يذهب الى أبعد من هذا الحد ، ولكننا قد نتصور أن النصر الذى حققه الرسوليون كان قصيرا . وأن الشيخ بدر ظل محتفظا بسلطانه على ظفار ، ويقال أن هذا الشيخ الذى يعرفه الكثيريون باسم بدر بو طوارق كان مقيما فى بلده سيون ثم أصبح سيدا على ظفار وحضرموت . ومـــد فتوحاته حتى حدود رأس الشربيتات • وتجدر الاشارة إلى أن كارتر لم يذكر شيئا عن فتوحاته حتى حدود رأس الشربيتات • كمـــا أنه لم يذكر شيئا عن بدر ، إلا أنه أبلغ بأن مؤسس أسرة الكثيرى هـــو علـــى بن عمر الكثيرى • ويبدو أن جماعات أخرى تمكنت من تجربه الكثيريين عن السلطة فيما بعد إلا أنهم فى النهاية استردوا سيطرتهم وظلوا محتفظين بها حتى الوقت الحاضر • وقد عثر على شواهد القبور الكبيرة من المرمر فى رويات على لوحة تذكارية باسم مالك الفاتح عبد القادر بن عبد الوحيد بن الواثق ابراهيم بن المظفر عمر بن على • وتعتبر هذه اللوحة من المخلفات القيمة ، غير أن تاريخها غير واضح • ولعل عبد القادر هذا حفيد الواثق وهو الذى حكم ظفار فى وقت من الأوقات •

لقد كان آخر حاكم لظفار من أسرة الرسوليين فى اليمن هو المظفر يوسف بن منصور الذى نقل عاصمة الحكم من صنعاء الى تعز ، وتوفى عام ٨٥٠ هـ (١٤٤٦ م) .

وبعد نصف قرن على وفاته ظهر البرتغاليون فى المحيط الهندى بعد نجاحهم فى الدوران حول رأس الرجاء الصالح ، ونظرا لسيطرتهم فى البحر فقد فرضوا أنفسهم على مناطق الساحل العربى .

وفى سنة ٩١٣ هـ (١٥٠٧ م) قام الفاتح الأكبر أفونسو دى البكويرك بالإبحار بسفينته التى تسلمها من ترستان داكنها بالقرب من جزر كوريا موريا فى الطريق الى مسقط وهرمز . ثم بعد سنوات مر بظفار فى طريقه لشن هجوم على عدن ، غير أنه لا يبدو أن دى البكويرك أظهر أى اهتمام بظفار .

وفى عام ٩٣٣ هـ (١٥٢٦ م) أرسل نائب الملك فى جوا وحدة من الأسطول للاحتكاك بالعرب سكان البحر الأحمر وكان الأسطول تحت قيادة هكتور داسلفيرا ، وفى طريقه رسا الأسطول على ساحل مرباط أو المنصورة ثم هاجمها ، غير أن الهجوم منى بالفشل وصد المهاجمون على أعقابهم غير أن القائد سبلنيرا تمكن من نهب البلدة وغادرها عائدا .

وبعد بضعة سنوات وفى عام ١٥٣٩ رسا القائد سليمان باشا وكان عائدا من حملته الفاشلة على ديو بالقرب من مخا ، واستولى على مدينة زبيد ، وأسس حكم الأتراك فى اليمن ، وقد وقع الجزء الشرقى حتى صحار تحت سيطرته ، وعين حاكما على البلدة هو مصطفى بك ، أما بالنسبة لظفار فان القائد التركى لم يتدخل فى شئونها أكثر من تحصيله للزكاة من سكانها . وفى سنة ١٥٥٣ قام البرتغاليون بمحاولة أخرى ويائسة لإخضاع ظفار كحلمهم ، غير أن المحاولة هذه أسفرت عن كارثة محققة لأسطولهم .

وكان نائب الملك البرتغالى فى جوا افونسو دى نورنها قد أرسل نجله فرناندس على رأس أسطول لتدمير التجارة العربية فى البحر الأحمر ، وكان هذا القائد الشاب قد عقد العزم على اختبار فتوته وقوته الناشئة فى ظفار ، لكن عرب ظفار دافعوا عن مدينتهم ببسالة فائقة مما أرغم سفن الأسطول المهاجم على الإنسحاب تاركين عددا هائلا من القتلى فى ساحة المعركة • وأثناء عودة القائد دوم فرناندس من البحر الأحمر حاول على كل حال الاحتكاك بالأسطول التركى الذى كان يقوده على بك بالقرب من مسقط واستولى على ست سفن من الخمس عشر سفينة التى كان يتكون منها الأسطول • ثم يمر قرن ونصف قرن يسدل الستار فيها على أخبار ظفار وشئونها ولا نعرف ما اذا كان الإقليم خاضعا لليمن أو لعمان أو أنه بقى مستقلا •

فى سنة ١٦٩٢ زار اوفينجتون ظفار ووصفها بأنها بلد مزدهر بالتجارة ويقع على الساحل ، ولكنه لم يذكر شيئا عن اسم حاكمها ، ولكنه قال بأن سكان ظفار فى حروب مستمرة مع الشحر وكيشين كما أنه وجد الناس فيها لا يميلون الى الأجانب أو يقدمون لهم الضيافة وأن ظفار تنتج اللبان وجوز الهند والزبدة •

وبعد ذلك ببعض الوقت تحدث الكابتن هملتون مؤلف كتاب « معلومات جديدة عن الهند الشرقية » عن زيارته لظفار ، فأيد رأى اوفينجتون عن أهل ظفار تجاه الأجانب بأنه موقف يتسم بالريبة والحذر ، ولكنه هو الآخر لم يعط أية معلومات عن الأوضاع السياسية للبلاد ، وهو يذكر أنه فى سنة ١٧٠٥ رست سفينة انجليزية على ساحل ظفار للتزود بالماء ، وأن أهلها توافدوا على السفينة يعرضون منتجاتهم للبيع • وقد شعروا أن بحارة السفينة الانجليزية الذين لم يكن يتجاوز عددهم الستة أو السبعة غير مسلحين مما شجع الظفاريين على مهاجمة البحارة ونهب السفينة ثم خرقها • ويقدم الكابتن سيمون نفس الرأى عبر الزيادة لميناء ظفار فيما يختص بما

تنتجه من محاصيل وفقا لما ذكره اوفنجتون • ففى تلك الفترة كان القراصنة الانجليز يرتادون إقليم ظفار طلبا للماء والترويح ، غير أننا لم نسمع أن هؤلاء القراصنة قد تعرضوا بالأذى لأهل ظفار •

وخلال القرن الثامن عشر ظهرت بعض الآراء الوهمية عن ظفار إلا أننا علمنا أنها فى بداية القرن التاسع عشر أصبحت معقلا ووكرا لأشهر قرصان فى المنطقة ، اقترف عمليات اعتداء ونهب خطيرة ضد السفن التى ترتاد البحر الأحمر ، وكان هذا القرصان يدعى سيد محمد عقيل ، ويقال أن أصله من بلد مخا ، حيث كان يتاجر بالاشتراك مع أخيه عبد الرحمن ، وكان الاثنان يمارسان العمل التجارى فى سفينة يملكها والدهما ، وكان هذا الأخ أو أخ غيره له يقوم فى مكة بحملة ضد احتلال الفرنسيين لمصر ، ثم توجه مع نفر من قومه الى مصر واشترك مع المماليك فى عمليات ضد الجنود الفرنسيين فى مصر العليا • كما أن أحد الإخوة كان عميلا أمريكيا من مخا •

وكان سيد محمد عقيل يستمد قوته ونفوذه من كونه من سلالة الرسول صلى الله عليه وسلم وقد توجه الى جزر موريشيوس وعاد منها فى شهر أغسطس سنة ١٨٠٥ ومعه سفينتان جميلتان هما بنجوين وبيجوه وكانت الأخيرة سفينة غنمها الفرنسيون من الانجليز وأستولوا عليها ، وقد حملها بكميات كبيرة من الذخيرة والأسلحة ، وأثناء وجود سيد عقيل فى كماران ركب السفينة اسكس التى كان يقودها الكابتن أورم ، وقد تظاهر بالصداقة للأمريكيين ووعدهم بالعمل لمصلحتهم ، وقد قبل القبطان منه ذلك العرض ، ولكن رجال سيد عقيل صعدوا الى السفينة واستولوا عليها بالقوة ، ثم توجهوا الى كماران حيث تم اعدام كل من الكابتن أورم والمستر كارتر وجميع البحارة وألقى بهم فى البحر فيما عدا عامل القمرات الذى احتفظ به سعيد عقيل فى خدمته ، ثم بعد ذلك استولى على محتويات السفينة ، بما فى ذلك مبلغ ١٢٠٠٠٠ دولار أمريكيا وأغرقها • وكنتيجة لتلك الجريمة وربما

رغبة فى الحيلولة دون احتلال كمارن لمصلحة الفرنسيين تم ارسال الطرادان البريطانيان مورنتجتون وترنيت من الهند ليتعقب سيد محمد عقيل والقبض عليه ، غير أن الأخير تمكن على أية حال من الإفلات ، وإدراكا منه لوجود الطرادين فى البحر الأحمر انتقل الى ظفار وذلك فى سنة ١٨٠٦ وتمكن من احتلال البلدة واعداد حرس خاص له مكون من خمسمائة زنجى ، ثم بدأ يمارس الإرهاب ضد المناطق المجاورة .

وبعد بضع سنوات أقلع عن القرصنة ووجه اهتمامه الى الزراعة والتجارة لتحسين أحوال البلاد ، غير أنه لابد من الاشارة الى أنه لم يتحول عن حرفته السابقة إلا مرغما ، بعد أن اضطر الى ذلك ، وليس بيقظة من ضميره وانما احساسا بالوجود البريطانى المتمثل فى الحملة العسكرية التى أرسلت الى رأس الخيمة لتصفية أوكار القراصنة فى الخليج سنة ١٨٠٩ . ثم زاد سيد عقيل عدد حرسه الخاص الى ١٠٠٠ رجل وضم اليه قرية مرباط وبنى قلعة هناك ونجح فى التغلب على قبائل القرا الذين كانوا يناصبونه العداء . وقد ظل هؤلاء يتربصون له حتى تمكنوا من نصب كمين له أثناء عودته من مرباط الى ظفار وهكذا انتهت حياته . وما إن وقع ذلك حتى لاذ أنصاره بالفرار . ويقول لنا هينز ان سيد عقيل كان تقيا وورعا وكان يحظى باحترام الجميع لرقته ونزاهته ، وأن تجارة البلاد وسكانها قد تطورت وزادت خلال عهده ، ولا يزال لسيد عقيل معجبوه ومريدوه ، غير أن الحكايات فى ظفار عن قسوته وبطشه وتعطشه للدماء كثيرة ، وان كثيرين يعتبرونه طاغية شرسا حتى آخر يوم فى حياته .

وعندما وصل خبر مصرع سيد محمد عقيل الى السيد سعيد سلطان عمان أرسل قوة عسكرية للإستيلاء على ظفار .. وتسليم السلطة الى نجل محمد الرابع وهو عبد الرحمن ، غير أن هذا لم يقبل السلطة ، وعاد الى مسقط رأسه مخا . أما السيد سعيد فانه سرعان ما أمر بسحب القوات من ظفار التى بقيت كجزء من مملكته منذ ذلك الوقت .

جغـــرافية ظفـــــار :

يقع الإقليم على الحافة الغربية لخليج كوريا موريا مدخل إقليم ظفار والذى يمتد الى رأس الشحر بمسافة ١٣٠ ميلا وباتساع حوالى ١٨ ميلا من البحر وحتى التلال الممتدة الى الصحراء .

ويتكون الإقليم من سهل بحرى باتساع عشرة أميال فى المركز ، وحوالى أربعين ميلا طولا وينتهى بسلسلة من التلال على شكل هلال يبلغ ارتفاعها من ألفين الى أربعة آلاف قدم ، منحدرة نحو صحراء الأحقاف ، وهى تغطى منطقة تبلغ مساحتها ألفين من الأميال المربعة تقريبا ، وهذه المنطقة تمثل بسكانها ومنتجاتها الطبيعية واحدة من أكثر مناطق شبه الجزيرة العربية إثارة . ويبدو أن التسمية ظفار هى اسم لكل الإقليم ، وليس للمدينة وحدها حيث أن تسميتها القديمة كما يخبرنا جينز أنها كانت للجبل وليس للمـــدينة .

وتنتهى الأرض الخصبة الطمبية على الساحل بانحدار حاد عند كل حافة ، فى الشرق مرباط وفى الغرب بندر ريســـوت ، ويعتبر بندر ريسوت ملجأ جيدا للرسو فى وقت الرياح الشمالية الشرقية ، وهناك العديد من جداول المياه الصغيرة التى تأتى من التلال ، وتروى السهل ، وهناك العديد من أراضى الحشائش وتنبت بعض الحبوب ، فالتربة غنية ومنتجة ، ويقال أن هناك ثلاثة محاصيل فى العام ، ويمكننا أن نرى البساتين بكميات كبيرة ، ويزرع الدخان والقطن وأشجار النيلة والخضروات .

وينتمى غالبية سكان السهل الى قبيلة الكثيرى ، وهى إحدى القبائل الرئيسية فى حضرموت ، حيث تشغل المنطقة بين شيبام وسيون ، وتمتلك سيون وتريم ، ويقال ان الكثيريين هم أول من غزا ظفار فى بداية القرن التاسع للهجرة تحت قيادة القائد الشهير بدر باطوارق الـــذى غزا المدينـــة وأصبح قائدا لحضرموت وظفار .

واستمرت قبيلة الكثيرى تسيطر على السهل ، وكان رجال القبيلة على خلاف مع قبيلة القرا حيث كان رجالها يهاجمون الكثيريين ويزعجونهم • وكان الكثيريون ينقسمون الى قسمين ، قسم يتبع عمر بن كثير ، والآخر يتبع عمرو بن كثير ، وكلاهما ممثل فى ظفار ، حيث يبلغ عددهم حوالى ٢٥٠٠ يسكنون سبع قرى • وتنتشر فى السهل بقايا عدة مدن قديمة تشهد على كثافة ورخاء العصور الماضية ، وقد شهدت مدينتين من هذه المدن عصرا ذهبيا هما مرباط القديمة والبليد ، ولكن هذا القول لم يتأكد بدرجة كافيـــة •

وعلى الحافة الغربية من خليج كوريا موريا توجد غبة دوم التى يقع فيها وادى ريكوت ، وهو أحد وديان الصرف الطويلة والهامة فى الجزء الشمالى من سلسلة سمحان ، وهو يفصلها عن الصحراء ، ويقال إن هذا الوادى خصيب ، وانه يشكل سيلا غاضبا جارفا بعد الأمطار •• والى جنوب خور ريكوت بمسافة قصيرة تقع أطلال الجسك ، وهى المدينة القديمة التى ذكرها بطليموسى ، والتى كانت فى وقت من الأوقات مخزنا لتصدير اللبان الى جانب سوق حاسك والتى تقع داخل المرفأ ، وتنتمى هذه المدينة الى قبيلة با مالك التى دمرها العتوب فى نهاية القرن التاسع عشر وقد استمدت مدينة حاسك اسمها من القبيلة القديمة التى سكنتها •• وقبيلة حاسك القديمة مازال اسمها موجودا كذلك فى الجزيرة الصغيرة القديمة ، وهم فرع من عبد القيس • وخلف حاسك توجد كتل المنحدرات الجيرية العارية لسلسلة سمحان ، وهناك جرف شديد الانحدار معروف باسم جبل حبروت ، وهو على ارتفاع ٤ آلاف قدم ، ولعله قبر النبى هـــود •

وإلى الجنوب من رأس حاسك بعشرة أميال ، وفى الركن الجنوبى الغربى من خور كوريا موريا تقع رأس نوس وبالقرب منها قبر صالح بن هـــود ، وهو بناء صخرى متهدم للغاية ، وفوقه تماما جبل نوس على ارتفاع ١٢٠٠ قدم مشكلا الكتلة الشرقية من سلسلة سمحان ، ومن هنا

الى مرباط ولمسافة أربعين ميلا توجد المنطقة الصخرية الخاصة بالساحل ، وهى تكوين جرانيتى يعرف باسم صالحو ، وفى منتصف الطـريق خلاله يقع جبل جنجيرى وهو حافة هرمية من تكوينات صخرية دائرية على ارتفاع ١٣٠٠ قدم .

وحول رأس زهير أو مرباط يوجد خور مرباط وهو مرفأ آمن من الرياح الشمالية الشرقية وكذلك هناك قرية صغيرة بها حوالى عشرين منزلا صخريا وعدد قليل من الأكواخ البسيطة وهناك عدد قليل من الخوجا الهنود الذين تتركز بينهم كل تجارة اللبان فى ظفار وحامية يرابط فيهـا ستة عشر من عرب مسقط لحمايتهم من غارات بدو القـرا ، الذين يسببون المتاعب أحيانا . وترتاد الميناء السفن الشراعية التى تنقل التجارة بينها وبين بومباى فى الهند ، ولكن المـاء هنا سيىء ومالح ، وأقرب مـكان لإمـداد المـاء العذب يقع على بعد أربعة أميـال ، ومقبرة محمد على التى تحمل تاريخ ٥٥٦ هـ (١١٦٠ م) على بعد ميل واحد ، والعوائد التى يدفعها التجار الهنود تدفع للوالى فى صلالة .

ومن مرباط يتجه حزام ساحلى ضيق باتجاه الشمال لمسافة عشرين ميلا الى طامّة ، وفى نصف المسافة تقريبا يوجد منحدر صخرى منخفض بارتفاع مائة قدم الذى يمتد فوقه سهل جبل سمحان ، وقد تكونت هذه الكتلة العظيمة كما علمنا من صخور رملية تعلوها طبقة طينية وفوقها طبقة الصخور البيضاء التى تشقها عموديا من الطريق بسلاسل جبلية كبيرة ، وعلى الحافة الأخرى من السلسلة نجد أن رأس الشحر تمثل تكوينا مشابها لدرجة كبيرة .

أما طامة فهى قرية يبلغ تعداد سكانها نحو أربعمائة نسمة ، وبها القليل من الزراعة ، وهناك ثلاثة خلجان بجوارها ، وهى خور طامة ، وخور سيعث وخور رورى والأخير يمتاز بعمقه واتساعه ، وهو يمتد لحوالى

ميلين ، وهذه الخلجان تستقبل مياهها من أودية صغيرة فى الجبال ، والماء فيها بصفة عامة عذب .

وبالقرب من طامة هناك بقايا مدينة واسعة من العصور الوسطى ويقول (بنت) أن هذه هى مدينة مرباط التى ذكرها الجغرافيون العرب فى القرن الثالث والرابع من الهجرة ، وربما كان على حق . وبسبب الأمواج العنيفة التى تلاطم الساحل لفترة كبيرة من العام تحتاج السفن التى تصل ظفار الى الحماية والأمن ، ولكن تلك الحماية يمكن وجودها فى الخلجان الصغيرة قرب طامة فى ذلك الوقت . وكلمة مرباط تعنى فى الأدب الروابط أو المواثيق ، والتسمية أقرب الى الخليج الصغير بجوار طامة منه الى مرباط لعدة اعتبارات ، لذلك تقودنا الى النتيجة وهى أن هذا كان هو السوق التجارى والميناء الذى أشار اليه ستاكارى وابن حوقل والمسعودى ... الخ ، وأنه كان مزدهرا فى عصرهم ، وهو المكان الذى يقع بالقرب من طامة .

وبمواصلة السير غربا عبر السهل البحرى الى بندر ريسوت نصل أولا الى الدهاريز التى كانت ذات مرة عاصمة قبيلة الكثيرى ، ثم بعد ذلك الى مرباط التى بالقرب منها يقع مزار أو ضريح الراجا الهندى المعروف السامرى ، وأطلال مدينة البليد التى سنتحدث عنها كثيرا بعد ذلك .. وبعدها نعود الى طامة وصلاله حيث يقيم الوالى ، وقريتى عوتد المسماة بالشرقى والغربى .. والغربى على بعد أربعة أميال من ريسوت .. وعبر السهل لمسافة أربعين ميلا هناك طبقا لما ذكره كراتندون أحد عشر خليجا خمسة منها مياهها عذبة . وعبر منحنى سلسلة سمحان من الشرق الى الغرب ولعدة أميال طولا ..

والاسم سمحان رغم ذلك ينتمى الى القسم الشرقى حيث ترتفع قمم الجبال الى أربعة آلاف قدم ، وهى فى بعض الأجزاء كثيفة الأشجار وباتجاه الغرب يقل ارتفاع التلال ، وأشجارها أقل خضرة ونموا ، وقممها تقريبا

عارية من الأشجار ، ومن السهل ترتفع السلسلة بسرعة بمواجهة البحر ، بينما تنحدر تدريجيا من الجانب الشمالى نحو الصحراء .. ولا يبدو أن هناك أى اسم عام بالنسبة القسم الغربى من السلسلة ، وكل قمة فيها منفصلة ، والأسماء التالية اطلقت على تلك الجبال والهضاب من رأس حنون الى رأس الشجر وهى : جبل بيكان ، جبل ويرين وصلات ، جبل القرا ، جبل ميت فاية ، جبل جدباد ومعره ، جبل نحيز ، جبل ارزات ، جبل بيت زبيد ، جبل راشام وجبل أرقم ، وهذه التلال يحتوى معظمها على كهوف بأحجام مختلفة ، تسكن معظمها فى الطقس البارد قبائل القرا .

أما الحيوانات الموجودة فى ظفار فهى القط الوحشى ، والثعلب ، والضبع ، والأرنب الوحشى ، والغزال والوعل ... الخ ، وبين الحياة النباتية هناك ينمو شجر الجميز وأشجار السنط ، والصمغ ، والرمان ، والصبر ، والتين ، والتمر الهندى ، والطرفاء ، وشجر النيلة والنبق ، وجوز الهند ، والكثير من النباتات التى لم يتم تحديدها .

والتقرير البحرى للساحل الجنوبى لشبه الجزيرة العربية يشكل مناسبة جيدة للعديد من الذكريات القيمة للكابتن هينز والدكتور كارتر وآخرين ، ورغم كل ما وصفوه فى أعمالهم تبعا لمعلوماتنا عن الجغرافيا الطبيعية للأرض إلا أن سلسلة ظفار ظلت مجهولة حتى عام ١٨٩٤ عندما زارها مستر بنت حيث وضح الصورة الرومانسية والمثيرة للذهن عن الجرف والوادى والبحيرات ومساقط المياه والكهوف ، والخضرة التى يشاهدها المرء على الجبال ، وكذلك أمكن العثور على مساكن تلك التلال من القرا الذين يتكلمون لغة خاصة بهم ، ولكن مرتبطة بالمهرة .

وعلى الحافة الغربية للسهل البحرى لظفار هناك مجرى صغير شكلته الأراضى المنخفضة المعروفة برأس ريسوت .. وهذا المجرى مرفأ ممتاز فى الرياح الجنوبية الغربية وبجواره بقايا مدينة قديمة كانت فى وقت ما

سوقا تجاريا ، وتوجد بحيرة طويلة هنا بداخلها واد صغير تتجمع فيه المياه من التلال ، حيث غرقت باخرة الرحالة وليم الفاتح عام ١٨٦٠ ، ولكن تم انقاذ الركاب وطاقم السفينة وأرسلوا الى الهند فى خمسة قوارب .

ومن رأس ريسوت يبدأ منحدر صخرى منخفض يمتد غربا ، وبعد مسافة خمسة أميال من رأس الأحمر وبعد غبة مزيحه فان الجزء البارز من السلسلة والذى يرتفع نحو ٣٨٠ قدما يبدأ فى الانحدار الى البحر على خطوات ثلاث عملاقة مكونا بذلك رأس الشحر ، وهو أعلى وأضخم قمة جبلية ، وان لم تكن أكثر بروزا فى منطقة الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة العربية ، أما الجرف الثانى لهذه الرأس فامتداده يصل الى ٢٧٧٥ قدم .

وعند رأس الشحر تنتهى حدود أراضى سلطنة عمان ، وكذلك الخط الفاصل بين قبائل المهرة وقبائل القرا ، بالرغم من أن القرا فى الحقيقة يطالبون ويحتلون جزءاً يمتد غربا حتى قرية ريادت الى مسافة ١٢٠ ميلا .

ومن الناحية الجغرافية يقرر كارتر أن تكون رأس الشحر مشابهة لتكوين جبل سمحان بالقرب من مرباط فى كونها من صخور رملية ثم طبقة طينية فوقها طبقة جيرية بيضاء ، وأن تلك الطبقة هى من نفس النوع الموجود بالانحدار للشمال الشرقى .

زيارة إلى الأشخرة عام ١٨٧٤

٣١ أغسطس :

تركت مسقط فى الرابعة ظهرا الى الأشخرة مع سعيد بن سالم على ظهر الطراد فيلوميل للاستعلام عن موضوع القرصنة •

١ سبتمبر :

شاهدت قلهات فى العاشرة صباحا ، ووصلت صور فى الثامنة بعد الظهر ، وأرسلنا درويش وسعيد الى الساحل لزيارة الوالى ، وفى الخامسة مساء نزلنا ، ووجدنا الوالى قد وصل فى نفس الوقت ، وعقدنا مؤتمرا فى منزل شتو ، وقررنا أنه يجب الكتابة الى ماجد وعبد الله لمقابلتنا فى الأشخرة ، وعلمنا أنه قد حدث تصادم فى اليوم السابق قتل فيه اثنان أو ثلاثة •

كان الوالى ناصر بن محمد البوسعيدى قد وصل الى صور منذ ثمانية أيام ، ولكن لم يكن من المحتمل أن يبقى هناك حيث لم يكن يحصل على أية دخول ، وكان عليه أن يدفع ستين دولارا لبدو بنى بو حسن ، وقمنا بزيارة الخور والمدينة بعد ذلك ، وشاهدنا عدة قوارب جيدة فى الخليج وعدنا فى المساء وبقى درويش •

٢ سبتمبر :

حضر درويش وشتو وكتبا الى ماجد وحمود ، وقال شتو إنه ليست هناك أخطار فى السفر عبر المدينة بشرط وجود بعض الخفراء من الغافريين والهناويين ، وهؤلاء الحراس ضروريون لتأكيد الأمان فاذا وجدك العدو وحيدا حتى ولو فى غياب مؤقت من هؤلاء الحراس فسوف يسرقونك بالتأكيد •

فسكان جعلان لا يمكن الثقة بهم اذا ما تدخلت النقود : ذهب شتوّ الى قلهات حيث توجد قلعة أو قصر يقول الناس ان تحته يوجد كنز كبير مدفون ، ولكنهم يخشون الحفر بسبب الجنبة وبنى بو على الذين قـــد يأتون ويسرقونهم ، وربما طردوهم ، فبعضهم يأتى أحيانا للبحث عن العملات الذهبية حيث يبيعونها لسكان صور ، بريال للقطعة الواحدة ، وهذه العملات كوفية الأصل كما يتبين من الكتابة عليها .

وفى الرابعة بعد الظهر ذهبنا الى البلاد حيث مررنا بطريق صخرى مرتفع ، وخارج البلدة يبدو الخور ممتدا الى بعض المسافة ولكنه ضحل ، وعلى يميننا يقع حصن سنيسلة وشنو ، وتوجد فى كل القلاع مدافع ولكن لا توجد بها حامية .

ويتجه الطريق يسارا حتى يصل الى عيمى ، وفيها كذلك قلعة على القمة ، وقد دمرها ثوينى وهى تخص قبيلة الجنبة .. وها نحن أولاء نرى مدينة البليد الآن ، وهى على سهل منخفض أو واد ، وهى عبارة عن كتلة من أشجار النخيل بها عدد قليل من المنازل ، وعند وصولنا الى القلعة استقبلنى الوالى بالتحية ، وجلسنا أمام بوابة القلعة لبعض الوقت ، ثم تجولنا فى أرجاء المكان ، وخارج القلعة هناك السوق القديمة التى دمرها الوهابيون وليست هناك زراعة كثيرة ، وهناك القليل من الشمام والذرة . وقد دعانى شيوخ بنى بو حسن لزيارة مدينتهم ، والوالى يبدو عليه الذكاة والشجاعة . وعدت الى الساحل حوالى السابعة والنصف صباحا . وكان الظلام يغلف المكان وجاء على بن مبارك الذى أتى مع درويش فى العاشرة وسكان صور يطلقون على المنطقة الساحل ، أما المدينة الجنوبية فتعرف بالبليد .

٣ سبتمبر :

بدأنا سيرنا فى الخامسة والنصف صباحا ، ووصلنا رأس الحـــد فى التاسعة صباحا ، والتلال خلف رأس الحد يمكن رؤيتها من مسافة كبيرة ،

ولكن الشيخ يقيم فى حصن صغير له ثلاثة أبراج ، والقرية الصغيرة تسمى ببلاد رأس الحد ، وربما كان هناك ستمائة نسمة ، يحكمهم الشيخ وهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام الموالك وبنى غزال وبنى مهرة ، وبنو مهرة هؤلاء يستمدون أصولهم من الجد مهرة ، والساحل منحدر ولكن الصخور عالية حتى رأس خبة ، وقد شاهدت عددا قليلا من البدو على تلال بنى حربى ، وكانوا قطاعا صغيرا من حوالى ثلاثين رجلا ، وبين خبة درويس يطلق على الساحل اسم سويح بنى بوعلى .

ووصلنا الأشخرة فى الرابعة صباحا والرياح هناك كانت أقل كثيرا مما توقعت حول الرأس ، ويبدو أن المدينة واسعة ، وهناك حوالى أربعين من قوارب الصيد ولاتوجد قلاع ، ولكن هناك برجان قديمان على الشاطىء ، وهناك صف من الصخور إلى جنوب المدينة ، وهو يعتبر مرفأ للقوارب ، وقد شاهدنا قاربا واحدا مازال فى الماء .

٤ سبتمبر :

وصل الشيوخ هذا الصباح وقد نصبو خيمة على الشاطىء ويبدو أنها صنعت من شراع قديم ، وفى العاشرة وصلنى خطابات من ماجد وعبد الله ، ويقول ماجد إنه مريض وعبد الله يريدنى أن أرسل واحدا إلى الشاطىء ، وقد أرسلت سعيد بن مسلم وطلبت منهما أن يحضرا ووعدتهما بالأمان ، وقال أحدهم أنه لم يصل هذا العام عبيد من زنجبار ، وهناك عدد قليل من العبيد فى الأشخرة ، ولكن معظمهم أحرار ، وفى الثانية عشر عاد القارب وبه الشيخ عبد الله ويوسف بن على شيخ طنيبة وكذلك على بن خلفان ، وشرح الدليل لهم لماذا جئت أنا هنا ، وسمع تفسيراتهم عن الموضوع ، وعندما رأوا الاضطراب بين رجال كيتيا على الجزيرة ذهبوا لفض النزاع ولكن رجال كيتيا بمجرد رؤيتهم لهم خافوا وهربوا ، وقد أخبرتهم أننى قد أتيت لكى أطلب رد ما سلبوه وإعادة الجناة لقواربهم ،

وقد أعادوا ما سلبوه وهو حـوالى ثلاثمائة دولار ووافقوا على دفعها ، وقالوا إنهم يسلمون فى الحال بطلبات الحكومة مهما كانت ، وقد أعطيتهم مهلة حتى اليوم التالى للرد ، وقال على مبارك إنه يعتبر حدود عمان هى آخر أراضى الجنبة ورأس نوس • والجنبة تمتد إلى جبش ثم حكمان ثم بر الحـدرى وهيبة ثم الوهيبة ثم الجنبة حتى قبيلـة القرا •• وتبـدأ حضرموت شرقا ومدينة المهرة ليست فيها ، وليس هناك اسم عام للمدينة بين جعلان والقرا والمزينة تخص الجنبة • وليس هناك زراعة والسكان من البدو الذين يعيشون على اللبن واللحم ، وتمثل أدم حـدود عمـان باتجاه الصحراء والعوامر فى رأس نوس من البدو ، وهم يرتدون ملابس حضرمية ويتكلمون لهجة مختلفة عن عمان وهى وان كانت أصعب إلا أنها أفضـل اللهجات العربية •

وقد وصـل بعض العوامر مؤخرا إلى مسقط وانضموا إلى السيد تركى ، وقد جاءوا على ظهور الجمال وظلوا بدون مـاء لمـدة خمسة أو ستة أيام ، ولم يدفعوا أى ضرائب فى الطريق ، ولكنهم اضطروا إلى أخذ خفراء معهم ، والجمال فى بعض المناطق يتم سقايتهم مرة أو مرتين شهريا ، وعند مرورها من المناطق نادرة المياه لاتشرب الجمال ويشرب الرجال اللبن فقط • وقد تحطم مركب شراعى فى هذا الساحل فى عهد راسام ، وأخذ البدو طاقم المركب إلى مسقط وأطعموهم لبن الإبل وقد عالجهم البدو بالكى بالنار بعد أن أكلوا البلح الذى سبب لهم الإسهال •

٥ سبتمبر :

فى العاشرة صباحا أرسلت قاربا للشيوخ الذين جاءوا ، وقالوا إنه أثناء الليل فر المتهمون من المدينـة إلى الداخل ، وأنهم أرسلوا البعض وراءهم ، وانهم سيتوقعون عودتهم ، وكانوا قد وافقوا فى الليلة السابقة على تسليم أنفسهم بشرط أن يذهب الشيوخ معهم إلى مسقط ، وانه إذا لم

يقم الجناه بتسليم أنفسهم فسوف يسلمون هم القوارب الستة الخاصة بهم ، وقلت أننا نستطيع التمييز بين الأعمال الحسنة والأعمال الخبيثة ، وإننا لم ننس بعد سلوكهم بالنسبة للسفن الغارقة حتى يعودوا إلى ارتكاب مخالفة أخرى • عندئذ قلت اننى يجب أن آخذ ستمائة ريال مقابل الأشياء المسروقة وإننى أريدها فى الحال ، فقال الشيوخ ، إنهم لايستطيعون جمعها فى ثلاثة أو أربعة أيام ، وأنهم يعطوننى بعض المجوهرات كضمان لحين الدفع • وقد أعطيت عبد الله بندقية وبعض الملابس • وفى الخامسة بعد الظهر أرسلت سعيدا ليأتى بهم ، ولكنه عاد وحده قائلا إن الشيوخ لم يستطيعوا جمع أى شىء ، ولذلك لم يحضروا ، وأن الرجال الستة قد عادوا إلى المدينة •

٦ سبتمبر :

أرسلت سعيدا فى التاسعة للشاطىء وقد عاد فى الثامنة بعد الظهر مع الشيوخ ، وقال يوسف ، إنهم مازالوا يحاولون جمع النقود والمجوهرات ولكن ماجمعوه قليل ، فقد جمعوا أقل من مائتى ريال وبعض الحلى التى خجلوا من أن يظهروها لقلتها ، وقد وعدوا بأن يأتوا معى إلى صور — يوسف وعبد الله — وانهم سيقترضون بعض النقود من شتو ويسلمونها لى هناك •

٧ سبتمبر :

فى تلك الأثناء وعلى أساس منع الجعافرة من النزول إلى البحر ومصادرة نخيلهم حتى يتم دفع الغرامة طلبت أيضا أن يأتى بعض الجعافرة إلى صور • وقد تم ذلك بالفعل ورافقنا ثمانية منهم وطلبت منهم أن يكونوا مستعدين • وأرسلت قاربا فى منتصف النهار ، ولكنه لم يعد عند ظهور النهار غدا ، فأرسلت سعيدا وجاءوا فى التاسعة والنصف — عبد الله ويوسف — وثمانية أو عشرة آخرون واتضح أن سبب تأخرهم هو أنهم

أرسلوا إلى المتهمين الستة الذين رفضوا المجيء بدون قتال ، وبدأ الموضوع يأخذ صورة خطرة ، وطلب سعيد منى إطلاق سراحهم ، وقد ألزم الشيوخ الجعافرة بعدم النزول إلى البحر هذا الموسم حتى يتم دفع الغرامة المطلوبة كما أخذت نخيلهم رهينة لدى حتى يتم الإفراج عنهم .

وقبائل بنى بوعلى والجنبة لا يأكلون اللحم الذى يذبحه غيرهم ، وقد كان لدى الشيوخ مائتا ريال ويلزمهم أربعمائة أخرى ويبدو أن عبد الله قد تعامل مع شتو وقد وصلت صور فى السادسة بعد الظهر ، وأرسلتهم ليفعلوا ما يستطيعونه مع شتو ، ولم يعد القارب حتى الثامنة .

٨ سبتمبر :

جاء الوالى نصر والشيوخ مع شتو فى الحادية عشر قبل الظهر ، وقالوا أنهم اتخذوا ترتيباتهم ، وحصلوا على المبلغ وقد أعطيتهم بعض النصائح والتحذيرات وخاصة فيما يتعلق بتجارة الرقيق ، وقلت لهم إنهم لن يتدخل أحد ضدهم إذا امتنعوا عن نقل الرقيق فى قواربهم ، وقال شتو أنه أقرضهم النقود ، وقال الوالى إنه ليست هناك أى أخبار جديدة من مسقط عن السلطان ، وقد عاد الشيوخ فى الواحدة ، وفى الساعة الرابعة مساء نزلت مع جار فورت وذهبنا إلى شتو حيث قابلنا الوالى والشيوخ ، وذهب جارفورت وآخرون بعد ذلك مع الوالى إلى البلاد بينما ذهبت أنا على ظهر أحد الجمال إلى سنيسلة لمعاينة الحصن هناك ، وهو صالح للاستخدام رغم أنه قديم ومهجور وكانت بوابته هى أقوى جزء فيه ، وهو يطل على البحر ولكن له جدار فى المقدمة .

وسنيسلة أهلها غافريون من الناحية السياسية ويبلغ عددهم مائتين ، وبها عدد كبير من المساجد والمنازل وقد عدت وتناقشت مع عبد الله

ويوسف ، فقالا إن صالح بن على قد هاجم مطرح ، وهـو يرابط على إحدى المغارز فى المدينـة ، وانهم يخشـون أن يقنع هو جماعة السيد تركى بمهاجمة بنى بوعلى ، حيث كان صالح عدوا لهم بسبب قتلهم السيد / عزان وتنصيبهم السيد تركى على العرش ، وقـد ذكرتهم أنه عندما وصل الشيخ صالح إلى مطرح لم يرفع أحـد الغافريين إصبعا لمساعدة السـيد تركى ، وأن بنى بوعلى كانوا أصدقاء لـه ، وأننى على استعداد لإقامة تفاهم وسـلام لمنع نشـوب صراع فى المدينة إذا حـدث أى شىء •

٩ سبتمبر :

وصلت قلهات فى التاسعة صباحا وقمت فى العاشرة بزيارة أطـلال المدينة وهى تقع بين الساحل والتلال المرتفعة إلى حوالى ميل ، وهى أرض غير مستوية ، وتغطيها أحجار وصخور ومرجان والحـد الجنوبى لقلهات عبارة عن سـور يبدأ من البحر وحتى التلال بمواجهة صـور ، وللسور ثلاثة أبراج ، سقط واحد منها فى العام المـاضى فقط ، وأساسات العديد من المنازل مازالت موجودة وجدران عدد قليل منها مازالت واقفة ، وتوجد مقبرة على شكل قبة وكذلك سرداب أو قبو •

وإلى الشمـال هناك وادى آسن الـذى يبـدأ من وادى خالـد ، ومياهه متدفقة وهى تروى بوفرة بعض الحقول فى وادى سكرات الـذى يقع على بعد خمسة أو ستة أميال حيث توجـد بعض القنوات ، ويوجـد كذلك حوض مياه كبير تذهب إليه النسـاء للغسيل والاستحمام وجلب الميـاه ، وهو واسع ويحتوى على كمية كبيرة من المياه بداخلـه ، وإلى الشمال من هـذا توجـد قلهات الحالية وهى الآن مجرد قرية للصيد يسكنها شعبان ، وهما قبيلة صغيرة قوامها مائتا نسمة يحصلون على مياههم مـن الآبار الضحلة ، ويربون الأغنام والغزلان • وإلى الشمال من هذا هناك بعض الأطلال القديمـة ويبدو أن هـذا هو الجزء الرئيسى من المدينـة القديمة ، ويوجد هنا برج وربما سـور كذلك ، ويقال إن هنا توجـد بقايا

القناة المؤدية إلى الداخل واسمها علا ، وقد وجدت هنا بعض العملات المضروبة فى عمان أو نزوى فى عصر أسرة البوهيين ، وتبدو قلهات كمكان متواضع غير مناسب لمدينة من أول نظرة ، ولكن من نظرة أبعد سنجد فيه وفرة من المياه الصالحة والنادرة فى صور ، والتى هى بالتأكيد أنسب بالنسبة لميناء كبير ، ولكننى أدركت بسهولة لماذا اختيرت قلهات كمنطقة متميزة فى العصور القديمة فوجود الحاجز والغياب الكامل للمياه العذبة شجع على أختيار قلهات ، والمبانى والدور مبنية كلها من الحجر الأحمر ، ولم نعثر على أحجار مشكلة أو منسقة فى المكان ، وقد قدم لى الشيخ عينة من حجر جاء به من أحد القبور فى فارس ، ولوحة منقوشة بالألوان صنعها أحد الفنانين الفرس ٠والماء على ساحل البحر عميق جدا ، وإلى جنوب السور الجنوبى حلقة كبيرة من الحديد ومشدوده بصخرة فى البحر ، لعلها كانت تستعمل لرباط مرساة السفن ٠ والساحل هنا بطوله منحدر بحيث يصل العمق فيه إلى ياردة من بعض أجزائه ، وفى مكان ما من جنوب الخور يبرز أحد الرءوس الصخرية ، وبالطبع فإن صور مناسبة أكثر كميناء كبير ، غير أنى أستطيع أن أدرك بسهولة لماذا اختيرت قلهات فى الماضى لاتخاذها ميناء ، ذلك أن الحواجز وانتقاء وجود المياه العذبة فى صور هى العوامل التى حالت دون ذلك ٠

فى الساعة الثانية عشر توجهت إلى السفينة بعد أن نقدت الشيخ بعض الريالات وبعض البارود نظير اللوحة التى أهدانى إياها ٠ وفى الساعة الثانية رسا الطراد على شاطىء طيوى الواقعة على مدخل واد عميق له جوانب انحدارية ، غير أننى لاحظت وجود بقع مزروعة من النخيل وبعض مجارى الماء والقرية نفسها تقع على شمال الوادى وملاصقة للشاطىء ٠وفى الخامسة حضر الشيخ إلى الطراد ، ثم نزلت أنا ومشيت عبر الوادى إلى القرية ، وكانت القرية نظيفة فيها كثير من البيوت المبنية بالحجر ، وسكانها لايزيدون على خمسمائة أو ستمائة نسمة كلهم من بنى جابر ، وحتى خمسة عشر عاما مضت كانت خطبة الجمعة تقرأ باسم سلطان تركيا ، ولايزال السنيون والإباضيون فى جعلان يفعلون نفسى الشىء ٠

وكان الشيخ يعتقد أن سلطان الأتراك هـو خليفة المسلمين ، وفى أعلى الوادى يوجد ضريح ابن المغير ، وهو شاعر شهير من شعراء الإحسـاء ، وكان قد اعتكف فى هـذا المكان وبنى بنفسه ذلك الضريح فـوق التل ، وإلى الجنوب من طيوى يقع وادى فك ، وهو يختلف كل الاختلاف عن وادى طيوى واقصر منه ولكن تدفق المـاء فيه أقوى ، وإلى الجنوب من طيوى توجـد أطلال حريف ، وهى مدينة قديمـة اندثرت فى وقت مبكر ، ولكن هناك برج مازال موجودا وبعض الأطلال .

زيارة قلهات ١٨٧٤

٢٥ سبتمبر :

تركت مسقط إلى الساحل الجنوبى .

٢٦ سبتمبر :

عبرنا طيوى ووصلنا قلهات فى السادسة صباحا ونزلنا فى الحادية عشرة فى جدول منخفض وواصلنا السير إلى القرية ، ثم ذهبنا إلى الشيخ حاكم المدينة حيث بعض الأطلال ، إنها كانت مقرا للحاكم وبقايا برج صغير ، وهذا يبدو محتملا ، ثم مجموعة من التلال يصل ارتفاعها إلى مائة وعشرين قدما ، وهى تقع فى القرية الحالية والجدول الصغير الذى يخص وادى عيسى ، ولكنه يقع على الجانب الآخر لمصب الوادى ، ثم بدأنا بعد ذلك زيادة ميدا وشخرات على الحمير ، وبعد نصف ميل وصلنا ميدا وهى عبارة عن حوض عميق يقع مباشرة تحت النتوءات العالية التى تكون ضفاف الوادى وترتفع إلى ألف قدم وعلى بعد مئات قليلة من الياردات توجد عدة أحواض عميقة أخرى تسمى صافى ثم ينحدر إلى الوادى تدريجيا على امتداد ميلين تقريبا ، ويتغير من الشرق والغرب إلى الشمال والجنوب حيث نصل شخيرات ووادى كبدى على الجانب الأيمن ، وعلى يسارنا مزروع وهى منطقة صغيرة للزراعة . وخلف هذا يوجد البرج الفارسى القديم على شكل بقايا ، وفى ركن وادى كبدى هناك الطريق المؤدى من التل إلى كبدى وهو طريق صغير للحمير ، وقد استرحنا فى شيخرات لمدة ساعة بجانب مجرى مائى به الكثير من السمك الصغير ، وهذا المجرى تغذيه العيون المائية القريبة والقناة التى كانت تستخدم لإمداد قلهات بالماء والتى رأينا آثارها عبر الوادى على الجانب الأيسر ويمكن رؤيتها ، رغم أنها مدمرة إلى حد كبير ، والبقايا تظهر أن هذه هى

نهايتها ، وقد كانت العيون المائية القريبة هى التى تمدها بالماء ، وقد كان لهذه القناة فائدة هامة بالتأكيد ، ويقال بوجود عدد كبير من الآبار بقلهات يبلغ مائة بئر ، كانت قلهات تستمد الماء منها ، والكثير من هذه الآبار مازالت بقاياها واضحة • وخلف شيخرات هناك قرى عديدة منها غوثة ومحاط وشوفى وسيفين أو اسفرين وغاب وحصة وحول •• الخ • وربما كان المناخ جيدا فى الأيام القديمة حيث كان فى مقدور السفن أن ترسو لمدة طويلة حتى مخرج الوادى والميناء ، ومن المحتمل وجود اثنين من الخلجان الصغيرة اختفيا سواء كان ذلك بامتلائه من الصخور الصغيرة أو بالأتربة نتيجة لعوامل التعرية أو سواء كان ذلك نتيجة للزلزال الذى حدث من ثلاثمائة عام ومن المحتمل أنه قد اختفى نتيجة للزلازل فهذا أقرب للصحة ، وواصلنا السير حتى صور حيث أقمنا هناك تلك الليلة •

٢٧ سبتمبر :

نزل جوترى وأحضر شتو وشيخ العويجة وفى الحادية عشر قبل الظهر نزلت مع جوترى وذهبنا إلى الشيخ على الذى كان يقيم فوق تل يطل من أعلى على صور ، وتوجهنا حيث أخذنا بعض الصور الفوتوغرافية ، وعدنا فى الثالثة بعد الظهر بعد أن أخذنا فكرة جيدة عن صور بصفة عامة •

٢٨ سبتمبر :

فى السابعة صباحا نزلت ومعى جوترى وذهبنا إلى شتو الذى أخبرنا بأن السيد ناصر قد توجه إلى الوافى ليفض منازعات البدو ، فقد قامت مشاجرة بين قبائل بنى بوعلى والحجريين إثر سرقة ثمانى جمال محملين بالأرز تخص الحجريين ، وهناك رأيت شيخ العوجة وصالح بن جمعه •

وفى الساعة العاشرة صباحا بدأت رحلتى مع دليل للذهاب إلى خور جرامة ووصلت عند الظهر تقريبا حيث ذهبت إلى السفينة فى العاشرة مساء ، وعندها صمم جوترى أن يأخذ المركبة البخارية •

٢٩ سبتمبر :

خرجت عند شروق الشمس وعبرت تلهات فى الثامنة صباحا ، ووصلت شعب فى العاشرة ، ثم نزلت وذهبت إلى الخـور على بعد ميل ، وجوانب الخـور عالية للغاية وشديدة الانحدار ، وعلى بعد نصف ميل من الميـاه المختلطة بالملح يؤدى الطريق إلى مكان رومانسى جميل تملؤه أشجار الفواكه المختلفة واستمر جوترى حتى وصل إلى فلج وقرية صغيرة هى موطن سكان شعب ، وهذا الطريق وعر جـدا حتى أن الحمير لا تستطيع السـير فيه ، ويقال ان خلف هـذا الطريق يوجـد منحدر به شلال ماء لايعرف مصدره ، وكل هـذا يخص بنى جابر ، وسكان شعب هم من ريام إحدى عشائر قبيلة بنى جابر ، ثم عدنا وأخذنا بعض الصـور الفوتوغرافية للوادى ، وقد كان شيخ شعب وقت وصولنا فى طيوى ولكنهم أرسلوا له وجاء قبل أن نرحل •

زيارة البريمى ١٨٧٥

عاهدت نفسى على أن أزور البريمى — فى واحدة من أولى رحلاتى إلى داخل عمـــان •

وفى ١٧ ينـــاير ١٨٧٥ :

نزلت صحار من الطراد رايغلمان ، وحصلت على تصريح مرور مـــن مسقط أعطانى إياه الكابتن كلانتون بعد توقيع حاكم مسقط السيد / بدر بن سيف للإعـــداد للرحلة ، حيث توقعت أن آخـــذ بعض الوقت فى جمـــع الجمال وانتهزت الفرصـــة لمشـــاهدة المدينة وما يجاورها •

وقد كانت صحار ولعـــدة قرون هى أكبر وأهم المـــدن على ســـاحل الباطنة رغم أنها فى ذلك الوقت كانت حالتها قد تداعت ، وهناك بعض السكان فى جزء صغير فقط من المنطقة يبلغ عددهم أربعة آلاف ، ومن المحتمل أن تلك المدينـــة كانت فى العصـــور القديمة مركزا تجاريا ثريا حيث كانت هى الملتقى التجـــارى بين باسليوننا والهند • ويعتقد عمومـــا أنها الســـوق التجارية القديمـــة التى ورد ذكرها فى رحلات نيورتيسى فى عام ٣٢٠ ق م ، ثم نقرأ إشارات عنها فى أبحاث الكتاب القدماء ، وهذا إذا كنا نوافق على تشبيه صحار أو اعتبارها بالمدينة العمانية القديمة ، وهـــذا القول لايعتمد على أقوال المؤرخين العرب ، وإنما هى أمور متفق عليها من جميع الأساتذة الأوربيين الذين يرونها هى عمانا أو عمنا القديمة التى ورد ذكرها فى كتاب البطليموسى وعلى أية حال فإن تحديد الفترة التى تم فيها تغيير اسم تلك البلاد فموضـــوع لا يمكن القطع به لأن كتب التواريخ والروايات لاتذكر أى دليل عليه • وعلى الرغم من أن المؤرخين المحليين قد أشـــاروا إشارة عابرة إلى صحـــار إبان العصور الوسطى إلا أن أحسن وصف لتلك المدينة هى وصف ابن المجاور الذى يقول :

« كان فى صحار اثنا عشر ألف منزل ، وكل ملاح كان يقيم فى بيت مستقل ، وكان السكان يحصلون على الماء منه ، وقد اعتاد سكان المدينة الحصول على مياه الشرب من إحدى القنوات ، وقد أخبرنى البعض أنه يوجد مائة واثنان وتسعون ياردة حديدية تستخدم كمقاييس تجارية بين البائعين والمشترين ، وقد بنيت المدينة من الطوب اللبن وخشب التيك ، ولكنها اندثرت ، وقد علمت من أبى بكر البصرى أن المدينة كانت أول الأمر تابعة لملوك كرمان من سلالة السلاجقة ، ثم حكمها الغز إلى أن هجرت بعد أن دمرها العرب » •

والقناة أو فلج المطارد هو أحد علامات الرخاء السابق فى صحار •• وقد كان هذا الفلج يمدها بالمياه فى العصور القديمة ، وهو عبارة عن بناء صخرى جيد يصله بسطح الأرض وادى الجزى القريب من حورا برجه — أو هضبة صحار كما نسميها — إلى الشاطىء بمسافة تبلغ من أربعة عشر إلى خمسة عشر ميلا ، وآثاره مازالت موجودة إلى الآن ، وقد لاحظت مثل هذا البناء بجوار جبل غرابة •

وصحار معروفة بين العرب بأنها الحصن المدافع عنهم ضد الفرس عام ١٧٤٣ بقيادة أحمد بن سعيد مؤسس أسرة آل بوسعيد الحاكمة الآن لعمان ، وليس فى المدينة ميناء أو مرفأ للسفن الوطنية •

وقد تم بناء مدخل قوى للقلعة التى تضم مقر إقامه الحاكم ، وهى عبارة عن سهل مربع ، وفى الطابق الثانى من القلعة يوجد ضريح السيد ثوينى بن سعيد ولكنى لم أره حيث كانت الحجرة قد تهدمت • ومن السطح شاهدت منظرا بديعا يحيط بالمدينة ، فهناك حزام من أشجار النخيل والحدائق والمزارع يحيط بشاطىء البحر لمسافة ثلاثة أميال ، بينما يرتفع السهل تدريجيا — فى الخلفية — حتى يتلاقى مع نهايات السلسلة لجبل الحجر • وقد بدأت فى الصباح وفى حوالى الساعة العاشرة زيارة المقر الريفى للإمام

مرورا بالعوهى ، على مسافة ثلاثة أميال ، وكان معى الشيخ راشد بن حامد الذى كان ولفترة سابقة حاكم البريمى ، والذى أختاره السيد بدر ليكون دليلى • ويأخذنا الطريق إلى وادى الجزى عند قدم التلال ، ونلاحظ فى الطريق جانبا من المدينة القديمة يغطى مساحة كبيرة من الأرض •• وتحدد أكوام الصخور البازلتية السوداء مختلفة الأشكال ما بين بيضاوية ومستطلية الشكل مكان السكنى ، بينما تظل أنقاض وأطلال الأبراج الدائرية على ارتفاعات مجاورة • وقد علمت أن المدينة كانت مزدهرة خلال الاحتلال الفارسى أيام الجاهلية ، وذلك قبل ظهور الإسلام فإن الله سبحانه وتعالى قد أصابها بالخراب لرفض الفرس الدخول فى دين الله الحق •

واسترحنا حتى تأكل الجمال فى سهلات ، وهى قرية صغيرة على بعد عشرة أميال ، وفى الملاينة وجدنا الوادى شديد الانحدار شديد الرياح حتى وصلنا الحيل ، وبالقرب من الملانية هناك قناة يبدو أن بناءها قديم للغاية ، وقد بناها الفرس قبل الإسلام ، وهى الآن تخص بنى غيث وهى مازالت مستخدمة حتى الآن وتمد قرية غوارق من فلج ماء على الضفة الأخرى ، وهنا أخذنا على غرة بعاصفة رعدية شديدة وتبللنا حتى الجلد وأصبح الطريق مقلقلا حتى إن الجمال لم تغامر بالسير فيه ، وكان من المستحيل إلا أدهش بجمال المنظر •• فالتلال الزرقاء الداكنة قد تلاقت مع الأودية والمجارى المائية العميقة مع سلسلة فوق سلسلة من التلال المنخفضة فى المقدمة ، والتى كانت أشعة الشمس تنشر أشعتها هنا وهناك • وبالقرب من موقعنا تقف كتل ثقيلة من السحب الداكنة •• وأخيرا وبعد الظلام وصلنا إلى بساتين سهيل ، وهى قرية تبعد ثلاثين ميلا عن صحار ، وهنا ضل العرب الطريق فى ذلك الظلام الدامس ، وارتبكوا بين قنوات الرى والحقول والنخيل حتى وصل الفلاحون لإنقاذنا وأوضحوا لنا المكان الذى نعسكر فيه تلك الليلة •

وفى اليوم التالى كان الرجال أسرع فقد عبرنا بعد ساعة رافدا متدفقا على الضفة اليمنى ، واسمه وادى السناد . وأعلاه تقع قرية بنفس الاسم ،

وعلى بعد عدة أميال نأتى إلى برج الشخيرى ثم إلى قرية أخـرى ثم فى شناص وبعد مسيرة ساعة ونصف نأتى إلى وادى الواسط ، وبعده وصلنا إلى قرية الخوريج حيث بساتين النخيل والزراعة الكثيفة تقـدم منظرا سارا بعد رحلتنا الطويلة خـلال التلال الكئيبة القاحلة ، ومن الخويرج مباشرة تأتى الحيل ، وهى قرية كبيرة أخرى •• والقريتان تشكلان معـا أعظم مكان استيطان قابلته بين صحار والبريمى • •

ويقع فوق شبه جزيرة صخرية مواجهة لقرية الحيل برج الدابى ، وهو برج قديم ، ربما كان علامة لحدود الاحتلال الفارسى قبل الإسلام ، وبالقرب من الحيل نجد رافدا آخر يرتبط بوادى الجزى ، وأعلاه يوجـد وادى عبيلة الذى يقودنا إليه الطريق الآن ، وهو يؤدى بنا إلى الجنـوب الغربى باتجاه قابل وسينينه• وعلى بعد عدة أميال قليلة من وادى الجزى على ماعلمت هناك ممر ضيق ، وهو على ما أعتقد الحـد بين الظاهرة والباطنة ، ونصل الآن إلى أعلى نقطة فى الرحلة يبلغ ارتفاعها ١٨٦٠ قدما حيث ترتفع قمم الجبال مؤقتا ، وعلى الجانب الآخر نصل بعد ساعة إلى وادى العين ، ونستمر عبر السهل إلى البريمى ، ويحـد الرقعة الفسيحة الممتدة أمامنا سلسلة جبال حفيت التى تبدو إلى الجنوب الغربى على مسافة عشرين ميلا •

وعند وصولنا إلى البريمى توجهت إلى منزل الشيخ سالم بن محمد الذى كان والده رئيس قبيلة النعيم ، ويقيم فى ضنك ، وفى صباح اليوم التالى ذهبت لزيارة الوالى الشيخ حامد الذى استقبلنى بحفاوة ، وجلسنا نتحدث بينما أكواب القهوة تدور ، وقد كان للشيخ كتف مخلوع بسبب سقوطه من على ظهر جمله منذ أيام قليلة قبل وصولنا ، وقد لاحظت أن جـدران الفناء قـد زودت بفتحات للرمى الخاص بالأسلحة الصغيرة ، وأن هنـاك بندقية حديدية قديمـة موجـودة بجوارها ، ونصفها مدفون فى الأرض ، بعـد ذلك ذهبت لزيارة الحصن حيث استقبلت بالتحيـة بإطلاق الرصاص •

وقد قام ابن أخت الشيخ حامـد ليشرح كل شىء فى الحصن ، وقد

كان فخورا وسعيدا ، وذلك لاعتقادهم بقـوة وأهمية الحصن الكبير • وقد كان الحصن على شكل مربع بنى من الطين أو الطوب الآجر وهو مكون من أربعة أبراج يحيط بها خندق عميق يبلغ اتسـاعه حوالى خمسة وعشرين قدما •• وجزء منه مرتفع للغاية يقابله جزء آخر بنفس الارتفاع ، بينمـا يبدو أن الأبراج تصل لنصف هذا الارتفاع ، ويبلغ طول كل جانب حوالى مائة وخمسين قدما ، أمـا الأسلحة فتتكون من ثمانى بنادق بأحجام كبيرة لايمكن استخدامها وبالقرب من البوابة الخارجية يوجـد مدفع من النحاس الأصفر كقطعة من أسلحة الميـدان ، عليه اسم السـيد سعيد بن سلطان ١٢٥٨ هـ / ١٨٤٢ م باللغة العربية والتاريخ ١٨٤٢ بالانجليزية ، وهـو واحد من المدافع التى أحضرها السيد سعيد من أمريكا بسفينته الحربيـة « سلطانة » وقد تم إحضاره إلى هناك من صحار عام ١٨٧٤ بواسطة السيد عزان بن قيس •

وينظر العرب إلى البريمى دائما على أنها فاتحـة الطريق من الإحساء ونجـد ، ويعتبرونها ضرورية فىموقعها القوى فى حالة حدوث أى غزو على عمان من ذلك الاتجاه •

واسم « البريمى » يطلق على مجموعـة من سبع قرى فى منطقـة يبلغ طولها أربعـة أميـال ، أهمها المدينـة الكبيرة الهامـة ، والبقية هى سـوار إلى الشمال ، والجيمى وقطارة وهيلى (إلى الشمال الغربى) والعين ومطارد إلى الجنوب الشرقى •• ويبلغ سكان تلك القرى ١٥ ألفـا وظروف معيشتهم متوسطة بصفة عامة فهم يعيشـون فى أكواخ من الحصـير ومن سعف النخيل ، وهناك القليل من المنازل المبنية بالصخـور ، وهم لايعتمدون على المطر السـنوى ، وهـو قليل ، ولكنهم يعتمدون فى رى حقولهم على نظم الأفلاج أو القنوات من التلال ، وكذلك من الآبار ، والمياه وفيرة وليست على أعماق كبيرة ولكل مستوطنة على الأقل واحد من هذه الأفلاج •

الجـــو ـــ وهى المنطقة التى تقع فيها البريمى وتشكل الجزء الشمالى الغربى من إقليم الظاهرة ، ويربطها بالجنوب جبل حفيت وبالشمال سمايل وبالغرب الصحراء • والقبيلة الغافرية المسيطرة هى قبيلة النعيم المنقسمة إلى قسمين رئيسيين : وشيخ القبيلة هو محمد بن على بن حامد ، والقبيلة الهناوية الأساسية هنا هى قبيلة بنى ياس الذين مارســوا سابقا الكثير من أعمال القرصنة ، وهم يشغلون قرى جيمى وقطارة وهيلى ، وكذلك وادى مسودى فى البريمى ، وشيخهم هو زايد بن خليفة ، الذى يقيم فى أبو ظبى ، والقبيلة الغافرية التالية فى الأهمية هى قبيلة بنى كعب التى يصــل تعدادها إلى ١٥ ألف نسمة ، وتشغل منطقة المحــدة التى تشمــل سلسلة الجبال والأودية فيما بين وادى الجزى ووادى حطاط ، ولهم عشرون قرية أكبرها ألمــاظة ، حيث يقيم الشيخ على بن سيف وقد زارنى هذا الشيخ •

وأول منطقة خلف الجــو هى بينونة حيث العوقة ، وهى قرية صغيرة يسكنها بنــو قتب ، وبعدها مباشرة تقع قرية الغافى التى يسكنها البدو المناصير ، حيث يوجد وادى دامس ، وهو من الأودية الكثيرة العشب ، وغير المــاء ويزوره البدو الرحالة بغرض الرعى ، وبعد هــذا يأتى الجافور أو الصحراء ، وهناك يظهر طريقان رئيسيان أحدهما يستخدم فى الشتاء والآخر فى الصيف ، والجزء الشرقى من هذا الطريق يستخدمه المناصير بنو ياس أمــا الجزء الغربى فيستخدمه المرا ، وليست هناك تلال فى هــذا الطريق وهناك واديان فقط : وادى الصقر ووادى الصحبة •

السبخة أو سبخة مطى كما يطلقون عليها أحيانا ـــ وهى عبارة عن واد جيرى داخل الخليج بين درجتى ٥١° طــولا و ٢٤° عرضا ، ويقال إن الجمال تضل طريقها وتغوص فى الطين فى بعض الأجزاء حيث المستنقعات ومناطق الرمال المتحركة ؛ والسبخة هى نفس المنطقة التى تحــدث عنها البطليموسى على حد قول سبرنجر ، ولكن اللفظة التى وردت على لســان البطليموسى كانت محرفة مما يقطع أن ذلك كان خطأ مطبعيا ، وهذا التحديد

هام لأنه تصحيح للفظة ، وحسب آراء الشيوخ وغيرهم من المطلعين الذين تحدثت اليهم فى هـذا الشـأن يجمعون على أن سبخة مضى هى الحدود الفاصلة بين عمان والأحسـاء ، وان هـذا التحديد متفق عليه منذ الأزمنة الغابرة • ومجمع الأمطار فى منطقة الرد واليمامة يقع على ما يبدو فى الجنوب الشرقى لوادى حنيفة ، وأن كل الأودية الأخرى تتجه فى مجراها إلى منطقة الروضة حيث تتجمع كلها فى وادى سبخة الذى يصب فى مياه الخليج فى أعـلا سبخة مضى ، وربما فى خـور الدون ، والطريق هنا ليست جافـة من المياه وإنمـا يمكن الحصول على ماء مالح منها بالحفر فى التربة • وإلى الجنوب من اليمامة بمسيرة ثلاثة أيام من الإحسـاء يقع الوادى الخصيب ، وادى بيرين ، والذى يقال إن بساتين النخيل فيه تمتد لعـدة أميال ، وفى وسط الصحراء خلف حدود نجد كانت توجد منطقة استيطان كثيفة السكان ، ولكن السـكان هجروها بسبب الملاريا وبعض الظروف غـير الصحيـة الأخرى ، ويقال إن البدو يلتقطون بعض العملات الذهبية بعد الفيضانات الثقيلة ، وأشجار النخيل تخص قبائل مرة والدواسر الذين يأتون إلى بيرين فى سبتمبر للحصـاد الذى يحملونه للبيع فى نجـد والإحساء ، ثم يعـود اليها البدو الرحالة بقطعانهم للرعى ، وقد اعتذرت عن عدم إمكانية أن أمد اقامتى فى البريمى حيث استقبلونى بحفاوة رغم أن هناك الكثير مما يستحق المشـاهدة ولكنهم احتجـوا بقـوة وانهالت الدعـوات لكى نبقى فترة أطول ، وقد عرض الشيخ سـالم بن محمد النعيمى أن يصحبنى حتى حدود الجـو ، وقـد قبلت الدعـوة بسعادة ، ووصلنا فى الثالثة ظهرا تاركين البريمى من نفس الطريق الذى أتينا منه وبعد عـدة أميال شاهدنا قمم جبال مخروصة على اليسـار ، وتضم أطلالا فارسية وكان الظلام قد حل عندما وصلنا الخروصى حيث كان علينا أن نعسـكر لتلك الليلة ، وحيث سيتركنا الشيخ سـالم •

وفى اليوم التالى ذهبنا إلى هيلى وتناولنا فيها الإفطار وبعد مسافة

ثلاث ساعات وعلى بعد أربعين ميلا من البريمى تنتهى هنا صحار •

وبمواصلة السير جنوب وادى الجزى وصلنا ، والليل يرخى سدوله ، إلى الغرابة التى تقع بقاياها القديمة على بعد ساعة ونصف ، والتى كنت قد قررت زيارتها ، وهذه الأطلال التى كانت لدى فرصة استكشافها كانت من أعظم الآثار التى يمكن وجودها حسب اعتقادى • والتل ليس مرتفعا ، وربما يصل إلى مائتين وخمسين قدما ، وفوق قمة التل القريبة هناك حصن يمتد على مسافة نصف ميل ، مازالت جدرانه موجودة على ارتفاع من قدمين إلى ست أقدام ، ويمكن ملاحظة السهل من المبانى فى أعلى مكان عبر صف الحصون ، وهناك بعض الأبراج الدائرية الصغيرة ومازال العديد منها واضحا رائعا ، وهناك مدفع صغير وصهريجان ، واحد منهما فوق القمة تماما ، وهو على شكل مستطيل ، والآخر بيضاوى الشكل ولكن أسفل التل ، وكلاهما صغير ، وإذا تم تنظيفه فإنه يمكن استخدامه ، وقد بحثت دون جدوى عن بئر أو صهريج يستخدم لتخزين الماء ، وإلى أسفل تلك النقطة العالية هناك قوس منخفض فى الجدار ، ولايبدو أنه كان البوابة ، وهناك قوس وبرج آخر أسفل ، ولكنه مصنوع من الصخور الموضوعة فوق بعضها دون استخدام الإسمنت •

وليس هناك شك ، حسب ما أعتقد ، فى تطابق جبل غرابة أو خلج السوق مع جيمستجرد الميناء العظيم فى أرجاء الجزيرة العربية فى القرن السابع ، ففى تلك الفترة وطبقا لما كتبه روس عن عمان أنشأ الفرس سواحل الباطنة من صحار إلى الرستاق ، وكان المرزبان أو الحاكم يقيم فى جيمستجرد كمركز للقوة بالقرب من صحار • وفى هذا المكان قابل رسل النبى محمد صلى الله عليه وسلم الحاكم ، وعند رفضه قبول الإسلام تم الاستيلاء على جيمستجرد ، وبالتأكيد كان لموقع وقوة جبل غرابة أهمية عظيمة فى تلك الفترة ، حيث كان يسيطر على كل الجزء الشمالى من الباطنة ، ويمكن رؤية عدد قليل من مساحات الأراضى المزروعة بالقرب من

تلك الأطلال ، أمـا السكان العرب فقد كانوا مشتبهين فينا • وعلى أية حال فقد نجحنا أن نطمئنهم ، وسرنا إلى مقر الشيخ ، وبما أننا كنا متأخرين فقد عدنا إلى السفينة بسرعة •

وفى اليوم الحادى عشر نزلت مرة أخرى ، ولكن تم نزولنا هذه المرة على الناحية الجنوبية من الجزيرة ، وكان علينا أن نشق طريقنا وسط طريق ضيق من خلال غابة طولها نصف ميل تقريبا • وترتفع الأرض ويزداد المستنقع بحيث حجبت القرية عن الأنظار ، ويوجد فيها نحـو ١٥٠ منزلا بيضاوية أو مستديرة الشكل مبنية من سعف النخيل والحصر ، ومشبكة بالحبال ، ولاتوجد فى القرية بيوت من الصخر ويجلب المـاء إلى القرية من مكان يبعد أربعة أميال إلى الشمال ، ويتم نقله داخل خزان ، وتقـوم الجـوارى بالأعمال وهن كثيرات هنا ، وقد تذوقت المـاء داخل وعاء من المحار فوجدته عذبا ولكنه غير نقى ، وكان الشيخ متحفظا معى فى الحديث ، ولكنى عرفت بعض المعلومات من قبائل حكمان والأمين فيما يختص بالقبائل ومجارى الوديان التى كانت تصب داخل البحر العربى أو البحر الحدرى كما يسمونه هناك ، ولايوجـد نخيل أو أشجار أخرى أو مزارع فى الجزيرة ورغم منظر الجزيرة اليابس فقد كان هناك حركة تبادل تجارى مع أدم والقوافل تصل باستمرار بحمولاتها من البلح للتصدير • وتتركز التجارة مع زنجبار ومسقط والمحاصيل التى تصدر هى البلح وزعانف الأسماك والأسماك المملحة والملح والسـلاحف •

إن الموقع المنعزل ماهوت يضفى عليها حصانة من هجمات البـدو ، ولاشك أن هـذا هو السبب الذى أدى إلى اختيار الجزيرة للاستيطان رغم عدم وجـود المـاء فيها ، وقد قال لى الشيخ ، إنه انفق أموالا كثيرة للبحث عن المـاء ، غير أنه لم يحصل إلا على ماء مالح • وكان كل العرب الـذين تحدثت إليهم مجمعين على أن تسمية المنطقة بغبة حسيس يعود إلى نمـو الأعشاب البحرية (الطحالب البحرية) وليس إلى الأعشـاب التى تنمـو

على الساحل ، رغم أن الأعشاب الطويلة تنمو بكثرة فى المناطق المجاورة وتشكل علفا للماشية من الإبل والماعز • وقد غادرنا ماهوب فى نفس اليوم ووصلنا مرباط يوم ١٤ • وقد حضر قائد الحصن وثلاثة مواطنين من جماعة الخوجا وذكروا بأن كل شىء على مايرام • ويبدو أن البيوت الحجرية معظمها مخازن ، وللشبابيك جوانب عريضة تحيط بها وقد بنيت لكى تقاوم غارات البدو •

وبعد الظهر توجهت أنا ولانج لزيارة ضريح السيد زبير بن عبد الله الهاشمى ، وكان الضريح متهدما وتاريخه قد محى ، وأبلغنى المواطنون الخوجا أنهم نزحوا من بومباى ، وأنهم يتاجرون بنجاح مع بدو القرا فى بيع الأرز والأقمشة والنحاسيات وغيرها ، ويبادلونها باللبان والصمغ والسمن ، وينقسم اللبان الذى يتعامل فيه البدو إلى ثلاثة أصناف نجدى ، ورسامى ، وديزونى ، والأول هو الأجود ، وتنمو بعض أشجار اللبان من على بعد ساعتين من هنا لكنها توجد بكثافة أكثر على المرتفعات ، والسواحل الصخرية فى مرباط تعج بالأربيان وجراد البحر والسرطان (الكابوريا) كما ذكروا لى أن البدو كانوا يسببون المتاعب فى الماضى غير أنه منذ أمر سلطان مسقط ببناء الحصن وزوده بحامية عسكرية صغيرة ، كف القرا عن خلق المشاكل •

زرنا ضريح محمد على ويبعد مقدار نصف ميل عن الحصن وهو بناء كبير ويحتفظ بجماله وعليه كتابة تشير إلى تاريخ ٥٥٦ هـ (١١٦٠ م) وتوجد منابع مياه قليلة بالقرب من المكان ويستمد أهل القرية حاجتهم منها •

كما ذهبت مع لانج لمشاهدة جزيرة الحلانية التى تبعد ١٩٩ ياردة من الشاطىء ، وفوق الجزيرة صخرة غير ثابتة غريبة الشكل ، وترتفع خمسين قدما عن سطح البحر وهى وعرة وانحدارية ، وعلى الحرف فى الأرض المقابلة توجد بقايا حصن لكن لا توجد عليه كتابة • وفى نفس ذلك الحرف

كهف ذو طابقين وربما تشكل بفعل تلاطم المياه عليه • وعمق الطابق الأسفل ٦٠ قدما وعرضه مائة قدم وعلوه ٨٠ قدما •

وفى مرباط التقيت بعلى بن محمد ، وهو شيخ يتميز بالذكاء الحـاد وكان مرشدا للسفينة باليموروس التى قامت بالمسح ، وللطراد جوبر سنة ١٨٥٤ وقد أرانى ورقة أعطاه إياها قبطان الطراد ، تشهد بحسن خدماته فى حماية أحد قادة الدفة وأحد البحارة ، وكان المواطنون العرب قد قبضوا عليهما أثناء مطاردتهم لإحدى سفن العبيد •

ومن مرباط سرنا الى صلالة حيث بلغناها فى الثانية بعد ظهر يوم ١٥ ونزلنا بعد ساعتين من وصولنا ، وسرنا أنا ولانج الى منزل الوالى ، ومنه الى الحفـا • وقد أخبرنى الوالى سليمان أن ثمة هدنة بينه وبين القـرا ولكنها لا تشمل بلدة طامة ، حيث لايزال فى عداء مع قبيلة المسنتى ، وفى آخر معركة نشبت قبل ثلاثة أشهر بين طامة ومنطقة المرتفعات قتل رجل من الطرفين •

والبقول التى تزرع هنا هى الذرة والمسيلو ، كما توجد مزارع كثيرة للقطن ، وقد شاهدنا أكواما من سمك السردين معروضة للجفاف قبل تقديمها علفـا للأغنام والمواشى ، ويتم تجفيف السردين بعد اصطياده فى أفران حتى يخرج منه الزيت ثم يتم تجفيفه داخل قدور وتخلط غالبا مع الجير ، وتفرش بها غلاف السفينة تحت المـاء •

عند عودتنا فى المساء وجدنا البحر هائجا واضطررنا الى الاستعانة بسفينة القرية لتوصلنا الى الطراد •

وفى اليوم التالى نزلت بمعية عدد من ضباط الطراد ، وكنا قد رتبنا رحلة صيد ، وبعد أن زرنا بيت الوالى تفرقنا وتوجهت أنا لمشاهدة الآثار

فى البلاد ، وأكبر منطقة أثرية وأهمها على سهل ظفار تغطى مساحة ميلين تقريبا بين الحفا ودريز ، وتبلغ مساحتها نحو نصف ميل ، ولاتزال أبراج الحصن والجامع قائمة فى بعض أجزائها ، ويمكن التعرف على سور البلدة ومبنى جماركها والخندق بوضوح • وقد قمت فى البداية بفحص الجامع ، وهو مبنى كبير له أعمدة مستديرة وخماسية ، ترتفع ثمانية أقدام ولهـا قواعد وتيجان ، ولايزال المحراب قائما والمدخل غير أن الشـاهد وهو كتلة كبيرة طولها ستة أقدام وتربيعتها نحو قدم ونصف قدم كانت ملقاة على الأرض ، ولايزال الخط الأول والأقل قيمة من الكتابة على اللوحة واضحا بما فيه الكفاية ، غير أن السطور السفلى قد تآكلت ، وقد طلبت قلب الكتلة وتنظيفها بالمـاء غير أننا لم نستطيع تبين تاريخها •

أما الجزء الغربى من هذه البقعة فهى مغطاة بأنقاض الجزء الأسفل وغير المسـور من المدينة القديمة ، غير أنها ليست ذات أهمية إذ أنها لا تضم بقايا معمارية أو نحتية ، ولمـا كانت الأحجار الجيرية التى بنيت بها المنازل قد اسودت بفعل الزمن فانها تبدو كئيبة وداكنة المنظر •

وإن الجزء الشرقى من المدينة والذى بنى على شكل مربع وهو الذى يضم الجامع ومبنى الجمارك فأنه أهم جزء وأكثر جاذبية ، وفيه رأينا اللوحات المنحوتة والأعمدة المنقوشة ونصوصا من القرآن الكريم وغيره من الأدلة التى توحى بوجود فئة متحضرة من الناس •

أما الحصون أو وسـائل الدفاع فتتكون من خنـادق واستحكامات ومتاريس على جوانب ثلاثة ، بينما تقف القلعة على ربوة ترتفع ١٠٠ قدم ، وتعرف حتى الآن باسم الهشم ، وهى مربعة بحوائط عريضة ، ولهـا بابان أو مدخل يطل أحدهما على الشرق ، ويطل الثانى على الغرب ، كما توجد بئر بعمق ٣٠ قدما على الجهة الشمالية الغربية ، ولاتزال أساسات مبنى الجمارك قائمة بما فيها المدفع المواجه للناحية الشرقية •

أما الخليج الذى يحمى المدينة من الجهة الشمالية والشرقية فهو على أية حال يستحق اهتماما خاصا ، إذ أنه مما لاشك فيه أن وجوده هو الذى حدد بموجبه الموقع الأصلى للمدينة ، ويبلغ طول الخليج مائة ياردة ، والماء فيه عذب جدا ، وهو الذى يستخدم لتزويد السكان بالماء • وعلى الجانب الغربى يوجد خندق بنى لأغراض الدفاع وهو يمتد من الخور الى البحر ، وخلف هذا توجد قناة يجرى من خلالها الماء لرى الحقول ، وعلى فم الخليج حاجز ، ولو أزيل هذا الحاجز أو السد فان الخليج سوف يصبح مرة أخرى مرفأ أو مرسى للسفن •

وليس ثمة شىء يمكن أن يساهم فى رخاء ظفار وازدهارها من بناء مأوى حقيقية للسفن ، نظرا لأن الميناء الحالى غير مأمون وحركة الموج فيه عنيفة جدا ، مما يضطر السفن الى التوجه الى مرباط ، وبالتالى فان حركة التجارة تعانى من الخسارة • ولقد أكد لى عرب هذه المنطقة بأن الزوابع التى عصفت على المكان قبل ٣٠ عاما سببت فيضانا عنيفا اكتسح معه الجمال والأغنام والماشية وألقى بها فى البحر ، وتمخض عن تهدم الحاجز وتخريب الخليج • كما أكدوا أن عملية الفيضان قد كشفت عن سلسلة حديدية متينة كانت ممدودة عبر الخليج أمام الجمرك ، وان تلك السلسلة اذا ما صدقنا الحكاية كان القصد منها حماية السفن الداخلة الى الخليج خلف مبنى الجمارك ولكنها كانت تلوث المياه العذبة فى الجزء الأعلى من المنطقة والذى كانت تستمد البلدة مياه الشرب منه • وكان الخليج مليئا بالأعواد وغيرها من المواد التى تسمى هناك بالكشط بينما الأعواد التى رأيناها تشبه الأعواد الموجودة فى خليج عدن • وحسب رواية السكان فان أسرة المنجويين هى التى أسست تلك المدينة ، وهى التى وصلت الى أوج قوتها فى القرن الخامس من الهجرة ، كما أنها الآثار الوحيدة المتبقية للاحتلال الأجنبى فى كل

السواحل الجنوبية أو الشرقية لشبه الجزيرة • وهى بدون شـك ليست من صنع العرب الذين لم تكن تسمح لهم بساطة أسلوبهم ونظرتهم غير الفنية بإبداع مثل تلك الأعمال الفنية والنحتية الرائعة التى شاهدناها فى منطقة البلاد بظفار ، وهى دليل واضح على وجود مدينة وميناء فى ظفار يأتى فى المرتبة الثانية بعد ميناء طاقه أو مرباط القديمة ، ولعـل تلك الآثار كانت موقعا لمدينة نشأت فى العصور البعيدة قبل وصول المنجويين الى المنطقة ، أما ما هو الاسم الذى أطلقه المنجويين على عاصمتهم فأمر مجهـول حتى الآن ، وقد طواه الزمن فيما طـوى •

وبعد مشاهدة تلك الآثار قمت بجولة عبر الناحية الغربية للمدينة ، فبدت لى تلك المنطقة خصبة جدا وفيها زراعة وفيرة • أما الآبار فقد كانت ضحلة المياه وكان يؤتى بالمـاء على ظهور الجمال التى كانت تقـوم بتلك المهمة فرادى وجماعات ، ويبدو أن الإبل كانت مدربة على تلك المهمة فقـد كانت تدور حول الآبار بغير قائد يسوقها أو دليل معها • ويوجد فى عقود تقبع على ناحية الشرقية ، أنقاض قرية قديمة تسمى أبلد ، والمنطقة فيما بين عقود وريسوت تسكنها قبيلة بنى سعيد •

وفى اليوم التالى ، وهو السابع عشر ، زارنى الشيخ أحمد الحداد ، قاضى دريز ، ثم خمسة من شيوخ الكثيرى كان أحدهما الشيخ بخيت ، وكان عجوزا ضريرا : ثم تبعه التجار الهنود الذين أدلوا بمعلومات عن تجارة ظفار • وأخبرونى بأن قبائل القرا عندهم اللبان وغيره من الأصباغ والجلود المدبوغة والسمن المادة الأولى وثمنه هو ثلاثة ريالات • وإن المنسوجات التى تستورد من الهند هى نوع من الأقمشة السوداء على الأغلب ، وان كانت كمية أخرى من الأثواب البيضاء تستورد أيضا ، أما ما عدا ذلك فلا توجد أقمشة أخرى ، وكان قيمة مجموع الوارد السنوى هو ٥٠٫٠٠٠ • كما يستورد الأرز والبلح أيضا • وقد قيل لى بأن رجـال الكثيرى على علاقة ودية مع الوالى ، وكانوا يدفعون ٢١/٢٪ على المحصـول •

أما البدو فانهم يدفعون ضريبة مقدارها ريال واحد عن كل خمسة جمال ، ويسلمون عنزا واحدة عن كل عشرين ماعزا ثم توجهت بعد الظهـــر لمشاهدة آثار رويات ووجدتها آثارا واسعة ، ولابد أن رويات كانت بلدا كثيف السكان كما تدل على ذلك كثرة المبانى والمداخل المطـلة على كل الاتجاهات ، كما رأيت بئرا مربعة كبيرة مبنية ولكنها جافة من المـاء • أما المقبرة فانها لاتزال تحتفظ برونقها ، اذا وضعت فى الاعتبار الفترة الزمنية التى قد تصل الى ألف عام ، واثنان أو ثلاثة من الأضرحة تخص المنجويين ، وكان أحدهما يحمل تاريخ ٤١١ هـ (١٠٢٠ م) أما أضرحة السلاطين اليمنيين فكثيرة ومألوفة وكان على أحدها رخامة عليها نقوش غاية فى الجمال ، وعلى أحدها صورة مصباح يتدلى من سلسلة بينما الآخر يحمل نقشا لثلاثة قناديل بالحفر • أما الجامـع القديم فلا يحمل تاريخ بنائه ، بينما الجامع الجديد مؤرخ فى سنة ١٢٣٣ هـ (١٨١٧ م) والمنطقة الواقعة بين صلالة ورويات قابلة للزراعة ، وفيها مزارع للقطن وتغطيها الأعشاب والتربة فيها خفيفة ورملية •

وفى يوم ١٨ نوفمبر حضر قاض دريز ، ولقد حاولت أن أعرف منه شيئا عن تاريخ البلدة ، فذكر لى أن سكان دريز يبلغ تعدادهم نحو ٢٥٠ نسمة ، وأنها من العواصم القديمة ، وقال بأن الشرفاء والسادة كانوا يشرفون على قطعان القرا ، وأما السهول فهى بين بين ، وان القضاة والمحكمون يتمتعون باحترام المواطنين باعتبارهم من رجال التقوى والورع • غير انه لم يبد أنه كان ملما بتاريخ ظفار ، غير أننى كنت سعيد الحظ بحصولى على مخطوط من الشيخ عبد الرحمن والذى كانت أسرته هى التى تمد المنطقة برجال القضاء لعدة أجيال ، غير انه لم يتنازل عنه إلا بعد مشقة كبيرة ، ورغم ذلك فقـد طلب ٢٠ ريالا • وبعد توزيع بعض الهدايـا أبحرنا الى مرباط حيث رسا الطراد لتمضية الليلة هناك •

يوم ١٩ نوفمبر :

بعد مغادرة مرباط مررنا بجنجلى وسدح حيث أيضا تعتبر خورا وقرية صغيرة ، وفى اليوم الثانى وصلنا الى الحلانية وهى أكبر جزر مجموعة كوريا موريا ، ، والجزيرة المأهولة الوحيدة بينها ، وسرت مع لانج الى أكواخ الجزيرة وكانت أكثرها بدائية ، كما كانت بيضاوية الشكل أو مستديرة بقطر ستة أقدام وبعلو ثلاثة الى أربعة أقدام ومبنية بأحجار غير مفكوكة وتغطيها سقوف من الحصر مثبتة على أعمدة من العصى وعظام الأسماك ويكاد لا يستطيع الانسان أن يجلس فيها مستقيما ، وفى هذه الأكواخ المتواضعة وفى بعض الكهوف يعيش سكان هذه الجزيرة معتمدين فى معيشتهم على الأسماك والمحار ولبن الأغنام وأحيانا يقايضون أسماكهم الجافة بالبلح والأرز مع السفن العابرة • وعدد السكان ٣٦ فردا ويتألفون من ٥ رجال وعشرين امرأة و١١ طفلا ، امرأتان منهم من قبيلة بنى خلفان وتعتبران ملكتا الجزيرة ، ورئيس الجزيرة هو حمد بن مبارك ، وهـو الشخص الوحيد الذى يتحدث العربية بينما يتكلم الباقون لغة المهرة ، وقد ذكر لى بأن السكان كلهم قد جاءوا من الساحل المقابل لمرباط وحاسك ، وكانت لديه أوراق كثيرة ، وقال ان عامل التلغراف ام • اج • نيكولاس قد أخذ معه جميع الأوراق عندما أقفلت المحطة سنة ١٨٦١ وهم يصطادون الأسماك بالسنارة ، وليست لديهم قوارب أو زوارق أو شبكات • وتوجد بالجزيرة ثلاثة أو أربعة آبار ، كما توجد على الجانب الشرقى من الجزيرة أنقاض مدينة مما يعنى أن سكان الجزيرة كانوا أكثر عددا فى الماضى ، وقد شكا حمد بن مبارك من سفن العرب التى كانت تصل من ساحل القراصنة ، وعلى الأخص من دبى وعجمان ، وكانت تعتدى عليهم وتنهب ممتلكاتهم • وكان بالجزيرة نحو ٢٠٠ الى ٣٠٠ رأس غنم ، بعضها كان متوحشا جدا ، بينما القسم الآخر كان فى رعاية النساء والأطفال ، وقد سر سكان الجزيرة مما حصلوا عليه من هدايا السكر والأرز والتبغ والأقمشة القطنية •

وفى صباح اليوم الثانى والعشرين كنا نسير غير بعيد عن رأس شربيتات ، وكان البحر مضطربا تقريبا ، وكان الطراد يجرى بسرعة أربعة عقدة فى الساعة فى اتجاه ريح وتيار لايزال ضدنا ، وكانت منطقة شربيتات تعتبر الحدود بين قبيلتى المهرة والجنبة ، وفى الساعة الثامنة من يوم ٢٧ وصل فيلوميل الى مسقط .

وفى العام التالى وبعد أن وافقت حكومة الهند على تقديم الهدايا الى سلطان كشين وغيره كتقدير على تكريمهم لبحارة الطراد إيرى الذى تحطم بالقرب من رأس فرنك غادرت مسقط متوجها الى ذلك المكان على ظهر الطراد دراجون ، والذى تفضل قائده الكابتن إيسون بتوصيلى يوم ١٠ ديسمبر ١٨٨٤ ، وعند رسو السفينة فى كشين ، يوم ١٥ خرجنا أنا والكابتن إنسون الى منزل على بن عبد الله بن سالم بن طوارى العفرير ، وقد استقبلنا بطريقة مهذبة وبعد أن شكرنا على الحماية والمعاملة الكريمة التى لقيها منه بحارة السفينة إيرى ، وقد قدمت اليه الهدية التى جئت بها اليه ، وهى خنجر مرصع بصقاع ذهبية وغيرها من الأشياء . وقد أجاب سلطان أنه سر جدا بأن عمله قد لقى الاستحسان والتقدير من الحكومة ، كما ذكر بأن منطقة نفوذه تمتد ساحليا من مسينات الى رأس ضربة على . ووعد بأن البحارة الأوربيين الذين تتحطم سفنهم سوف يلقون الأمان وحسن الضيافة لدى أهل الجزيرة . كما بدا لنا الشيخ أنه واهن وعاجز ولا يستطيع التحدث بالعربية ، وكان هناك قاض مسن هو الذى يتحدث نيابة عنه ، وكان الحاكم الفعلى للجزيرة . أما عبد الله بن محمد الذى سبق أن أنقذ بحارة إيرى فوصل الى الاجتماع وأخذ فى تقبيل الحاكم وغيره من الأعيان بطريقة حك الأنف .

أما كشين فانها جزيرة نائية فيها نحو ٢٠٠ بيت من الطين شيدت فوق الرمال كما أن فيها عشرة مساجد بعضها فيه مغارات . أما المواد الغذائية

فمعظمها يأتى الى الجزيرة من بومباى فى الهند ومسقط ، غير انه لا يوجد فيها تجار هنود وأهم صادراتها اللبان والمر والماشية والأسماك •

الثلاثاء ١٦ ديسمبر :

تحركنا فى الساعة الخامسة والنصف صباحا ، ووصلنا سيحوت فى العاشرة وقمنا بزيارة الحاكم الشاب سعد بن سالم الذى كان يتولى السلطة فى البلدة أثناء غياب الحاكم الأصلى ، وهو محمد بن عمر ، والأخير هو نجل آخر حكام أو سلاطين كشين عمر بن طوارى ، والذى سبق أن زاره الكابتن هينز ، وبما أنه كان صغيرا جدا أثناء وفاة والده فقد انتقلت السلطة الى على بن عبد الله السلطان الحالى •

أما سيحوت فانها بلدة كبيرة غير منظمة تحوى ٢٥٠ منزلا ونحو ٢٠٠٠ نسمة من السكان معظمهم من الزنوج • وفيها مساجد كثيرة بمناراتها ، كما أن الماء فيها متوافر وجيد ، وهناك أحواض كثيرة ليأخذ السكان حاجتهم من الماء ، ولاحظت وجود موازين عمومية فى السوق ، حيث يتم وزن وبيع اللبان والنيلة ، ويوجد فيها ٤ هنود من مدينة كتش فى الهند يزاولون التجارة ، وصادراتها اللبان والسمك المملح القديد ، والذرة وزيت السردين وزعانف السمك ، بينما الواردات متنوعة لأن سكان وادى مسيلة يتزودون من سيحوت •

ومن سيحوت تحركنا غربا لبضعة أميال لمشاهدة وادى مسيلة ، وكان مظهره متواضعا أكثر مما توقعت ، وكانت الضفة الغربية منه أكثر ارتفاعا من الضفة الشرقية ، كما أن الخريطة لا تبين سلسلة الجبال بوضوح •

وفى القرن الثانى بعد الميلاد عندما وقعت هجرة الى عمان من اليمن ،

سلكت الدفعة الأولى من المهاجرين الأزد من مأرب عن طريق وادى مسيلة فى القوارب التى نقلتهم الى قلهات والتى منها خرجوا الى وجهتهم ، ويذكر روس فى مؤلفه « تاريخ عمان » أن الميناء الذى ركبوا منه هو ريسوت ، غير أنه مما لاشك فيه أن ريسوت كانت هى المقصودة ، وبعد تغيير الاتجاه تحركت دارجون نحو رأس فرتك الذى توجد على جانبه الغربى قرية صيد صغيرة اسمها قصد أو خصد ، وكان سفن زنجبار ترتاد هذا المكان سابقا لإنزال شحناتها من العبيد الذين يصدرون الى أسواق حضرموت ، وتقع فى الداخل نحو خمسة أميال • وقد نزلت فى خصد داخل مركب من نوع السمبوك وتوجهت الى منزل الشيخ • وهذه القرية فقيرة جدا ولا يسكنها أكثر من خمسين نسمة رغم أن العديد من السفن الكبيرة يرسو فيها •

وتحت بروز رأس فرتك نتوء يسمى الهشم وهى بقايا قلعة قديمة ، ومن فوق ذلك النتوء يمكن التعرف على مواقع المنطقة ، وتوجد صخرة هائلة كانت قد سقطت من أعلى الجبل وتسمى محرم • وإن رأس فرتك هو أبرز وأهم موقع طبيعى فى الساحل الجنوبى من شبه الجزيرة العربية ، وعلى الجانب الغربى ترتفع سلسلة الجبال تدريجيا ، والسلسلة التى تقع وراء السهل الساحلى لكيشين تنتهى فجأة عند النقطة التى يدور فيها الساحل بصورة فجائية نحو الشمال ، ويشكل فى اتجاه الشرق خندقا عموديا ارتفاعه ٢٥٠٠ قدم وطوله ستة أميال ، بحيث يرتفع الخندق الساحلى فى شكل عمودى من البحر نحو القمة ، وعلى الرغم من أن المنحدر على ما يبدو ناعما إلا أنه فى الواقع يكون سلسلة من المضايق والممرات تتساير مع طبيعة الأرض التى هى أفقية ، ولكنها عموما ذات منحنيات ، والجزء الرئيسى فى هذا البروز تتخلله أو ترصعه كهوف عديدة يقطنها رجال قبائل القرا الذين يعيشون بالكاد على صيد الأسماك ، واذا انحدرنا الى الممرات والأجزاء البارزة نجد مجموعة من الصخور التى تبرز الى داخل البحر ، وهو موقع

خطر وان الكثيرين على ما يبدو يهلكون بالسقوط الى البحر تحت السلسلة ، وفى الليل تضفى الأنوار التى يستخدمها أهل الجزيرة منظرا فريدا على المكان ، وهى الدليل الوحيد على وجود جماعات تستوطن هذا المكان نظرا لأن الكهوف لا تظهر فى النهار •

وفى نشتون حيث رسا الطراد فيما بعد ، قابلت أحد رجال سالم بن مبارك وهو نفس الرجل الذى أنقذ وقدم الطعام لبحارة « اس • اس • سايث أوف باث » فى شهر يونيو سنة ١٨٨٣ بالقرب من رأس صوقرة • ولقد أعرب هذا المواطن عن عميق شكره على المعاملة الكريمة التى لقيها من رجال الطراد واهتمامهم به عندما قابلوه فى بومباى ، معقبا على أنه بعد أن كان صيادا فقيرا أصبح الآن تاجرا وعمدة للقرية • ثم تأكدت فيما بعد أن قصة ثراء سالم بن مبارك قد انتشرت على طول الساحل ، ويمكن التوقع بأن الموقف الذى اتخذه بشأن هذه المسألة وبشأن الطراد ايرى قد يكون له تأثير على تشجيع العرب لتقديم المساعدة الى الأوربيين الذين قد تتحطم سفنهم على السواحل العربية وكسب صداقتهم • أما الطراد ايرى فيبدو أنه ارتطم بساحل أو شعب بالقرب من خليج نشتون ثم انحرف الى عمق البحر فيما بعد ، غير أن التغليفة النحاسية لسلندراتها كانت لاتزال ظاهرة • وقد أخبرنى سالم بن مبارك بأنه لم يكن موجودا فى نشتون عندما تحطم المركب • أما محمد وموسى الرئيسان فقد تسلما هداياهما فى نفس الوقت الذى تسلمها فيه الشيخ عوض شيخ ضحيوت وكان قد قام بإيواء بحارة الطراد بعد أن غادر الأخيران نشتون •

ويوجد فى ضحيوت حيث رسا الطراد لقضاء الليلة مبنى كبير مربع أو حصن وهو المكان الذى أقام فيه البحارة أثناء وجودهم ، والقرية صغيرة ولكنها مزودة بالمـــاء •

وفى يوم ١٨ ديسمبر : تحركنا نحو دمكوت ، وهى قرية بها مائة كوخ

وتقع على مدخل أحد الجروف ، ويسمى شويقه ، وتوجد أيضا بحيرة تستمد ماءها من مياه النهر غير أن الماء ليس عذبا فى الجزء الأسفل من المكان • ولقد اصطحبنى إنسون الى الشاطىء وسرنا الى بيت الشيخ ، ولكن ، الشيخ أو المقدم لم يكن موجودا هناك ، وكان نائبه رجلا هرما وعاجزا ، ولكنه قال لنا بأنه يتذكر زوارق « يالينوروس » التى كانت تقوم بأعمال المسح على الساحل ، غير أنه لم يشاهد سفينة فى دمكوت بعد ذلك ، كما أن أحدا من رجاله لم يشاهد باخرة من قبل • وقد سلمنى الشيخ قائمة بأسماء قبائل المهرة ، والطريق من غيثه الى تريم ، والمقبرة قديمة وتقع فيما بين البحر والبلدة وكبيرة ، ويعتقد انها تعود تاريخها الى ما قبل الإسلام ، وفيها حركة تجارية محدودة ، غير أن أهلها فى فقر مدقع ، ولا يملكون إلا قليلا من الجمال والأغنام والأبقار وصادراتها السمن الطبيعى وزيت سمك السردين واللبان •

وبعد أن مررنا برأس شجر أو الشجر الذى يشكل الحدود الجنوبية لحدود سلطان عمان ، وصل الطراد دراجون صلالة وألقى مرساته فيها يوم ١٩ ديسمبر ١٨٨٤ • وقد نزلت الى الشاطىء بصحبة انسون لمقابلة الوالى الذى ذكر لنا أنه الآن يعيش فى سلام مع فخور زعيم القرا وبأن هذا الزعيم قد سدد كل ما عليه من مستحقات ، وفى حينه لم يكن أحد من التجار الهنود موجودا فى المدينة حيث كانوا قد توجهوا الى مرباط فى مهمات تجارية ، ولهذا ذهبت مع انسون لمعاينة آثار البلاد وتصويرها ، وأخذت معى ثمانية أفلام تم طبعها فى مسقط فيما بعد • ولقد قمت بفحص المقبرة للعثور على أضرحة المنجويين غير أننى لم أعثر على شىء • وكثير مما فى هذه المقبرة يعود تاريخه الى القرن الثانى عشر الهجرى ، غير أنه لم يبق أثر لأضرحة أى من المنجويين أو الحبوضيين على ما يبدو •

وغادرنا صلالة فى نفس المساء متجهين الى دريز حيث نزلت إلى الشاطىء فى اليوم التالى ، وقد قابلت هناك القاضى السابق سيد أحمد .

الذى أدلى الى ببعض المعلومات عن القرا والسامّريين ، فقد ذكر بأن السامرى كان كافرا فأســـلم ، وأن البركة تعود اليه فى المطـــر الذى هطل على ظفار لأول مرة ، أما قبل ذلك فإن ظفار لم تعرف ماء السماء ، ولهذا فقد أصبح قبره مزارا للناس ، ويحج اليه كافة الناس من مختلف الفئات والمستويات الاجتماعية ، وقد أضيف اسمه فى سجل أسماء الأمراء والعلماء ، كما أن الناس يتوسلون له ليدعو رب العباد عندما تكون الأرض فى حاجة ماسة الى الأمطـــار •

ويقع ضريح السامرى فى مكان يبعد نحو نصف ميل من البحر ويحيط به ســـور غير مسقوف وحجم القبر ١٨ قدما فى ٤ أقـــدام ويقـــع على الجبهتين الشمالية والجنوبية ، وتعلوه صخرة سوداء (شاهد) من الجير أو البازلت الأســـود ، والكتابة عليه غير واضحة ، وتاريخ الضريح الذى يقع فى الجزء الأسفل منه قد انمحى ، بينما يوجد أسفل الضريح تجويف أو فتحة للمصباح الذى يستمر مضيئا طوال العـــام عن طريق المريدين ، وقد تهدم سقف المبنى منذ سنوات عديدة ، غير أنه فى العام الماضى رأى أحد العبيد واسمه سعيد ، وليا فى منامه حـــذره بأنه اذا بقى الضريح مكشوفا ومعرضا للشمس فان البلاد سوف تصاب بالقحط ، ولهذا فقد افتتح الأهالى اكتتابا ثم بموجبه جمع بعض المال وأجريت بعض الاصلاحات للضريح ، غير أن تجديد السقف كان يتطلب مالا أكثر لم يكن متوافرا • ولعل أوفى معلومات عن هذا الوالى والذى يعتبر ضريحه المزار الأكبر ، هى التى وردت فى مؤلف دبليو لوجان بعنوان « مليبار » وانه لمن المهم إعطاء صورة عن هذا الحادث الذى اقترن بقصة اعتناق الســـامرى للإســـلام •

فقد رأى الملك شاريمان بيريمبل آخر ملوك كرانجانور رؤيا فى احدى ليالى اكتمال البدر ، وأنه عندما وصل البدر فى مجراه الى منتصف الســـماء

انشق الى نصفين فنزل أحد النصفين الى سفح الجبل حيث عاد الجزءان ، فالتقيا ، وواصلا جريانهما ، وبعد ذلك رست احدى سفن الحجاج المسلمين والتى كانت قادمة من الخليج الى سيلان فى مدينة كرانجانور ، وعندما استقبلهم ملك البلاد روى أحد الحجاج ، ويدعى الشيخ سراج الدين ، قصته للملك مما دعاه الى اعتناق الإسلام، وعند مرور هذا الشيخ بكر انجانور فى طريق العودة طلب منه الملك إعداد سفينة للقيام برحلة وبعد ثمانية أيام ركب الملك السفينة ومعه الشيخ ومرافقوه متوجهين الى الشحر على الساحل العربى ، ومن الشحر توجه الملك بارتمال الى ظفار حيث استقر هناك ، غير أنه بعد مضى بضع سنوات قرر العودة الى بلاده ليجعل أهله يعتنقون الإسلام غير أنه أصيب بداء قاتل فمات ، ولكنه قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة حث مرافقيه ، ومنهم مالك بن دينار وغيره ، أن ينفذوا وصيته ويقوموا بالتبشير للإسلام فى ملييار •

وقد تأكدت تواريخ هذه الوقائع على ما يبدو ، فالمعروف أن الملك شاريمان باريمال غادر الهند فى سنة ٢١٠هـ (٢٥ أغسطس ٨٢٥ م) وأقام فى الشحر عامين ثم وصل ظفار فى سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) وتوفى فيها سنة ٢١٦ هـ (٨٣١ م) • وكما يقال فان هذا الملك قد تسمى باسم عبد الرحمن بعد وصوله الى الشحر ، وتعنى لفظة السامرى « العجل » وتطلق على عباد البقرة ، ولعلها اقترنت بباريمال بحكم كونه هندى الديانة قبل اعتناقه الإســـلام ، كما أنها اختلطت بلفظة زامررين ، وهو اللقب الذى أطلقه البرتغاليون على ملك كاليكوت ، غـــير أن اللفظة الأخـــيرة مشتقة من السنسكريتية •

ومن دريز توجهنا الى طاقة حيث نزلت الى الشاطىء فى أحد القوارب الساحلية وقابلت سيد عبد الله شقيق الشيخ سيد علوى الذى كان متغيبا فى الجبل ، وأن جد هذين الزعيمين هو أبو بكر الذى نزح من عينات فى

حضرموت ، وكان عدد بيوت طاقة عند وجودنا ٤٠ منزلا وسكانها ٢٠٠ نسمة ، غير أنها على ما يبدو كانت تتدهور ، وكان يستولى عليها البلى ، ولم أتمكن إلا من إلقـــاء نظرة عابرة على الخلجان والأنقاض القديمـــة المجاورة ، وأسفت على أن الوقت لم يسنح لى بفحصها بصورة أوفى • والخلجان هى خور طاقة وسيف ، وريرى والأخير أكبرها جميعا ولعله فى الأزمنة الغابرة كان يشكل مأوى للسفن والملاحة • وقبل أن نغادرها اغتنمت الفرصة لمعاينة أقدم وأهم ضريح فى المدينة ، وهو ضريح الوالى السيد عفيف ، وكان يعتبر من الأولياء ، وعلى الشاهد تاريخ عام ٣٠٩ هـ (٩٢١ م) ولكن الضريح كان قد انشق إلى نصفين وتم اصلاحه بربط الجزءين بحبـــل •

وكانت محطتنا التالية هى مرباط حيث رسا الطراد بنا فى الساعة الثانية بعد الظهر ، وبعد استقبالنا للقائد البلوشى والتجار الهنود توجهت مع انسون الى الشاطىء لمشاهدة أنقاض القلعة القديمة التى بناها القرصان محمد عقيل سنة ١٨٠٦ ودفن فيها وقد التقطت صورا للمدينة ولمجموعات من السكان المهرة ، وفى مرباط وجدنا الشيخ يحبح شيخ نشتون الذى كان غائبا أثناء وجودنا فيها ، ولقد انتهزت الفرصة لأشكره على موقفه الإنسانى بخصوص بحارة الطراد ابرى ، وقد عملنا ترتيبات مع شيخ القرا محمد بن بخيت ليوفر لنا بعض الجمال للقيام برحلة قنص ، وربما يبلغ عدد سكان هذه البلدة نحو ٣٠٠ فرد ، ولمـــا كنا قد نجحنا فى الحصول على بعض الشتلات لشجيرات اللبان فقد أخذتها معى لكى أغرسها فى مسقط ، وكانت الشتلات لاتزال فى طور النمو عندما غادرت مسقط بعد ذلك ببضع سنوات •

الثلاثاء ٢٣ ديسمبر :

تحركنا من مرباط وبعد عبورنا خور حمسه أو حماسه الى وزاس كوكرى ، أو حنجرى على بعد عشرين ميلا لحنا رأس نوس حيث يوجد

قبر النبى هود أو قبر صالح بن هود، وأن التشابه بين هذا الاسم واسم الجبل الأكبر جبل حبروت يؤكد الفكرة القائلة باحتمال اشتقاق أحد الاسمين من الاسم الآخر • ولعل اسم الجبل قد يبرهن على قصة قبر ذلك النبى أو ربما كان لفظة جروى تحريفا لقبر هود •

ان الساحل بين رأس مرباط وحاسك غير مأهول وقد تحولت بلدة حاسك القديمة الى أنقاض وآثار • ولقد لمحنا بعض الأفراد يختبئون بين الصخـــور غير موافقين على الخروج ولكنهم أخيرا خرجوا ، وقالوا انهم من قرا المشاعنة ، وأنهم كانوا يرعون بعض الجمال والأغنام إلا أنهم لم يستطيعوا أن يدلوا بأية معلومات عن تاريخ المكان فيما عدا أن القراصنة قد اجتاحوه ، وأخذوا النساء والأطفال عبيدا • وكانت الآثار التى أشرت اليها على الضفة الشمالية للوادى على بعد ميل من البحر • كما أن معالم البلدة لم تكن تحيط بها أسوار وكانت لاتزال واضحة ، والمنازل صغيرة ومبنية من الحجر الأسود ، والمبانى التى لا تزال باقية هى مبانى المساجد ، ودكان لأحـــد الصاغة ، وقد قام العرب بتحديد تلك الأمكان لى ، كما كان هناك برجان مستديران للمراقبة ، وقد أقيما فوق قمتين كل منهما على أحـــد الضفتين وتطلان على البلدة ، غير أننا لم نعثر على ماء عذب بالقرب من الأطلال • ويقع سوق البلدة قريبا من الشاطىء فى رأس حاسك وذلك لقربه من مرسى السفن والميـــناء •

وفى جزيرة الحلانية التى نزلنا فيها من بعد ، نزلت والكابتن انسون ولكننا وجدنا الأحوال لاتزال كما هى عندما زرناها سابقا فى سنة ١٨٨٣ ، وقد تجمع الناس لتقبيل الأيدى ، وقد تعرفوا على أولئك الذين جاءوا من قبل على الطراد فيلوميل ، ولم يقدموا لنا أية شكاوى ، وقالوا ان عرب الخليج قد كفوا عن إيذائهم منذ السنة الماضية ، غير أن عدد السكان قد تناقص الى النصف ، ولم يبق فيها غير خمسة رجال واثنى عشر ولدا وسبع عشر سيدة • وقد طلب الرجال منى سنارات لصيد السمك ، وقالوا بأن

التى يستعملونها لصيد السمك عندهم مصنوعة من عيدان الأكاسيا وتسمى جاجور وذكر لى إنسون إنه عد ٢٠٠ قبرا فى المقبرة القديمة • وفى الظهيرة عدنا الى الطراد ، وأقلع بنا الى رأس قرقاو ، الذى وصلنا اليه فى الساعة الرابعة مساء ، وقد جاء الناس لا ستقبالنا على الشاطىء وكانوا فى غاية الود ، وقالوا بانهم كانوا يرقبون بين الصخور اقترابنا ، وكانوا يأملون أن تتحطم سفينتنا فيستطيعون نهب محتوياتها ، إلا أن أملهم خاب عندما رأوا السفينة سالمة لم يصبها شىء ، وسكان هذه المنطقة كلهم من الجنبة ، وذكروا بأنهم دائما يأتون الى هذا المكان فى فصل الشتاء ويعودون شرقا عند اقتراب موسم الحصاد ، وهم يدينون بالولاء لزعيمهم سيف بن حمد • وكان عدد كبير من المهرة والعوامر ينتقلون فى المنطقة الداخلية غير البعيدة عنا ، غير أن حدود المهرة المعترف بها هى رأس الشويمية كما ورد فى الخريطة غير أن هذا الاسم غير معروف للبدو •

ويوم عيد الميلاد ٢٥ ديسمبر عدنا الى الشاطىء وتحدثت مع زعيم الجنبة الذى سلمنا قائمة بالأماكن الواقعة فيما بين ريخوت ورأس مدركة ، وقال إن هناك واديا كبيرا يسمى وادى عنينة شرقى سفيره الذى يتدفق نحو الغيزة التى لا تبعد كثيرا عن العنيزة حيث تم انقاذ بحارة نايت أوف ذى باث • وقد أجابنى شيخ الجنبة على سؤال وجهته اليه بأن الحسينة لا يتعدوا غربا رأس حاسك ، ويمتد وادى عنينه مسيرة ثلاثة أيام ويلف فى اتجاه الغرب ، ووراءه سلسلة من المرتفعات المنخفضة • وبعد الظهر تجولت مع إنسوى حتى وصلنا بحيرة لقيت التى تمتد ميلا واحدا طولا ، وتستمد مياهها من وادى غزالة وماؤها مالح فى جزئه الأسفل والبحيرة مليئة بالأسماك التى يتغذى منها كثير من جنود مالك الحزين والغاقة والطيور المائية •

* * *

الفهـــرست

الموضـــوع	الصفحة
مقدمة ، بقلم ج • ب • كيلى •	٥
الفصل الأول :	
الاستيطان فى شبه الجزيرة العربية	١٥
الفصل الثانى :	
عمان • الخليج فى ظل الإسلام •	٤٩
الفصل الثالث :	
البرتغاليون فى شرقى شبه الجزيرة العربية	١٤٥
الفصل الرابع :	
أسرة اليعاربة	١٩٧
الفصل الخامس :	
ــ أسرة آل بوسعيد	٢٢٣
ــ الصراعات تتوالى فى المنطقة	٢٤٢
الفصل السادس :	
ــ قبائل الخليج ــ أصل القبائل	٢٤٧
ــ تقسيم القبائل •	٢٤٩
ــ الشيوخ	٢٥٠
ــ قبائل عمـــان •	٢٥١

الموضـــوع	الصفحة
الفصل السابع :	
ـ تاريخ تجارة الخليج •	٢٧٥
ـ لمحـة عن التجارة العربية •	٢٨٥
الفصل الثامن :	
بناء المراكب والسفن •	٣٤١
الفصل التاسع :	
جزر كوريا موريا والمناطق الشرقية والجنوبية لاشرقية لشبه الجزيرة العربية •	٣٤٧
جزر كوريا موريا •	٤٠٣
الفصل العاشر :	
تاريخ ظفار وجغرافيتها ـ وصف لظفار والبريمى	٤٠٧
ـ جرافية ظفار •	٤٢٥
ـ زيارة إلى الأشخرة عام ١٨٧٤ م	٤٣١
زيارة قلهات سنة ١٨٧٤ م	٤٤٠
زيارة البريمى ١٨٧٥ م	٤٤٣

رقم الإيداع ٨٣/٤٣٢٥



٦ شارع البرامونى- عابدين- القاهرة ت: ٩١٤٨٨١